وثائق ونصوص

فـــــى

١-تاريخ الدولة العلية العثمانية

٢-تاريخ مصر العثمانية

جمعها وقدم لها

دكتور/ عبد المنعم ابراهيم الجميعى

أستاذ التاريخ الحديث

مقدمـــــــــة

لكل عصر من العصور التاريخية مصادره ووثائقه التى تبرز من خلالها أحداث هذا العصر وطبيعته وظروفه . وتاريخ الدولة العثمانية يزخر بالعديد من النصوص والمصـــادر والكتابات الوثائقية . وقد حرصنا خلال تجميعنا للوثائق والنصوص الواردة فى هذا الكتاب ان تشمل الموضوعات التى تتسق مع تدريس منهج تاريخ الدولة العثمانية لطلاب قسم التـــاريخ، ومنهج مصر العثمانية لطلاب قسم الجغرافيا بكليات الآداب بالجامعات المصرية.

والهدف من جمع هذه الدراسات هو تعريف الطلاب بوثائق ذلك العصر وبمـــا كتبـــه السلف من المؤرخين والباحثين سواء كانوا مصريين أو أجانب عن تاريخ الدولة العثمانية تلك الدولة التى رفعت راية الاسلام لفترة تزيد عن الستة قـــرون واســـتطاعت ان تفـــتح الجـــزء الجنوبى الشرقى من أوربا ، واكتسحت العديد من الدول الاوربية واقتربـــت مـــن مشـــارف العاصمة النمساوية فينا والتى تعرضت للعديد من حملات التشهير عبر مسيرتها الطويلة مـــن المؤرخين والباحثين الاوربيين وغيرهم .

وحول الموضوعات التى شملها هذا الكتاب فالوثائق التى يتعرض لها فـــى معظمهـــا أصلية محفوظة بدار الوثائق القومية وبعض دور الوثائق العربية، اما بالنسبة للنصوص فقـــد حرصنا على الاشارة الى اسماء مؤلفيها وكتابها والتعريف بهم وفاء لحقهم وجهـــودهم التـــى بذلوها لخدمة البحث التاريخى والكتابات التى رجعنا اليها هى "قصـــة الحضـــارة" للمؤلـــف الامريكى دل ديورانت "والامبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية" للمؤرخ الروســـى انينـــل الكسندو فنادولينا، و"قيام الدولة العثمانية" للمؤرخ التركى محمد فـــؤاد كـــوبريلى ، "وتـــاريخ سلاطين آل عثمان" للكاتب اللبنانى المولد يوسف آصاف ، "ومحمد الفاتح" لســـالم الرشـــيدى، "وبدائع الزهور فى وقائع الدهور" لمحمد بن إياس الحنفى، و"الدولة العثمانية دولـــة اســـلامية مفترى عليها" للدكتور عبد العزيز الشناوى ، "واسباب خلع عبـــد الحميـــد الثـــانى" للباحـــث الفلسطينى يوسف حسين (جامعة اليرموك).

وفى النهاية نأمل ان يكون فى دراسة هذه الموضوعات الإفادة المنشودة لطلابنا فـــى مرحلة الليسانس .

والله ولى التوفيـــــق،،،،،

أولا: الوثائـــــق

الوثيقة وأهميتها التاريخية

الوثيقة في اللغة العربية لفظ عام محدود المعنى ، لم تعطه المعاجم العربية القديمة والحديثة على حد سواء ما يستحقه من شرح وتعريف بالمراد منه . وقد يكون القدامى ، من اللغويين معذورين فى ذلك ، لأن علم الوثائق لم يكن معروفًا لديهم حينذاك أو على الأقل لم يكن معروفًا لديهم بهذا الاسم[١] « ومن هنا جاء تعريف الوثيقة فى معاجم اللغة على أنها مؤنث الوثيق ومعناه المحكم أو ما يحكم به الأمر ، ويقال أخذ بالوثيقة فى أمره بمعنى بالثقة »[٢] « واسم التفضيل من هذه الكلمة هو الأوثق ، والمؤنث منه وثقى »[٣] « وقد جاءت هذه الكلمة فى سورة البقرة فى قوله تعالى { فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم }[٤].

ونتيجة لهذا التعميم فى توصيف الوثيقة فقد اختلفت الآراء حول تحديد مفهوم الوثائق، فبعض المؤرخين قصد بها المستندات التى تصدر من جهات رسمية أو من أفراد لهم صفة رسمية وتعرف فى هذه الحالة بالوثيقة القانونية ، كالأوامر ، والقرارات ، والمراسيم ، والاتفاقيات ، والمعاهدات . هذا إلى جانب الرسائل التى تحمل هذه الصفة ، وبعضهم الآخر يقصد بها كل ما خلفه الحدث التاريخى من آثار بمعنى أن لكل مكتوب قيمة تاريخية حتى لو لم يكن لمحررها صفة رسمية[٥] ومعنى ذلك أن روايات شهود العيان ، وكشوف

اسما ،طلاب الجامعات والمدارس والتعليمات الموجهة إليهم ، وقرارات وخطب رؤساء الأحزاب وغيرها تدخل فى مفهوم الوثائق [٦].

وتوسع البعض فى تعريف الوثيقة فقال أنها كل آثار السلف حتى ولو كان ذلك خطابًا من ابن إلى أبيه أو من صديق إلى صديقه ، أو بيان حساب لأحد التجار أو حجابًا من الأحجبة أو تعويذة من التعاويذ أو إيصال دين أو قائمة بأسعار بعض السلع أو ما شابه ذلك ، وبخاصة أن كل ذلك قد يكون ذا أهمية كبيرة فى دراسة التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى والثقافى وغير ذلك من الميادين الجديدة فى علم التاريخ [٧].

وحتى يمكن حسم هذا الموضوع فسنعرض لبعض ماورد فى أنظمة بعض دور الوثائق المتقدمة فى العالم . ففى قانون دار الوثائق العامة فى لندن الصادر فى ١٤/٨/١٨٣١م (١٢٤٦هـ) نص على أن الوثيقة تعنى الملفات والسجلات والحجج والمستندات ، ومحاضر الجلسات والمراسيم ، والإشعارات واللوائح القانونية ، وكشوفات الجرد ، والكشوفات الحاسبية ، والأوراق والكتب . وفى القانون الأمريكى الصادر فى ٧/٧/١٩٤٣م (١٣٦٦هـ) جاء تعريف الوثيقة بأنها الكتب والأوراق والخرائط والصور الفوتغرافية أو أية مواد وثائقية بغض النظر عن شكلها الطبيعى أو صفتها .

وعند تقييمنا لهذه الآراء يتضح أنه إذاقصرنا مفهوم الوثيقة على الوثائق الرسمية فإننا قد نصل إلى نتيجة قد لايقبلها المنطق أو الواقع ، وقد تبعدنا عن الموضوعية وهى أن الكثير من أصول الأحداث التاريخية ليس لها صفة رسمية أو حكومية ، وأن الوثائق الرسمية فى كثير من الأحيان لاتفى بالغرض المطلوب فى تفسير الأحداث مما يحتم على الباحث الرجوع إلى كل ماتركه الحدث التاريخى من آثار ، وهذا يعنى أن العديد من الدراسات الرصينة لاتعد دراسات موثوقة . ومن هنا فنحن نتفق مع الرأى الذى يرى توسيع معنى الوثيقة ، ونرى أن كل ما خلفه الحدث التاريخى من آثار يدخل فى عداد الوثائق كما نضيف إلى ماسبق ذكره ضرورة وضع التسجيلات الصوتية والأرشيفات الفوتغرافية والسينما توغرافية ضمن تعريف الوثائق خصوصًا وأنه ليس من المنطقى أن لاتدخل جلسات المؤتمرات الدولية المسجلة صوتيًا والمحفوظة بوزارات الخارجية ، وفى هيئة الأمم المتحدة ، وفى وزارات الإعلام والمؤسسات العلمية وغيرها ضمن نطاق الوثائق بل ينبغى أن يشتمل دور الوثائق العربية على أرشيف الوثائق الصوتى archive snore والذى قد يكون فى المستقبل هو أرشيف الغد .

وعن أهمية الوثائق فقد اختلف المؤرخون والعاملون فى حقل الدراسات التاريخية أيضًا فى تحديد مدى أهمية الوثائق فمعظمهم نعتها بالعديد من النعوت التى تبرز قيمتها وأهميتها ، وبعضهم شكك فى ذلك .

أما عن الفريق الأول : فقد وصفوها بأنها قطع من حياة الأسلاف ، وشهود معاصرة للوقائع التاريخية ، وأقوى المصادر حجة فيما يتعلق بتصوير الحياة اليومية وبتحديد التواريخ والأماكن . وكثيراً ما يؤدى إهمالها أو الاستغناء عن بعضها إلى أن يخطىء المؤرخ فى أحكامه [٨]، لأنها المادة الخام التى تحمل بين سطورها تراث الأمم وحضاراتها ، وهى الشاهد الأكبر على تراث الأمم وتاريخها ، وهى سند المؤرخ القوى الذى يجد بين ثنايا سطورها من الحقائق ما يسد الثغرات الناقصة ويستكمل الحلقات المفقودة ، وهى المصادر الأصلية والأساسية لدراسة التاريخ ، لكونها منبعًا بكراً يرد فيه الكثير مما لم يتوصل إليه المؤرخون[٩]. وهى الأصول التى لايمكن كتابة التاريخ الصحيح أو تحقيق الحوادث التاريخية بدونها ، وهى التى تتسم بالأصالة والتفرد والعطاء ، وبخاصة إذا كانت تسد فراغًا فى تاريخ البشرية ، وهى المصادر النزيهة التى يصعب الشك فى صحتها ، وبخاصة أنها لم تكتب أصلاً بغرض التأليف التاريخى [١٠]. يضاف إلى ذلك أنها أفضل موصل لتبيان الحقيقة التى تجعل المؤرخ يقف على حقائق الأمور دون أى شك أو مواربة ، وترفع الستار عن الكثير من القضايا التاريخية التى يشوبها الغموض والتى لايزال بعضها ألغازاً محيرة [١١]،مما قد يؤدى إلى تغيير مفاهيم خاطئة قد توارثها الآباء عن الأجداد ، والأبناء عن الآباء فأخذت ثوب الحقيقة عن غير استحقاق [١٢]، كما أنها مصدر للمعلومات من الدرجة الأولى يفتح لنا أبوابًا جديدة ومتعددة للدراسة لكونها مصدراً مهمًا سطر فيه الكثير مما أغفله المؤرخون فى كتاباتهم كما أن فقدها أو تعرضها للتلف والضياع يزيد من الفجوات فى مجرى التاريخ ، ويجعل حلقات كثيرة منه مجهولة إلى الأبد .

وإلى جانب ذلك فإن كل وثيقة لايتسنى لأحد الوصول إلى قراءتها تعد وثيقة ميتة ، وهذا هو شأن الوثائق التى مازالت مطمورة حتى الآن فى بعض الخزائن الحكومية والخاصة أو فى حوزة جماعة تحاول احتكار الوثائق ، أو بسبب ظروف خاصة تحول دون نشرها ، وفى تلك الحالات تظل هذه الوثائق معطلة ، لايمكن الإفادة منها فى البحث التاريخى إلا إذا خرجت من مخابئها إلى طريق النور حيث يتم نشرها والاستفادة من معلوماتها ، وتحويلها من مادة خام صامتة إلى معلومات تاريخية قد تضيف إلى المعرفة شيئًا جديداً .

أما عن المجموعة الثانية التي شككت في مصداقية الوثائق ودقتها فإن حجتها في ذلك أن العديد من الوثائق تعبر عن رأى أصحابها الذى قد لايخلو من التحيز ، وأنها قد تحتوى على معلومات خاطئة أو محرفة أحياناً بلغت إلى أحد المسئولين فبادر بإيصالها إلى حكومته دون التثبت منها أو ربما كان أحد الأشخاص قد حاول تزوير مافيها من معلومات ، لذلك لايجوز للمؤرخ أن يقبل ماجاء في الوثائق وبخاصة أنها لاتحتوى إلا على ماكان يفكر فيه صاحب الوثيقة .

والواقع أن كلاً من الرأيين له له وجاهته ، فعلى الرغم من أنه لا يوجد شك كبير في أصالة وحياد الوثيقة ونزاهة كاتبها، وبخاصة أنه عاش في وقت لم يكن يتوقع أن ما كتبه سيكون ذا قيمة تاريخية بعد ذلك، أو سيعتمد عليه في التأليف التاريخي [١٣]؛ ولذلك تنتفي الأهواء الذاتية عن الوثيقة التاريخية وتصبح مصدراً رئيسيًا للمعلومات من الدرجة الأولى [١٤]. فإنه من المعروف أن بعض الوثائق لاتخلو من التحيز والهوى أو التحريف ، لذلك فإنه لايجوز للمؤرخ أن يقبل كل ماجاء في الوثائق بل إن مهمته هي غربلة المعلومات الموجودة بالوثائق ومقابلتها بغيرها من المصادر للتوصل إلى الحقيقة والتعرف على ملابسات الواقع. فعلى الرغم من أهمية الوثائق فإنها في حد ذاتها لاتصنع الحقيقة التاريخية بل تظل أداة خرساء في يد من لايعرف كيف يضفى عليها من علمه وخبرته فيها [١٥]، وبخاصة وأن الوثائق لاتعطيناصورة كاملة مترابطة عن الحادث وإنما تمدنا بصورة متناثرة ، بينها وبين البعض الآخر الكثير من أنواع النقص وعدم الارتباط والاختلال وأن دراستها وتحليلها وإكمال كل نقص وسد كل ثغرة بينها ، وتنقيتها كما تنقى الحبوب الطيبة من الحصى والقشر ويتطلب ذلك من المؤرخ أن يتمتع بموهبة خاصة يستطيع بها إحياء الماضى بكل ماكان عليه وأن يميز بين الحقيقى وغير الحقيقى ، مستعيناً بالشواهد المعترف بأنها صادقة ، كما يحتاج ذلك أيضاً إلى مؤرخ واسع الثقافة ، وناقد حصيف يتمتع بقدرة علمية عالية ، وقدرة على معالجة المسائل التاريخية والتعرف على ملابسات الواقع ، فيجتهد لإبراز ما بها من خفايا وإيضاح الجديد فيها ، وتلك هى الغاية الأولى للتاريخ . فاستخلاص الأحكام التى تتعلق بالإنسان والإجابة على الأسئلة التى تتعلق بجهود البشرية ومنجزات الإنسان في الماضى بما فيها من عبر وعظات ، للسير على منوالها في المستقبل ولاسيما أن الإحاطة بأعمال الإنسان ، والإلمام بدقائق الحياة اليومية في العصور الماضية بمثالبها ومشاربها ، كل ذلك يمكن أن يفيد إنسان الحاضر في تجنب أخطاء من

سبقوه ، والسير على منوال محاسنهم ومآثرهم . ذلك أن الحضارة الإنسانية ليست بنت ساعتها ، بل هى تراث عصور ومجهودات أمم وشعوب عاش الإنسان تجاربها العديدة المتباينة حتى ظهرت لنا حضارة القرن العشرين .

ومن هنا ينبغى أن يخطر ببال أساتذة الجامعات من المؤرخين الذين يفنون أعمارهم فى البحث عن الحقيقة ، ويدفنون أنفسهم فى الوثائق والإحصاءات ، أن الماضى ميت إلا بمقدار مايؤثر فى أخلاق وغايات الأحياء من الناس ، وأنه لاقيمة للتاريخ إلا بمقدار ما ينير الحاضر ، ويعين على توجيه المستقبل .

وأنه إذا ما كتب التاريخ بهذه الطريقة فسيعرف العالم حقيقة الطبيعة البشرية معرفة أفضل مما يكتبه علماء النفس والفلسفة والاجتماع فى العالم (١٧). وعلى كل حال فبعد أن اتضحت أهمية الوثائق فى الكتابة التاريخية أخذت الأرشيفات الخاصة بها فى التطور فبعد أن كانت مخازن للملفات غير المستعملة ، ومأوى لمخلفات المصالح الحكومية ، ومستودعًا للحشرات(١٨) أصبحت بمثابة المعامل الحديثة للدراسات التاريخية . وقد تطورت هذه المعامل ، ونظمت بحيث تلبى حاجات الباحثين وظهرت ، منها أنواع جديدة .

ومن المعروف أن مصر كانت من أوائل الدول العربية التى تنبهت إلى أهمية وثائقها فأصدرت مرسومًا وزاريًا فى عام ١٩٥٤م بإنشاء لجنة الوثائق التاريخية لجمع كل موارد المحفوظات ذات الفائدة التاريخية فى إدارة مركزية عرفت باسم دار الوثائق .

وقد تأست هذه الدار طبقًا لنص القانون رقم (٣٥٦) لسنة ١٩٥٤م ، ومهمتها جمع الوثائق التى تتصل بتاريخ مصر فى جميع العصور وتيسير البحث والاطلاع والعمل على نشر الوثائق ورفع مستوى البحوث التاريخية (١٩).

هذا وقد نص القانون ٣٥٦ فى مادته العاشرة على تشكيل اللجان الدائمة للمحفوظات ، وعمل سجلات لها ، ولتكون حلقة الاتصال بين تلك الجهات ، ودار الوثائق القومية .

وعن تحديد معنى الوثيقة فإن كل وثيقة مهما كانت مادتها فإنه يمكن أن تكون جزءًا من المادة التاريخية على مرور الأيام ، خصوصًا وأن جميع الوثائق لازمة للمؤرخ سواء فى ذلك الوثائق المالية أم الإدارية أم التعليمية أم القانونية أم غيرها(٢٠).

ومن المعروف أن الإنسان ليس عبدًا للوثائق والمخطوطات بل هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب مايخاطب به عقول الناس فى كل عصر .

ومن البديهى القول أن الشعوب المتقدمة فى سلم الحضارة تحافظ على وثائقها خصوصاً وأن هذه الوثائق تعد كنوزاً ثمينة ، فهى الشاهد الأكبر على التاريخ ، وهى الدليل الأعظم على الشخصية الحضارية لأى شعب من الشعوب .

والدراسات التاريخية المبتكرة تعتمد اعتماداً كبيراً على الوثائق لكونها من المصادر التاريخية الأصلية والأساسية لكل باحث ، يرغب فى إضافة حقائق علمية لم تكن معروفة من قبل سواء للمؤرخين أم غيرهم .

الهوامش :

١ - د. سلوى ميلاد : الوثيقة القانونية ، ماهيتها - أجزاؤها أهميتها ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٦ ص ١٠ .

٢ - مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط جـ ٢ ، القاهرة ، ص ١٠٣٣ .

٣ - بطرس البستاني : محيط المحيط ، بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٨٣م ص ٩٥٦ - ٩٥٧ .

٤ - الآية ٢٥٦.

٥ - د. علي الغمراوي : تقرير بيليوجرافي عن بحوث فرنسا ونشراتها في القرن الثامن عشر . مجلة العلوم الاجتماعية بالرياض ، العدد السابع ١٤٠٣ - ١٩٨٣ ، ص ١٠٧ .

٦ - د. عبد العظيم رمضان : المذكرات السياسية وأهميتها بين وثائق تاريخ مصر المعاصر - دراسة غير منشورة ضمن بحوث ندوة وثائق تاريخ العرب الحديث ، ١٩٧٧ ، ص ٣ .

٧ - د. حسنين ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانيء الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، بحث منشور ضمن الجزء الثاني من مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ص ١٣١.

٨ - د. أحمد السعيد سليمان : وثائق التاريخ العربي وكيفية صيانتها . حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، المجلد التاسع ١٩٦٤ .

٩ - محمود عباس حمودة : المدخل إلى دراسة الوثائق العربية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٣ .

١٠ - لم يكن لدى الناس الذين دونوا أعمالهم منذ مئات السنين أية معلومات محددة عن الطريقة التي يعمل بها المؤرخ المعاصر .

١١ - الدارة : العدد الأول ، شوال ١٤٠٥هـ/يونيو ١٩٨٥ ، مقال للأستاذ عبد الله الحقيل تحت عنوان "أهمية تجميع تراثنا الوثائقي المتناثر في مكتبات العالم" ص ١٩٠ .

١٢ - لم يعد مجهولاً أن أجيالاً متعاقبة من أبناء مصر قرأت تاريخها الوطني على غير حقيقته .

١٣ - د. حسنين ربيع : البحث السابق ص ١٣١ .

١٤ - د. سلوى ميلاد : وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٣ ، ص ٣ .

١٥ - يرى البعض أن مجرد العثور على الوثائق ونشرها ومناقشتها يكون ذات فائدة للتاريخ .

انظر : لويس جوتشلك : كيف تفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي - ترجمة عائدة سليمان وأحمد أبو حاكمة ، بيروت ، دار الكتب العربي ، ١٩٦٦ .

١٦ - عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي ص ٢١٩ .

١٧ - ول ديورانت : مناهج الفلسفة - ترجمة أحمد فؤاد الأهوانى - القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٥ ، ص ٨ .

١٨ - يذكر أسد رستم أنه عندما صعد إلى القلعة فى عام ١٩٣٥ لتفقد الدفترخانة المصرية وجد أوراقها وسجلاتها مكدسة بعضها فوق بعض فى أكياس لايؤمها سوى الجراذين والثعابين . انظر : مجلة المشرق البيروتية الجزويتية ١٩٣٧ ص ٤٧٧

١٩ - محمود عباس حمودة : النشاط الدولى فى خدمة الوثائق ، مخطوط ص ٤١ .

٢٠ - دار الوثائق القومية : نشرة تفسير القانون٣٥٦ لسنة ١٩٥٤ وتنظيم المحفوظات ص ٢٦ .

أربــع وثائـــق تتعلق بالشؤون العامة للدولة العثمانية

د. كامل جميل العسلي

وثائق مقدسية تاريخية ج ص ١٧٧-١٨٢

نستهل وثائق العصر العثماني بأربع وثائق تتعلق بالشؤون العامة للدولة العثمانية .

الوثيقتان الأولى والثانية تتعلقان بموضوع واحد هو الجهاد ضد روسيا وانجلترا وفرنسا بعد دخول تركيا الحرب ضد هذه الدول في سنة ١٩١٤ .

الوثيقة الأولى منهما هي بيان اصدره شيخ الإسلام في استانبول في ٤ محرم سنة ١٣٣٣ (٢٢ نوفمبر ١٩١٤) يحض فيه المسلمين في داخل الدولة العثمانية وخارجها على الجهاد ضد المسكوف وحلفائهم من انجليز وفرنسيين .

عدد أسطر هذه الوثيقة ٣٤ سطراً من ضمنها أربعة أسطر فيها البسملة وتأشيرة من السلطان محمد رشاد بأنه أمر بنشر الوثيقة في جميع اقطار المسلمين ، ثم تاريخ الوثيقة يليه الاسم : محمد رشاد .

وفي الزاوية العليا اليمنى من الصفحة رسم العلم العثماني .

وفي نهاية البيان تسعة وعشرون توقيعاً احدها توقيع شيخ الإسلام ومفتي الأنام خيري بن عوني الأركوني ، ومنها تواقيع شيوخ إسلام سابقين وقضاة العسكر وقضاة ومدرسين وكبار موظفي المشيخة الإسلامية .

وكتب في آخر البيان

طبعت بالمطبعة العامرة بدار
الخلافة العثمانية

وترينا الصورة شكل هذه الحروف التي هي كخط اليد تماماً .

وقد صيغَ البيان بلغة تستنهض حمية المسلمين لنصرة دولة الخلافة ورصّع بالآيات القرآنية الكريمة ، التي تفرض على المسلمين الجهاد إذا استبيحت ديار الإسلام .

ومن المعروف ان السلطان محمد رشاد الخامس[1] قد أعلن ، بوصفه خليفة المسلمين ، الجهاد الأكبر ضد انجلترا وفرنسا وروسيا بعد دخول الدولة العثمانية الحرب في ٢٩/١٠/١٩١٤ (٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٢) ، وأخذت الحكومة العثمانية تعمل على نشر دعوة الجهاد بين المسلمين في مختلف الأقطار. وهذا البيان صدر بعد دخول الدولة العثمانية الحرب بحوالي ثلاثة أسابيع .

---

(١) حكم من ١٣٢٧ ـ ١٣٣٦هـ (١٩٠٩ ـ ١٩١٨م) .

ومما هو جدير بالإشارة إليه في هذا الصدد ان اعلان الجهاد قد تبعه احتفال مهيب عند قبر الرسول بالمدينة المنورة أخرجت فيه راية النبي صلى الله عليه وسلم ثم نقلت الى دمشق حتى تبارك الجيش . وقد استقبل سكان دمشق الراية التي وصلت بالقطار في ١٥ كانون الأول ديسمبر سنة ١٩١٤ بكل مظاهر الحفاوة والإكرام ثم نقلت الراية من دمشق الى بيت المقدس في العشرين من كانون الأول ، فاستقبلت في حفل كبير اقيم في صحن الصخرة المشرفة وشهده جمال باشا وختم الاحتفال بإقامة الصلاة في المسجد الاقصى [١] .

والبيان وثيقة مقدسية تاريخية بمعنى اننا عثرنا عليها (هي والوثيقة التي تليها) في القدس . وفي ملف خاص بالعائلة الخالدية محفوظ في المكتبة الخالدية[٢].

والوثيقة الثانية التي تتعلق بموضوع الجهاد هي صور لفتاوي أصدرها شيخ الإسلام خيري بن عوني الأركوني رداً على اسئلة وجّهت إليه حول وجوب جهاد المسلمين ومناصرتهم للدولة العثمانية ومحاربتهم لأعدائها .

وقد طبعت هذه الوثيقة أيضاً في مطبعة دار الخلافة . وفيما يلي نص الوثيقتين الأولى والثانية : ـ

---

(١) من المعروف أن العلاقات العربية التركية كانت متوترة آنذاك بسبب اجراءات التتريك التي اتخذتها حكومة الاتحاد والترقي .ومنذ بداية سنة ١٩١٤ قامت تلك الحكومة باجراءات شديدة ضد الجمعيات العربية رداً على مطالبتها بمنح العرب مشاركة كاملة في الحكم ،كما انها صفّت الكتائب العربية في الجيش العثماني .

وتدهورت العلاقات العربية التركية بصفة خاصة في عام ١٩١٥ .ففي ٢١ آب من ذلك العام اعدم جمال باشا ١١ شهيداً ثم اتبعهم بـ ٢١ شهيداً في أيار سنة ١٩١٦ ، الأمر الذي عجل في اعلان الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي في الشهر التالي ،حزيران ١٩١٦ .

(٢) يحتوي ملف العائلة الخالدية على أوراق عائلية بالدرجة الأولى تنطوي على معلومات ذات اهمية بالنسبة لتاريخ عائلة الخالدي ولتاريخ القدس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين . ويبلغ عدد هذه الأوراق حوالي ٥٠ ورقة ثلاثة ارباعها تقريباً باللغة العربية والربع باللغة التركية . ومن بين الأوراق التركية ٩ براءات تعيين سلطانية لأفراد من عائلة الخالدي وفرمان بشأن معاهدة تجارية عقدتها الدولة العثمانية مع فرنسا وبريطانيا ووثيقة حول تمرّد حدث في القدس ، ووثيقة حول صرف أموال الصرة السلطانية أما الأوراق العربية فيعنى أكثرها بشؤون العائلة الخاصة ، باستثناء عدد قليل منها ، ومن هذه وثيقة نشرناها في المجلد الاول من هذا الكتاب هي اجازة بعضوية الطريقة القادرية للشيخ عبد الرحمن الدهلوي شيخ زاوية الهنود بالقدس ، ومنها الوثيقتان اللتان نحن بصدد الحديث عنهما ، وهما بيان الدعوة الى الجهاد والفتاوى التي تليه .

ومن بين وثائق الملف التي سننشرها فيما يلي من هذا الكتاب وثيقة بشأن تقرير سيدة من آل الدزدار (العسلي) بحصة من أموال الصرة السلطانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الفتاوى الشريفة الصادرة من طرف المشيخة الإسلامية العلية

في حق الجهاد الأكبر

منه التوفيق

ما قول شيخ الإسلام صاحب مرجع الأنام فيما إذا توالى هجوم الأعداء على الإسلام والمسلمين وتعدى أعداء البلاد الإسلامية باستطالة أيديهم في السلب والنهب وأسر المؤمنين والمؤمنات وصدر أمر أمير المؤمنين بالجهاد والنفير العام فصار بذلك الجهاد فرضاً على جميع الموحدين بمقتضى قوله تعالى « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » وهل تكون مسارعة كافة المسلمين في جميع الأقطار للجهاد بالمال والأبدان فرضاً عينياً أم لا أفتونا مأجورين

الجواب الله تعالى أعلم

قد صار الجهاد بذلك فرضاً على جميع الموحدين ولزم مسارعتهم لذلك بالنفس والبدن فرضاً عينياً

كتبه الفقير خيري [illegible] عفي عنهما

وبهذه الصورة إذا تحقق أن الروس والإنكليز والفرنسيين ومن ظاهرهم البغي والعدوان اليوم على الخلافة الإسلامية حاربين سفنهم الحربية وعساكرهم البرية على دار الخلافة [illegible] الحربية العثمانية [illegible]

~~[illegible]~~

فمن يمنع المسلمين للغزو ومعلنين الجهاد على تلك الحكومات فرضاً أيضاً أم لا أفتونا مأجورين

الجواب الله تعالى أعلم

نعم تكون مسارعتهم فرضاً أيضاً

كتبه الفقير إليه خيري [illegible] عفي عنهما

وبهذه الصورة إذا كان حصول المقصود متوقفاً على مسارعة جميع المسلمين للجهاد وتخلف بعضهم والعياذ بالله تعالى فهل يكون تخلفهم معصية يستحقون بها غضب الله والجزاء على هذه المعصية الشنيعة أم لا أفتونا مأجورين

الجواب الله تعالى أعلم

نعم يستحقون ذلك

كتبه الفقير إليه خيري [illegible] عفي عنهما

وحينئذ فمسلمو تلك الحكومات المحاربة للحكومة الإسلامية هل يجوز لهم شرعاً بصورة قطعية أن يحاربوا عساكر الحكومة الإسلامية ولو أكرهوا بقتل أنفسهم وإفناء جميع عائلاتهم ويستحقون إن فعلوا ذلك نار الجحيم لكونهم = قاتلين أم لا أفتونا مأجورين

الجواب الله تعالى أعلم [illegible]

كتبه الفقير إليه

... الترتيب ... والبلاد ... استعمال الخلافة ... يتحرق ... .

ومعاونة المسلمين للدفع و ... الجهاد عن تلك الحكومات ... ايضا ام لا افتونا ماجورين

الجواب الله تعالى اعلم

نعم تكون ... ايضا

كتبه الفقير الى ... عونى الارزكوى عفى عنهما

و... الصورة اذا دان حصول المقصود متوقفا على ... للجهاد وتخلف بعضهم ... بالله

تعالى فهل يكون تخلفهم معصية ويستحقون ... لهذه المعصية الشنيعة ام لا افتونا ماجورين

الجواب الله تعالى اعلم

نعم يستحقون ذلك

كتبه الفقير اليه ... عونى الارزكوى عفى عنهما

و حينئذ فمسلمو تلك الحكومات المحاربة للحكومة الاسلامية هل يجوز عليهم شرعا بصورة قطعية ان يحاربوا عساكر الحكومة الاسلامية ولو اكرهوا بقتل انفسهم وافناء جميع عائلاتهم و يستحقون ان فعلوا ذلك نار الجحيم لكونهم = قاتلين ام لا افتونا ماجورين

الجواب الله تعالى اعلم

نعم يستحقون ذلك

كتبه الفقير اليه ... عونى الارزكوى عفى عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم
صور الفتاوى الشريفة الصادرة من طرف المشيخة الإسلامية العلية
في حق الجهاد الأكبر
منه التوفيق

ما قول شيخ الاسلام دام بابه مرجعاً للأنام فيما إذا توالى هجوم الأعداء على الإسلام والمسلمين وتحقق انهم يستولون على البلاد الإسلامية باسطين ايديهم في السلب والنهب واسر المؤمنين وسبي المؤمنات وصدر أمر امير المؤمنين بالجهاد والنفير العام فهل صار بذلك الجهاد فرضاً على جميع الموحدين بمقتضى قوله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم﴾ وهل تكون مسارعة كافة المسلمين في عموم الأقطار للجهاد بالأموال والأبدان شيوخاً كانوا أو شباناً مشاة أو فرساناً فرض عين أم لا

أفتونا مأجورين

الجواب الله تعالى أعلم

قد صار الجهاد بذلك فرضاً على جميع الموحدين وصارت مسارعتهم لذلك بالنفس والبدن فرض عين.

كتبه الفقير الى الله تعالى
خيري بن عوني
الأركوني عفى
عنهما

وبهذه الصورة إذا تحقق من الروس والإنكليز والفرنسيين ومن ظاهرهم البغي والعدوان اليوم على الخلافة الإسلامية هاجمين بسفنهم الحربية وعساكرهم البرية على دار الخلافة وسائر البلاد المحروسة العثمانية ساعين والعياذ بالله تعالى لإطفاء نور الإسلام فهل تكون مسارعة ؟ هذه الحكومات من عموم المسلمين للغزو معلنين الجهاد على تلك الحكومات فرضاً ايضاً أم لا افتونا مأجورين .

الجواب الله تعالى أعلم
نعم تكون مسارعتهم فرضاً ايضاً

كتبه الفقير إليه
خيري بن عوني
الاركوني عفى عنهما

وبهذه الصورة إذا كان حصول المقصود متوقفاً على مسارعة جميع المسلمين للجهاد وتخلف بعضهم والعياذ بالله تعالى فهل يكون تخلفهم معصية ويستحقون بها غضب الله والمجازاة على هذه المعصية الشنيعة أم لا افتونا مأجورين .

الجواب الله تعالى أعلم

نعم يستحقون ذلك

كتبه الفقير إليه
خيري بن
عوني
الأركوني
عفى عنهما

وحينئذ فمسلموا تلك الحكومات المحاربة للحكومة الإسلامية هل يحرم عليهم شرعاً بصورة قطعية أن يحاربوا عساكر الحكومة الإسلامية ولو أكرهوا بقتل أنفسهم وإفناء جميع عائلاتهم ويستحقون إن فعلوا ذلك نار الجحيم لكونهم قاتلين أم لا أفتونا مأجورين

الجواب الله تعالى أعلم نعم يستحقون ذلك .

كتبه الفقير إليه
خيري بن عوني
الأركوني عفى عنهما

مطبعة عامرة دار الخلافة الإسلامية.

ـ ط ـ
الصـــرّة السلطانيـــة

[٩٣][٩٤][٩٥][٩٦] ع/ ٣٢ع/ ٣٣ع/ ٣٤ع/ ٣٥ع

الصـــرّةالسلطانية

من قديم الزمان ومنذ أيام الدولة الأموية كانت ترد الى القدس الهبات والعطايا من الخلفاء والسلاطين لتوزع على خدام الحرم الشريف وعلى الفقراء والمحتاجين من أهل المدينة ، من ذلك مثلاً ما أورده ابن هلال المقدسي في « مثير الغرام » (ص ٤٢) من أن الوليد بن عبد الملك كان يعطي ابراهيم ابن أبي عبلة قصاع الفضة ليقسمها على قراء مسجد بيت المقدس . وكان غير الوليد من الخلفاء والحكام يفعلون ذلك على مدى العصور[١] .

وقد غدت « الهبة » التي تقدم للعاملين في المسجد الأقصى سنة ثابتة زمن العثمانيين ، على ما يستفاد من سجلات المحكمة الشرعية في القدس ، فقد كان سلاطين بني عثمان كسلاطين المماليك والأيوبيين قبلهم يهتمون اهتماماً بالغاً بمصالح الحرم القدسي الشريف والمدينة المقدسة بل إن الهبة السنوية أصبحت مؤسسة قائمة بذاتها لها رسومها وأنظمتها . وكانت هذه الهبة تدعى « الصرة » . وعين للصرّة في استنبول « أمين خاص » يتولى الاشراف على شؤونها كافة ، وخاصة ما يتعلق بكيفية توزيعها على المستحقين . ويحتفظ « للصرة » بسجلات أو دفاتر يعاد النظر فيها كل عام .

كتب السائح التركي أوليـا جلبي في أواخر القرن الحادي عشر يقول: «هناك ثمانمائة موظف يتقاضون رواتب في المسجد الأقصى . ومن ضمن هؤلاء أئمة للمذاهب الأربعة ووعاظ ومدرسون وخدام ، وفيه خمسون من المؤذنين والمسبّحين والمبلغين والقرّاء والسدنة . وكانت رواتب هؤلاء تدفع من جيب السلطان . فان خازن السلطان (أمين الصرّة) كان يأتي سنوياً ليوزع عليهم الهبات والهدايا »[١] .

وكان هؤلاء جميعاً يتقاضون رواتبهم من الذهب الذي يرد من الآستانة ضمن الصرّة في كل سنة . وبالاضافة الى الذهب كانت الصرّة تشتمل على كميات من اللحم والخبز والمؤن المختلفة التي كانت توزع على موظفي الحرم حسب وظائفهم .

---

(١) معاهد العلم في بيت المقدس ص ٣٤ .

(1) Evliya Tschelebi's Travels in Palestine- Translated by St. H. Stephan in QDAP Vol. IX, No 1,p. 94.

وينقل عارف العارف وصفاً لحفل توزيع الصرّة ورد في أحد سجلات المحكمة الشرعية[1] كما يلي : ـ

(أرسل السلطان أحمد خان[2] اثنين من كبار رجال الدولة هما أمير لواء غزة هاشم محمد باشا وأمين الصرّة حسين اغا فجاءا يحملان (الصرّة) عن سنة ١١٣٠ ، وفيها الفان وأربعمائة وثمانون ذهباً شريفياً[3] ... وقام الاثنان بتوزيع هذا المبلغ على المستحقين فقبض كل واحد منهم ما هو معين له (بمقتضى الدفتر السلطاني) .... وقد تمّ ذلك بحضور العلماء الأعلام ومشايخ الحرم الكرام والخطبا والأئمة والمصدرين وخدم المسجد الأقصى الشريف .... فتزايد الدعاء من العلماء والسادات والمشايخ والصلحا والضعفا والفقراء وجميع سكان هذه الديار القدسية لسلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والملحدين السلطان أحمد خان ....) .

وكان مبلغ الصرّة يختلف بين وقت وآخر ، وفي سنة ١١٧٠ كانت الصرّة ٥٠٨٥ قرشاً أسدياً أي حوالي ٣٨٠٠ سلطاني ذهب .

ونورد فيما يلي أربع وثائق تتعلق بالصرّة مأخوذة من سجلات المحكمة الشرعية في القدس . وفي السجلات حجج عديدة تتعلق بالموضوع نفسه ، وما نقدمه ليس سوى أمثلة . وتتضمن الحجج معلومات مختلفة عن الصرّة منها مثلاً :

١) أن الحصة المقررة لشخص ما في الصرّة كانت تورّث .

٢) كان من الممكن للمستحق في الصرّة أن يتنازل عن الحصة المقررة له الى شخص ثان بطريق الفراغ أو التنازل مقابل مبلغ من المال يدفعه الثاني للأول (أي له أن يبيعها) . ويشترط أن يتم ذلك بمعرفة القاضي وتصديقه .

٣) كان الإنعام الأصلي على شخص ما بحصته في الصرة يتم ببراءة صادرة عن السلطان . ويتولى القاضي التصديق على صحة البراءة .

٤) كان للصرّة دفتر خاقاني خاص تسجل فيه أسماء المستحقين في كل سنة .

٥) إن المستحقين كانوا ينقسمون الى جماعات أو فئات فهناك مثلاً « جماعة الصلحا » و « جماعة قرّا أجزاء شريفة » و « جماعة قرّا أجزاء والدة السلطان » و « جماعة المبلغين في الحرم الشريف » الخ .

وهناك جماعات كثيرة أخرى بحيث كان يستفيد من الصرّة عدد كبير من سكان المدينة .

ومن الجدير بالذكر أنه كانت ترد الى القدس في العهد العثماني صرّة أخرى غير الصرّة العثمانية ، وهي الصرّة المصرية ، كما تبيّن لنا الوثيقة ع ٣٥ ، وكانت هذه الصرّة ترد سنوياً أيضاً من حكام مصر . ولا نعرف بالضبط الفترة التي ظلت هذه الصرّة ترد خلالها .

---

(١) المفصل في تاريخ القدس ص ٣٤٥ . يذكر العارف انه ينقل هذا الوصف عن السجل ٢١٣ ص ٦١ لسنة ١١٣٠ . غير اننا لم نعثر على الوصف في السجل المذكور . والأرجح ان هناك خطأ في رقم السجل او الصفحة .
(٢) أحمد الثالث بن محمد (١١١٥ ـ ١١٤٣) .
(٣) ظهر النقد الشريفي الذهبي في عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩ ـ ١١٠٢) .

(السجل ١٤٥، ص ١١١ سنة ١٠٦١)

١ ـ الصـــرّة الروميــة

قرر مولانا وسيدنا العلامة الفاضل الفهامة الكامل قدوة قضاة الإسلام دخر ولاة الأنام خلاصة آل عبد مناف الفخام الحاكم الشرعي المولى محمد افندي الشريف الموقع خطه الكريم أعلا نظيره دام فضله وعلاه لحاملي هذا الكتاب الشرعي وناقلي ذا الخطاب المرعي قدوتي الكاملين زبدتي النبلاء الموقرين وهما مولانا الشيخ محمد ومولانا الشيخ صالح ولدا قدوة الأخيار المعتبرين الشيخ عبد الجواد الشهير نسبه المبارك بالعسلي ثمانية سلطانية ذهبا من الصرّة الرومية الواردة في كل سنة من مدينة قسطنطينية المحمية الى القدس الشريف السنيّة سوية بينهما من جماعة الصلحا عوضاً عن قدوة المدرسين الكرام عمدة العلما الأعلام زبدة المدققين الفخام مولانا هبة الله افندي بن المرحوم شيخ الاسلام بركة الأنام شيخ الفقها والمحدثين العظام مولانا عبد الغفار أفندي مفتي القدس الشريف كان تغمده الله بالرحمة والرضوان بحكم فراغه لهما عن ذلك في يوم تاريخه أدناه بحسن اختياره ورضاه واذن مولانا الحاكم الشرعي المومى اليه دامت نعم المولى عليه للشيخ محمد والشيخ صالح المزبورين بتناول الثمانية سلطانية المزبورة في كل سنة في وقته من محله أسوة أمثالهما سوية بينهما لا مزية لأحدهما عن الآخر تقريراً واذناً صحيحين شرعيين مقبولين شرعاً ثم تعوض الفارغ المومى اليه من المفروغ لهما نظير فراغه عن ذلك مبلغاً قدره ستون غرشاً أسديه[1] قبض ذلك منهما سوية بينهما بالحضرة والمعاينة القبض الشرعي ثم توافقوا على أن المتجمد المستحق في شهر رمضان لسنة ستين وألف الذي سيرد في سنة تاريخه للفارغ المزبور وأن المتجمد بعد شهر رمضان لسنة ستين وألف والى يوم تاريخه أدناه للمفروغ لهما سوية بينهما موافقة مرعية صدرت بينهما بالتراضي المرضي تحريراً في ختام محرم الحرام افتتاح شهور سنة احدى وستين وألف .

شـــــــــهـــــــــود الـــــــــحــــــــال

الشيخ مصطفى العلمي	الشيخ زكريا الديري كاتب أصله	الشيخ مصطفى الدجاني	الشيخ عفيف الدين الديري	الشيخ نور الدين الشافعي كاتبه

---

(١) السلطاني يعادل ١ ١/٣ قرش اسدي . اي ان ٦٠ قرشاً اسدياً تعادل ٤٥ سلطانياً ذهباً .

وثيقة من أوراق آل جودة مسجلة في
المحكمة الشرعية في القدس سنة ١١٧١.

٢ ـ الصـــرّة الروميـــة

صدر التقرير من الفقير
السيد محمد القاضي بالقدس الشريف
(ختم القاضي)

سبب تحرير الحروف هو أنه بالمجلس الشرعي المحرر المرعى أجله   تعالى قرر مولانا وسيدنا العالم الكبير العامل النحرير محرر دقايق الفقه والتفسير مقرر قواعدهما أحسن تقرير أقضى قضاة الإسلام أولى ولاة الأنام صدر اساطين الموالي العظام بدر سماء المعالي الفخام فرع الشجرة الزكية طراز العصابة الكريمة الهاشمية الحاكم الشرعي المولي الموقع خطه الكريم أعلاه دام فضله وزاد علاه حامل هذا الكتاب الشرعي وناقل ذا الخطاب المعتبر المرعي مفخر الأفاضل والسادات الكرام السيد جود الله افندي ريس السادة المؤذنين بالحرم الشريف القدسي في ثلاثة ذهب سلطاني ونصف سلطاني وربع سلطاني من الصرّة الرومية الواردة في كل سنة من قسطنطينية المحمية الى أهالي القدس الشريف السنية من جماعت قرا أجزا شريفة بمقام سيدنا موسى الكليم على نبينا وعليه وعلى ساير الأنبيا والمدرسين[1] صلوات الملك الجليل وفي نصف سلطاني وربع سلطاني من الصرّة المزبورة من جماعت قرا اجزا والدة سلطان عليها من الله تعالى الرحمة والرضوان وفي سلطاني ذهبا من الصرة المزبورة من جماعة مبلغين حرم شريف عوضاً عن ولدي أخيه هما السيد طه والسيد فتح الله بحكم وفاتهما الى رحمة الله تعالى وانحلال ذلك عنهما الأيل اليهما ذلك بموجب ثلاث براة شريفة سلطانية وأذن مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي للسيد جود الله أفندي المقرر المزبور بمباشرة وأدا خدمة المذكور أعلاه وقبض معلومها وقدره في كل سنة خمسة ذهب سلطانياً ونصف من الصرّة المذكورة وبالاستنابة عند الحاجة تقريراً واذناً صحيحين شرعيين مقبولين شرعاً تحريراً في رابع عشر شوال لسنة احدى وسبعين وماية وألف .

شـــــــهـــــــود الـــــــحـــــــال

الفقير ابراهيم الخالدي	الفقير علي الشهابي	الفقير... الله الخالدي	الفقير الحاج محمد الخالدي	الفقير حسن الخالدي	الفقير فيض الله ؟ الخالدي

كاتبه

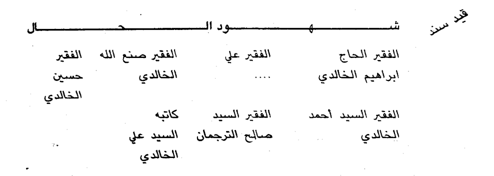
الدقاق

(١) خطأ ، المراد : المرسلين .

(من ملف وثائق العائلة الخالدية)
حامد علي ...
غفر له

٣ ـ الصـــرّة الروميـــة

ختم



سبب تحرير الحروف هو انّه بالمجلس الشرعي المحرر المرعي أجله تعالى قرر مولانا وسيدنا العالم العامل الفاضل الكامل الفاصل بين الحق والباطل الحاكم الشرعي المولى الموقع خطه أعلاه حاملة هذا الكتاب وناقلة ذا الخطاب المقير والمرعي فخر المخدرات السيدة فطومة خاتون ابنة المرحوم السيد عبد الله أغا دزدار قلعة القدس سابقاً في سلطاني ذهبا من الصرة الرومية الواردة في كل سنة من الآستانة العلية من جماعة باب حطة أول وفي سلطاني ذهبا أيضاً من الصرة المرقومة من جماعة مجاورين قدس شريف وفي سلطاني ذهبا أيضاً من الصرة المرقومة من جماعة باب القطانين وفي سلطاني ذهبا من الصرة المرقومة من جماعة جامع عمري مع زاوية هنود جملة ذلك في كل سنة عشرة زلطة عوضاً عن متصرف ذلك فخر الأماجد الكرام السيد موسى بك ابن المرحوم أحمد آغا ميرالاي السباهية بالقدس سابقاً بحكم فراغه لها عن ذلك في يوم تاريخه عن طيب قلب وانشراح صدر الآيل اليه ذلك بموجب تقرير شرعي وأذن مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي للسيدة فطومة بقبض وتناول العشرة زلطة من الصرة المرقومة في كل سنة وبالاستنابة عند الحاجة تقريراً وإذناً صحيحين شرعيين صادرين شرعاً بعد أن أوهب[1] لها العوض وقبلت منه ذلك تحريراً في نصف رجب سنة خمس وتسعين ومابة وألف .

قيد سن

شـــــــهـــــــود الـــــــحـــــــال

الفقير الحاج ابراهيم الخالدي	الفقير علي	الفقير صنع الله الخالدي	الفقير حسين الخالدي
الفقير السيد أحمد الخالدي	الفقير السيد صالح الترجمان	كاتبه السيد علي الخالدي	

(١) أي أن السيد موسى بن أحمد آغا وهب السيدة فطومة حصته في الصرة ولم يبعها لها .

سجل ٢٦٦ ص ١٢ سنة ١١٩٩هـ.

الصـــرّة المصرية

قرر مولانا الحاكم الشرعي حامل هذا الكتاب الشرعي الشيخ عبد الرحيم ابن المرحوم الحاج عيسى القطب في خمسة وأربعين فضة[1] مصرية من الصرّة المصرية الواردة في كل سنة من مصر المحمية لأهالي القدس الشريف السنية عوضاً عن متصرف ذلك السيد خليل أغا ابن عبد الرحمن آغا العسلي بحكم فراغه له عن ذلك عن طيب قلبه وانشراح صدره من غير اكراه له في ذلك ولا اجبار الآيل اليه ذلك بالانحلال عن جدته شريفية بموجب دفتر الصرة المرقومة والتصرف القديم واذن الحاكم الشرعي للمقرر المرقوم بتناول الخمسة والأربعون فضة من الصرة وبالاستنابة عند الحاجة تقريراً واذناً صحيحين شرعيين وتعوض الفارغ المرقوم من المفروغ له نظير فراغه عن ذلك سبعة زلطة[2] ونصف عوضاً حالاً مقبوضاً بيد الفارغ من المفروغ له حسب اعترافه الاعتراف الشرعي تحريراً في غرة جمادى الثانية سنة تسع وتسعين ومائة وألف ..

(١) الدينار الذهب السلطاني كان يعادل ٤٠ فضة مصرية .

(٢) زلطة : عملة فضيَّة عثمانية (بولونية الأصل) تعادل ٣٠ بارة وتزن ١٩,٣ غم .

بسم الله الرحمٰن الرحيم
قد امرت بنشر هذا البيان
في جميع اقطار المسلمين

/ ٤ المحرم سنة ٣٣٣
(٢٢ نوفمبر ١٩١٤)
محمد رشاد

أيها المؤمنون

ان المسكوف الذين ما برحوا منذ عصور اعداء للإنسانية الداء واضداداً لفلاح المخلوقات أشداء ويريدون ان يستعبدوا الامم ويضعوا عليها الاغلال ويحرموها ما منحها الله جل وعلا من الاستقلال قد استطار ضرر شرورهم من الشرق الى الغرب واوقدوا هذه الحرب العامة اليوم في اوروبا وقاموا ومعهم الفرنسيين [٢] والانجليز الذين ما فتىء الغرور يحلي في اذواقهم استعباد الملايين من المسلمين والقبح يزين لهم امتصاص حياتهم وما تزال تغلي في صدورهم مراجل الحقد على الخلافة الإسلامية ولا يجدون شفاء لما في نفوسهم من البغضاء إلا بإيهان بنيانها وزعزعة اركانها ذلك بأنها مثابة المسلمين ومسند الدين المبين هؤلاء الجبارون الذين يقال لهم الائتلاف المثلث قد طغوا في العصر السالف على المسلمين الذين في الهند وفي آسيا الوسطى وفي اكثر انحاء افريقيا فاستعبدوهم وجردوهم من استقلالهم واقاموا انفسهم حكاماً مسيطرين عليهم وكذلك ظاهر بعضهم بعضاً منذ نصف عصر بل اكثر فاخترموا قسماً من البلاد العثمانية من اعزها واغلاها وبالامس أغروا علينا جيراننا ووعدوهم المظاهرة وجعلوهم يوقدون علينا الحرب البلقانية فكانوا فيها سبباً أن تهرق دماء مئات آلاف من المسلمين وأن تهتك الحرم ويجنى على الفطم وتصبح المعاهدة المظاهرة مثابة للخبائث وبيئة للارجاس وها هم اولاء قد عمدوا اليوم الى ايقاد الفتن تحيق نارها بأهل الأرض كلهم ويوعدون أن يرموا محل القلب من الأمة المحمدية بأشد هذه الجمار لذعاً وافظعها وقعاً ﴿ يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كره الكافرون [٣]﴾ .... غضب الله حائق لا محالة عاجلاً او آجلاً بمن يريدون سوء بهذا النور الإلهي والدين السماوي الذي انزله لفلاح البشر مولانا رب العالمين من لا تعي حكمه الفهوم ولا تحيط بقدرته العقول وليس كمثله شيء سبحانه وتعالى وبموجب هذا اليقين قد رأى الخليفة ايده الله تعالى من الواجب ان يستنفر المسلمون كافة لمحاربة هؤلاء البغات اعلاء لكلمة الله وذوداً عن بلاد الإسلام ودرء عن بيت الله الحرام وروضة فخر الانام ومصباح الظلام وندباً عن المشاهد المباركة في بيت المقدس والنجف وكربلاء وسائر مقامات الأنبياء والأولياء والشهداء وحفظاً للخلافة الإسلامية من لوث الأضداد وضناً بهذا الدين المبين أن يناله مكر ذوي الأحقاد وقد عمل في هذا بما يقتضيه مقام الخلافة وما دلت عليه الفتاوى الشريفة واستمد عناية العزيز ذي الانتقام منزّل القرآن وناشر نور الإسلام فدعا إلى حمل السلاح جميع من هم ضمن حكومة الخلافة من العثمانيين من ابناء العشرين الى

---

(١) الرقم (٦٢) في زاوية الصفحة هو رقم الوثيقة المتسلسل في الكتاب، أما ع ١ فتعني الوثيقة العثمانية الأولى في الكتاب وعلى هذا الشكل تتسلسل بقية الوثائق .

(٢) الصحيح الفرنسيون .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

ابناء الخامسة والأربعين وفيهم العاملون ــــ[1] والمتعلمون من سائر طلاب العلوم والفنون وفيهم كذلك الموظفون والمأمورون من كل من هو ــــ أبيه وأمه وزوجته وبنيه فجهز منهم جميعاً الفيالق وملأ بهم الاساطيل وهم يسيرون اليوم على بركة اللّه تعالى إلى مواطن القتال طلائع وجيوشاً مشاة وفرساناً ، وكذلك يدعو جميع المسلمين ان يغتنموا النصيب من ثواب هذا الجهاد العظيم اتباعاً لقول العليم الحكيم ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾[2] فمن أعظم واجبات الدين اليوم على المسلمين الذين هم تحت سيطرة تلك الحكومات الجائرة كاهل القرم وقزان والتركستان وبخارة وخيوة والهند والمسلمين الذين في إيران والأفغان والصين والمسلمين الذين في افريقيا وسائر اقطار الأرض ان يبادروا إلى الجهاد الأعظم بأموالهم وأنفسهم مع العثمانيين وأن يتأملوا في قوله تعالى :﴿يا ايها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللّه اثّاقلتم إلى الأرض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل﴾[3] وقوله عزّ وجلّ:﴿الا تنفروا يعذّبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً واللّه على كل شيء قدير»[4] وقوله سبحانه:﴿قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتى يأتي اللّه بأمره﴾[5] نعم يجب عليهم أن يتأملوا في هذه الآيات الكريمة والارشادات الحكيمة ويبادروا إلى انقاذ النفس من العذاب الاليم وارباحها الثواب العظيم والنعيم المقيم وقد عظمت المصيبة وجلّ الخطب بأن طفق هؤلاء الأعداء يحضّرون جنوداً من أبناء المسلمين الذين تحت يدهم ويسوقونهم إلى محاربة الخليفة ومظاهريه ويرمونهم إلى اعظم ميادين هذه الهيجاء استعاراً وأكثرها تهلكة ودماراً فمن اعظم العبادات اليوم للمسلمين أن ينظر[1] إلى تلافي هذا الخطب الفظيع ودفع هذا البلاء الذريع وأن يتوكلوا على ربهم ويسيروا في هذا السبيل مهما أوذوا ووقع عليهم من بغي هؤلاء الخصوم فان هذه الرزية تفطّر الأكباد وتشوي المهج ولا تطيقها النفوس واللّه سبحانه قد وعد الصابرين أجراً كبيراً وفوزاً عظيماً ولهم من بركات الرسول صلى اللّه عليه وسلم مدد يا له من مدد وسند أعظم به من سند . يا أمة النبي المختار ان اللّه تعالى قد أنزل هذا الدين المبين وهداكم بهدي افضل المرسلين لتكونوا أعلى الامم وائمة للناس في الفضائل والهمم والمزايا وعلو الشيم كما قال اللّه تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[6] من اجل ذلك يجب على أهل هذا الدين الذي أساسه التوحيد والاتحاد وشعاره العلم والعمل .....[7] الحق والسعادة مهما كان جنس كل واحد منهم ومهما كانت حكومته وبلاده وان يكونوا كلهم أمة واحدة مجتمعين كلهم تحت لواء محمد صلى اللّه عليه وسلم متجهة قلوبهم إلى اللّه ووجـهـهم إلى الكعبة بيت اللّه وان لا يكون خضوعهم إلاّ إلى رب العالمين فانه قد طبع على نواصيهم طابع﴿إيّاك نعبد وإياك نستعين﴾[8] وان يستعدوا الآن يصدق فيهم وصف﴿يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[9] تجاه من يبغي الاعتداء على جامعتهم العظمى وكلمة اللّه العليا . أي عباد اللّه المسلمين ان السعادة نصيب من يبقى من المجاهدين في الدنيا وان الشهادة نصيب من يسبق منهم إلى الآخرة فيا أيها العطاش إلى العزة والسعادة ويا أيها الجائدون بأموالهم وأنفسهم لنيل الشهادة أصيخوا إلى قول اللّه سبحانه﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا﴾[10] وامتثلوا هذا الامر العظيم واقبلوا هذا الهدي الحكيم واجمعوا على قلب رجل واحد

---

(١) الورقة مقصوصة ثم ملصقة ولذلك فالكلام غير واضح .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٤١ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ٣٨ .
(٤) سورة التوبة ، الآية ٣٩ .
(٥) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .
(٦) سورة البقرة ، الآية ٢ .
(٧) كلمة ناقصة ، الورقة ممزوقة .
(٨) سورة الفاتحة ، آية٥ .
(٩) سورة الصف ، الآية ٦١ .
(١٠) آل عمران ، الآية ٢ .

حول سرير السلطنة وتمسكوا جميعاً بقوائم عرش الخلافة واعلموا ان الدولة انما تحارب اليوم من هم اعداء حياتها وهم المسكوف والفرنسيس والانكليز وتذكروا ان الذي يدعوكم الى هذا الجهاد العظيم انما هو خليفة رسولكم الكريم عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم فقاتلوا في سبيل الله انه سبحانه مؤيدكم وناصركم وقد وعدكم في كتابه المجيد ووعده حق وقوله صدق ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزِهم[1] وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾[2] .

قاضي العسكر وأمين الفتوى
شريف توفيق

قاضي العسكر
محمود أسعد

قاضي العسكر
نجم الدين

قاضي العسكر
محمد اسعد

قاضي العسكر
احمد خلوصي

قاضي العسكر
مصطفى توفيق

قاضي العسكر
ابراهيم اسعد

قاضي العسكر عطاء الله افندي
زادة
محمد شكري

قاضي العسكر
عمر خلوصي

أمين الفتوى
علي حيدر

شيخ الإسلام ومفتي الأنام سابقاً
أسعد

شيخ الإسلام ومفتي الأنام سابقاً
موسى كاظم

شيخ الإسلام ومفتي الأنام سابقاً
ضياء الدين

شيخ الإسلام ومفتي الأنام
خيري

المقرر الثامن للدرس
بالحضرة السلطانية
أيوب

المقرر السادس للدرس
بالحضرة السلطانية

المقرر الخامس للدرس
بالحضرة السلطانية
ولدان ؟

المقرر الرابع للدرس
بالحضرة السلطانية
طرنوة لي محمد حليم حلمي

المقرر الثالث للدرس
بالحضرة السلطانية
نصوح افندي زادة
مصطفى عاصم

المقرر الأول للدرس
بالحضرة السلطانية
محمد أشرف

رئيس مجلس التدقيقات
الشرعية
حسين كامل

وكيل الدرس
علي

القاضي بدار بالخلافة
العلية
مصطفى رضا

مستشار المشيخة الإسلامية أوليا زادة
ابراهيم اوليا

قاضي العسكر
عصمت

مكتوبي[3] المشيخة الإسلامية ماريني ؟
يوسف صدقي افندي زادة
أبو العلاء

مدير الاعلانات الشرعية
عالي

رئيس المسوّدين ؟
احمد اسعد

رئيس مجلس المشايخ
محمد أسعد

طبعت بالمطبعة العامرة بدار الخلافة الإسلامية .

(١) في الأصل ويخزيهم .
(٢) سورة التوبة ، آية ١٤ .
(٣) اي مدير التحريرات او مدير السّر .

بسم الله الرحمن الرحيم

قد امرت بنشر هذا البيان في جميع اقطار المسلمين

١٤ محرم سنة ٣٣٢

محمد رشاد

ايها المؤمنون

ان المسكوف الذين ما برحوا منذ عصور اعداء لنا لا نستطيع الداء واضداداً لمنافع المخلوقات قبلاء ويريدون ان يستعبدوا الامم ويضعوا عليها الاغلال [illegible] ... قد انشقوا [illegible] من الشرق الى الغرب وقد اوقدوا هذه الحرب العامة اليوم في اوروبا وتحالفوا مع الفرنسيس والانكليز الذين ما فتئوا [illegible] ... حياتهم وما زالت [illegible] على الخلافة الاسلامية ولا يجدون شفاء لما في نفوسهم من البغضاء الا بايجاد [illegible] ... هؤلاء الجبابرة الذين يقال لهم الائتلاف المثلث قد طغوا في العصر السالف على المسلمين [illegible] في الهند وفي آسيا الوسطى وفي اكثر انحاء افريقيا فاستعبدوهم ... واقاموا انفسهم حكاماً ومسيطرين عليهم [illegible] ... يوقدون علينا الحرب البلقانية [illegible] ... ونحن نعلم ما هو اهل الارض كلهم ويريدون ... يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ... سبحانه وتعالى [illegible] ... الامام ومصباح الظلام [illegible] ... فالحمد لله تعالى [illegible] ... انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم [illegible] ... وقوله تعالى يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض [illegible]

[illegible]

لقول العليم الحكيم « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » فمن عليهم إجابة [illegible] على المسلمين الذين [illegible] تلك الحكومات الجائرة [illegible]

[illegible] والهند والمسلمين الذين في إيران والأفغان والصين والمسلمين الذين في أفريقيا وسائر أقطار الأرض [illegible] الجهاد الأعظم بأموالهم وأنفسهم [illegible]

في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » وقوله عز وجل

« إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير » وقوله سبحانه « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون

كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » ثم يجب عليهم أن يتأملوا في هذه الآيات الكريمة والإرشادات الحكيمة ويبادروا إلى إنقاذ النفس من العذاب

الأليم [illegible] الثواب [illegible] والنعيم المقيم [illegible] المصيبة وجل الخطب [illegible] أعداء [illegible] من أبناء المسلمين الذين [illegible]

[illegible] هذا الخطب [illegible] البلاء [illegible]

[illegible] أجراً كبيراً وفوزاً عظيماً [illegible]

[illegible] للناس [illegible]

[illegible] « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » [illegible] التوحيد [illegible]

[illegible] محمد صلى الله عليه وسلم [illegible]

[illegible]

[illegible] السعادة [illegible] كلمة الله العليا [illegible]

[illegible] واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا [illegible]

[illegible]

[illegible]

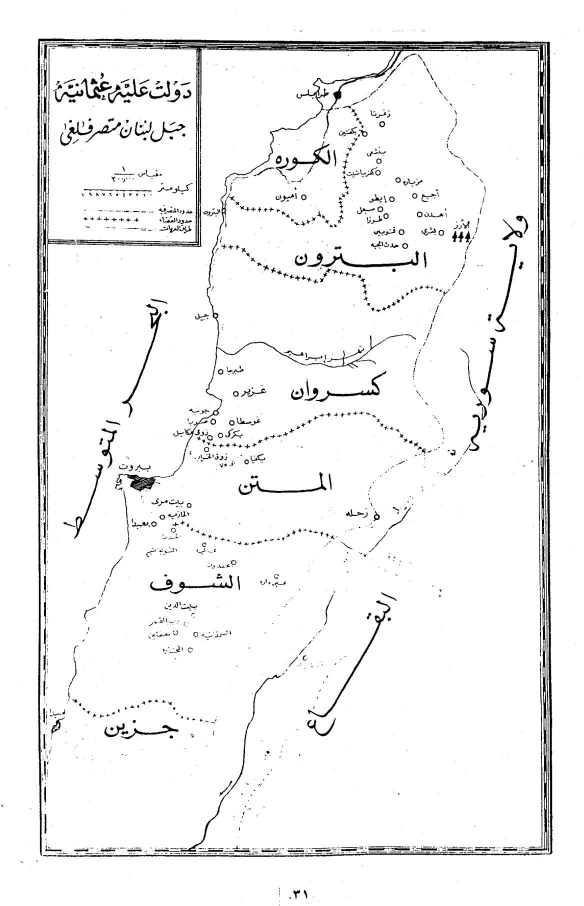
شيخ الإسلام [illegible] | قاضي العسكر [illegible] | قاضي العسكر [illegible] | قاضي العسكر [illegible] | قاضي العسكر [illegible] | قاضي العسكر [illegible]

[illegible]

أرقام بخط القرمه

١	٣٤	٦٧	١٠٠	١٣٣	٢٠٠	٣٠١
٢	٣٥	٦٨	١٠١	١٣٤	٢٠١	٣٠٢
٣	٣٦	٦٩	١٠٢	١٣٥	٢٠٢	٣١٠
٤	٣٧	٧٠	١٠٣	١٣٦	٢٠٣	٣٢٠
٥	٣٨	٧١	١٠٤	١٣٧	٢٠٤	٣٣٠
٦	٣٩	٧٢	١٠٥	١٣٨	٢٠٥	٣٤٠
٧	٤٠	٧٣	١٠٦	١٣٩	٢٠٦	٣٥٠
٨	٤١	٧٤	١٠٧	١٤٠	٢٠٧	٣٦٠
٩	٤٢	٧٥	١٠٨	١٤١	٢٠٨	٣٧٠
١٠	٤٣	٧٦	١٠٩	١٤٢	٢٠٩	٣٨٠
١١	٤٤	٧٧	١١٠	١٤٣	٢١٠	٣٩٠
١٢	٤٥	٧٨	١١١	١٤٤	٢١١	٤٠٠
١٣	٤٦	٧٩	١١٢	١٤٥	٢١٥	٤٠١
١٤	٤٧	٨٠	١١٣	١٥٠	٢١٦	٤٠٤
١٥	٤٨	٨١	١١٤	١٥١	٢١٩	٥٠٠
١٦	٤٩	٨٢	١١٥	١٥٦	٢٢٠	٥٠١
١٧	٥٠	٨٣	١١٦	١٥٧	٢٢١	٥١٠
١٨	٥١	٨٤	١١٧	١٥٨	٢٢٢	٥١١
١٩	٥٢	٨٥	١١٨	١٥٩	٢٢٣	٦٠٠
٢٠	٥٣	٨٦	١١٩	١٦٠	٢٣٠	٦٦١
٢١	٥٤	٨٧	١٢٠	١٦١	٢٣١	٧٠٠
٢٢	٥٥	٨٨	١٢١	١٦٩	٢٣٦	٨٠٠
٢٣	٥٦	٨٩	١٢٢	١٧٠	٢٤٠	٨٨١
٢٤	٥٧	٩٠	١٢٣	١٧١	٢٤٧	٩٠٠
٢٥	٥٨	٩١	١٢٤	١٧٢	٢٥٠	٩٩٩
٢٦	٥٩	٩٢	١٢٥	١٨٠	٢٥١	١٠٠٠
٢٧	٦٠	٩٣	١٢٦	١٨١	٢٦٠	١٠٠١
٢٨	٦١	٩٤	١٢٧	١٨٦	٢٦٦	
٢٩	٦٢	٩٥	١٢٨	١٨٨	٢٧٠	
٣٠	٦٣	٩٦	١٢٩	١٩٠	٢٨٠	
٣١	٦٤	٩٧	١٣٠	١٩١	٢٩٠	
٣٢	٦٥	٩٨	١٣١	١٩٢	٢٩٩	
٣٣	٦٦	٩٩	١٣٢	١٩٩	٣٠٠	

عمل محمد ظاهر



دولت عليه عثمانيه
جبل لبنان متصرفلغى
مقياس ١/٢٠٠٠٠٠
كيلومتر
حدود المتصرفيه
حدود القضاء
طريق العربات
طرابلس
زغرتا
بكفتين
الكوره
بنشعى
كفرياشيت
مزياره
أميون
أجبع
إيطو
سبعل
أهدن
طرزا
البترون
قنوبين
بشري
الأرز
حدث الجبه
البترون
جبيل
نهر ابراهيم
طبرجا
غزير
كسروان
جونيه
غوسطا
صربا
بكركى
زوق مكايل
زوق الخراب
بكفيا
بيروت
المتن
بيت مرى
الحازميه
بعبدا
زحله
الشوف
بيت الدين
جزين

مساندة محمد على للدولة العثمانية فى محاربة اتباع الشيخ محمد عبد الوهاب

مساندة محمد على للدولة العثمانية فى حروب استقلال اليونان

حروب محمد على فى الجزيرة العربية :

بعد أن فشلت الدولة العثمانية فى مواجهة رجالات الدعوة السلفية عن طريق ارسال ولاة الشام والعراق لمحاربتهم طلب السلطان مصطفى الرابع من محمد على والى مصر القيام بهذه المهمة على امل اعادة السيادة العثمانية على الحجاز ، ويبدو ان محمد على لم يكن راغبا فى القيام بهذه المهمة فى بداية الامر حيث تذكر الوثائق ان محمد على كان يماطل فى تنفيذها ويتلكأ فى ارسال هذه الحملة بحجة

ســـوء احـــوال مصر الاقتصادية التى لا تمكنه من الاعداد لهذه الحـــرب ورغبة فى قيـــام الدولة العثمـــانية بامداده بالاخشـــاب التى تمكنـــه من انشـــاء السفن اللازمة لعبـــور البحر الاحمر ، وامداده بالذخائر والمهمات التى تمكنـــه من خوض المعركة (١٧) ونتيجة لتكرار مطلب الدولة العثمانية، وخشية من أن يستثير محمد على غضب الســـلطان العثمانى اضطر الى ان يصـــدر اوامره بارســـال الحملة تحت قيادة ابنه احمد طوســـون .

وفى الثالث من سبتمبر ١٨١١م أبحرت قوات محمد على من السويس الى ينبع ومنهـــا اتجهت نحـــو المدينة المنورة ، وقد استولت هذه القوات فى طريقها على قريتى « بدر » « والصفراء » الا ان رجالات الدعـــــوة وقفوا لهـــا بالمرصـــادعند « الحديدة » وكادوا يقضون عليها مما اضطرها للتراجع الى « ينبع » وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله « انهزموا جميعـــــا وولوا الأدبار وطلبوا جميعا الفرار »(١٨) .

ونتيجـــة لتحرج موقف قوات طوســـون باشا قام محمد على بتعزيز قـــواته ، كما عمل على ضـــم بعض القبائل الى صفـــه مما ادى فى نهاية الأمر الى نجـــاح قوات طوســـون فى الوصول الى مكة وجدة .

وفى أواخر عام ١٨١٣م ســـار محمد على الى الحجاز لتولى القيادة بنفســـه ، وخلال ذلك منيت قواته بهزيمة منكرة عند بلدة « تربة » بالقرب من الطـــائف (١٩) ولكنها سرعان ما استطاعت تحقيق انتصارا كبيرا فى « بسل » (٢٠) .

وخشـــية من تطور المـــوقف ضد محمد على فى مصر ، وما تـــردد حـــول هروب نابليون من منفـــاه فى « البـــا » عاد محمد على الى مصر . ونظـــرا لتدهور احوال قوات محمد على فى الحجاز ونتيجة لفشل طوسون فى الامســـاك بزمام الموقف جمع محمد على قـــواده ورجال الحكم والسلطة وأعرب لهم عن رغبته فى اختيـــار قائد جديد للحملة بدلا من طوسون وخلال ذلك أمر ببســـط احدى الطنافس الكبيرة فى قصره ووضع فى وسطهـــــا تفـــاحة ، وقال ان الذى يتنـــاول التفاحة بيده ، ويقدمها لى دون أن يمس الســـجادة أكلفه بقيـــادة الحملة ، فأخذ الحاضرون يتطاولون على التفاحة

بلا جـدوى الى ان جـاء دور ابراهيم وكان قصير القامة ، فلم يزد على انه تنـاول طرف الطنفسـة بيده ، وطواها الى انوصل الى التفـاحة فتنـاولها واعطاها لابيه فولاه قيادة الجيش (٢١) وبعد أن وصـل ابراهيم باشـا الى بلاد الحجـاز بدأ فى بنـاء الحصون ، كما عمل على جـذب البدو اليه فدفع لهم رواتب منتظمـة وهدايا مما مكنه من جذب اكبر عدد من القبائل البدويـة اليه ، وبعد ذلك بدأ فى زحفه صوب نجد وتمكن فى نهـاية الامر من الوصول الى الدرعية واسـقاط الدولة السعودية الأولى فى عام ١٢٣٣هـ سبتمبر ١٨١٨ .

وعند تحليلنا لأسباب الصـدام العسـكرى بين الدولة العثمـانية والدولة السعودية الاولى يتضح ما يلى :

١ ـ انه كان هنـاك سوء فهم للدعـوة من قبل العثمـانيين فبعد ان احدثت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فزعا لدى مناهضيهـا حاولوا مقـاومتها فشـنوا عليها حربا نفسـية وفكرية لا هوادة فيهـا بهدف ابعـاد المسـلمين عنها فذكروا أن رجـالات الدعوة عطلوا سـبل الحج الى الحرمين الشريفين والحقيقة ان اتبـاع الدعوة لم يمنعوا احدا من الحج الا اذ كان مخالفا للطرق الشرعية(٢٢) .

٢ ـ انه على الرغم من الصـدام بين العثمانيين واتباع الشـيخ محمد بن عبد الوهاب فانه لم يعلن احد من الامراء السعوديين الخروج على دولة الخلافـة أو اعلان الخلافة على المسـلمين كما ادعى بعض اعـداء الدعـوة وجعل السلطان يرسل الجيوش لمحاربتها .

حقيقة لقد بـايع الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الامـير محمد بن سـعود على الامـارة ، ولكنه لم يبايعه على الخلافة العـامة للمسلمين والدليل على ذلك ان الامراء السعوديين ظلوا ينعتون السلاطين العثمـانيين فى مراسلاتهم بالخلفاء والسلاطين فى الوقت الذى كانوا ينعتون فيه انفسـهم بالتابع المخلص للسلطان (٢٣).

وعلى كل حـال فقد عم الفرح والسـرور عاصمة الدولة العثمانية بعد سقوط الدرعية (٢٤) كمـا كافأ السلطان العثمانى ابراهيم باشا على

هذا الانتصار بتعينه واليا على الحجاز ، ونتيجة لهذا الانتصار وعودة ابراهيم باشا الى القاهرة فى ٢٢ صفر ١٢٣٥هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٨١٩ بدأ محمد على يعد عدته لفتح السودان .

٤ — محمد على وفتح السودان :

اختلف المؤرخون فى اسباب حملة محمد على لفتح السودان وفيما يلى نعرض لأهم هذه الآراء :

١ — اعتقاد محمد على بأن ارتباط مصر والسودان ضرورة هامة لتحقيق بناء دولته الحديثة .

٢ — رغبته فى مطاردة بقايا المماليك الفارين من مصر الى دنقلة لشعوره انهم يمثلون خطرا ضده .

٣ — رغبته فى اكتشاف مناجم الذهب والماس والمعادن التى أشيع تواجدها بكثرة فى السودان .

٤ — رغبته فى تجنيد السودانيين فى جيشه النظامى[٢٥] .

٥ — سعيه الى اكتشاف منابع النيل .

٦ — توسيع نطاق المعاملات التجارية بين شطرى الوادى .

٧ — رغبته فى التخلص من بقايا جنوده الألبان والارناؤد وغيرهم من الفرق غير النظامية التى كانت تقض مضاجعه ، وتعيق عملية تحديث الجيش التى ينشدها ونتيجة لذلك بدأ محمد على فى اعداد الحملة فى يونيو ١٨٢٠م وتوغلت قواته فى السودان دون ان تجد مقاومة تذكر مع أن هذه الحملة لم تحقق اطماع محمد على فى الحصول على مناجم الذهب ، وفى اتساع نطاق العمليات التجارية ، وفى تجنيد السودانيين، فقد اهتم الباشا بتاسيس مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الازرق بالأبيض وادخال الزراعات المصرية الى السودان[٢٦] كما اهتم بارسال البعثات العلمية ، واصلاح الادارة والغاء تجارة الرقيق ونشر الأمن والحضارة .

٥ — محمد على وحرب استقلال اليونان :

بعد ان قامت الثــورة فى بلاد اليونان ضـــد الحكم العثمــانى فى ١٨٢١ بتشجيع من الدول الأوربية وبخــاصة الروسيا ارســلت الدولة العثمــانية جيشا بقيــادة خورشيد باشــا لقمعها ، ولكنه منى بالفشل مما جعل السلطان محمد الثــانى يفوض محمد على امر القضاء عــلى هذه الثورة فى نظير اضافة باشويتها اليه .

وعلى الرغم من ان بــلاد اليونان لم تكن مطمعــا لآمال محمد على فى أى وقت من الأوقــات فانه حــاول اقتنــاص الفرصة ليثبت للعــالم مدى تعــاظم قواته العســكرية وقدرتها على مساندة الســلطان فــى ميــادين القتال .

وفى عام ١٨٢٥ ارسل محمد على قــواته بقيادة ابراهيم باشــا الى أرض المورة [٢٧] واستطاعت بعد عدة محاولات النزول الى بلاد اليونان، وضرب الحصــار على منطقة نفارين Navarine وتمكن من استــــاطها ودخــول قواته اليها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٥ [٢٨] ونتيجــة لذلك خشيت الحكومات الاوربية من عــواقب انتصار القوات المصرية ، وبدات القضــية اليونانية تستحوذ انتبــاه الراى العــام الأوربى ، وبينمــا كانت الحكومات الأوربية تتهم ابراهيم باشــا بخرق حرمة قوانين الحرب كان القائد المصرى يصلى اليونانيين نارا حامية ، حتى سقطت مسولنجى Missolonghi فى الثــامن والعشرين من ابريــل ١٨٢٦م وفتــح بذلك الطريق الى اثينا [٢٩] مما جعل الدول الأوربية تتدخل فى الأمر ، فقــامت اساطيلها بمظــاهرة بحرية مشــتركة لايقاف القتــال واجبار الســلطان العثمــانى على اخــلاء المورة ، وكانت الروسيا اكثر الدول الاوربية رغبة فى التدخل العســكرى ضد قوات محمد على ، وفى السادس من يــوليو عام ١٨٢٧م اتفقت انجلترا وفرنســا والروسيا فى معاهدة عقدت بلنــدن على فرض هدنة حربيــة بين الطرفين ، ومع ان ابراهيم باشا احتــرم الهــدنة ، فان اليونانيين قاموا باســتفزاز قواته مما اضطر القــوات

المصرية الى انرد عليهم ونشوب معركة بحرية بين اساطيل الدول الأوربية والاسطولين المصرى والعثمانى فى العشرين من اكتوبر ١٨٢٧م انتهت بتحطيم الاسطول المصرى الناشىء وفقدان حوالى ثلاثين الف جندى [٣٠] .

ولما راى محمد على انه لا فائدة من استمرار القتال وشعر بالمخاطر التى يمكن ان تسببها الدول الاوربية له تم الاتفاق بينه وبين قائد الاساطيل الأوربية المتحالفة على سحب قواته من المورة ، وتبادل الاسرى بين الطرفين [٣١] ونتيجة لذلك ارسل محمد على ابنه ابراهيم يأمره بالجلاء عن المورة دون انتظار لأوامر السلطان ؛ فسحب ابراهيم قواته وترك الباب العالى وحيدا مما أحرج موقفه .

ومع ان خسارة مصر كانت فادحة فى هذه الحرب من الناحية العسكرية فان مكاسبها السياسية كانت كبيرة [٣٢] فقد فاوضت الدول الأوربية لأول مرة مصر دون وساطة الدولة العثمانية مما اكسب مصر منزلة معنوية كبيرة ، كما أن هذه الحرب كانت أول حرب يخوضها الجيش المصرى فى اوربا ويثبت من خلالها قدرته على مواجهة الموقف ، ويؤكد فيها تمتعه بأساليب الحرب الحديثة وفنونها .

وعلى كل حال فقد اشتد ضيق السلطان من محمد على لتفاوضه مع الدول الأوربية دون اذنه ، وسحب قواته دون الرجوع اليه ، كما بدا محمد على يراجع خطته تجاه الباب العالى الذى لم يكافئه على خدماته رغم تحطيم اسطوله ولم يمنحه سوى حكم جزيرة كريت مما جعله يفكر جديا فى الاستيلاء على بلاد الشام وتوسيع رقعة أملاكه على حساب الدولة العثمانية .

٦ ـ حروب محمد على فى بلاد الشام :

من المعروف ان بلاد الشام كانت مطمح انظار محمد على منذ حروبه فى الجزيرة العربية فقد طلب من السلطان اضافة منصب ايالة الشام الى منصب والى مصر مبررا ذلك بامكانية الحصول على الاخشاب وجمع الجنود من هناك ولكن طلبه كان مصيره الاهمال . ولما قامت

حرب المورة كرر محمد على طلبه بحجة تعويضه عما تكبده الجيش المصرى من خسائر فى هذه الحرب ، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضم هذه البلاد بالقوة مستغلا فى ذلك انهماك الدول الأوربية فى مسائلها الداخلية وانشغال الدولة العثمانية بالثورات الداخلية وحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وقد تذرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا الذى رفض تسليم آلاف الفلاحين المصريين اللاجئين اليه[٣٤]. وعدم وفائه بدين عليه ، وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام [٣٥] ومن هنا قام بارسال حملته لتاديبه فارسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ من اكتوبر ١٨٣١م فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر وفى الثامن من ديسمبر من نفس العام ضربت الحملة المصرية حصارا حول عكا وارسل ابراهيم باشا انذارا الى واليها يطالبه فيه بتسليم قلعة المدينة حقنا للدماء ، ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار امر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات [٣٦] .

ونظرا لفشل المحاولات التى بذلتها السلطنة العثمانية لتسوية المشكلة طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربة محمد على مما ادى الى تحرج الموقف وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا ، وقد نجح ابراهيم باشا خلال حروبه مع القوات العثمانية فى انتزاع طرابلس منهم وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سبل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم والجاهم الى الفرار [٣٧] وبعدها واصل ابراهيم باشا حصاره لعكا حتى سقطت قلعتها فى السابع والعشرين من مايو ١٨٣٢[٣٨] وكان ذلك بداية لانتصارات ساحقة لقوات ابراهيم باشا حتى تم له الاستيلاء على بلاد الشام كلها والوصول الى الحدود الفاصلة بين المتحدثين بالعربية والمتكلمين بالتركية فقد تقدمت القوات المصرية بسرعة هائلة داخل بلاد الشام واحتلت دمشق وانزلت الهزائم بالجيش العثمانى بالقرب من حمص وواصل ابراهيم باشا تقدمه فدخل حلب ثم التقى مع القائد العثمانى حسين باشا فى معركة فاصلة عند مضيق

بيلان والحق به الهزيمة [٣٩] وبعدها تقدمت قواته داخل الأناضول . وهزمت القوات العثمانية فى « قونية » فى نوفمبر ١٨٣٢م ثم مضى ابراهيم باشا فى زحفه تجاه كوتاهيه فوصلها فى الثالث من فبراير ١٨٣٣م واصبح الطريق الى الآستانة مفتوحا امامه مما ازعج الدول الكبرى فأبدت روسيا قلقها من هذهالانتصارات كما ابدت استعدادها لمساندة الدولة العثمانية ولما ترددت الأخبار بأن القوات الروسية قد ابحرت لنجدة السلطان العثمانى محمود انزعجت انجلترا وفرنسا التى وجدتا ان تدخل روسيا يمثل خطرا كبيرا يهدد التوازن العام فى اوربا ؛ ورات الدولتان وجوب اتخاذ اجراء سريع للحيلولة دون وصول النفوذ الروسى الى الآستانة فقابل قنصلا انجلترا وفرنسا فى مصر محمدا عليا ونصحاه بضرورة وقف زحف جيوشه والتفاهم مع السلطان . كما اوضحت الحكومة البريطانية لمحمد على اصرارها على ضمان استمرار كيان الدولة العثمانية وعدم تفككه [٤٠] مما جعل محمد على يرسل الى ابراهيم باشا أمرا بان يتوقف زحفه حيثما كان » وانتهى الأمر بصلح كوتاهية الذى نزل فيه السلطان لمحمد على عن كريت وسورية ماعدا اطنة وبعد قبول السلطان العثمانى لصلح كوتاهية فى مايو ١٨٣٣ بدات آمال محمد على فى تكوين دولة مستقلة تمتد حدودها الى أقصى بلاد الشام شمالا تبدو واضحة للعيان ، خصوصا وان امتلاك الشام يحميه من تربص السلطان به ، ويستر جناحه الأيمن ، ويمنحه السيادة على بيت المقدس حصن الاديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق احدى المدن العامرة بالثقافة الاسلامية ؛ كما يوفر له معظم حاجياته الاقتصادية [٤١] .

ولما فاتح محمد على الدول الكبرى بشأن تطلعاته هذه عارضته انجلترا اشد المعارضة ، وحذرته من عواقب هذه الخطوة وهددته باستخدام القوة ضده اذا تمسك برايه [٤٢] وقد استغلت الدولة العثمانية ذلك الموقف ، وبدات فى استفزاز محمد على والتحرش بقواته المرابطة فى بلاد الشام ، وترقب الفرصة السانحة للانتقام منه . ولما كانت الحرب واقعة لا محالة بين الطرفين فقد بدات القوات العثمانية تستفز القوات المصرية ؛ وتغير على مواقعها ؛ كما بدا محمد على يطالب

السلطان محمود الثانى بأن يكون حكم مصر والشام وراثيا فى ذريته مما أغضب السلطان ، وجعله يسرع باعلان الحرب عليه فبعثت الدولة العثمانية الى بلاد الشام جيشا كبيرا فى عام ١٢٥٥هـ تحت قيادة حافظ باشا وذلك لمقاتلة القوات المصرية وطردها من هناك ، ونتيجة لذلك زحف ابراهيم باشا بقواته حيث تجمع الجيشان بالقرب من سهل « نزيب » وهناك تم الاشتباك بينهما فى الحادى عشر من ربيع الثانى ١٢٥٥ هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩م فى معركة حامية انتهت بهزيمة القوات العثمانية ، وفتحت ابواب عاصمة الخلافة على مصراعيها لاستقبال الجيوش المصرية المنتصرة ، مما أزعج الدول الأوربية ودفعها الى التدخل بكل ثقلها فى المسألة لانقاذ الدولة العثمانية من السقوط حتى لا يتعاظم نفوذ محمد على الى الحد الذى يضعف نفوذها فى المنطقة ، وقد تزعمت انجلترا هذه الحركة ضد محمد على وطلبت من السلطان العثمانى ألا يبرم أى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول الكبرى [٤٣] . وفى أعقاب ذلك بدأت انجلترا وفرنسا تعملان على ايجاد المصاعب أمام قوات محمد على فى بلاد الشام فشجعت الأهالى على العصيان وامدوهم بالسلاح للوقوف ضدها [٤٤] وفى أعقاب ذلك بدات انجلترا فى التشاور مع الدول الأوربية بهدف العمل على اخضاع محمد على للسلطان وانتهى الأمر بعقد معاهدة لندن فى الخامس عشر من يوليو ١٨٤٠ والتى تضمنت ان يعرض السلطان على محمد على حكومة مصر وراثية له ولابنائهمن بعده ، وحكم عكا طوال حياته ، ويحرمه من السيطرة على الجزيرة العربية ، وسورية ، وكريت فى نظير أن يكون له الاستقلال الداخلى بمصر فى ظل قيود معينة مثل دفع الأموال المربوطة على مصر للآستانة سنويا وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح الألقاب وصك النقود ، فاذا لم يقبل هذه الشروط فى مدة عشرة ايام تنقص من حقوقه ولاية عكا ، واذا تأخر عشرة أيام اخرى ولم يقبل ما عرض عليه فللسلطان

الحـق فى اتخـاذ اى طريق تشير به عليه مصـالحه الخاصة ونتيجـة لرفض محمد على لهذه الشروط فى الايـام العشرة الاولى ضـاعت منـه ولاية عكا ، ولما بدأ العد التنـازلى للأيام العشرة الثانية ، ولم يجد محمد على المسـاندة من فرنسا أو غيرها قبل شروط الدول الكبرى[٤٥] ، وعلى اثر ذلك صدر فرمان ١٨٤١ واهم شروطه .

١ ــ ان يعطى محمد على ولاية مصر وتكون وراثية فى اسرته .

٢ ــ ان يتولى حكم مصر بعد وفاة محمد على اكبر افـراد اسرته سـنا .

٣ ــ تحجيم عدد الجيش المصرى بحيث لا يزيد عن ١٨ الف جندى.

٤ ــ قيام مصربدفع مبالغ سنوية للدولة العثمانية مقـدارها ٣٢٠ الف جنيـه .

ومما سبق يتضح ان هذه التسـوية لم تكن اجراء داخليـا بين السلطان ومحمد على وانمـا كانت تسـوية دولية نجحت الدول الكبرى فيها فى تحطيم آمال محمد على فعـادت مصر الى حدودها القديمة باضافة السودان اليها ، كما اهملت مشروعات محمد على الاقتصادية والعمرانية.

دفتر رقم [١] معية تركي
ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٢
بتاريخ ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٢٤

من : محمد علي باشا
الى : الدولة العلية

ان الحرمين الشريفين اللذين هما مدار الافتخار ورأس مال التأييد والانتصار للدولة العلية الأبدية الاستمرار قد وقعت المباشرة من طرف الدولة العلية في استكمال أسباب ازالة وجود الخوارج المستولين عليهما من غير تقصير ولكن لم تتيسر رؤية المصلحة المذكورة وانجازها على مقتضى تقدير الحي القدير وفضلا عن ذلك أخذ العدو المرقوم يتقوى يوما فيوما ، وهذا الأمر الذي هو الآن أهم مهام الدين وقد أحيل الى عهدة الخادم المطيع منذ عدة سنوات والواقع انى لم ازل أتمنى انجاحه بيد هذا العاجز لكن لم يتيسر لنا وقت لحد الآن الى الحركة والقيام بذلك ، وعلى مقتضى "الأمور مرهونة بأوقاتها" ، كلما تقرب وقت القيام بهذا العمل تزداد رغبتي واشتياقي الى درجة لا يكون لي في نومي بالليل رؤيا ولا في ذكري وفكري بالنهار تخيل غير تدابير هذه الخدمة المستوجبة للمغفرة والله شهيد على ذلك وانا الآن في انتظار ورود ما كنت طلبته مكاتبا بأنا في معروضاتي التي كنت قدمتها سابقا الى مستقر العدالة العتبة العلية من المهمات واللوازم المدفعية والحربية في انتظار وادراك الحصول الجديد واقسم بالله العلي الأعلى أنه لو كانت اللوازم المذكورة توجد في محل غير الدولة العلية ولا بد يمكنه أخذها منه لكنت أبيع أولادي واشتري اللوازم المذكورة ولما كنت أورث صداعا برأس الدولة العلية لكن الحاجة الى تلك اللوازم لما هي في الضرورة قاضية بالحصول عليها البتة والسبب والمباشرة في العمل من غير وجودها أمر مستحيل ، فبناء على ذلك ينتظر هذا العاجز على كل حال بذل الهمة الى الاسراع في ارسال اللوازم المعلومة المقدار التي طلبتها بموجب الدفتر الذي أرسلته سابقا وفي هذه المرة ايضا ، أما ما احتاج اليه لأجل نقل ما أرسله بحرا من العساكر والذخائر والمهمات بوضعها فيه من عشرين زورقا فجار انشاؤه في مرفأ السويس لكنه حيث يحتاج الى ثلاث سفن كبيرة حربية سوى تلك المراكب ، قد وقع تدارك الأخشاب اللازمة وسائر الآلات من دمياط لأجل انشاء سفينة بطول خمسة وثلاثين ذراعا ونقلت الى السويس ، فانشاء هذه السفينة جار أيضا وقد أخذت سفينة جديدة بطول ستة وثلاثين ذراعا انشأتها بالاسكندرية لتجارتنا [وكيلنا] السابق محمد آغا من الحائزين لرتبة رئاسة الحجاب بالعتبة العلية (درگاه عالی قپوجی باشیلرندن) وأركب فيها

اسماعيل قبودان البشكطاشي جبل الناس[1] وعبد الرحمن الموصى اليه للمالطة على أن ينقل السفينة المذكورة وسفينة أخرى يشتريها من مالطة على أن يدفع ثمنها من عند هذا العاجز، ويوصلها بالدوران من وراء افريقية الى مرفأ السويس. وسيرسل الرحمن الموصى اليه بمنه تعالى بعد عدة أيام. واذا تعللت دولة الانجليز عن تسليم السفينة المذكورة فمن غير أن ينفهم تحريري الى الدولة العلية (....) ويتدارك الفلك الجديدة الى أن تصل السفينتان المذكورتان بمنه تعالى الى المرفأ المذكور، فاذ ذاك أغتنم بجد انجاز ما اسرق برؤيته من خدمة الدين والدولة بارسال جليلة جسيم بحراً وبراً متوكلاً على الله تعالى من غير تعلل ولا سرد أعذار ومن غير انتظار الى انجاد من جهة الشام وبغداد فيلزم الاتيته في ذلك. ولا يعوق عبدكم من المصلحة المذكورة بذل الهمة في ارسال مطلوب الخادم المطيع من اللوازم المدفعية والحربية مع تأمين أسباب دور السفينتين [من وراء افريقية] الى السويس وقد ريث واصلحت داراً واسعة في داخل مصر مع مخزن غلال لوضع ما عندنا من لوازم السفال والقرب والأكياس فيها فتحفظ اللوازم المهيأة وما يجلب من الأدوات في الدار المذكورة فبمجرد وصول مطلوب هذا العاجز من أنواع اللوازم المدفعية والحربيات عند ادراك الوصول الجديد وورود السفينتين المذكورتين الى مرفأ السويس أرسل الجليلة بتداركات قوية بحراً وبراً وأسعى جهد الطاقة برأسي وروحي في انجاز الخدمة الشريفة المذكورة كما هو ظاهر، وانتاج هذه الخدمة بيد هذا العاجز كما أتمناه من الله عز وجل أمر واضح بالظهر. والله سبحانه المسؤول أن يجعل توفيقه رفيقاً لنا في كل حال ولا يخجلنا في هذه المهمة آمين. وقد قدمت عريضة الخادم المطيع المحررة للافادة كيفية تدابيري بعثتها مع موظف بريدي الخاص. وحيث أن أحد ما أفدته في هذه العريضة وفي عريضتي السابقة عبارة عن ارسال المهمات والآخر عبارة عن مسألة السفينة فاللازم هو انجازهما من طرف الدولة العلية واتمام المأمورية المخصوصة من طرف عبدكم. وعند احالة علمكم العالي بذلك الأمر والارادة ؟

– توضح هذه الوثيقة مدى مماطلة محمد على وتسويفه فى الذهاب إلى الجزيرة العربية لمحاربة اتباع دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب واستغلاله كافة الفرص للحصول على العديد من المستلزمات والأموال من الدولة العثمانية.

[1] هكذا في الأصل ويرد هذا اللقب أحيانا في محررات غير هذا الدفتر على صورة (جبل اقطار) وحينا آخر على صورة (جبل الطار) ولعل الصواب ما هنا فليحرر.
المترجم

١ – معركة نفارين NAVARINE البحرية

٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ (١٢٤٣هـ)

دراسة فى وثائق المعية السنية

أهجت يايوم نفارين أشجانى
ففيك طاشت رجوم الحاسد الجانى
وفيك دالت أمانى النيل واندثرت
عرائس النيل لم تظفر بميدان

من قصيدة أحمد زكى أبو شادى : نكبة نفارين

أولاً : المقدمة

كتابة التاريخ من واقع مصادره الأصلية تتيح للمؤخ الإلمام الدقيق بحقائق العصر الذى يدرسه، وتجعل أمامه صورة الأحداث واضحه وتضيف دلالات جديدة وموضوعيه لبحثه ، وتجعله ينهج نهج الأسلوب العلمى الذي يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير وإنما يستقى التاريخ من أوثق المصادر والأصول التى تجعله يقف على حقائق الأمور بلا أدنى شك أو موارية ، فالوثائق هى المادة الخام التى تحمل روح العصر الذى كتبت فيه ، والتى تعطى الفهم الصحيح له وتفسر احداثه .

وديوان المعيه السنية[1] بقسميه العربى والتركى والذى اعتمدنا عليه فى كتابة هذه الدراسه يتميز عن غيره من الدواوين بأهميته التاريخيه خاصة وأنه الديوان الذى ينشر أوامر الوالى ، ويفحص مختلف أعمال الدولة ، ويفصل فى القضايا التى تقدمها إليه الدواوين الأخرى ، وكانت بواسطته يتم الأتصال مع الدول الأخرى .

وهذا الديوان عبارة عن وحدة أرشيفيه متكامله منظمه تشمل العديد من الدفاتر والمحافظ ويتكون القسم العربى منه من ٥٠٤ سجلاً أقدمها السجل رقم (١) بتاريخ سنه ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) وأحدثها بتاريخ ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩م) وهذه السجلات تشمل العديد من الأوامر والشروح والخطابات والفرمانات .

أما القسم التركى من دفاتر المعيه والذى اعتمدنا عليه بصفه اساسيه فى هذه الدراسه فمعظمه مترجم إلى العربيه ، وبداية كتابة أوامر الوالى وتعليماته فيه أقدم من سجلات القسم العربى فمن المعروف ان الأوامرالحكومية الرسمية كانت تكتب فى بداية عصر محمد على باللغه التركيه ، ثم كتبت بالتركيه والعربيه ثم رجعت إلى التركيه فقط ، وأن هذه الوثائق قد تم ترجمة معظمها إلى العربيه فى عصر الملك فؤاد الذى عمل على إماطة اللثام عما أحتوته دار المحفوظات من وثائق بهدف الإشاده بأعمال جديه إبراهيم ومحمد على ووالده إسماعيل وابراز دورهم فى تأسيس مصر الحديثه[2] .

والوثائق التى نعرض لها تمثل صوره حيه بالأسانيد والأرقام الرسميه لحروب محمد على فى بلاد اليونان منذ ان طلب منه السلطان محمود الثانى مساندته فى إخماد الثوره اليونانيه وحتى واقعة نفارين البحريه وما أعقبها من تطورات .

---

[1] أطلق على هذا الديوان مسميات عديدة منها ديوان الوالى ، وديوان شورى المعاونة ، والديوان العالى وقد نشرت وزارة الثقافة والإرشاد القومي السجل الأول من القسم العربى من هذا الديوان والذى يشمل الفترة من ٨ يوليو ١٨٢٩ إلى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٠ فى يوليو ١٩٦٠ .

[2] ظلت التركية لغة الدواوين معظم عصر اسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية .

للتفاصيل انظر كتابنا اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، القاهرة ، عين للدراسات والنشر ١٩٩٤ ص ٤٥ وما بعدها .

والجدير بالذكر ان لغة هذه الوثائق سواء العربيه او المترجمه من التركيه فى معظمها ركيكه لم يراع فيها قواعد النحو أو الهجاء إلى جانب امتزاجها فى معظم الأحيان بكلمات تركيه وفارسيه وقد إضطررنا حفاظاً على الأمانه التاريخيه إثبات هذه الوثائق بأسلوبها كما هى وعدم التدخل بالتصويب لأى خطأ يكون مصدر الوثيقه قد وقع فيه حفاظاً على أصالتها ، ومراعاة لأسلوب العصر الذى كتبت فيه .

والجدير بالذكر أن التاريخ المتبع فى تسجيل هذه الوثائق هو التاريخ الهجرى ، ويذكر أحياناً بجانبه التاريخ القبطى خاصة فى الوثائق المتعلقة بالزراعة ومواعيدها .

من المعروف أن بلاد اليونان كانت جزءاً من السلطنه العثمانيه منذ أن دخلتها قوات محمد الفاتح فى عام ١٤٥٣م ، وأن السلطان العثمانى كان يرسل إليها من يحكمها من ولاته حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر واستمرت الأمور على ذلك المنوال حتى أسس التجار اليونانيون جمعية اطلقوا عليها هيتريا أى جمعية الإخوان Hetairia Philike بهدف طرد الأتراك من أوربا ، وتخليص اليونان من التبعيه الأسلاميه ، وإنقاذ الحضارة الإغريقية من سيطرة الأتراك تحقيقاً لوصية بطرس الأكبر وكاترنيا.

وقد استندت هذه الجمعيه على عدة ركائز منها :.

مبادئ الحرية والمساواة التى أطلقتها الثورة الفرنسية ، والمساندة المادية والمعنوية من العديد من الجمعيات الأهلية التى تشكلت فى معظم بلدان أوربا تحت اسم جمعيات محبى اليونان هذا بالإضافه إلى تشجيع بعض الدول الأوربيه خاصة الروسيا على الثورة ضد العثمانيين ، واشتداد النعرة ضد مساوئ الحكم العثمانى والمبالغة فى وصف هذه المساوئ .

ونتيجة لذلك اتخذ اليونانيون من المورة حصناً منذ عام ١٨٢١م وشكلوا حكومتهم ، واشتعلت نيران ثورتهم ، واستطاعوا ان يكبدوا العثمانيين خسائر فادحه حيث قاموا بتوجيه الضربات المفاجئه للحاميات العثمانيه فى العديد من المواقع ، كمال ضيقوا الخناق على الأسطول العثماني المرابط فى المياه الألبانية ، وقطعوا الطريق عليه حتى أضحى كالأسير مما اضطر السلطان العثمانى محمود خان [1] إلى طلب النجدة من محمد على والى مصر لعله يستطيع بجيشه واسطوله انقاذه من هذه الورطة وإعادة الأمور إلى نصابها فى نظير منحه لقب "حاكم كريت والمورة " ولقب " قاطع دابر الكفرة والمشركين[2] " .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمحاً لأمال محمد على فى أى وقت من الأوقات فقد أكدت الوثائق أن محمد على لم يتردد لحظة فى إجابة السلطان إلى طلبه [3] بل حاول إقتناص الفرصة ليؤكد للسلطان مدى قدرته على مساندته فى الظروف الصعبة ، وإظهار تمام رضوخه لما تأمره به الدولة فأرسل رسالة إلى السلطان يقول فيها " إنى بصفة كونى خادماً لولى نعمتى صاحب الشوكة السلطان المعظم فإنه يمكن للدولة العلية أن تطلب جميع ما تريد ، وإنى مستعد للقيام به وفاءً بحق الدين والملة ، وأن ذلك عندى من الأمور المعتنى بها ، وإنى

---

[1] السلطان محمود الثانى .

[2] رينيه وجورج قطاوى : محمد على وأوربا – ترجمة الفريد يلوز – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ، ص ٨١ – ٨٢ .

[3] دفتر معية تركى بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٣٦ هـ وثيقة رقم ٢٩٢ .

لا أتأخر عن بذل نفسى فى سبيل تقوية شأنها وإعلاء كلمتها ورفع قدرها [١] " . ونتيجة لذلك أمر محمد على صهره أمير البحر محرم بك[٢] بتجهيز الإسطول والتحرك لمساندة الإسطول العثمانى المحاصر ، وتعزيزه بالمهمات والذخائر[٣] .

وقد أعد محرم بك أربع عشرة سفينة حربية بما يلزمها من الجنود ، وأقلع بها لمساندة الدولة العثمانية فى محنتها وبعد أن وصل إلى مياه كريت إشتبك مع بعض السفن اليونانية التى كانت تهاجم سفينة تجارية عثمانية ، كما قام بمطاردة سفن القراصنة فى بحر إيجه ، ونظراً للخسائر ألتى تعرض لها الإسطول المصرى فى هذه المناوشات عاد إلى الأسكندرية مضطراً فى محاولة لإعادة تنظيم وتعويض ما فقده وإصلاح ما يحتاج من السفن إلى ترميم[٤] .

وفى محاولة من محمد على لتعزيز الموقف أعد أسطولاً أخر يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة " طبو زادة أوغلى قبوجى باشا محمد أغا " لمساندة الأسطول العثمانى والعمل على تخليصه من الحصار[٥] .

كما أعد جيشاً برياً مكوناً من ١٧ ألف جندى من المشاة ، وأربعة بلوكات من المدفعية وسبعمائة وخمسين من الفرسان ، وأوكل قيادته لابنه إبراهيم ومساعده الكولونيل سيف[٦] .

وقد أقلعت هذه الحملة من الأسكندرية فى ١٩ يوليو ١٨٢٤ واتفق على أن يتجمع الأسطولان التركى والمصرى فى جزيرة رودس ثم يتحركا فى إتجاه الجزر اليونانية المتناثرة فى بحر إيجة حيث كانت تمثل المعقل الرئيسى للثوار والقراصنة الذين هددوا المراكب العثمانية وبعدها يتحركون نحو شبه جزيرة المورة المركز الرئيسى للثورة .

وطبقاً لتعليمات الباب العالى فقد تولى القيادة البحرية العليا للأساطيل القبطان " خسرو باشا[٧] ، بينما تولى " إبراهيم باشا " قيادة القوات البرية .

---

[١] انظر وثيقة رقم (١) تحت عنوان رسالة من محمد على إلى السلطان محمود خان .

[٢] أصله من قوله ، وقد استخدمه محمد على فى كثير من المهام ، ولقته به زوجه بكريمته تفيده هانم ، وجعله محافظاً للأسكندرية ، كما أحال إليه إدارة أسطوله وإشترك فى حرب المورة وواقعة نفارين ثم عاد إلى الأسكندرية محافظاً .
أنظر دار الوثائق : محافظ ابحاث ، محفظة ١١٤ .

[٣] أنظر وثيقة رقم (١) بتاريخ ١٠ شوال ١٢٣٦هـ .
ومن المعروف أن تكوين البحرية المصرية فى العصر الحديث بدأ فى عام ١٨١٠ منذ أن شرع محمد على فى خوض غمار الحرب مع الوهابيين ففى ترسانة بولاق أنشئت السفن التى إستخدمتها مصر فى البحر الأحمر خلال حروبها مع الوهابيين . وفى ترسانة الأسكندرية أنشئت السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط حيث عهد محمد على إلى شاكر أفندى الأسكندرى وإلى الحاج عمر أحد مشاهير المعلمين فى بناء السفن بالأسكندرية مهمة إنشاء وعمارة إسطوله ، كما أنشأ إدارة خاصة لهذا الإسطول جعل على رأستها صهره محرم بك .

[٤] فقد الإسطول المصرى فى هذه المناوشات ثلاث سفن ، كما تعطل أربعة .
أنظر عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على ، القاهرة دار المعارف ١٩٥٠ ص ١٧٩ .

[٥] أنظر الوثيقة رقم (١) .

[٦] دفتر١٣ معية تركىبتاريخ غرة رجب ١٢٣٩هـ (١٨٢٤م) ص ١٠٤ وللتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص ٢١٦ ، وبييركرابيتس إبراهيم باشا – ترجمة محمد بدران – القاهرة ، لجنة لتأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ص٧٠ .

[٧] أول والى عثمانى لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها فى عام ١٨٠١ ، وبعد أن تم إبعاده عن مصر بفعل دسائس محمد على تولى الصدارة العظمى أكثر من مرة فى الأستانة .
أنظر دار الوثائق : محافظ أبحاث محفظة ١١٤ موضوعات متنوعة .

ونتيجة لعدم توحيد أمر القيادة العليا في يد قائدٍ واحدٍ يستطيع إدارة دفة القتال ، ونظراً للكراهية الشديدة التي كان يكنها خسرو باشا لمحمد علي وإبنه ، ولرغبته في إظهارهما أمام السلطان بمظهر غير المتعاون وغير المهتم بمصلحة السلطنة أخذ خسرو باشا في كتابة التقارير ضد ابراهيم وإرسالها إلى الأستانة ، كما إشتكى إبراهيم من " خسرو " لعدم إسعافه بالسفن اللازمة أثناء حصار ميسولونجي ونتيجة لذلك وحرصاً على حسن سير العمليات الحربية طالب محمد علي السلطان بأن يتولى ابنه ابراهيم القيادة العليا للأسطول بجانب قيادته للقوات البرية حتى يتمكن من إحراز النصر[1]

ومع أن السلطان قد وافق على عزل خسرو من القيادة البحرية فإن لم يعيّن ابراهيم مكانه بل عيّن عزت باشا قبودانا[2] للأسطول كما أصدر السلطان فرمانا في ٦ مارس ١٨٢٤ بتعيين إبراهيم باشا واليا على جزيرة كريت وموره ، ومنحه الحرية الكاملة لإعادة النظام والاستقرار إلى بلاد اليونان .

وسارت العمليات الحربية على قدم وساق ، وفي حين كانت القوات البرية بقيادة إبراهيم باشا تحقق الانتصار تلو الآخر كان الأسطول العثماني المصري[3] يتلقى الضربات الموجعه في البحر ويحقق اليونانيون العديد من الانتصارات عليه وقد يرجع السبب في ذلك إلى مهارة اليونانيين البحرية ، وعدم وجود قواد بحريين أكفاء لدى العثمانيين أو محمد علي هذا بالإضافة إلى حداثة عهد المصريين بركوب البحار ، وقدرة السفن اليونانية الصغيرة على المناورة وخفة الحركة أكثر من السفن العثمانية الضخمة ثقيلة الحركة .

وعلى أي حال فقد استغل ابراهيم باشا الخلاف الذي دبّ في معسكر الأغريق ، وتذمر بعض بحارتهم وإضرابهم بسبب عدم دفع رواتبهم واستطاع أن يضرب الحصار على نفارين Navarine معقل بلاد اليونان وتمكن من اسقاطها في الثامن عشر من مايو ١٨٢٤ وكانت هذه المعركة فاتحة انتصاراته في حرب المورة ، كما استطاع احتلال تريبولتزا Tripolitza بوسط اليونان في الثالث والعشرين من يونيو ١٨٢٥ . وفي اعقاب ذلك أخذت قوات ابراهيم باشا تأهب للزحف نحو نوبليا Nauplia [4] قصبة بلاد اليونان مما أدى إلى اقتراب الثورة اليونانية من نهايتها دون أن تحقق مبتغاها في الاستقلال .

ونتيجة لذلك إرتاعت أوربا خشية من عواقب انتصار القوات المصرية ، وعقدت نيتها على ألا يستكين الصليب للهلال [5] فبدأت الحكومات الأوربية في الإساءة إلى سمعة ابراهيم باشاوتشويه صورته أمام الرأى العام الأوربي باتهامه بالبربرية لقيامه بسفك دماء الأسرى ، وخرق قوانين الحرب .

---

[1] أنظر وثيقة رقم (٧) تحت عنوان رغبة محمد على في توحيد القيادة العليا للإسطول ووضعها في يد إبنه إبراهيم .

[2] بمعنى قائداً للأسطول .

[3] كان الأسطول المصرى مكوناً من ثماني عشرة سفينة حربية على حين كان الأسطول العثماني مكوناً من ست عشرة سفينة ، وأربع سفن تونسية وجزائرية ، وست حراقات ، وأربعين مركباً لنقل الجنود .

[4] كانت حكومة الثورة قد إتخذت من هذه المدينة عاصمة ومقراً لها .

[5] بيير كريبتس : إبراهيم باشا – ترجمة محمد بدران – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ ص ٧٧ .

وبينما كان القائد المصرى يصلي الثوار ناراً حامية ويتحقق له الفوز الساحق فى المعارك التى خاضها والتى كان أبرزها سقوط (مسولنجى) Missòlonghi في الثالث والعشرين من أبريل ١٨٢٦ [١] مما جعل الطريق إلى أثينا مفتوحا رأت الدول الأوربية أنه لا مفر من التدخل الفعلى لمساندة اليونانيين وتأييد جانبهم . وتحكى لنا الوثائق عن عقد إنجلترا وفرنسا وروسيا لمؤتمر فى لندن فى السادس من يوليو ١٨٢٧ بقصد إنهاء الأزمة اليونانية ، وإعادة حبل الأمن فى البحر المتوسط[٢] واتفاقها على ضرورة قيام الباب العالى بمنح بلاد اليونان استقلالاً إدارياً فى ظل السيادة العثمانية ، وعلى أساس دفع جزية سنوية ، وإذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال فإن الدول الثلاث تتفاوض فيما بينها " لتفرض الهدنه على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من غير أن تشترك هى مباشرة فى الحرب "

وبينما كانت المناورات السياسية مستمرة ، وجهود الدول الأوربية لوقف القتال تتحرك فى كافة الأتجاهات استولى إبراهيم باشا على أثينا ، وضرب الحصار على قلعة الأكروبولسAcropolis حتى سلمت فى ٢٧ يونيو ١٨٢٧ مما شجع السلطان على رفض وساطة الدول الأوربية بحجة أن معالجة أمر العصاة من حقوق الدولة العلية ، وأن الثورة اليونانية تعد مسألة داخلية بحتة ، وأن السلطان لن يقبل أى مسعى فى هذا السبيل لأن التدخل فى مثل هذه الشئون بالنسبة للعلاقات الدولية يعد أمراً فى غير محله[٣].

وعلى الرغم من اصرار السلطان العثماني على موقفه وتشدده في معالجة الأمور ، فقد كان لمحمد علي رأيٌ أخر فرضه عليه تفكيره في عواقب الأمور إذا ما تدخلت أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا في المعارك لصالح الثوار ونتيجة لذلك أرسل إلى الصدر الأعظم بالأستانة يعرض عليه الحالة الحربية في بلاد المورة بشكل واضح والمأزق الذي يمكن أن تتعرض له القوات والأساطيل الإسلامية إذا لم يتم تسوية الأمر سلميا بقوله " إن عمل الدول في الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب ! .. نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب إلا أننا ما زلنا في مستهل كتاب الحرب نقرأ في حرف الألف والباء أما الدول فقد أتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فإني أرى بصفة محققة أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفا من الجنود الموجودة فيها [٤] "

وحفظاً لماء الوجه اقترح محمد علي توسط النمسا في الأمر حتى يمكن تسوية الموضوع بالشكل الذي يرضي السلطنة . ونظراً لرفض السلطان لأي مسعى سلمي ، وتشدده في معاقبة الثوار رأت الدولُ الأوروبيةُ أنه من الصعب حسمَ النزاع لصالح اليونانيين إلا بالإلتجاء إلى القوةِ لصالحهم ، وأنه أصبح من واجب القواتِ البحريةِ المتحالفةِ أن تبدأ الإتصال بالثوار

---

[١] حول تفاصيل هذه المعركة أنظر عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص١٩٩-٢١١ .

[٢] محافظ بحر برا . محفظة رقم ١١ ترجمة القسمُ الخاصُ بالمورةِ من المكاتبة رقم ٤٦ بتاريخ ١٢ رجب ١٢٤٢ هـ .

[٣] نفس الوثيقة .

[٤] انظر وثيقة رقم (١٣) تحت عنوان مقترحاتِ محمد علي للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وانهاء الأزمة اليونانية سلمياً .

إتصالاً وديا ، وان تصادر كلَّ الإمدادات التي ترسلها الدولة العثمانية عن طريق البحر لمحاربتهم .

وإلى جانب ذلك حاصرت أساطيلُ الدول المتحالفةِ قوات ابراهيم باشا ، وقامت بتحذيره من التقدم بقواته أو خروج أسطوله إلى عرض البحر حتى لا يتم استخدام القوة ضده . وكان رد ابراهيم باشا على هذا التحذير أن مهمته لا تشمل السياسة وأن التفاوض يكونُ مع محمد على فى مصرَ أو مع السطان فى الأستانة ، وحتى تصدرَ إليه التعليمات فى هذا الشأن فأنه يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها قواته البرية والبحرية مؤقتا بشرطِ توقفِ الثوار عن أعمالهم العدائيةِ [1] .

وخلال ذلك بدأ اليونانيون يتحينون الفرصة للايقاع بإبراهيم باشا واستفزاز قواتهِ خاصة بعد أن وصلتهم الامدادات من أنحاء أوربا فقاموا بحركاتٍ عدائيةٍ فى خليج كورنثوس ، وحاصروا كريتَ ونجحوا فى إيادة حامية عثمانية مما أدى إلى تحرج مركز القوات المصرية فى باتراس patras (شمالى مورة) وجعلَ ابراهيم باشا يضطرُ إلى قطع حبل المهادنة ومطاردتهم ومن ثم أبحرَ إلى باتراس مع مجموعةٍ من السفن الحربيةِ مما عجلَ بوقوع الكارثةِ فقط اتهمه قادةُ الحلفاء بنقض الهدنةِ المتفق عليها ، وأرسل " كوردنجتون" قائد الأسطول الإنجليزى سفنه لتعقبِ السفن المصريةِ ، وتهديدها بالحربِ إذا لم ترجعْ من حيث أتت فاضطرت للعودةِ إلى نفارين . وعلى الرغم من ذلك فقد زحف إبراهيمُ باشا بقوةٍ من جندِه داخلَ المورةِ لإنجاد الحاميات المصريةَ التى تطاول عليها الثوارُ مما دفع قوادُ الأساطيلِ المتحالفةِ إلى اتهامه بنقض الهدنةِ واتخذت من ذلك ذريعةً للتحرش بالبحريةِ المصرية العثمانية.

وكانت السفنُ المصريةُ والعثمانيةُ داخل الميناء فى ثلاثةِ صفوفٍ متوازيةٍ تقريبا كلٌ فى شكل نصفِ دائرةٍ ، وكانت السفنُ الكبيرةُ والفرقاطات[2] فى الصف الأول ، ويليها سفنُ القرويت[3] ثم سفنُ الأبريق [4] وغيرها بعدها فى الصفِ الثالثِ . وكانت بنفارين استحكاماتٌ لتحمى مدخلَ الميناء كما وضعت بطارياتٍ من المدافع فى طرفِ جزيرة" أسفاختريا " مع مساعدةِ سفنٍ خفيفةٍ من الحراقاتِ [5] .

وخلالَ ذلك أرسلَ أميرَ البحر الفرنسى (رينى) إلى الضباطِ الفرنسيين العاملين فى الأسطولِ المصرى بترك أعمالهم والتخلى عن الخدمةِ فى الأسطول المصرى حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوة [6].

---

[1] حول المكاتباتِ عن هذا الموضوع انظر . أمين سامى : تقويم النيل جـ ٢ ص ٣٣٠ .

[2] الفرقاطة كانت تحملُ حوالى خمسمائة من الجنودِ ، و٦٤ مدفعا كبيرا وصغيرا .

[3] القرويت مركبٌ حربىٌ يحمل حوالى مائتين من الجنود أو مائتين ونيفا كما يحمل من اثنين وعشرين إلى خمسة وأربعين مدفعا صغيرا وكبيرا .

[4] الأبريق مركبٌ حربىٌ له صاريان ويحمل من الجنود حوالى مائة كما يحمل مائتين ١٦ و ١٨ مدفعا صغيرا انظر . عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى طبعة ١٩٤٠ ص ٢٠٩

[5] الحراقات مراكبُ تشتعلُ فيها النيرانُ فتندفع وسط سفن الأعداء لتحرقها بنارها ، وذلك عن طريق توجيهها بواسطةِ دفع الريح لشراعها .

[6] عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص ٢١٨ .



خريطة المورة
مبين عليها أهم مواقع المعارك
فيما بين ١٨٢٢ ، ١٨٢٨
البحر الأبيض المتوسط
سيا الصغرى
سكيروس
أندروس
تينوس
نيكاريا
ساموس
ناكسوس
باروس
كوس
نيسوروس
رودس
كارباتوس
كاسوس
رأس ماتابان
نافارين
مودون
أثينا
خليج ليبانت
١٠٠ كيلومتر

وفى منتصف الساعة الثانية من ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ اقتحمت القوات المتحالفة البوغاز ، واصطفت وفقاً لنظام حربى على شكل نصف دائرةٍ تقريباً أمام الأسطول المصرى[١] والعثمانى وإقتربت منه حتى أصبحا وجهاً لوجهٍ ، وخلال ذلك انطلقت رصاصة من سفينة مصرية على بحارة إحدى السفن الإنجليزية مما كان ذريعة لتيام سفن الحلفاء بإطلاق نيرانها فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهرالعشرين من أكتوبر ١٨٢٧ على الإسطول التركى المصرى ، وتجاوبت المدافع ، وعلا الدخان وتناثرت أشلاء القتلى فى مشهد رهيب ، وإستمر القتال حوالى ثلاث ساعات ، وإنتهى بتدمير الإسطول المصرى التركى فى مذبحةٍ مروعة ، وفقدان حوالى ٣٠ ألف جندى .

وعلى الرغم مما حدث فقد رفضت الآستانة أن تعترف بالهزيمة أو تذعن بأن تدمير أساطيلها يعنى إنهاء القتال[٢] بل طالبت بإتخاذ التدابير اللازمة لإستمرار القتال فى حين أخذ محمد على – الذى تألم كثيراً عند سماعه خبر تدمير قوة مصر البحرية الوليدة[٣] – أخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق الخطير خاصة وأنه أخذ يشعرُ بالمخاطر التى يمكن أن تسببها له الدول الأوربية ، وكانت الوسيلة المثلى أمامه هى المفاوضاتُ وعقدُ الصلح مع الحلفاء وقد تم ذلك فى الثالث من أغسطس ١٨٢٨ والذى تم بمقتضاه جلاءُ قوات إبراهيم باشا عن شبه جزيرة المورة ، والتعهد بإعادة الأسرى اليونانيين ، وعدم إجبار اليونانيين المقيمين بمصر على مغادرتها فى نظير إعادة جميع الأسرى المصريين والسفن المصرية التى إستولى عليها الحلفاء فى الحرب[٤]

ونتيجة لذلك صدرت الأوامر للقوات المصرية بإخلاء المدن اليونانية والإستعداد للرحيل إلى مصر دون إنتظار لأوامر السلطان مما أحرج مركز الباب العالى ، واضطره فى النهاية إلى الإعتراف بالإستقلال الذاتى لبلاد اليونان[٥].

ومما سبق يتضح أنه على الرغم من خسارة مصر الفادحة فى هذه الحرب بعد ضياع الإسطول الذى إشترى محمد على وحداته من مختلف الممالك الأوبية ، فإن المكاسب السياسية كانت كبيرة فقد تفاوضت الدول الأوربية ولأول مرة مع محمد على دون وساطة الدولة العثمانية مما أكسب مصر منزلة سياسية أشبه ما يكون بالإستقلال الفعلى عن تركيا ، وإلى

---

[١] كانت وحدات الأسطول المصرى المتواجدةُ خلال المعركة إحدى وثلاثين قطعة تتألف من أربع فرقاطات، وعشر سفن من نوع القرويت ، وست سفن من نوع الإبريق ، وخمس من نوع الفولت ، وست حراقات هذا بالإضافة إلى النقالات الكبيرة .
محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على – السياسة الداخلية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص١٣٨ .

[٢] أمين سامى : مرجع سابق ج٢ ص٣٣١.

[٣] سجل رقم ٣١ معية تركى – صورة ترجمة الكتاب رقم ١٨ بتاريخ ١٣ ربيع آخر ١٢٤٣هـ من محمد على إلى محرم بك .

[٤] عن نص شروط هذا الإتفاق تنظر :
Dodwell , H.L. The founder of Modern Egypt - A study of Muhammed Ali , Cambridge, 1931 p.22
وأيضاً إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

[٥] عقدت الدول الأوربية معاهدة فى لندن عام ١٨٢٧ أجبرت فيها الباب العالى على الإعتراف بإستقلال اليونان الذاتى ، وفى عام ١٨٣١ استطاع الشعب اليونانى انتزاع استقلاله التام ونجح فى استخلاص حريته وأعطى بذلك مثلاً للشعوب التى كانت تهدف إلى تحرير نفسها .

جانب ذلك فإن هذه الحرب كانت أول معركة يخوضها الجيش المصرى فى أوربا مما أكسبه تدريباً عملياً على خوض المعارك الحديثة .

ومع ذلك فإن تورط محمد على فى شئون أوربا السياسية قد أنهك موارده إلى حد كبير خاصة وأن ما أنفقه من الأموال الطائلة على بناء سفنه ، وفى شراء المؤن والذخائر التى تدفقت على المورة ، ثم إن ما جمَعه من الرجال ودربّه من الجنود ، وبعثَ به إلى ميادين القتالِ كلُ هذا قد ذهب أدراج الرياح بين عشيةٍ وضحاها بعد أن عادَ جيشُهُ من المورةِ وهو فى حالةِ عجزٍ وفقدانٍ للثقة وبؤسٍ شديدٍ[1] .

وعلى أى حالٍ فقد إشتدَ ضيقَ السلطانُ من محمد على لتفاوضه مع الدولِ الأوربيةِ دونَ اذنه ، وسحبه لقواته دونَ الرجوع إليه ، كما بدأ محمد على يراجع خطته تجاه الباب العالى الذى لم يكافئه على خدماته رغمَ تحطيم إسطوله مما جعله يفكر جدياً فى توسيع رقعة أملاكهِ على حساب الدولة العثمانيه وذلك بالإستيلاءِ على بلاد الشام.

---

[1] بعد عودة هؤلاء الجنودِ إلى مصر وهم فى حالة سيئةٍ رخصَ محمد على لبعضهم بالإقامة فى بلادهِ سنة أو أكثرَ من أجل إستعادة الثقة إلى نفوسهم ، ثم صدرت إليهم التعليمات بعد ذلك بالحضور إلى القاهرة وترتيبِ من يصلحُ منهم فى أورطة جديدة .
الوقائع المصرية العدد ١٩٦ فى ١٨ ربيع الأخر ١٢٤٦هـ (١٨٣٠) تحت عنوان حوادث الجهادية .

ثانياً : الوثائق

وثيقه رقم (١)

موضوعها : تجهيز محمد على لاسطوله ، وارساله إلى المورة لتأديب الثائرين على الدولـه بناء على أوامر السلطان العثمانى

مصدرها : دفتر ٤ معية تركى – ترجمة المكاتبة التركيه رقم ٢٩٢

تاريخها : ٢٩ رمضان ١٢٣٦ هـ

من المعيه :

إلى ملجأ الصدارة .

حضرة سلطانى ومولاي صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولي النعم العالي الهمم الكثير اللطف والكرم .

بينما كان عبدكم بمصر في شبرا وصل في يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر رمضان أمركم السامي الصادر بالشرف سابقا الأمر بتجهيز مقدار مناسب من سفن عبدكم وتعيين قائد عليها وارسالها توا إلى جهة مورة [1] ، وافهام قائدها أن يعمل على بمقتضى الحال بالمخابرة مع علي بك قائد السفن الهمايونية الموجودة في حوالى ألبانيا " بلاد الأرنود " وارسال سفينة أو سفينتين من السفن الصالحة للعمل أيضا إلى الجزر فيما وراء رودس بناء على أن رعايا مورة قد عصوا بسبب ما دبره كفار الروم من الوساوس وما نصبوه من شراك الدسائس ، وسرى عصيانهم إلى مجاوريهم [2] ، فأظهر الطغيان أيضا رعايا لواديه وصالة وآتنه فسدوا الطرق حتى أرسل حضرة والى الروم ايلى [3] باشا إلى جانب موره عساكر كما يلزم وأذيعت أيضا أوامر السبي والاسترقاق بموجب الرخصة الشرعية ، واقتضت المصلحة ابراز السطوة والجلادة للغاية نحو مورة ، وقد قام كفار جامليجه وصوليجه وابيصاره [4] أيضاورفعوا رءوسهم . وحيث توجد عند هؤلاء المذكورين سفائن حربية فمن الملاحظ أن يتعرضوا لسفن

---

[1] إقليم المورة فى جنوب اليونان اقليم ثائر فائر ، جباله قاسية ، ومرتفعاته منيعة ، وشعبه مستميت.

[2] يذكر الجبرتي أن ثوار المورة قطعوا الطريق على المسافرين واخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضاء مصر وبعض الحجاج وقتلوهم عن آخرهم . انظر الجزء الرابع من عجائب الآثار في التراجم والاخبار ص٣٤١ تحت عنوان واستهل شهر ذى القعدة بيوم الأربعاء سنة ١٢٣٦ .

[3] تعني ولايات الروم ، وهذا التعبير كان يطلق غالبا على الأراضي العثمانية الواقعة في شرق أوروبا .

[4] كانت Psara تمثل مركزا هاما للقراصنه في غرب جزيرة خيوس chios .

التجار التي تطرق وتمر بها ، وللذخائر التي ترسل إلى الأستانة ، وللعساكر الذين ينقلون من الأناضول إلى الروم ايلي ، والقاضي أيضا بارسال الذخائر المعتاد ارسالها كل سنة من الأقاليم المصرية إلى الأستانة ، مع ضم مثلها عليها في هذه المرة لئلا تقع مقاسات ضائقة في الأستانة من جهة الذخائر بسبب ما حدث في افلاق وبغدان [1] من الفتن ، فعندما ازدانت يد التكريم بهذا الأمر الكريم ركبت بعد الإفطار في السفينة " فاتجه" وأتت إلى الاسكندرية ليلة الخميس فجهزت ثلاث عشرة سفينة ببركات هممكم السامية في مدة أربعة عشر يوما من اليوم الرابع عشر من شهر رمضان إلى اليوم الثامن والعشرين منه بمضاعفة السعي ليل نهار ، وقد اشتريت أربع سفن من تجار الافرنج وابتدر إلى تجهيزها وتهيئتها أيضا بعناية خاصة ووضعت فيها المدافع ورماة المدافع ، وعين عبدكم محمد أغا طبوزاده من رؤساء البوابين في الايوان العالي قائداً عليها فيرسل مع تلك السفن بمنه تعالى في اليوم العاشر من شوال بعد العيد إلى جهة رودس ، وتلحق السفينه الموجودة في الاسكندرية في الأسطول الهمايوني أيضا بتلك السفن بوضع العساكر والمهمات فيها وحيث توجد في رودس وبدروم [2] سفينتان لصهري عبدكم محرم بك وسفينة لعبدكم ، وسفينة أميرية أيضاً في رودس فيرسل إليها ما يكفي لهذه السفن الأربع من الأنفار وسائر المهمات وتلحق بتلك السفن ، وتعزز تلك السفن أيضا من ورائها بتجهيز ما يرد من الخارج من السفن من سفن عبدكم ، وسفن عبيدكم اتباعي الصالحة للعمل مع الإستمرار على إشتراء مقدار واف من السفن الواردة إلى الاسكندرية الموقوفة بها من تجار الافرنج وارسالها ايضاً بوضع العساكر والمهمات فيها على أن لحاق سفن عبدكم المرسلة ، واجتماعها مع سفن الاسطول الهمايوني وان كانا من الأمور المشكلة ، بالنظر إلى ما بلغنا من سد أشقياء البحر المضايق بسفن كثيرة ، لكن من قبيل اللازم والملزوم للاجتماع تجول هذه السفن في تلك المياه ، وسعي مأمور الأسطول الهمايوني جهده في الورود فعليه تلزم مضاعفة قوة مأمور الأسطول الهمايوني وحمله إلى اجراء الارادة الملوكية في أقرب وقت ، وبعد اجتماع سفن عبدكم مع سفن الاسطول الهمايوني بعناية ربنا الفتاح ، واعانة جناب مرسل الرياح ، وسيرهما على سفن اشقياء البحر بالاتفاق وحصول التغلب عليهم ، وقهر الأشقياء المذكورين ، وتدميرهم وتيسير تطهير جهة البحر منهم بقوة حظ حضرة صاحب مالك ممالك العالم يكون من الأمر السهل الهين قهر الجزر المذكورة ، واستئصالها وبعد ذلك إلى أي جهة انتدبت السفن بالاتفاق سواء كان هذا الانتداب لجهة مورة أو لأي جهة أخرى يوصل من ورائها العساكر والأدوات اللازمة بوضعها في سفن التجار وارسالها على التعاقب وتستحصل اسباب غالبيتهم ، وقد استؤجرت بعد تفكير دقيق على سبيل التجربة سبع سفن من تجار الإنجليز لايصال الذخاير الى الاستانه في هذه الأيام ، وشحنت السفن المذكورة بخمسين الف "هكذا هنا " كيل من القمح وجهزت للارسال على أن تسلم للمخازن العامرة ، فبعد ارسال السفن المجهزة بيوم ترسل سفن الذخاير هذه ان شاء الله تعالى ، ولدى وصول خبر دخول الذخاير المذكورة بالسلامة من المضيق إلى الداخل ، وبلوغ هذا الخبر لصوب عبدكم بسرعة ترسل الذخاير إلى الاستانة على التعاقب ويكمل المقدار الذي هو مطلوب المقام العالى من الذخاير ، ويرسل على التعاقب أيضاً ما طلب من الذخاير التي تعرض للبيع بأثمانها الجارية

---

[1] يقصد ولايتي الافلاق والبغدان برومانيا .

[2] صحتها بودروم وهي أحدى المدن التركية الهامة التي تقع في أقصى جنوب تركيا ، وتقع إلى الشمال من جزيرة رودس بحوالي ١٠٠ كم .

بتجهيزها لتباع في الأستانة بأسعارها الجارية ، وحيث انه لاريب ولا اشتباه انى أبذل كل همتى ومكنتي لاجراء مضمون الأمر العالي وانفاذ الأمر والإرادة في جميع الأزمان ولاسيما في مثل هذا الأوان كما لاشك في أن الجهاد والعزوة فرض عين علينا فلا محالة أنه لايضن بالخدمة والسعي جهد الطاقة فوق وسعي من كل الجهات في سبيل الدين والملة ، وفي سبيل دولتنا ومرضاة لمولانا وولي نعمتنا صاحب الشوكة والكرامة والمهابة السلطان ملجأ الاسلام ملك الملوك الذي من جنوده الملائكة الكرام . وقد ازدانت أيضا يد التكريم بورود ما صدر محفوفا بالشرف سابقاً ولاحقاً في هذه المرة من نحو أمرين أو ثلاثة أوامر من أوامر ولى النعم السامية ، ووصلت أيضا إلى عبدكم مكاتيبكم السامية الخديوية المحررة خطابا لباشوات مقاطعات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومراكزها العسكريه " وجاقات " وحيث كان ورودها عقب ارسالي رجالاً من رجالي إلى هؤلاء الباشوات بيوم تحريضا لأهالي تلك البلاد على الجهاد والغزوة والمحاربة ضد إشقياء البحر قائلا لهم ان هذا الزمن انما هو زمن الخدمة للدين المبين ، وللدولة العلية الأبدية ، وزمن اكتساب حسن التوجه الخسروي من حضرة مولانا السلطان الحارس للدين ملك ملوك وجه الأرض صاحب الشوكة والكرامة ، فقد ارسلت هذه المكاتيب السامية الواردة من ولى النعم بعد يوم من يوم ورودها إلى الباشوات الموحى اليهم بحراً بانتداب رجل من اتباعي عبيدكم لذلك مع الاستعجال بشأن عودته بأجوبتها وقد صارت افادة ما ذكر باعثا لعرض عبوديتي فالأمر والإرادة لدى حصول الشرف لنا بوصول هذه العريضة اليكم ، وإحاطة علمكم العالي الشامل للعالم بذلك ،

٢٩ رمضان ١٢٣٦

يستخلص من هذه الوثيقه ما يلي :

- ترحيب محمد علي بالأمر السلطاني الخاص بتجهيز سفنه للإشتراك في حرب المورة .
- تعرض الثوار اليونانيين والقراصنة لسفن التجار المسلمين .
- تجهيز محمد علي لثلاث عشرة سفينة وشرائه لأربع من السفن من التجار الافرنج وتجهيزها بالمدافع والرماة .
- العمل على قهر اشقياء البحر وتأديبهم .
- ارسال محمد علي الذخائر وشحنات القمح إلى الأستانة .
- طلب المعونة من ولاة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وتحريض اهالي هذه البلاد على الجهاد ومحاربة اشقياء البحر .

وثيقه رقم (٢)

موضوعها : رسالة من محمد على إلى السلطان العثمانى محمود خان بشأن ارسال سفنه للمساعده فى تأديب الثائرين ومساندة الأسطول العثمانى ضد مراكب اليونانيين
مصدرها : دفتر ٤ معية تركى ـ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٨٨
تاريخها : ١٠ شوال ١٢٣٦ هـ

إلى الصدارة العليا

حضرة سلطانى ومولاى صاحب الدولة والعناية ، والعطوفة والرأفة ، والأبهة ولى النعم العالى الهمم الكثير اللطف والكرم .

سبق الانهاء فى عريضة عبدكم المقدمة إلى مقامكم العالى بتاريخ ٢٩ رمضان أنه ستجهز بهممكم السامية ثمانى عشرة سفينةمن سفن عبدكم الموجودة فى ميناء الأسكندرية ، ومن السفن المشتراه من تجار أوربا ، ويعين عبدكم محمد آغا[1] طبوزاده من رؤساء البوابين[2] بالديوان العالى قائداً عليها ويرسل بعد العيد إلى جهة رودس ، وحيث انه توجد سفينة من الأسطول فى الأسكندرية فستلحق تلك السفينة بعد شحنها بالمهمات والعساكر بتلك السفن ، كما انه توجد سفينتان لصهرى محرم بك [3] وسفينه لى فى رودس وبودروم[4] وسفينة أيضا من الأسطول الهمايوني[5] فى رودس وسترسل العساكر والمهمات إلى تلك السفن ، وتلحق بالسفائن السابقة الذكر أيضاً ، وانه قد نبه على عبدكم الموما إليه أن يتجول ويطوف فى تلك المياه ويسرع فى اللحاق بالأسطول الهمايونى ويسعى جهده بالاتفاق فى قهر أشقياء البحر وتدميرهم وانه ستعزز تلك السفائن من ورائها بترتيب وتجهيز سفن من سفن عبدكم ، ومن السفن التي اشتريها من أتباعي ومن تجار أوروبا ، وبارسالها وبعد أن تجتمع السفن المذكورة من سفن الأسطول الهمايوني ، وبعد أن تتم مهمة قهر أشقياء البحر وتدميرهم فالى أي اتجاه سيرت تلك السفن ، وبأية مهمة أمرت يرسل اليها من ورائها العساكر البرية ، وسائر المهمات بسفن التجار ، وكان أشير أيضاً في تلك العريضة إلى أنه قد استؤجرت سبع سفن من تجار

---

[1] آغا تعنى رئيس أو سيد .

[2] عنوان رتبة خاصة تعني الحاجب ، وقد كلف بقيادة هذه السفن ، وضمها إلى الأسطول العثماني ، والعمل على تخليصه من الحصار المفروض عليه من الثوار اليونانيين .

[3] هو محرم بك الأميرال صهر محمد علي ، وكان حاكما للجيزة ثم عين محافظا للاسكندرية ، فقائدا للأسطول المصرى الذي ذهب لأرخبيل اليونان لمطاردة الثوار ، واشترك في حرب المورة .
دار الوثائق : محافظ ابحاث ، محفظة ١١٤ ، موضوعات متنوعة
وقد كلفه محمد علي بقيادة السفن الحربية والاقلاع بها لتأديب الثوار اليونانيين . انظر الأمر التركي المترجم بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٣٦هـ .

[4] ميناء علي شاطئ الاناضول .

[5] كلمة همايوني فارسية الأصل ومعناها اللغوي مبارك ، أو مقدس ، أو حسن الحظ .

الانجليز لايصال الذخائر إلى الأستانة العلية ، وحمل عليها تسعة وسبعون ألف كيل ومائتا كيل من القمح فأصبحت جاهزة للإرسال على أن تسلم للمخازن العامرة فها هي بحمد الله تعالى قد أرسلت السفائن المذكورة إلى جهة رودس في اليوم الحادي[1] عشر من شوال المكرم الجاري بهواء لطيف وريح موافقة ، وأوصى القائد الموصى إليه أن يلتحق بالأسطول الهمايوني في أقرب وقت ، وأن يتحد ويتفق مع مأموري السلطان الهمايوني ، وأن يبرزوا مآثر الحمية والغيرة في قهر أشقياء البحر واستئصالهم ، وفهم تلك الوصايا ، وبلغ اليه أيضا انه إذا تعذر المرور بسبب قفل المضايق ، وتعذر اللحاق بالأسطول الهمايوني لايقيم في مكان ما عاطلا بل يبقى ناشرا للقلوع ومادا أنظار التبصر إلى الأطراف ، ويهاجم سفن الأشقياء إذا صادفها مستعيناً بالله غير مكترث بقلتها أو كثرتها ، وينزل العساكر في الجزر العاصية ويضربها ما وجد إلى ذلك سبيلاً "

ومن المعلوم انه إذا ضبط سرب أو سربان من سفن الأشقياء المذكورين ، ووقعت الإغارة على جزيرة أو جزيرتين منها أسراً وقتلا لأهلها ينعكس طالعهم ، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم وتتشتت جماعاتهم وتزداد عساكر المسلمين شوقا وغيرة ، وتمتلئ قلوب الموحدين قوة وسكينة ...

---

[1] كذا في الأصل المترجم ، ولعل صحتها عاشر شوال كما يظهر من تاريخ المكاتبة .

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلي :

١ ـ استجابة محمد علي لطلب السلطان بارسال اسطوله للمساعده على تأديب الثوار اليونانيين وتخليص الأسطول العثماني الذي أضحى كالأسير في أرخبيل اليونان .

٢ ـ ارساله اسطولا يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة محمد أغا طبوزاده للإلتحاق بالأسطول العثماني .

٣ ـ اصدار اوامره الى صهره محرم بك بالتحرك لمساندة الأسطول العثماني المحاصر وتعزيزه بالمهمات والذخائر .

٤ ـ استئجار بعض سفن التجار الانجليز لايصال الذخائر المطلوبة والقمح إلى الأستانة ورودس .

٥ ـ استعمال الشدة مع أشقياء البحر ، والعمل على قهرهم حتى ترتفع الروح المعنوية لدى المقاتلين المسلمين.

وثيقة رقم (٣)

موضوعها : نصائح محمد علي إلى رجال أسطوله عند التحاقهم بالأسطول العثماني .
مصدرهـا : دفتر ٧ معية تركي ـ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٨٤
تاريخها : ٢٩ شوال ١٢٣٦ هـ

من الجنـاب العـالي إلى باشبوغ الأسطول المصـري قد حررتم وذكرتم انـه ورد من حضرة باشبوغ الأسطول الهمـايوني خطـاب إلى قاضي رودس يقول فيه . اننا على وشك الذهاب إلى بروزه [1] لاستجلاب الأسطول الموجود في جهة مورة فبالنظر إلى لزوم استصحابنا بمعيتنا الأسطول المصري أيضاً تنبهون الأسطول المصري على الاستعداد والتأهب إن كان ورد إلى رودس ، وتعدون أيضاً خمسة عشر راندا يعرفون مياه مورة ، وتفيدوننا عن أنهم جـاهزون وأن الأسطول المصري ورد إلى رودس حتى نـأتي ، ونستصحب الأسطول المصري ، ونسير إلى جهة مأموريتنا . وانكم حررتم جواب خطاب المومى إليه المرسل سابقاً في مضيق سيام وارسلتموه مع الجاويش الذي ورد إلى طرف القاضي المومى اليه ثم عقدتم مجلس المشورة مع اسماعيل قبودان [2] وأحمد بك وحررتم : أنه قد تقررت نتيجة مذاكرتكم على أن يجاوب عن هذا الطلب بأن يقال ان مولانا لما بلغه تسلط الأشقياء على السفن المترددة إلى هذه المياه ، وعلى البلاد الإسلامية الكائنة في هذه السواحل جهز السفن التي نركبها على قدر ما تيسر ، وأعطى المؤن والازواد اللازمة لمدة شهر فقط لمن فيها من العسـاكر ، وأمرنا بالمسارعة إلى رودس ، والوصول إليها في أقرب دقيقة قائلاً لنا إني أقوم بتجهيز السفن الموجودة في هذا الطرف ، وأواصل إرسال المهمات والمؤن اللازمة لكم من ورائكم ، وان لم يكن عندكم الآن إقتدار المقاومة لسفن الأشقياء فعلى هذا يستوجب مسيرنا بهذه الحالة إلى مسافة بعيدة أنواع الصعوبة وعليه إذا سرتم أنتم إلى الصوب المقصود واذنتم لنا في العودة إلى الاسكندرية ، ونعود إلى الاسكندرية ونستصحب السـفن المجهـزة ونتم لوازمنـا السفرية ومصروفاتنا ومئونتنا وأزوادنا ، ونلحقكم من ورائكم وبهذه الصورة قطعتم الكلام .

وقد علمت مآل مكاتبتكم المذكورة ومفاهيم سائر الأوراق ، وكانت خلاصة إفادتنا لكم "عند مسيركم" أنه إذا لم يخرج الأسطول الهمايوني ، ولم يمكن اجتيازكم من المضـايق ولا التحـاقكم بالاسطول الهمايوني تقومون بضرب جزيرة قشوت لئلا يكون سعيكم عبثا وتتجولون أياما ثم تعودون ، واما إذا خرج الأسطول الهمايوني ، وتيسر التحاقكم بـه تتابعون موظفي الاسطول وتسيرون معهم إلى أي جهة ساروا ولاتتعدون الطراز الرسمي في أثناء محـادثتكم معهم ، ولا تتكلمون بكلمة أزيد من ذلك ولاأنقص ، وعند مرور سفن أو جاقات الغرب يحملونهم على فتح الأعلام لهم " تحية عسكرية " واما انكم فلا تتكلموا بشئ ، ولا تقولوا لماذا لم يفتح لنا الاعلام .

هكذا كنت أفدت لثلاثتكم كـرارا ومـرارا ونبهتكم عليها ، وكـان المقصود مجرد الذهاب مع الأسطول والقيام بخدمته ، وقد نسيتم بالمرة أقوالي المتعلقة بمتابعتكم لموظفي الأسطول ويظهر

---

[1] حاصر اليونانيون الاسطول العثماني بتلك الجهة ، وكان يقوده القبطان نصوح زاده .
[2] تذكره بعض المصادر باسم اسماعيل جبل طارق .

أنكم أخذتم ترغبون في الإستراحة والهرب من التعب ، وكان الواجب عليكم حينما دعاكم موظفو الأسطول الهمايوني إلى معيتهم أن تلبوا دعوتهم ، وتقولوا لهم نحن حاضرون متهيئون ومع ذلك كتبتم جواب التوقف معتذرين بأعذار حتى أعددتم جوابكم الهذياني المذكور آنفا عندما علمتم ورود الأسطول الهمايوني الى استانكوى وأنه يرد إلى رودس . وإنما كان يصح مثل جوابكم هذا . إذا كان الأسطول الهمايوني لم يخرج أو بقي في الدردنيل " جناق قلعة " أو في محل آخر ولزم انتظاركم مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ويعد ذلك نوع عذر وأما اعدادكم مثل هذا الجواب الهذياني حين خروج الأسطول الهمايوني ومجيئه إلى استانكوى ورودس ووجوب متابعتكم لموظفيه على وفق أمرنا وتنبيهنا وذهابكم معهم حيثما ذهبوا فلا يكون إلا من كمال حماقتكم ، وحيث أن ماساتي أنواع الأتعاب بالسعي ليل نهار وارسالي إياكم بكل سرعة اينما كانت لأجل التحاقكم عاجلاً بالسطول الهمايوني لطلب منكم طلبا باتا أن تلتحقوا من غير توقف بالاسطول الهمايوني على طبق تنبيهي السابق وأن تتابعوا موظفيه ، وان تذهبوا معهم حيثما ذهبوا وعليه حررنا مكاتبتنا الخاصة هذه تنبيها وتأكيدا ، وارسلناها مع أحمد أغا رئيس موظفى الدخان لدينا فيلزم أن تبادروا إلى العمل على الوجه المحرر ، وأن تتحاشوا من تجويز خلافه المستوجب للمسئولية .

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلي :

- ضرورة استعداد رجال الاسطول وتأهبهم لأى مخاطر محتملة .
- تفكير محمد علي فى اصطحاب الاسطول المصري إلى المعركة .
- اللحاق بالأسطول العثماني السير معه ، وتلبية أوامره .

وثيقة رقم (٤)

موضوع الوثيقة : ترجمة الأمر رقم ١٨ بشأن انضمام الأسطول المصرى للأسطول التركى في حرب المورة

تاريخها : ٢٧ محرم ١٢٣٧

مصدرها : المعية السنية ، دفتر ١٠ معية تركى

أمر كريم   إلى : العزيز المكرم ابراهيم باشا

لقد انضم الأسطول المصرى قبل مدة إلى الأسطول السلطانى وأبحر للعمل ضد أروام المورة الذين عمدوا إلى العصيان وأعمال الشقاوة .

ولما كان قد اتصل بالأسطول السلطانى المصرى ان هنالك نحو ٦٠ سفينة من سفن الأشقياء قد تجمعت فى ميناء فلاقسيدى الكائن فى خليج اينه نجتى فقد سارت عليها السفن الصغيرة فى الأسطول السلطانى برفقة الأسطول المصرى تحت قيادة طبوزاده ، ولما أن بلغ هذا الأسطول تلك الجهة وكان الأسطول المصرى إذ ذاك يقل قوات من العساكر البرية خرجت هذه القوات إلى البر وسرعان ما اتصل بالمخابرة مع يوسف باشا البروزلى الذى كان يرابط بعساكره فى تلك النواحى ومن ثم اتحدت القوات وزحفت على بلدتى وتيجه وفلاقسيدى واستولت عليهما بعد قتال وغنمت ما كان فيهما من مال ومتاع وأحرقت منازلهما . وقد تم الأستيلاء كذلك على ٤٠ سفينة من سفن الأشقياء الرابضة فى ميناء فلاقسيدى وأحرقت ٢٠ سفينة .

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلي :

- انضمام الاسطول المصري إلى الأسطول العثماني والعمل معاً ضد الثوار .
- الإستيلاء على بعض سفن الثوار ومهاجمة معاقلهم .

وثيقة رقم (٥)

موضوعها : أمر كريم : إلى : الربان اسماعيل [1] " الشهير بجبل اقطار " القائد العام للأسطول المصرى .

مصدرها : دفتر (١٠) معية تركى ـ ترجمة الأمر رقم ٣٧٢ ورقة ٧٣

تاريخها : غرة محرم ١٢٣٨ هـ

تسلمنا كتبكم الواردة أخيراً واطلعنا على جميع اشعاراتكم فيها . قلتم فى أحد هذه الكتب انكم تأملون فتح المورة وتنتظرون ذهاب الاسطول السلطانى إلى المضيق " البوغاز" بل توغله فى الداخل وتحدثتم عن قلة مؤنكم وضرورة اعطائكم بعض النقود محسوباً على مرتبات البحارة والقواسين وقد تفضل أخونا حضرة صاحب الدولة الباشا أمير البحر فأرسل كتابا قال فيه : ان فتح المورة أصبح قاب قوسين وانه يمكث هناك إلى أن يتم هذا الأمر الخيرى .

أيها الربان اسماعيل : سواء بقى الأسطول السلطانى هناك في تلك المياه أو توجه إلى المضيق فواجبك حسن الخدمة والعمل على نيل الرضا ، وإذا أتاك كتابى هذا يجب أن تبلغ سلامنا إلى ربابنة سفننا وبحارتنا وقواسيها وتفهمهم اننا نطلب منهم اتقان العمل وحسن الخدمة واننا كنا نقلنا لهم المؤن والمعدات والأموال على ظهور الجمال في أرض الحجاز ولم نجعلهم يعانون هناك أي ضيق والآن فحيث أن كل شئ ينقل على السفن فيمكن ارسال كل ما يحتاجون اليه بوسائط اكثر سهولة من ذي قبل ، وأنت أيها الربان يجب أن تهتم بحسن إدارة هذه السفن وتعنى بأحوال البحارة والقواسين عناية تثبت انك " جبل اقطار " حقاً وأما إذا أهملت فى واجبك أو سلكت طريق التعلل والأعذار فيجب أن تعلم جيداً أننى أرسل عليك صيحة " يوك " المنبئة عن الإزدراء وأملى إنك لا تضطرنى لذلك وانك تتفرغ للبحث عن الوسائل التى تكسبك ملايين الاعجاب والتقدير بدلاً من الإزدراء والتحقير وخلاصة القول اننى لاانساكم ولاأدعكم تقاسون ضيقاً فى شئ ما ، هذا بديهى كما انى أدعو لكم بالتوفيق واعطف عليكم من كل قلبى واذا علمتم ذلك فيجب عليكم المبادرة إلى العمل وفقاً لاشعارى والافادة بين الفينة والفينة بما يجب اشعاره ،،،

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلي :

- ضرورة قيام قائد الاسطول المصرى بحسن الخدمة والاجتهاد واتقان العمل سواء شارك الاسطول التركى في القتال أو قاتل وحده .
- العمل على امداده بالمؤن والمعدات الخاصه بالمعارك .
- ضرورة الاهتمام بأمور البحاره والقواسين .

---

[1] يقصد اسماعيل جبل طارق .
وكان قائدا للأسطول الذي ذهب لأول مرة إلى مياه رودس لمطاردة الثوار هناك ، ثم اشترك مع محرم بك صهر محمد علي فى حرب المورة .
دار الوثائق ــ محافظ ابحاث ، موضوعات متنوعة محفظة ١١٤

وثيقه رقم (٦)

موضوعها : ترتيب المؤن لحملة المورة
مصدرها : دفتر ١٣ معية تركى
تاريخها : غرة رجب ١٢٣٩

من محمد على
إلى : جناب الصدر الأعظم

حضرة سيدى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم عالى الهمم كثير اللطف والكرم

حيث أنه جرى فى هذه السنة العميمة الميمنة ترتيب وزراء ومأمورين وعساكر كثيرة لأجل الهجوم على أطرافها أيضا برا بفرق متعددة واستعدادات قويه ، والسعى فى التغلب على عصاة الكفرة ، والاقدام على ذلك بالاتحاد ، وبلغ عدد المأمورين والعساكر المرتبين إلى عدد يتراوح بين الخمسين ألفا والستين ألفا على أن يتجمعوا عقب يوم أول الربيع كما انه اقتضى المبادرة الى وسيلة تدارك المؤن أيضا بصورة مستوفيه لكيلا يحصل أى خلل أثناء العمل من عدم وجودها غير أنه بالنظر إلى تعسر مداركة الذخائر الوفيرة من جهة الروملل‍ى[1] المصابة بالمحن والارزاء منذ مدة لهذا العدد الكبير من العساكر ، وتعذر توصيلها إلى هناك من محلات اخرى ترتيب مؤن مختلفة الأنواع من جهة مصر بمقدار خمسمائة ألف كيل استانبولى ، وتعلقت الارادة السنيه بخصوص ترتيبها سريعا ، وارسالها إلى مورة بحرا بتحميلها فى السفن فى أول الربيع بمنه تعالى على أن يكون اكثرها بكسماطا ودقيقا وما عداه شعير وفول ، وعلى أن لايخل ذلك بتقديم المدد والمعونة لكريد ثم أصدر بهذا الخصوص أمر عال مرشح أعلاه بالخطوط السلطانية ، وارسل مع عبدكم صاحب السعادة محمد نجيب افندى [2] من رجال الدولة العلية ، والناظر الحالى لدار البارود العامرة ، ووكيلى لدى الباب العالى على أن يبلغنى الخصوصات اللازمة شفهيا ، وان نيل العساكر المسوقة إلى كريد فى الأول والآخر الغلبة والنصر ، وحسن اجتهادى أوجبا كمال المسرة الملكية وحصل التفضل بالعناية والاحسان بثوب سمور مزركش سلطانى مستوجب السرور ، وسيف ملكى مرصع مدمر العدو وأرسل كذلك مع وكيلى المومى اليه فقد استقبل بموكب عند وصوله إلى أطراف مصر ، ووروده إلى جوار باب النصر ، وتقبل بخطوات التعظيم والتبجيل عند قدومه الى محل الديوان واتمت مراسيم محاسن التكريم والتبجيل ، وجعلت الفروة المذكورة زينة لكشف الافتخار ، والسيف الذى ربط فى الوسط رمزا للغيرة والاقدام ثم صار الدعاء لدوام وتأييد عمر وشوكة حضرة الخليفة زينة للألسنه القرينة الاخلاص والثناء لقوام وتأييد شأن وسلطنة السلطان واصلا إلى السماء العالية .
فالمولى خالق الأرض والسماء يجعل عمر وشوكة ولى نعمتنا وافندينا صاحب الشوكة والمهابة

---

[1] صحتها الروم أيلى وتعنى ولايات الروم وشاعت كتابتها خطأ الروميللى لأنهما كلمتان .
[2] نجيب افندى : مندوب السلطان الذى حضر إلى مصر ليسلم محمد على فرمان الولاية على المورة .

والكرامة سلطان العالم وملك الزمان بحيث لانهاية لهما ، ويجعله ممنونا وسعيدا بنيل معالى النصر والظفر والفتوحات ومظلل الأمن والأمان لمفارق الملك والملة بظل عاطفته السلطانية ثم يجعل ذاتكم الولية النعم العالية مسرورة ومحبورة فى ايوان صدور الأوامر وعينا لامعة للزمان والأيام فى محفظة خاتم الدولة والاقبال آمين . هذا وقد حررت عريضه عبدكم ، وقدمت إلى عتبة إجلالكم بالخضوع والابتهال بخصوص التماس توجه ولى النعم السامى ، وفى سياق اظهار الشكر والممنونية والافادة عن المائة الف أردب الغلال المصرية التى صدر الفرمان بشأنها سيجر ترتيبها وتحميلها فى السفن ، وارسالها إلى مورة وإلى المحلات الأخرى التى فيها المأمورون بالمخابرة ثم أن الوصايا السنيه والتنبيهات السلطانية التى أودعت فى حافظة الافندى المومى اليه صارت حلية لمسامع تيقنى وانتباهى واحدة فواحدة فستنفذ بكمال المطاوعة مع ايفاد لوازم العبودية كما أن أمر ولى النعم السامى الشامل كل كيفية وخصوص بهذا الشأن ، والمشتمل على أنواع المحاسن والتوجه الذى ارسل مع عبدكم الأفندى المومى اليه صار زينه ليد التعظيم ، وكل خصوص أصبح معلوما بذهن عبدكم الوسيم الاخلاص على نحو ما بسط فيه وذلك بمطالعته مرة أخرى ، وقد جعل انفاذه فرضا على عهده العبودية وانه أرسل الأمران إلى متصرفى الجزائر وتونس برا مع الهجان فلدى الوصول ان شاء الله تعالى ، واحاطة علمكم العالى بأن عبدكم ليس له أمل سوى الخدمة والغيره فى سبيل الدين والدولة العلية ، وان هذه الخدمة ستجرى بكمال الممنونية ، ويحصل الاعتناء فى انفاذ واجراء مقتضى الأمر السلطانى ، والتنبيهات الملكية المقرونة بالكرامة . فان الأمر والفرمان بخصوص التفضل باسداء توجهات وتعطفات ولى النعم للعبد .

يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :

- الاستعداد لمهاجمة المورة برا وبحرا .
- ترتيب المنونه المطلوبة للقوات المحاربة من مصر بمقدار خمسمائة الف كيل استانبولى وتحميلها على السفن .
- تنفيذ التوجيهات السلطانية بشأن تحميل السفن بالامدادات المتجهة إلى المورة .
- ارسال الأوامر السلطانية إلى متصرفى الجزائر وتونس برا .

وثيقة رقم (٧)

موضوعها : رغبة محمد على فى توحيد القيادة العليا للاسطول ، ووضعها فى يد ابنه ابراهيم.
مصدرها : دفتر ١٣ معية تركى ـ ترجمة المكاتبه التركية رقم ٢٢١ ص ١٠٤
تاريخها : غرة رجب ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤م)

من محمد على باشا
إلى الصدر الأعظم

حضرة سيدى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم عالي الهمم كثير العطف والكرم

صدرت أخيرا الارادة القاطعة السلطانية بمأموريتى على المورة وانتدب لابلاغها اياى عبدكم صاحب السعادة نجيب افندى [1] "القبوكتخدا" ثم لدى وروده أصبحت مضامين ومزايا الأوامر العاليه والمكاتبات السنيه التى يحملها معلومة للعبد ، ونقشت التنبيهات السنيه السلطانية المودعة فى حافظة على لوح الخاطر من تقريره الشفهى ، ولعلى بأن القيام دائما بحسن الخدمة وبمصلحة الدين والدولة موجب للفخر ، ومؤد لسعادة الدنيا والآخرة . وبالنظر إلى أنى عبد للدولة العلية متواضع ومحسوب للسلطنة السنية نشأ بنعمها قد بعثت إحالة مصلحة المورة إلى عبدكم أنواع المسرة والفخار ، وبما أنه لايوجد أى نقص في خصوص المهمات والعساكر والمؤن فى ظل الحضرة السلطانية فان شاء الله تعالى سأرسل عبدكم صاحب السعادة ولدى ابراهيم باشا باستعدادات قوية ، وعساكر كثيرة ، وجعله ينسق هذه المصلحة بحسن توجه ولى النعم ، غير أنه لما كان توحيد الكلمة ، واعطاء النفوذ والاستقلال للمشار اليه فى مهمته مثل هذه المهمة من مقتضى الحال فان التفضل بالاحسان إلى سعادته برتبة القيادة العليا للأسطول السلطانى الذى سيرسل بالمقدار المخرج فى السنة السابقة وتفويضه ما يقتضى لتصفية وتطهير جزيرة المورة وجزر البحر المتوسط إلى سعادته بالاستقلال على ألا تحصل مداخله من طرف المامورين الآخرين فى مسألة الجزر المذكورة بوجه من الوجوه ثم توجيه ايالة المورة الآن إلى عبدكم المشار اليه على أن توجه إلى الذى يراد من طرف الدولة العلية بعد اقتران المسألة بالختام ، وتدارك خيول وبغال بمقدار يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف من الروملى ، وتهيئتها بميناء بره وزه [2] لجلبها إلى المورة واستخدامها فى خصوص نقل المؤن والمهمات على أن تعطى قيمتها أو أجرتها من طرف عبدكم هو من رجاء المحسوب لكم كما أن حصول

---
[1] مندوب السلطان الذى جاء إلى مصر ليسلم محمد على فرمان الولاية على المورة .
[2] صحتها برويزه ، وكان الأسطول العثمانى محصورا فى تلك الجهة .

مساعدة ولى النعم السنية بذلك هو من ملتمس العبد ، وان الخصوص اللازم والمقتضى أدرج فى عريضة عبدكم نجيب افندى وعليه فان الافادة بما ذكر أوجبت عرض عبوديتى فان شاء الله لدى حصول العلم لولى النعم فان الأمر والفرمان بخصوص التفضل بابداء مساعدتكم الخديوية، واسداد اسعافاتكم البهية من مستوليات العبد .

يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :

- صدور الأمر السلطانى بالحاق ادارة المورة إلى محمد على .
- رغبة محمد على فى إلحاق القيادة العليا للأسطول السلطانى لابنه ابراهيم ، وتوجيه ايالة المورة اليه أيضا .

وثيقة رقم (٨)

موضوعها : تكليف ابراهيم باشا باستئصال شأفة ثوار المورة وتأخره فى أداء مهمته حتى تكتمل الاستعدادات اللازمة لذلك .

مصدرها : ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٦ محافظ بحر برا ـ محفظة رقم (٩)

تاريخها : ٥ رمضان ١٢٣٩ هـ

مكاتبة بختم محمد على

سيدى صاحب الدولة والعناية والعاطفة والأبهة ولى النعم عظيم الجود والهمم .

لقد تلقيت أمركم الكريم الذى تفضلتم واشرتم فيه إلى أن الحضرة العلية السلطانية على الرغم مما بذلته من الجهود في سبيل انهاء أمر المورة منبع فساد الأمة اليونانية لم يتيسر حتى الآن معالجة هذه الحالة الأمر للذى كان له وقعه المؤلم عند جلالة السلطان . ان جلالته قد قابل رغبتى الصادقه فى القيام بهذه المهمة بالرضاء السامى حيث وجهت إلى عبدكم الوزير المكرم نجلى سعادة ابراهيم باشا والى جدة القيادة العليا للأسطول المصرى السلطانى وولاية المورة ليدبر شئونهما برأيه المستقل كما عهد إلى سعادته بتطهير بعض الجزر من الأشقياء وقد عين ففى معيته ـ عدا السفن الحربية العشرة إلى أوفدت إلى الاسكندرية بقيادة البطرونة همايون[1] ـ السفن الحربية العشرة فى مياه باليه بادره بقيادة خليل بك الجشمه لى ـ وصدر الأمر الكريم الى خليل بك بذلك ، واجيبت ملتمساتى الأخرى التى كان من المستطاع اسعافى بها ، وقد تفضلتم ونوهتم كذلك بأن سعيد أنور أفندى قد قام إلى هنا ايحمل لسعادة نجلى المرسوم الصادر " بالتوجيه " وانتدابه لهذه المهمة ثم طلبتم أن يقوم نجلى الباشا المشار إليه بمن فى معيته من العساكر والمهمات والعتاد فى أقرب وقت ، وأن يسعى السعى الحثيث لانهاء أمر المورة وجزيرتى جامليجة وصوليجة . ولقد تلقيت كذلك الأوامر العلية التى نوهتم عنها ووقفت على مضمونها الكريم أدام الله حضرة صاحب الشوكة والقدرة ولى نعمتنا ، ومولانا السلطان وأبقاه مدى الدهر على أريكة ملكه متمتعا بصفاء البال واستقرار الحال ، وخذل الله أعداء الخلافة والدين والدولة ، ومناهم بالتشتت والاضمحلال آمين . ان جلالة مولانا السلطان ليعلم أننى العبد الذى وقف نفسه لخدمة الدولة العلية الأبدية الدوام والسلطنة السنية السرمدية القيام ، والذى لايضن بالنفس والنفيس فى سبيل الدولة العلية . وان الارادة السلطانية التى تشرفت بتلقيها والقاضية بإحالة أمر معالجة هذا الخطب الجسيم على نجلى لما تستوجب الفخر العظيم لهذا السعيد بين الأقران ، وتشع فى نفسى السرور والحبور ولقد رفعت أكف الضراعة إلى الله المرة بعد المرة بدوام بقاء جلالته . ان نجلى المشار اليه ومن فى معيته من العساكر والمهمات والذخائر على استعداد للحركة على نحو ما بيّنه أخيرا عطوفة نجيب أفندى قبوكتخدا غير أن

---

[1] يقصد القائد العثمانى البطرونه مختار بك .

السفن السلطانية التى ستصل إلى هنا بقيادة خليل بك لم يظهر لها أى أثر بعد وهى بعد وصولها إلى هنا لابد من التريث مدة من الزمن لاكمال نواقصها وترميم النواحى التى تحتاج إلى الترميم فيها ثم أن السفن التى تقرر إبحارها إلى هنا من موانى بر الشام لم تصل كذلك ، ولا أدرى ماذا تم بصددها ، وكذلك السفن المتأمنة التى ستصل من الأستانة وعليها صهاريج الماء لم ندر عنها أى شئ حتى الآن ومن أجل هذه الأسباب تأخر قيام نجلنا إلى ما بعد العيد ، وسيتحرك من هنا فى اليوم الثانى أو الثالث من العيد ان شاء الله تعالى .. هذا وانى لأرجو أن يبذل لنجلنا عطف ولى النعم الجزيل الكثير البركات – الذى هو أشد مضاء من الاكسير – حتى ينال النصر وتلاقى خدماته الرضاء السامى السلطانى وأخيرا أقرر أننى لاأستطيع أن أفى هذه التعطفات السنية حقها من الشكران والأمر والإرادة لحضرة صاحب الدولة والعناية والعاطفة والأبهة ولى النعم عظيم الجود الهمم سلطانى

ختم

محمد على

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

– عدم تمكن السلطان العثمانى من السيطرة على زمام الموقف فى المورة .

– تكليف ابراهيم باشا بتعقب الثوار .

– عدم وصول الامدادات العثمانية من السفن والموانى فى الوقت المقرر لها ، وتأخر ابراهيم باشا من التحرك بقواته حتى تكتمل الاستعدادات .

وثيقة رقم (٩)

موضوعها : نجاح القوات المصرية فى تأديب عصاة أهل جزيرة فاشون وتمزيق شملهم وأسر بعض سفنهم .
مصدرهـا : دفتر رقم ١٤ صادر المعية وثيقة رقم ٤٢٦ صفحة ١١٥
تاريخـها : ٢١ شوال ١٢٣٩ هـ

من الجناب العالى (محمد على باشا) الى الصدر الأعظم (فى الآستانة)

كنت عرضت فى كتابى الذى قدمته لأعتابكم العالية قبلا أن قيام ولدى عبدكم صاحب العاطفة ابراهيم باشا والى المورة وسر عسكر[1] الأسطول المصرى السلطانى من هذا الطرف (مصر) متوقف على ورود فناطيس الماء ، وعلى ورود السفن السلطانية التى هى تحت قيادة خليل بك الجشمة لى من ياورة (بلد فى المورة) ولكننا فى هذه الآونة أرسلنا مقدارا كافيا من عسكر وسفن لتأديب عصاة أهل جزيرة فاشون وتوقيفهم عند حدهم فأرسل لنا عبدكم حسين بك[2] القائد العام للعسكر المرسل إلى تلك الجزيرة هذا الكتاب الوارد أخيرا المقدم لاعتابكم الأصفية وفيه توصيل ما حدث للعصاة المذكورين الذين لم يقدروا أن يثبتوا أمام عسكر الإسلام الذين مزقوا شملهم وفرقوا جمعهم كما أن من بقى منهم فروا نحو الجبال متشبثين باذيال طلب الاستئمان راجين امدادهم بمدد الأمان ، فاعطى لهم الأمان بشرط الاستئمان . ولما لم يكن شك ولا شبهة بأن هذه المأثرة الجليلة ستكون مقدمة لفتوحات عظيمة بعون الله عز وجل وبركة أنفاس حضرة السلطان الأعظم ويمن توجيهات حضرة ولى النعم (الصدر) قد جسرنا على كتابة هذا الكتاب وعرضه مبشرين بما هو الواقع وقد غنمنا مما هو تحت أيدى اولئك العصاة المناحيس خمس عشرة سفينة من طراز بريك وغولت وفرقاطة . وقد كان من لازم الذمة ذمة الرق والعبودية أن نرسلها إلى ميناء الترسانة العامرة (فى الآستانة) ولكن ابقيناها بقصد استخدامها فى خدمة نقل المهمات والذخائر العائدة للعسكر الذين سيذهبون بمعية عبدكم ولدى صاحب العاطفة ابراهيم باشا ولتكون برفقة السفن الاسلامية التى ستستولى بحول الله تعالى وقوته على سفن عصاة جزيرتى جامليجه وصوليجة وبما انه لم ترد الآذان التى قطعت اثناء هذه الوقعه . وفى الحرب التى قامت قبلا فى جزيرة كريد كما عرضنا تفصيلاتها على اعتابكم العالية فمتى وردت فاننا سنرسلها لتطرح على تراب الذلة والصغار وتكون محل العظة والاعتبار وقد ورد نحو ثلث الفناطيس المطلوبة التى هى سبب الالزم الأعظم فى قيام عبدكم ابراهيم باشا المشار اليه ، ولم يظهر خبر عن الثلثين الباقيين وجاء أيضا عبدكم خليل بك (الجشمه لى) هذا ومع أنه من الممكن اخراج عبدكم المشار إليه وارساله فى الحال بدون

---

[1] القائد الأعلى للقوات .

[2] احد قادة محمد على الذى استطاع اخضاع ثوار كريت ، واسقاط أقوى معاقلهم فى سفاكيا .

النظر إلى عدم الانتهاء من ترميم السفن السلطانية التى هى بمعية خليل بك إلا أن عدم ورود بقية القناطيس اقتضى ترقب ورودها لشدة الحاجة اليها وها نحن بانتظارها حتى هذا الوقت ، ومتى ما وردت عن قريب فاننا سنبادر إلى ارساله من غير توقف ولا إبطاء .
هذا ما دعا إلى كتابة عريضة العبودية وتقديمها لاعتاب دولتكم .

يستخلص من هذه الوثيقة :

- استعمال محمد على لقناطيس المياه لشدة الحاجة اليها .
- تأديب عصاة أهل جزيرة فاشون ، وفرارهم إلى الجبال والاستيلاء على ما تحت أيديهم من سفن .

وثيقة رقم (١٠)

موضوعها : محاولة اشقياء البحر الزحف على قلعة أغريبوز وهزيمتهم
مصدرها : محفظة رقم ٩ بحر برا ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٩
تاريخها : ٢١ ذى القعدة ١٢٣٩ هـ

(من عبده حسين)

حضرة صاحب الدولة والعناية والمرحمة والأبهة ولى نعمتى

إن قذائف البنادق التى صرفت لجنود آغريبوز من حملة السيوف وسواهم قد ظهر عند اطلاقها أن رصاصها غير جيد حيث أن المسافة التى قطعتها هذه المقذوفات كانت قصيرة المدى ، ولما أنهى أمرها إلى الباشا قائد البحار .. (قبودان باشا) طير خبرها بدوره إلى الباب العالى وقد ظهرت خيانة اليهودى الـ: "قورشونجى باشى " (رئيس مصلحة الرصاص) المكلف برؤية أمور المهمات وقد جئ به إلى كتخدا الصدر الأعظم ، واستعلم عن الموضوع من نظار المهمات السابقين واللاحقين فكانوا جميعهم يلقون مغبة هذا العمل على اليهودى المذكور الذى تقرراعتقاله توطنه لاعدامه غير أن هذا الاعدام قد ابدل أخيرا بالنفى . وختم بالشمع على منزله والمنزل الآخر الساحلى :

لما أن شاهد صاحب الدولة الوزير المكرم عمر باشا محافظ قلعة أغريبوز أن أشقياء البحر يحاولون الزحف على القلعة المذكورة ، ويقيمون الاستحكامات حول جهاتها الأربعة انقض عليهم بعساكره ، واشتبك معهم فى قتال وإذ ذاك شاهد الاشقياء الكفار أن العساكر من حملة السيوف أيضا قد خرجوا من القلعة من خلفهم فخارت عزيمتهم ، وسرعان ما انتقلوا إلى مراكبهم وولوا الأدبار ، وعلى أثر ذلك ركب الباشا ومن فى معيته من العساكر فى المراكب وطافوا حول الجزيرة وأخذوا يتعقبون الاشقياء الذين خرجوا إلى جزيرة خالية من السكان ، ولما كان الباشا قد صمم على قتال الكفار فقد خرج اليهم وأمعن فيهم تقتيلا حتى قضى عليهم جميعهم وقد بعث حضرته إلى هنا بأذان الأشقياء التى صلمت فكان عددها ٢٠٠-زوجا فوضعت فى المكان المخصص لعرضها على الناس وقد علم أخيرا ان الباشا الموما اليه قد دخل وعساكره اثينا حيث عسكر فى البساتين القائمة هناك وقد استشهد الكثير من العساكر إبان القتال . وقد أجيب مصطفى باشا الأشقودره لى إلى ملتمسه بناء على الأعذار التى قدمها ، وإن مصطفى باشا والى الروم ايلى قد تحرك من "بنى شهر" ونزل فى مكان يبعد مسافة ساعة ، وهو على وشك القيام إلى مقر مهمته وانه قد فهم من أخبار والى الروم ايلى التى وصلت الى حضرته انه سيزحف إلى الأمام من ثلاث جهات ، وبتاريخ ١١ من شهر ذى القعده الحالى وصل السعاة بالتوالى يحملون بشرى انتصار دولة الباشا قائد البحار ودخوله ابيصاره ، بتوفيق الله وبمن الحضرة السلطانية . وقد فرح أهل الاسلام لهذه البشرى وكان جلالة السلطان إذ ذاك قد خرج للتنزه فى غابة السرو القائمة بجوار قوله لى فلم يطل المقام بجلالته هناك لشدة

سروره وعاد إلى سراى بشكطاشى حيث انعم على كل ساع ممن حملوا هذه البشرى بفردة قيمتها ١٢٠٠قرش ثم ٣٠٠٠قرش نقداً ، كما أنعم على كل من كتخدا الصدر العالى ورئيس الكتاب (ناظر الخارجية) وأمناء الترسانة ب ٥٠٠ قرش وخلعه فالحمد لله ثم الحمد لله فنحن بينما كنا ننتظر فى قلق أخبار القتال إذ بمهردار الباشا المشار اليه يصل إلينا على عجل ويعلن أن الباشا قد طوق الموانى التى يعتمد عليها الكفار وأخرج اليها ٨ آلاف ونيف من عساكر أزمير ، والأرنوط والعساكر حملة السيوف " وال قليج " من الغزاة الذين انقضوا على الكفار بينما ظل هو فى الاسطول الرابض تجاه هذه الموانى يدير دفة القتال من البحر وقد دام القتال من البر والبحر مدة ٣٦ ساعة دون انقطاع قتل فى خلالها ارنوط لأن الذين تحصنوا فى الأديرة وأحرقت الجبه خانة التى كانت موجودة فى الأديرة وجعل الكفار طعمة للنار ، واستولى على ١١٠ من السفن الكبيرة والصغيرة وعلى أكثر من ١٠٠ مدفع ، وقطعت رقاب ١٠ من الزعماء، كما قطعت رقاب ٦٠٠ من الكفار الآخرين ، وأسر أكثر من ٥٠٠ من الكفار ، وصلم اكثر من ١٢٠٠ من آذانهم كما استولى على ٣٦ علما من اعلامهم وعلى غير ذلك من الآلات الحربية وقد عرضت جميعها للناس عبرة للسائرين . وفى اليوم التالى أنعم الباب العالى على القبوجوقدار بفروة من السمور الفاخر كما أنعم على المهردار الموما اليه باقطاع ايراده السنوى ٢٥٠٠ قرش و ٥٠٠٠ قرش اعطيها نقدا ، وانعم على كل تابع من اتباعه بمبلغ ٢٠٠٠ قرش . وقد ذكر المهردار أن بلاسلى زاده والبكباشى أحمد بك ، وقائد أزمير وكثير من الرؤساء قد جرحوا ، وأن الذين جرحوا واستشهدوا كثيرين وفوه يما ابداه الميرميران كور ابراهيم باشا (الأعمى) من الشجاعة الفائقة على الرغم من اضطرابه من حالة عينه واثنى عليه كثيرا هذا وفى نحو الساعة السابعة من ليلة الثانى عشر من الشهر المذكور شب حريق هائل فى الفرن المتصل بخان بالطه جيلر الكائن بطريق تتحه قلعة فالتهمت النيران درب طومريق القائم تجاه الفرن ، والجهات الأخرى الكائنة حوله ، وقد هدم نصف خان بارطال باشا ، وناحية المطبخ من منزل المرحوم جلبى افندى للحيلوله دون سراية النار إلى نواحى أخرى وفى اليوم التالى شبت النار فى جهة سلاملك الأغوات فى القصر الساحلى الكائن بـ " دفتر داريرونى " الخاص بالسلطانه خديجة وقد احترق نصف القصر ، واحترق بداخله أربعة من الخفراء ...

فى ٢١ ذى القعدة ١٢٣٩

ختم

حسين عبده

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- اتهام اليهودى المكلف بتزويد القوات بقذائف البنادق بالخيانة لعدم صلاحية الرصاص الذى سلمه للجنود .
- محاولة أشقياء البحر الزحف على قلعة أغريبوز وهزيمتهم .
- ارسال ٢٠٠ زوج من آذان الثوار المقطوعة إلى الآستانة لعرضها على الناس هناك .
- وصول بشرى الانتصار إلى السلطان وانعامه على حاملى البشرى بالهدايا .

وثيقة رقم (١١)

موضوعها : محاولات الدول الأوروبية التدخل فى المسألة اليونانية .
مصدرها : محفظة ١١ بحر برا - ترجمة القسم الخاص بالمورة من المكاتبة رقم ٤٦ .
تاريخها : ١٢ رجب ١٢٤٢ هـ

من مجهول إلى المعية

لقد عقد ايمبراطورو انجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا مؤتمرا تداولوا فيه الرأى ثم وضعوا القرار التالى كنتيجة لرأيهم الفاسد وهذا نصه :

حيث أن الدولة العثمانية لم تعن طيلة هذه السنين بأمر كبح جماح رعاياها الذين حملوا لواء العصيان ، ولم تأخذ خلال هذه المدة بأسباب الاصلاح ، وتوطيد الأمن فى البر والبحر ، وحيث أنه يلوح من بعض الأدلة أن هذه الدولة لن تعمد الى التفكير فى مثل هذه الأمور بعد الآن أيضا . وحيث أن هذه الحالة واضطراب حبل الأمن فى البحر الأبيض تضطر كل دولة من دولنا لأن تبقى فى هذا البحر ٨ أو ١٠ من سفنها لتتولى المحافظة على مصالح التجار من رعاياها وفى هذا ما فيه من النفقات الطائلة التى تتحملها خزائن دولنا بدون فائدة ، وحيث أن شعب الروم كان قديما الدولة اليونانية التى تغلبت عليها الدولة العثمانية ، وقطعت أوصالها مع الأيام وأخرجتها من مصاف الدول وأدمجتها فى صفوف رعاياها ، وقد تغلب هذا الشعب الآن على الترك وأخذ يطالب بحقه فى تصرفه بملكه ، وحيث أنه مما لاجدال فيه أن هذا الشعب على حق فى طلبه بحيث يجب أن يتخلص من وضعه الحالى توطئة لاعادة حقوقه اليه فانه يجدر بنا والحالة هذه أن نتوسط لهذا الشعب لدى الدولة العثمانية فى منحه استقلاله واعادة الملكية اليه وان نحملها على أن توافق على ذلك .

وبعد مضى ثلاثة أو أربعة أيام على تاريخ هذا القرار الفاسد عاد ايمبراطور النمسا ، وقال ان هذه المسئلة من المسائل الداخلية فى الدولة العثمانية وليس فى الأصول المتبعة أن يتدخل الغير فى معالجتها فان لكل دولة منا رعايا فاذا ما أوجب الأمر أن تتدخل الدول فى حل المشاكل الداخلية التى تظهر فى أية دولة فان الحالة تسوء إذ ذاك ، وهذا ليس من المنطق فى شئ ، ولذا فإنى سحبت كلامى ، ورجعت عن رأيى الأول . غير أن ملوك هذه الدول لم يأخذوا بهذا الرأى ، وقالوا ان النمسا دولة ضعيفة بالنسبة لنا وذهبوا إلى أن رجوع ملك النمسا عن الرأى المتفق عليه بهذه السرعة ، ومن غير ما اكتراث قد يكون مما أوحت به السياسة الروسية ولذا فانهم قد ظلوا متمسكين بقرارهم الأول . وقد أدركت الدولة العلية ان جميع هذه الدول ستصر على أن العصاة كانوا قديما الدولة اليونانية ، وتطالب بلسان واحد بوجوب انهاء الحرب واقرار السلم والأمن ، وقد اتصل أحد هؤلاء الملوك بوزراء الدولة العلية ، بصورة سرية وقال لهم : ان الدول ستطلب موافقة الدولة العلية على أن يكون لليونان حكومة ملكية ، ولما كان ليس ثمة أى محذور فى عدم اجابة هذا الطلب إذ أن الدول لاتقدم على عمل أى شئ فى حالة الرفض فان الأمر يقضى برفضه فى الحال . وعلى أثر ذلك قرر الوزراء العظام أن يكون الرد على هذا الطلب السخيف ان معالجة أمر الرعايا العصاة من حقوق الدولة العلية فالحرب القائمة حرب داخلية ولذا فان تدخل الأجانب فى مثل هذه الشئون يعد بالنسبة للعلاقات الدولية وضع فى غير محله . وفعلا عمد سفير انجلترا فى بادئ الأمر إلى تقديم تقرير فى هذا

المعنى . أما الروسيا فقد قررت عدم تدخلها فى هذه المسئلة وفقا لما جـاء فـى معـاهدة اقرمـان التى اعتبرت مسئلة عصاة الروم من المسائل الداخلية فى الدولة العثمانية على انه وان كان من الظاهر أن الروسيا سوف لاتتدخل فى هذه المسئلة تدخلا جديا إلا أنها من قبيل اغفال الانجلـيز ومماشاتهم المصطنعة قد ارسلت هى الأخرى تقريرها المماثل لتقرير الانجليز ، غير أن الـرد على كل حال سيكون الرفض حسبما قرره الوزراء إذ أن هذه المسئلة من المسائل الداخلية التى لايجوز للغير أن يتدخل فيها .

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- استنجاد ثوار اليونـان بـدول أوربـا وتـداول أبـاطرة وملـوك انجلترا والنمسـا وروسـيا وفرنسا وبروسيا فى الأمر واتهامهم للدولة العثمانية بأنها لم تـأخذ بيـد الاصـلاح فـى هذه البلاد مما عرض مصالحهم للخطر .
- محاولة بعض الدول الأوروبية اقناع الدولة العثمانية بمنح اليونانيين استقلالهم .
- تردد النمسا فى الأمر بحجة عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية واصـرار باقى الدول على اعطاء اليونان الاستقلال .
- رفض الدولة العثمانية للوساطة الأوروبية على اعتبار أن تمرد ثوار اليونان ومواجهـة الدولة لهم من المسائل الداخلية التى لايجوز للغير التدخل فيها .

وثيقة رقم (١٢)

موضوعها : احتياج قوات ابراهيم باشا الى بعض المواد الغذائية ، وامداد محمد على لهذه القوات بما يلزمها .

مصدرها : دفتر (٢) عابدين ورقة ٢٢ نمرة ١١٠ .

تاريخها : غرة رمضان ١٢٤٢ هـ

من الجناب العالى

إلى صاحب الدولة ابراهيم باشا

قلتم فى كتابكم الذى تفضلتم بارساله أخيرا إلى والدكم أن ازمة المؤن التى يعانيها الجيوش المنصورة التى فى قيادتكم قد بلغ أقصى حدها وانكم إذا كنتم قد اشعرتم قبلا بمقدار ما عندكم من المؤن مبينة فى قائمة غير أنه نظرا لعدم ورود المؤن من الجزر كما كانت ترد فى السنة السابقة فينظر وقوع ضيق على انكم فى ضيق من جهة النقود بصفة خاصة وانكم ارسلتم قائمة بينتم فيها المؤن الموجودة عندكم .

وقد علمنا ما جاء فى كتابكم ، وبما أنه يؤخذ من القائمة المرسلة أن هناك حاجة إلى الملح والسمن والدقيق من أنواع المؤن فقد كتبنا إلى بلال أغا[1] أن يُعدّ مؤنا تكفى لثلاثة أشهر ويحمّلها سفننا المسلحة نصف تسليح ويرسلها إلى طرفكم فعندما تصل هذه السفن إلى طرفكم تفرغون ما فيها من المؤن بسرعة وتعيدون السفن الينا وتكتفون بهذا القدر إلى أن يصل الاسطول الجديد هذا ما نطلبه منكم . وقد قررنا أن نرسل مرتبات سنة واحدة لكيلا تعانوا مضايقة من جهة النقود ، واذا لم يكن اكمال مرتبات سنة واحدة إلى أن يتم الاسطول فلابد من ارسال مرتبات ثمانية أشهر .. واخيرا نطلب اليكم مرة أخرى سرعة تفريغ السفن التى ستصل اليكم محملة بالمؤن واعادتها إلى هنا وانا قد ننتهز هذه الفرصة للسؤال عن سعادتكم إذا وصل كتابنا باذن الله تعالى واحطتم علما بما فيه فمأمولنا العمل على النحو المحرر فيه .

---

[1] كتخدا الاميرال محرم بك .

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- معاناة قوات ابراهيم باشا فى بلاد المورة من نقص فى المواد الغذائية وقيام محمد على بامداد هذه القوات بما يلزمها لمدة ثلاثة اشهر ، هذا إلى جانب ارساله مرتبات الجنود لمدة

وثيقة رقم (١٣)

موضوعها : مقترحات محمد على للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وانهاء الأزمة اليونانية سلميا .
مصدرهـا : دفتر رقم ٢ عابدين ـ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٢٢
تـاريـخـهـا : ١٧ ربيع الأول ١٢٤٣ هـ

من الجناب العالى
إلى : مولانا الصدر الأعظم

إن أوامر دولتكم الواردة إلىّ أولاً وأخرا وعيت مضامينها ، ووقفت على مزاياهـا حرفيـا . فعبدكم هذا هو عبد خالص يبذل الـروح فـداء ، وأنـى اعتبر شـخصى مكلفـا بتنفيذ الارادات الملكية فى كل مادة ، لاسيما فـى مسـألة المـورة هـذه . وبمـا أنـى علـى يقيـن مـن أن الواجب يفرض علىّ أن اعنى بتسخير المورة ، وتأديب أشقياء الروم وقهرهـم ، واسـتخلاص جامليجـه وصوليجه من أيدى الأشقياء وتطهير تلك الأرجاء من ادران الأروام اللئـام ، فـان كـل أفكـارى التى تساورنى ليلا ونهارا منصرفة إلى حال الاسطول ، وإلى أحوال المكلفين به ، وليـس لـدىّ ما يشغل بالى بحسب المأمورية غير هذه المسألة .

لقد علمت مما فصلتموه فـى أمركـم الـداورى أن الـدول قـد اتفقت وان اسـاطيلهم وشـيك وصولها ، وعززتها الأنباء التى ترامت إلىّ من الخارج ، إلا أنه لـم يصيبنـى أدنـى فتـور مـن ذلك بفضل استظلالى بظلال الحضرة الملوكية ذات المكرمات ، ولم اسمح لهمتى بالتقاعس أبدا فى أداء الخدمات التى تقتضيها هذه المصلحة الخيرية وأومل أن أبقى ثابتا على العهـد مـن بعـد الآن ، وعلى ما أنـا عليـه ، وأن أظـل دائبـا موفـور السـعى طالمـا كـانت الـروح فـى الجسـد ، والجسد قوى بالروح ، وأن أقدم على اداء ما يفرضه علىّ الواجب والله ولى التوفيق .. .

ولما كان ليس من الجائز أن يكون اجتماع المتضامنين [1] فى حكومة واحدة أحرارا فقـد رأيت أن الاجابة العالية القاطعة المبلغـة إلـى سـفراء الـدول التـى تقـول بحريـة الاروام موافقـة بالنسبة للدولة والملك والملة . وأن دولتكم بايرادكم هذا الرد قد رفعتم من شأن الدولـة العليـة ، ووفيتم واجبات السلطنة المنية . وبما انكم قطعتم القول على ذلك فان هذا العبد الخاضع لمسالك هذا المسلك ومتتبع أثركم . فلما بذلت كـل قـواى لأداء الخدمـات الدينيـة المحالـة علـى عهدتـى وتجهيز عبدكم محرم بك محافظ الاسكندرية ، وقائد الاسطول المصرى العام للسفر مقتفيـا اثـر الاسطول الهمايونى ، استدعيته مرارا وطلبت منه بلهجـة التـأكيد أن يـأخذ كفايتـه مـن المـاء مـن الشاطئ المقابل (الاناضول) وألا يتمهل بل يعمل على الوصـول إلـى المـورة بـأقصى سـرعة حتى إذا ما تقابل مع نجلى عبدكم ابراهيم باشا عُنى باعداد ما يحتاج اليه هنالك منها فـى وقـت قصير ، وقام بكامل قوته بعد اكمال نواقصـه متوجهـا نحـو جامليجـه مباشـرة لمحاصرتهـا وان

---

[1] لعله يقصد المحكومين .

يضع يده عليها بدون تمهل . ثم زودت البك القبودانه (اميرال درجة ثالثة ــ قائد الأسطول الهمايونى) بمثل هذه الوصايا ، وشرحت له كل ما يختص بمأموريته . والمأمول ألا يهملا هذه الوصايا بل يعملا على تنفيذها باذلين قصاراهما .

وبما أنكم تفضلتم بإرسال صورة من أمركم العالى إلى عبدكم نجلنا الباشا المشار إليه فلا بد أن يكون على علم بما حوته من الوصايا السنية ، والتنبيهات العلية وحيث أن عبدكم البك القبودانه وعبدكم محرم بك وما فى معيتهما من سفن الأسطول هنالك ، فلا شك فى أن نجلنا يتولى ابلاغهما وما يحتويه الأمر العالى من التعليمات ويعمل من جانبه على ايفاء ما تقتضيه مأموريته . بيد أن هذه المسألة ، مسألة خطيرة وعظيمة جدا ، ولذلك أقضى ليلى ونهارى فى قلق ومع أنى كنت قبل ورود أمركم السامى الآنف الذكر أيضا أجيب اجابات بكل شجاعة على الأنباء التى تترامى إلىّ عن هذا الموضوع ممن يفدون علينا من أوروبا ويذهبون اليها ، ولولا انى كنت كلما أفكر فى صحة هذه الأنباء ساورنى القلق والألم والكدر ، كما أن خلاصات الأوامر الكريمة التى وردت إلى منكم مرتين ، ضاعفت كدرى وغمى . ولقد اقتضى الأمر أن اكتب لاعتابكم الكريمة فى معرض الرد ، لكنى لم أجرؤ على التحرير لأنى فقدت المقدرة على التحرير قائلا ان هذا الموضوع هو على هذا الشكل أو غيره ، وفضلت التحرير إلى القبوكتخدا بصفة سرية وبصورة عرض للحالة مشيرا إلى بعض مالاح بفكرى بحسب قصر عقلى ، ثم عدلت عن ذلك أيضا ولم أجسر على ارسال ما كتبت ، وبقيت فى حيرة من أمرى !.. وإذا وردت أخيراً إلىّ بعض الرسائل من لدن عبدكم ابراهيم باشا ، وسارعت فى ارسال الرسالة التى وردت إلىّ من ابراهيم باشا إلى أعتاب دولتكم ، وإلى ارسال المكاتبة السابق تحريرها إلى عبدكم قبوكتخدانا والتى لم أجرؤ على ارسالها أولا إليه ، وستعلمون كل بعد الاطلاع على رسالة ابراهيم باشا ، وعلى المكاتبة المرسلة منا إلى القبو كتخدا

سيدى ! ماذا أقول ؟ ... وماذا استطيع ان اقول ؟ ... ان عمل الدول فى الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب ! .. نعم نحن قوم من ارباب الحرب والضرب، إلا أننا مازلنا فى مستهل كتاب الحرب نقرأ فى حرف الألف والباء . أما الدول فقد اتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فانى أرى بصفة محققه ـ بحسب ما يمليه على عقلى القاصر ان الاساطيل لاخير منها على الاطلاق ، وستهلاك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفا من الجنود الموجودة فيها . ولن تنتهى الحرب من بعد ذلك إذ يقفون حجر عثرة فى سبيل القوة فى سبيل القوة الجديدة التى ستعطى للدولة العلية ، ويمنعون وصول الجنود المنظمة .. وبناء على ما تقدم كتبت إلى عبدكم ابراهيم باشا بالتريث لحين ورود أمر كريم آخر من لدن ولى النعم فان كنتم تفكرون فى اختيار أهون الشرور فى هذا الخطب الجسيم تحسنون صنعا وتكونون قد قمتم بما تفرضه واجب النظر فى عواقب الأمور .. وحبذا لو عنيتم فى الوقت الحاضر بالمذاكرة مع دولة النمسا التى يؤمل منها الصداقة منذ القديم أو مع دولة أخرى يعتمد عليها ، وتوسيطها وافراغ الموضوع فى قالب آخر حتى إذا ما عمدت الدولة العلية فيما بعد فى تقوية شئونها ، وتنظيم مصالحها تتوسل بوسائل أخذ الثأر والانتقام

هذا ما عَنَّ بى من الملاحظات ، وفى الواقع لا أجد فى نفسى اللياقة لحل الأمور العظيمة و[illegible] إذ لا بد أن يكون وزراء الدولة العلية أعرف بروح الشئون وأقدر على استخراج النتائج . ورأيى ما هو لا من قبيل الاخطار يمليه علىّ اخلاصى وصداقتى، والرأى الأعلى لمولانا فما أنا إلا عبد أوامره ، والمفروض علىّ أن أعمل وفقا لما يصدر من دولتكم

بمقتضى اخلاصى . ورأى هذا العـاجز انمـا هـو عـرض . وعلـى كـل حـال فـالأمر والفرمـان لحضرة من له الأمر ،

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

— اعلان محمد على خالص عبوديته وطاعته للسلطنه واستمراره على العهد
— عرضه للحالة الحربيـة بشكل واضـح وتخوفـه مـن تدخـل اسـاطيل انجلترا وفرنسـا وروسيا فى المعارك لصالح الثوار
— اقتراحه بضرورة الموافقة على مؤتمر لندن الخاص بمنح بلاد اليونان استقلالاً اداريا فى ظل السيادة العثمانية وابلاغ ابراهيم باشا بذلك للسير بمقتضى هذه التعليمات .
— التحذير من خطورة مواجهة الدول الكبرى فى البحر خشية ضياع الاساطيل والجنـود وضرورة التبصر بعواقب هذه الأمور .
— اقتراحه بامكانية وساطة النمسا فى هذا الموضوع حفظاً لماء الوجه .

موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد على في بلاد الشام (دراسة في وثائق عابدين)

تعتمد هذه الدراسة على مجموعة منتقاة من وثائق عابدين الخاصة ببلاد الشـــام والتى ترجمت من التركية إلى العربية تحت اشراف الحكومة المصرية فى عهد الملــك فؤاد بهدف أحياء ذكرى والده إسماعيل وجديه إبراهيم ومحمد على.

والواقع أن بلاد الشام كانت مطمح أنظار محمد على منذ حروبه فى الجزيـــرة العربية[1] فقد طلب من السلطان إضافة منصب إيالة الشام إلى منصــب والـــى مصــر مبررا ذلك بإمكانية جمع الجنود من هناك، وتكوين الجيوش لمحاربة رجالات الدعــوة السلفية، ولكن طلبه كان مصيره الإهمال.

ولما قامت حرب المورة كرر محمد على طلبه إلى السلطان بأن يضـاف إليــه حكم سورية بجانب حكمه لمصر تعويضا عما تكبده من خسائر فى هذه الحرب، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضــم هــذه البــلاد بــالقوة لاستغـــلال مواردها التى تفتقر إليها مصر، وحتى تكون حاجزا حصينا بيـــن مصــر والدولة العثمانية إذا ما فكرت الأخيرة فى محاربته.[2]

وعــن التوقيــت الذى اختــاره محمــد علـــى لمحاربــة السلطــــان، ومحاولته اقتناص بلاد الشـــام منه فيمكــن القول أنه اختار الوقت المناسب لذلك.

---

[1] أسد رستم: المحفوظات الملكية المصرية- بيان بوثائق الشام- بيروت، ١٩٤٠، ص ١٢٣.
[2] عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ٢٤٤.

ففى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية منهمكة فى مسائلها الداخليه وتتنازع كل منها السيادة على أوربا بعد تصفية الإمبراطورية النابليونية وفى الوقت الذى أصبحت فيه الدولة العثمانية تمثل رجل أوربا المريض المنهوك القوى نتيجة للثورات الداخلية التى لاحقتها فى كل جانب ولحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وفى الوقت الذى قامت فيه الدولة العثمانية بتصفية الانكشارية الذين كانوا بمثابة العمود الفقرى للجيش العثمانى انتهز محمد على حاكم مصر كل هذه الفرص لاظهار قوته أمام السلطان محمود الثانى وبخاصة أن جيشه كان فى حالة طيبة ، ولأنه كان قد اجتذب اليه الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان فى ذلك الوقت[1] .

وقد تذرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا[2] الذى كان قد شجع الآلاف من الفلاحين المصريين الهاربين من عسف جباة ضرائب السلطة فى مصر باللجوء الى ولايته ورفضه تسليمهم اليه[3] فاتهمه بسوء نيته تجاهه ، وعدم وفائه بدين عليه وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام مدعيا أنها لبعض التجار من أهل نابلس[4] ومساعدته على تهريب بعض البضائع من الجمارك المصرية ، ومن هنا قرر ارسال

---

(١) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢) ولاية صيدا كانت قاعدتها عكا ولذلك سميت احيانا بولاية عكا .

(3) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt A. Study of Muhaimmad Ali, Cambridge at the University Press 1931 p. 108.

ويذكر محمد كرد على أن عدد هؤلاء كان ستة آلاف ، وان عبد الله باشا امتنع عن تسليمهم لمحمد على بحجة أن قطريهما يتبعان سلطان واحد .

للتفاصيل انظر : خطط الشام ج ٢ ، بيروت — دار العلم للملايين ١٩٧٠ ص ٥١ .

(٤) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ ص ١٢١ .

حملة لتأديبه ، وعين ابنه ابراهيم باشا قائدا لها وبالرغم من محاولات السلطان العثمانى التدخل لاصلاح ذات البين ورغبته فى اطفـاء فتيل الحرب بينهما[٥] فان محمد على كان مصرا على تأديب هذا الوالى ، فأرسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ اكتوبر ١٨٣١ فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر[٦] ، وفى ٨ ديسمبر من نفس السنة ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وأرسل ابراهيم باشا انذارا الى والى عكا يطالبه فيه بتسليم القلعة حقنا للدماء[٧] ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميـع الجهـات[٨] .

وحرصا على عدم انفلات الأمر من الدولة العثمانية كرر السلطان محاولاته لرأب الصدع بين الجانبين المتحاربين ، فأرسل مندوبا الى محمد على ينصحه بالعدول عن الحرب منعا لسفك دماء المسلمين ، وحرصا على عدم اقلاق الرعية محذرا له من عواقب الاستمرار فى الحرب ولما دارت المفاوضات بين المندوب السلـطانى ومحمد على تظاهر الأخـير بالاخلاص للدولة العثمانية ، وألح أن الهدف من حربه هو المحافظة على شرف مصر الخالد واعادة مجدها فى ظل الدولة العثمانية ، وانه فى حربه يحارب حاكما — شبه مستقل — خارجا عن طاعة الدولة[٩] كما ألح

---

(٥) محافظ عابدين . محفظة رقم ١٤ (بحربرا) ملخص الوثيقة رقم (٢١) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ .

(٦) أسد رستم : المصدر السابق جـ ١ ، ص ١٢٨ الوثيقة رقم ٢٤٠ .

(٧) نفسه ص ١٣٩ . الوثيقة رقم ٢٣١ .

(٨) داود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢ القاهرة : الطبعة الرحمانية . د.ت ص ٧ ، ص ٩ والجدير بالذكر ان القنابل وقتئذ لم تكن سوى كتل من الحديد والفولاذ المستدير التى تدك وتهدم ولا تنفجر .

(٩) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٣ .

على لسان ابنه ابراهيم بأنه لا مانع من تسوية الموقف اذا قامت الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا والى عكا وتعيين والى آخر حائزا ثقـة محمد على .

ولـما تعثرت المفاوضات نتيجة لعدم موافقة السلطان على مطالب محمد على ، أمر الأخير ابنه ابراهيم بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يتم فتحها غير آبه بنصائح السلطان ولا بوعيده ، ومن هنا اتهمه السـلطان ببـذر بـذور الفتنـة والفسـاد بـين النـاس وأستصدر فتوى بأن محمد على وابنه ابراهيم قد خانا الدولة ومرقا عن دين الله وذلك لاستنفار الأهالى ضدهما ، كما أمر بعزل محمد على عن منصبه ، مما أحدث ضجة عنيفة داخل الأوساط الدينية فى مصر حول شرعية حكمه ، وقد واجه محمد على هذه الضجة بالعنف فأعدم كل من وصل الى مسامعه أنه أثار هذه الضجة ، ومن بينهم بعض علمـاء الأزهـر [١] .

ونظرا لفشل المحاولات السلمية مع محمد على طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربته وتأديبه فى نظير تنصيبه حاكما عاما على بلاد الشام ، وأن تكون له اليد الطولى فى تصريف أمورها [٢] .

ولكى يتفادى محمد على المصاعب التى يمكن أن تواجه قواته أمام حصون عكا ، وتوفيرا لجهودها القتالية أوعز الى ابنه ابراهيم بمحاولة استمالة أفرادها من جنود عبد الله باشا بالمال عن طريق دفع رواتبهم المتأخرة ووعدهم بالحماية والتأمينات الكافية ولكن ابنه لم يرحب بهذه الفـكرة بل رأى أنه من العار فعل ذلك [٣]

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم (٥٨) بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٧ (رسالة من ابراهيم باشا الى محمد على) .

(2) Dodwell : op. cit., p. 110.

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٤١ ترجمة الوثيقة رقم ٤٤ بتاريخ ٣ رجب ١٢٤٧ هـ (مكاتبه من ابراهيم باشا الى محمد على) .

ونتيجه لذلك طلب ابراهيم من والده ضرورة الاهتمام بالأسطول المصرى وتجهيزه بالمدافع والأسلحة اللازمة بعد أن أثبت عدم كفاءته فى دك حصون عكا ، وحتى يستطيع مناوأة الاسطول العثمانى وعرقلة جهوده فى مساعدة المدافعين عن عكا(١) .

وخلال تلك الفترة بدأت الدولة العثمانية استعدادتها للهجوم على القوات المصرية المحاصرة لعكا بهدف تطويقها وطردها من بلاد الشام مما أدى الى تحرج الموقف ، وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا(٢) تاركا بعض القوات أمام عكا لمتابعة حصارها .

وقد نجح ابراهيم باشا فى — خلال حروبه مع القوات العثمانية — انتزاع طرابلس منهم ، وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم وألجأهم الى الفرار(٣) .

وخلال غياب ابراهيم باشا عن قواته المحاصرة لعكا انتهز عبد الله باشا الفرصة فأمر بخروج قواته من معاقلها والهجوم على القـوات المصرية ، وقد نجح فى تدمير بعض استحكامات هذه القوات وردها الى الوراء ، مما جعل ابراهيم باشا يسرع فى العودة الى عـكا ، ويعيد احكام حصارها برا وبحرا .

ولما طال أمد الحصار أرسل ابراهيم باشا رسولا الى والى عكا للتفاوض معه فى أمر الكف عن سفك الدماء ، وبأن يقوم بتسليم القلعة

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ٥٨ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٤٧ .

(٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٣) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٣ .

فى مقابل أعطائه الأمان ، لكن عبد الله باشا رفض هذه الفكرة ، وقام رجاله باطلاق نيران بنادقهم على هذا المندوب(١) ، مما جعل ابراهيم باشا يقوم بالهجوم على القلعة فى محاولة منه للضغط على رجالها ، وبالرغم من نجاح جيشه فى الاستيلاء على السور الشرقى من قلعة عكا وتدمير المدافع الموجوده عليه(٢) فانه لم يتمكن من احتلال المدينـة بل تم تراجعه لشدة استبسال المدافعين ، واصابة بعض ضباطه بجراح(٣) ، ولتحرج الموقف طلب ابراهيم باشا من الأمير بشير الشهابى القدوم اليه — ومعه بعض قواته — الى عكا للمساعدة ، ولما تباطأ الأمير بشير فى الأمر شكاه ابراهيم الى والده ، فأرسل محمد على الى الأمير بشير كتابا يلومه على تأخره وينذره بسوء العاقبة اذا خالف عهده معه ووعده له وتوعده بأنه اذا أحجم عن الانضمام لابراهيم فانه سيجرد عليه خمسا من الآلايات(٤) لتخريب مساكنه وزرع أرضها تينا ، وقبل وصول هذا الكتاب الى الأمير بشير كان قد تحرك على رأس مائه فارس الى عـكا(٥) .

وبالرغم من ذلك فان محمد على كان قلقا من جراء عدم سقوط القلعة(٦) وثبات المدافعين عنها مما جعله يستدعى بعض قواته الموجودة

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ١٠ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا يكن الى محمد على) .

(٢) اسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٣٢ .

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٠ بتاريخ ١١ شوال ١٢٤٧ هـ .

(٤) اسد رستم : المصدر السابق ج ١ . الوثيقة رقم ٣٦٢ ص ١٣٥

(٥) داود بركات : المرجع السابق ص ١١ .

(٦) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٤ . بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٤٧ .

فى كريت للمساعدة ، كما فكر فى الحضور بنفسه الى عكا لمراقبة الموقف هنـــاك [1] .

والسؤال المطروح هل ترجع الصعاب التى واجهها ابراهيم باشا وقواته الى مناعة أسوار عكا واستبسال جنودها فقد أم أن هناك أسبابا أخـــرى .

الواقع أن الخطة التى سلكها الباب العالى ضد محمد على بتجريده من منصبه واباحة دمه ، قد أثارت الرأى العام الاسلامى ضده وشجعت المدافعين عن عكا على الصمود ، وجعلت بعض علماء المسلمين يصبون لعناتهم على محمد على ويتهمونه بالخروج عن طاعة السلطان مما زاد من اصرار والى عكا على المقاومة .

ونتيجة لطول أمد الحصار ، وعدم قدرة القوات المصرية على اقتحام عكا تزايدت الشائعات بين الناس داخل مصر حول مصير الحملة مما جعل محمد على يصدر فى ٨ مارس ١٨٣٢ أوامره المشددة بحرمـــان اذاعة أنباء حصار عكا داخل مصر ، وبضرب أعناق مروجى الشائعات ولمـــا لم يرتدع بعض المرجفين لأوامره أمر بضرب أعناق أربعة منهم وزج بعشرين آخرين فى غيابات السجون ليكونوا عبرة لكل « الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » وقد عرضت الحكومة على الناس جثتين كتب عليهما العبارة الآتية « هذا هو العقـــاب الذى يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية »[2] .

وعن محاولات كل من محمد على وعبد الله باشا لرفع روح قواتهما الموجودة داخل أسوار عكا وخارجها فقد أرسل محمد على أمرا الى

---

(1) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا الى محمد على) .

(2) بيير كربيتس : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران . القاهرة — مطبعة لجنة التاليف والترجمة ١٩٣٧ ص ١٥٩ .

قواته يبلغهم فيه تحياته وثقته فيهم وآماله الكبيرة التى ينتظرها منهم من حيث اظهار الشجاعة وبذل التضحية والثبات والغيرة والاجتهاد خلال الزحف على عكا مذكرا اياهم بالانتصارات التى حققوها فى العديد من المعارك السابقة ، ومبشرا لهم بقرب سقوط عكا(١) .

أما عن عبد الله باشا ، فقد استصدر من علماء عكا ورجال الدين فيها فتوى تتضمن أن من يموت من عساكر محمد على فمصيره الى النار (٢)، ومن يموت من عساكره فمصيره الجنة وقد استند علماء عكا فى اصدار هذه الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد على وابراهيم باشا قد خانا الدولة ، ومرقا عن دين الله .

ولما كان السيف وامتشاق الحسام هما الطريق الوحيد الموصل لتحقيق النصر ، فقد قام ابراهيم باشا بمعاينة الأعمال العسكرية التى كلف بها جنوده ، واتخذ التدابير اللازمة لسرعة نقل ذخائر جيشه ومهماته الى المواقع الجديدة كما هدد المتخاذلين من ضباطه بالعقاب الصارم(٣) وطالبهم بأن يكونوا صناديد عندما يحمى وطيس المعركة ، كما استدعى من الاسكندرية الكولونيل « روماي » الايطالى ، الذى كان قد علا نجمه خلال حصار قلعة موسولينى باليونان ، فوصل مع بعض زملائه الى معسكر عكا وبدأوا فى تغيير شكل الحصار(٤) وبناء طوابى المدفعية المناسبة والاقتراب من سور المدينة حتى تصل قنابل المدفعية اليها بطريقة سليمة(٥) .

---

(١) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ج ٣ ص ٨٣٤ .

(٢) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٥ وثيقة رقم ١٤٠ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٤٨ هـ .

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .

(٤) داود بركات : المرجع السابق ص ١٣ .

(٥) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٣٤ .

ونتيجة لتدهور الأحوال فى عكا ، وتناقص أفراد حاميتها وقلة المواد الغذائية ، وتفشى الأمراض بين الناس راودت عبد الله باشا فكرة التفاوض مع ابراهيم باشا فى أمر الصلح ، فرفع أعلاما بيض فوق أسوار عكا ، وقد وافق ابراهيم باشا على هذه المبادرة وأمر جنوده بايقاف الضرب خصوصا بعد أن ارسل عبد الله باشا مندوبا عنه للتفاوض[1] ، ونظرا لتعثر المفاوضات عدل حاكم عكا عن فكرة الصلح وبخاصة بعد أن ابلغته الحكومة العثمانية بقدوم قوات جديدة من جيشها لمساندته[2] ونتيجة لذلك أمر ابراهيم باشا جيوشه باستمرار اطلاق النار على عكا حتى يتم فتحها عنوة[3] ، وقد أخذت هذه القوات تصلى عكا نارا حامية ليلا ونهارا لمدة ثلاثة أيام متتالية وبعدها قاد ابراهيم باشا الهجوم على عكا ؛ وبعد كر وفر تمكنت القوات المهاجمة من الصعود الى القلعة عن طريق برج الباب وناحية الزاوية وأخذت فى التشديد على المدافعين حتى ضعفت مقاومتهم[4] وظهر الضجر والسآمة عليهم وسقط العلم من أيديهم وتم احتلال القلعة[5] فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وبذلك زالت أكبر العقبات أمام القوات المصرية الزاحفة على بلاد الشام بعد صمود دام أكثر من ستة شهور .

(١) حيدر الشهابى : من تاريخ الأمير حيدر المسمى الروض النضير ج ٢ ، القاهرة . مطبعة السلام . ١٩٠١ ص ١٠٢٢ .

(٢) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٣) حيدر الشهابى : المصدر السابق ص ١٠٢٥ .

(٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الافادة رقم ١٣٠ بتاريخ الأحد ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .

(٥) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ (مكاتبة من ابراهيم باشا الى سامى بك) .

وعن الموقف الدولى تجاه فتح عكا ، فقد انزعجت الدول الكبرى من انتصارات محمد على فأبدت روسيا قلقها ونظرت اليها بعـين الخوف والوجل ، كما أخذت بريطانيا تعيد حساباتها حول النتائج التى يمكن أن تترتب على استيلاء محمد على على بلاد الشام ، أما فرنسا فقد كانت علاقاتها الودية مع محمد على تجعلها تملك وسائل اقناعه بالاعتدال خشية استفحال الخطر الروسى ٠

وفيمـا يلى نعرض لوثائق هذا الموضوع

وثيقة رقم (١)

موضوع الوثيقة : رغبة الباب العالى فى حسم النزاع بين محمد على ووالى عكا بالطرق السلمية .

تاريخها : ١١ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ .

مصدرها : محافظ بحر برا محفظة رقم ١٤ .

من مجهول الى الجناب العالى

« بناء على مايبدو من جنابكم العالى من امارات التفضل بالأخذ فى أسباب تأديب والى عكا وسوق القوة عليه بقصد التنكيل به ، وذلك نظرا لغضبكم عليه وحدوث بعض ما يؤدى الى اشتداده من الأسباب هذه المرة قد أرسلت محررات من قبل المقام القائمقامى الى مقامكم الرفيع والى الوالى المشار اليه فى سبيل صلاح ذات البين وبهذه المناسبة أقول : ان ذاتكم الخديوية الحميدة الخصال ليستم مثل غيركم فى وجه من الوجوه ولا سيما أن حضرة صاحب الجلالة سلطان السلاطين لا يرضى مطلقا بما يزعج خاطركم السامى على ماسمعه وحققه هذا العاجز ولذلك أكد الى الوالى المشار اليه بأن يكون فى حالة الانقياد ، ثم أن اهتمام جنابكم العالى بموضـــوع تأديب والى عكا يضـــم مشغلة أخرى على ما يشغلكم من الشواغل الكثـــيرة المهمة من جهة ويؤدى الى اختـــلال (الأمن والنظـــام) فى تلك النواحى من جهة أخرى وخصوصا يفكر فى هذه الأيام فى تبديل ايالة الشام وبقاء الاحتساب فى الشام الشريف ولكيلا يمتد الاحتلال الى الشام الشريف أيضا بسبب عكا فلو تفضلتم وعملتم فى هذا الموضوع بمقتضى الكتاب القائمقامى لنال عملكم هذا القبول والتقدير وارتياح جلالة السلطان هذا ما فهمته من كلام بعض الواقفين على لدينات الأمور وبسطت المقال لبيان الواقع وبعد فالأمر بيد حضرة من له الأمر » .

يستخلص من هذه الوثيقة رغبة الباب العالى فى اصلاح الأمر بين محمد على ووالى عكا حتى لا يختل الأمن والنظام فى بلاد الشام .

وثيقة رقم (٢ أ)

موضوع الوثيقة : محاولات تسوية النزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على بالطرق السلمية ، وتحذير ابراهيم باشــا لوالده من مراوغة الباب العالى خلال المفاوضات .

تاريخهــا : ٢٣ رمضان ١٢٤٧ هـ .

مصـــدرها : محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ٥٨ .

من سمو ابراهيم باشا السر عســكر

الى الجنــاب العالى :

« هذا ما يبديه عبدكم :

تلقيت أمر دولتكم الصــادر فى ١٧ من رمضان ١٢٤٧ وتلوته بالاجلال والتعظيم وقد جاء فيه انكم اذ كنتم تعدون العدة من أجل ايفاد عبدكم بهرام اغا الخزينة دار[1] الى الآستانة اقترح المــأموز نظيف أفندى[2] على دولتكم أن يذهب اليها مع اثنين من رجال دولتكم المعتبرين فى سير سريع للتوفيق بين هذا الاختــلاف وحله ثم يعود وأنكم ناظرون فى هذا الشــأن ومنجزون ماتفيده هــذه الأقوال التى قيلت • وقد يخطر ببالى يامولاى ، أن المأمور مصطفى افندى المشار اليه أراد أن يمحص ما فى ضمير دولتكم بسؤاله • ألا يصح أن تولى الدولة على عكا بعد فتحها وزيرا يتبع رضوانكم ؟ » وقد ســبق أن دار هذا

---

(١) خزينة مأخوذة من الكلمة العربية خزانة ، وكلمة دار فارسية بمعنى صاحب او مدير .

د عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ١ ، ص ٥٩٦ .

(٢) مصطفى نظيف افندى احد رجال الدولة العلية ورئيس محاســبة الحرمــين .

الحديث بيننا وبين برتو أفندى[٣] فلو قيل له يا أفندى لقد كنت رفعت الى المقامات العليا وبينت لها « انى لست طامحا فى عكا وانما نريد أن يعزلوا عنها هذا السفيه ولهم الخيار فى تولية وزير مناسب وارساله وليأخذوا الخزينة التى يجدونها فى عكا ان شاءوا » وانى لم أزل ناويا هذه النية ، وكان غرضى من هذا أن أحفظ لمصر شرفها ومكانتها فى ظل الذات الشاهانية بهذه الوسيلة وأن أقدم للدولة العلية خدمة بهذه الملابسة واللغا[٤] من الأمور التى زعموها وذهبوا اليها لم تكن من الشئون التى تقع بخلدى ، ولقد التمست قبل ايام اسناد ولايتى صيدا والشام الى تكرما من الذات الهمايونية . وانما قلت هذا بنية خالصة هى القيام بالخدمة نحو دينى ودولتى عامرا تلك الديار ومصلحا أحوالها . ولقد أصلحت أمور جزيرة كريت دون أن يدمى أنف أحد[٥] حتى صارت الى هذا المصير الحسن فليستردوها اذا شاءوا . اما اذا شاءوا أن تصبح أكثر عمرانا فليتروكها لنا . فهذا أمر منوط بمشيئة الدولة العليا وحدها . أما اذا أرادوا أن يطعنوا فى أو يسوقوا على جنودا متخذين وسائل من هذه المقالات فعليهم أن يفكروا فى العاقبة التى تترتب على ذلك . لأننا نضطر بلا مرية الى عمل ما نستطيع عمله غير ملتفتين اذ ذاك الى أى شئ من تلك الاعتبارات .. فانى لأظن على ما يجزم به عقلى القاصر أنه لن يجد اجابة على هذا التصريح وأما مصطفى أفندى[٦] فقد يفهم من اقتراحه السفر والعودة مع اثنين من رجال دولتكم المعتبرين انه يعمد الى خدعه يريدالتخلص بها اذ أنه لم ينبغى أن تكون هناك حاجة الى سفره مرة أخرى الى اسطنبول والعود منها لانجاز المهمة وقضائها ، ولأن الموفدين حتى الآن لانجاز مثل هذه

---

(٣) كتخدا الصدر الاعظم .
انظر : اسد رستم . المصدر السابق ص ١٢١ .
(٤) كذا فى الاصل ولعلها اللغو .
(٥) يقصد بدون اراقة دماء .
(٦) يقصد مصطفى افندى نظيف .

المهام قد قضوا مهمتهم كتابة ولم يدعوا الى رجوعهم الى اسطنبول . ولا يبعد أن يقصد هذا من رغبته فى السفر الى اسطنبول مع اثنين من رجال سموكم المعتبرين محض اقناعهما بزخرف الكلام وملأ أدمغتهما كما يشاءون وتدوين أسئلة اساتيذهم[٧] وأجوبة هذين الرجلين واذاعتها فى كل جهة اتهاما لمصر ثم اعادتهما الى مصر ليفرغا فيها ما ملىء به دماغهما ليكونوا رابحين من هذه الوجهة أيضا . ولئن ارسل نفر من رجال دولتكم المعتبرين لا يستطيعوا مجاوبة أولئك القوم فلذلك أفضل أن يندب الموفدون من صغار الرجال اذ كان أريد من انتداب رجل أو رجلين ، لكى يحدثوهم كما علموا وصفوة القول يؤخذ من ظواهر أحوال مصطفى افندى وأطواره ، ومن كلمات رجال اسطنبول المنطوية على الفساد ومن ضغائنهم الطبيعية ان حكومة اسطنبول اتبعت فى هذه المسألة سياسة ذات وجهين فانتدبت مصطفى افندى مزودا بخدع ودسائس لاكتساب الوقت وتنفيذ أغراضهم الأصلية اذ نحن أقمنا ها هنا عند عكاء ، أو محايلتنا اذ نحن لم نقدم عندها ، ريثما يجدوا وسيلة لوقف زحفنا الى الأناضول وتوغلنا فيها توغلا بليغا . ولذلك لما سمعوا اشاعات مبالغ فيها عن الفشل الذى أصاب أصحاب السفن المصرية فى ضرب عكا قالوا هذه هى فرصة هزيمتهم التى ينبغى انتهازها وتوسلوا بتحقيق أغراضهم المشئومة التى كانت تكنها صدورهم من قديم الزمان . وهذا أمر معلوم ظاهر من أعمالهم وحركاتهم وأطوارهم ولئن نظرنا الى انهماك حكومة اسطنبول ومبالغتها فى اعداد الاسطول والى دعوتها والى سلستره دعوة خاصة وشموله بالعطف والاكرام الى هذا الحد وتنزيلهم جنودا الى سواحل انطاكية والعلائية فلا يبعد ان يقصدوا مصر بأسطولهم مباشرة فى حين سوقهم علينا جنودا نظاميين وغير نظاميين من جهة البر متظاهرين بأنهم يقصدون بر الشام ونفهم من قرائن أحوالهم أنهم ما داموا لا يخافون بأس الأسطول المصرى

---

(٧) كذاوردت واظنها اساتذتهم .

بحكم الاشاعات المبالغ فيها التى سموعها ففى إمكانهم أن يرسوا أمام الاسكندرية أو أبو قير أو بورلس[٨] ودمياط ان لم ينزلوا جنودا الى السواحل المصرية وهم يزعمون أنهم يقدرون بذلك على منع نقل الذخيرة والمهمات الى هذه الجهات كما يستطيعون اغواء أهل البلاد وتحريضهم . والحق أن اسطولهم لو خرج بسرعة فأحاط بنا ولم تأتنا قبل ذلك من الذخيرة ما يكفينا نحو أربعة أشـــهر أو خمسة فانهم يســـتطيعون أن يحرجونا هاهنا ويذيقون ضائقة شديدة ولا ريب أن الذى يحمى السواحل المصرية ويمنعها من حصارهم ويحول دون رسوهم فى أى جهة كمـــا يرومون ودون انزالهم الجنود ، انما هو الأسطول المصرى ولامراء أنهم يخشونه فلستم دولتكم فى حاجة الى من يعلمكم بل إنتم أعلم من كل أحد بوجوب اعداد الأســـطول المصرى فى أقرب وقت عاريا من كل زينة وزخرفة مكتفين بالأعمال البخارية واخراجه الى عرض البحر ، ولا يخفى على دولتكم أن ذلك من أهم الأمور لذلك نرجو من همم دولتكم أن تعدوا[٩] القباق الثالثة فى أقرب وقت دون أن تفوتكم دقيقة واحدة نظرا لما تقتضيه الأحوال مهما أمكنكم على أن لا تنشأ فيها غرف بل تنجز أعمالها طبق أصول عبدكما لحاج عمر[١٠] فتخرج الى البحر ؛ وان لاتوقف كل سفينة أعدت وتم بناؤها فى ميناء الاســـكندرية بل تخرج الى رحبـــة الاسكندرية فتقوم بالتدريب والتعليم ويؤخذ من أحوال والى الشام والضائقة التى يعانيها بأن أخذ الألفين وخمسمائة اردب الشعير المجموع فى قلعة مزيرب[١١] ومجموع البرغل الموجود بها لنفقات الحج ونقلها الى الشام وصرفها فيها بسبب القحط الذى أصابها ، ونظرا لأن المبالغ

---

(٨) كذا فى الأصل ولعلها البرلس .

(٩) بارجة كبيرة دخلت البحرية المصرية فى ايام سيزيزى .

(١٠) من اهالى الاسكندرية . كان مهندسا بارعا فى فن بناء السفن ، كما كان صاحب ادارة ومعرفة فى فنون البحر للتفاصيل انظر : الرافعى . المرجع السابق ص ٢٤٩ .

(١١) تقع المزيريب شرقى بحيرة طبرية .

المعنية المرصودة لأجل الانفاق نقدا قد نقصها أربعة آلاف كيس ، ونظرا لعدم مبالاته واهتمامه بذلك يؤخذ من كل ذلك أن الحجاج المسلمين ليسوا بعابرى طريق الشام فى هذه السنة المباركة فهل تؤذن الى الحجاج المسلمين بأن يسافروا عن طريق مصر أى أن نكون نحن قدوة فى الأعلان بأنهم ليسوا مسافرين عن طريق الشام ، فهذا أمر منوط باقرار ارادتكم السامية ، ولما كان كلا من آلايى المشاه المرابطين بجزيرة كريت مدربا أحسن تدريب فانى اظن أنه يحسن لو أعيد الى الاسكندرية فيعسكرا بها وبأبوقير ولا سيما الآلاى الثانى الذى يعادل آلايين • من أجل هذا يفضل أن يرجعا الى مصر ويرابطا بها • ويقول عبدكم عثمان بك[12] أن فى مستطاع ولدكم مصطفى باشا أن يدير الجزيرة المذكورة مع الآلاى الحادى عشر والجنود السكبانيه[13] والفرسان الموجودين فى معيته ويطمن انه اذا وضعت على هذه الصورة عشرة بلوكات من جنود الجهادية ، وبلوك البلطجية[14] فى قلعة حانيا وستة بلوكات فى قلعة رسمو وارطتان فى قلعة قندية ووزع الجنود

---

(١٢) هو عثمان نور الدين اميرال الاسطول المصرى .

(١٣) السكبان تعنى كلاب الصيد ، وكانت هذه اللفظة تطلق على طوائف من الجنود غير النظاميين.

الشناوى : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٧٤٠ .

(١٤) فرقة عسكرية تعنى قاطعى الأشجار ، أما عن كلمة بلطجى فهى شائعة الاستعمال فى الوقت الحاضر وتعنى الشخص المنحرف ذا القوة العضلية الذى لا يكترث بالخروج على القانون فى سبيل تحقيق اهدافه .

للتفاصيل انظر : د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية . دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الأول القاهرة . الانجلو المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧٤ — ٤٧٥ .

الآخرون السكبانيه[١٥] والفرسان فى خارج البلد بالنسب التى تقتضيها الأحوال واتبع ولدكم مصطفى باشا الحكمة والتدبير فى أعماله فلا يخشى خلل على ادارة تلك البلاد • والأمر لحضرة من له الأمر عند اطلاع دولتكم على ما قدمناه •

سلام على ابراهيم

الخاتم

(١٥) سبق التعريف بهذه اللفظة .

يستخلص من هذه الوثيقة :

انه فى محاولة لتسوية النزاع بين الدولة العلية ومحمد على بشأن عكا اقتراح ابراهيم على والده انه طالما أن الهدف من حرب عكا هو عزل واليها عبد الله باشا والمحافظة على أمجاد مصر فى ظل السلطنة العثمانية فانه يرى أن تعيين وال جديد من قبل الدولة العثمانية على عكا يكون حائزا لثقة محمد على سيكون فيه حلا للمشكلة . وحذر ابراهيم من مراوغة الدولة العثمانية فى المفاوضات بهدف اطالتها حتى تعيد حساباتها العسكرية ، وتتمكن من ايقاف تقدم الجيش المصرى كما حذر العثمانيين من اللجوء الى القوة مهددا لهم بسوء العاقبة . وناشد ابراهيم والده الاهتمام بالاسطول المصرى ، وسحب بعض القوات المرابطة فى كريت للمساعدة فى حروب الشام .

وثيقة رقم(٣)

موضوع الوثيقة : فرمان[١] من السلطان العثمانى محمود الثانى باسناد منصب السر عسكر لبلاد الشام الى محمد على باشا فى نظير اعداده العدة لطرد محمد على من بلاد الشـــام .

تاريخ الوثيقة : آخر شـــوال ١٢٤٧ هـ .

مصـــدرها : محافظ عابدين . محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ١٦٠

« فرمان سلطانى الى محمد على باشا والى حلب ورقه وسر عسكر بر الشـــام » « الدستور المكرم ، نظام شئون العالم ، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأى الصائب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال ، المحفوف بصنوف عواطـــف الملك الأعلى والى حلب ورقة الحالى وسر عسكر سواحل بر الشام وسائر بلاد العرب[٣] أدام الله تعالى اجلاله .

أعلم اذا بلغك هذا التوقيع الرفيع الهمايونى[٣] انى لما أسندت الى عهده لباقتكم ولاية حلب مع منصب السر عسكر لبلاد الشام احسانا همايونيا منى وأصدرت فى ذلك أمرا شريفا وأرسلته اليكم ذكرت فيه مفصلا وموضحا أن سوق الجنود من مصر على عكا يخالف رضاءنا السلطانى

---

(١) الفرمان هو الأمر السلطانى الصـــادر عن الديوان الهمايونى فى الآســـتانة .

(٢) يقصد بلاد الشام .

(٣) التوقيع الهمايونى هو العلامة الملكية التى توضع على الفرمانات ، علما بأن لفظه همايون فارسية الاصل ومعناها اللغوى مبارك أو حسن الحظ أو مقدس .

Gibb, Hamilton and Harold Bowen : Islamic Society and the West Vol. 1, Part 1 p. 47.

من كل وجه فكتب كتاب من لدن قائمقامي[٤] يتضمن النصح والتذكر منعا لسفك الدماء بين الفريقين واتقاء اقلاق الرعية وازعاجهم كما أوفد أحد رجال الدولة العلية الى مصر لهذا الغرض • وقد راعينا مع ذلك لوازم الحزم والاحتياط فأعددنا معدات قوية بــرا وبحرا ، وابتغينا مهمات كلية لكى تنفذ فيه حكم الفتوى الشريفة التى صدرت فيه اذا هو لم يرجع عن طريق غيه وبغيه ولم يسحب جنوده متبعا فى ذلك التسويلات الشيطانية فجندنا جنودا من جميع انحاء الاناضــول والروم ايلى[٥] والبوسنة وبلاد الأرناؤوط والآستانة وأنشأنا آلايات وجعلناهم تحت إمرتك وأرســلناهم مــع الوزراء الذين انتدبوا لقيادتهــم والرجــال الميرميرانية وسائر المأمورين وطفقنا نرتقب النبأ الذى يأتى من مصر فجاءت منه عريضة قبل أيام سرد فيها اعذارا واهية ومطالب فاســدة فاجبناه بأن اجابة مطالبه أمر محال بل فوق المحــال وانذرناه وخامة العاقبة مرة أخرى وأردنا أن نوقظه ونذكره • ولكن لم يأت منه رد حتى الآن كما أنه قد أظهر بدلالة القرائن الحالية أنه سيظل مكبا على الفساد الذى ألقاه ومصرا على مخالفته وطغواه ، لنضرب عن كل هذا صفحا فانه قد حال بين الحجاج الموحدين الذين هم مفاخر الاسلام وبين سفرهم وقدومهم فى هذه السنة المباركة فأظهر مبالغته فى القيام بأعمال البغى والطغيان ، ولم يقدر النعم التى نالها فى ظل شوكتنا الشاهانية ولا شكر مساعدتنا السلطانية فكان اجتساره آخر الأمر على اقتراف الأفعال التى لم يسبق لها مثيل قط من الأمور التى لا تقبل التأويل ولا التفسير • ولئن لم يدخل بعد ذلك فى دائرة الطاعة والانقياد دخولا حقيقيا ومن صميــم قلبــه ولــم يســحب جنــوده المخذولــين الى حيــث أتى بهــم لأرنيــه قــوة ســلطنتى القــاهرة كمــا هــو مفروض على ذمتى

---

(٤) قائمقام لقب اصطلاحى يطلق فى العادة على من يقوم مقام احد اثنــاء غيابه .

(٥) تعنى ولايات الروم وتكتب احيانا الروميلى .

الشاهانية لذلك كان مما اقتضته ارادتى الملكية أن يسير المأمورون من فورهم هذا برا وبحرا بسير سريع فينفذوا ما أمروا به • فأرسلت أوامر عليه شاهانية الى كل من المأمورين فردا فردا بموجب خطى الهمايونى المقرون بالمهابة الذى زاد صحيفة الصدور والسفوح شرقا فاذا أحطت بما تقدم تفصيله أنت أيها السر عسكر المشار اليه فاعلم أنك لما كنت مشمولا بعطفنا واعجابنا من بين وزرائى العظام المحمودى السيرة ووكلائى الفخام المرضى الأثر لما اتصفت به من كمال الغيرة والشجاعة وما عرفت به من حسن الروية والالمام بتصريف الأمور وما شهد لك به حتى الآن من الهمة والصداقة فقد نصبتك سلطنتى السنية سر عسكر مستقلا لخطة بلاد الشام باستقلال تام وترخيص كامل على أن يكون لك الخيرة فى الاحسان الى الذين يجاهدون معكم ويخدمون بالصداقة فى تصريف كافة الأمور التى تختص بمنصب السر عسكرية الخطير ولا سيما فى أموركم ، وفى تأديب الذين يجرأون على العمل بما يخالف الرضاء وتنكيلهم كائنين من كانوا ، وفى منحكم من ترونه استحق رتبة من رتب باب دولتى العلية بالخدمة والصداقة الرتبة التى استحقها وابلاغ أمره باب سعادتى كتابة مبينين أسماءهم والقابهم لكى نصدر المراسيم اللازم اصدارها ونرسلها اليكم ، وقصارى القول فيما يتعلق ببلاد الشام من عزل ونصب ونفى وتأديب وترقية فيكون كل من شكرك وشكايتك مثمرا لدى مقامنا الشاهانى • ولا يعزب عن ذاتك الصادقة أنك بمآثر أوصافك الحميدة مشمول بحسن توجيهاتى الشاهانية وبوثوق واعتماد واعتقاد من لدن ذاتى السلطانية • واعلم لأن تقوية نفوذك من وجه وشد عضدك اظهار لمقدرتك أمر ملتزم لدى ذاتنا الملكية فأرجو منك وانتظر أن تظهر صداقتك وغيرتك فى هذا الشأن وغيره من الشئون بمقتضى جوهرة لياقتك المكنونة فى ذاتك وما اتصفت به من الشجاعة والدراية • فاذا أوصل اليكم أمرى الشريف فعليكم أن تصحبوا الوزراء والميرميرانية وسائر الموظفين لمعيتكم فتبذلوا همتكم وجهودكم فى هزم جنود مصر الموجودين من حلب لغاية طرابلس وحول عكاء • وقد صدر

فرمانى السامى متضمنا تأكيد انتدابكم واستقلالكم • فأمرك أن تعمل بمضمون هذا الفرمان الواجب الاتباع والامتثال الذى صدر على الوجه الذى تقدم عندما يصل اليك وأن تعتمد على العلامة الشريفة » •
تحريرا فى أواخر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين والف

طبق أصله العالى الفقير اليـــه	قائمقام
عز شأنه كيلانى زاده السـيد شرف	القسطنطينية المحروسة
الدين المولى خلافه بحماه عفى عنه •	

يستخلص من هذه الوثيقة ما يأتى :

ا ــ بعد قيام محمد على بهجومه على عكا ارسل السلطان العثمانى محمود الثانى فرمانا الى والى حلب اوضح له فيه أن ما حدث يعتبر مخالفا لرضائه ومع ذلك فانه حقنا لدماء المسلمين حاول أن يحل المسألة مع محمد على بالنصح والموعظة والتحذير من العواقب ، فاذا فشلت هذه الطريقة معه فلا مفر من اعداد العدة له ومواجهته بالقوة .

ب ــ اتهام السلطان لمحمد على بنكران الجميل ، وبذر بذور الفتنة والفســاد بين الناس وبمنع حجاج بيت الله الحرام من اداء الفريضة .

جـ ــ تعيين السلطان لوالى حلب فى منصب سر عسكر بلاد الشام فى نظير اعداده العدة لمحاربة محمد على وطرد جنوده من بلاد الشام .

وثيقة رقم (٤)

موضوع الوثيقة : فتوى فحواها أن من يموت من عساكر عكا يدخل الجنة ومن يموت من عساكر محمد علي يدخل النار .

تاريخها : بدون .

مصدرها : محافظ عابدين . محفظة رقم ٢٣٥ صورة المرفق العربى للوثيقة ١٤٠ .

« ما قول الأعلام عفى عنهم الملك السلام

فى خارجى خرج عن طاعة الامام السلطان الأعظم وجمع له أقواما كثيرة وخرج من موضعه يريد سبى أبناء الاسلام وسفك دمائهم واستباحه أموالهم وأعراضهم وجهز عدة الحرب والقتال للاسلام ، وصدر الأمر الملوكى الخاقانى بالنفير العام لرده وزجره وردعه عما هو عليه فهل يجب على الخاص والعام من كافة ديار الاسلام قتاله ورده وردعه عما هو عليه قاصد له ، وهل اذا هلك أحد منهم يكون الى النار واذا مات أحد من أبناء الاسلام الرادين له فى الجهاد يكون شهيدا ومثواه دار النعيم أفيدوا بالجواب ولكم الأجر والثواب من الملك الوهاب .

الحمد لله والصلاة والسلام على من لانبى بعده

حيث الحال كما هو مقرر فى السؤال ، وصدر الأمر الملوكى بالنفير العام لقتال هذا الباغى الخارج عن طاعة الامام يجب على كل مسلم قتاله ومن كان موافقا له فيما قصدوا ان مات أحدا من المجاهدين يكون فى

الجنة ولا كلام واذا هلك أحد منهم وممن وافقه على ما يريد فى النار دار الجحيم والله أعلم » .

الفقير اليه عز شأنه
الشيخ محمد افندى الشافعى عفى عنه

الفقير اليه عز شأنه
السيد محمد أفندى المغربى الحسبى
المالكى عفى عنه

الفقير اليه عز شأنه
السيد الحاج محمود أبو الهدى
قاضى عكا عفا عنه

الفقير اليه عز شأنه
السيد سعد ابو الهدى الناجى
مفتى عكا عفى عنه

يستخلص من هذه الوثيقة :

أن علماء عكا استندوا فى فتواهم بدخول من يموت من مدافعيهم الجنة ، ودخول من يموت من قوات محمد على النار على أن السلطان كان قد أعلن خيانة محمد على للدولة ، ومروقه على دين الله وعزله .

وثيقـة رقم (٩٥)

هذه وثيقة باللغة التركية تنشر لأول مرة ، وهي رسالة من إبرهيم باشا إلى والده يبشره فيها بفوز الجيش المصري واستيلائه على عكا .

محفظة رقم ٢٣٤ عابدين، ملف ذي الحجة سنة ٤٧، ترجمة الوثيقة رقم ١٣٤ بتاريخ ٢٧ ذي الحجة سنة ٤٧ ، من إبرهيم باشا إلى الجناب العالي :

[illegible]

وهذه ترجمة الوثيقة :

مولاي حضرة صاحب الدولة والمرحمة ولي نعمتي الذي ينعم ولا يمنّ بما أنعم .

سبق أن عرض على مولاي أنه قد شرع صباح اليوم الموافق الأحد في الهجوم على القلعة، وأنه قد تمكن جنود مولاي المنصورون من الصعود على بدن القلعة بمعونة الله تعالى وعنايته وبفضل همة مولاي الكريمة ودعواته . ثم كلف عبدكم أمير اللواء سليم بك بأن يكتب الآن بتوزيع الجنود يميناً ويساراً وبثباتهم وصمودهم في الأماكن التي احتلوها، فعمل كذلك حتى إذا جاء المغرب طلبت القلعة الأمان؛ وعليه فقد

أرسل أخيراً عبدكم البك المومأ إليه إلى داخل القلعة لتبليغ عبدالله باشا مغادرة القلعة حالا، فبعد أن غاب البك هناك زهاء ساعتين إذا بعبدالله باشا يرسل إلينا طلباً تحريرياً بإرسال بضع دواب لركوبه ولركوب كتخدائه وبعض خدمه، فأرسلت إليه بضع دواب في هذا السبيل. ثم حضر الباشا عندي خارج السور ومعه سليم بك ونحو عشرة أنفار من عبيد الباشا، فركبنا كلنا فوصلنا الليلة، ليلة الاثنين في الساعة الخامسة والنصف؛ إلى قصر البهجة، كما أمنا الأهالي والعساكر كذلك، فانتهت هذه المشكلة ولله الحمد هكذا بفضل همة مولاي وعزيمته المتينة فبادرت إلى تبشير مولاي بهذه البشرى العظيمة، وعلى كل فالأمر لمولاي في كل الأحوال.

٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٧

ختم: سلام على إبراهيم

وثيقة رقم (٦)

موضوع الوثيقة : فزع الدولة العثمانية بسبب سقوط عكا .

تاريخها : محرم ١٢٤٨ هـ .

مصدرها : محافظ عابدين . محفظة رقم ٢٣٥ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٨ .

ترجمة الكتاب الرومى العبارة[1] الوارد من الخواجة توسيجة باسطنبول فى اثنى عشر يوما فى ليلة أول أمس ، وصل الى هنا رسميا نبأ الاستيلاء على قلعة عكا فاحدث هزة عنيفة لدى الدوائر الحكومية شملها يأس وحزن شديدان فدعى القبو كتخدا نجيب افندى الى الباب العالى وقلد نشانا واحدا وصدر اليه الأمر بأن يسافر مع الجيش ويلحق بالنزر عسكر حسين باشا[2] وليس يعلم أحد الأمر الذى دعى من أجله نجيب افندى . ولم يكن ينتظر أحدا فتح قلعة عكا فورود خبر الاستيلاء عليها الآن أقلق بال الدولة العلية اقلاقا حقيقيا بالغا للغاية . ولم يعامل تابع نجيب افندى القادم من مصر الى اسطنبول حاملا المكاتبات بأى معاملة فترك على حاله . هذا وقد ذهبت اليوم الى الترسانة لبعض شأنى ، ولم أر فيها أثرا من العناية والنشاط اللذين كانا يسودانها قبل خمسة أيام لاعداد السفن المتأخرة واخراجها الى البحر بسرعة والذى

---

(١) يقصد به المكتوب باللغة التركية ، وكلمة الروم حسب المعنى الشائع فى ذلك العصر يقصد بها الدولة العثمانية .

(٢) من اعلام العسكريين العثمانيين ، وكان ذراع السلطان فى التخلص من الانكشارية وهب له السلطان ولاية مصر وكريت اذا استطاع هزيمة الجيش المصرى ، ولكن البطولة التى ابداها رجال الجيش المصرى والانتصارات التى حققوها قد حالت دون ذلك .

للتفاصيل انظر الرافعى : المرجع السابق صص ٢٦٠ — ٢٦١ .

وأيضا : الشناوى المرجع السابق ج ١ ص ٥٢٢ .

يبدو من القرائن الحالية أنه صدر أمر بالعدول عن اعداد السفن والرأى السائد بين الجمهور أن أسطول أسطنبول لا يريد أن يكون عاملا لاثارة الحرب ، ولكن داخلهم خوف بالغ من جراء سفن النار الجارية الانشاء هناك متسائلين عن الغاية المنشودة من انشاء هذه السفن .

وفى ظنى أن الدولة العلية ستعرض للصلح عما قريب ، ولسبب عرض الصلح من جانبها يلاحظ أن الجانب المصرى يقابل هذا العرض بالاباء ويظهر شيئا من الدلال. والأنباء التى تصل الينا من الأناضول تفيد أن العساكر المجتمعة فيه تعانى أزمة شديدة فى المؤن والمهمات وبقية اللوازم وفى النقود بصفة خاصة اذ لم يصرف للجيش منذ سافر من هنا الى الآن الا مبلغ ثلاثة آلاف كيسه . ويشعر خسرو باشا فى هذه الايام بخوف شديد .

فالوقت الحالى أنحس الأوقات بالنسبة له فان له عدوا هائلا وبناء على هذا السبب لا يغيب عن حضرة السلطان دقيقة واحدة .

يستخلص من هذه الوثيقة :

مدى الهلع والفزع الذى اصاب العثمانيين نتيجة لسقوط عكا .

من انتصارات الجيش المصرى

معركة نصيبين (نزيب)

أولا : مقدمة تحليلية

سطّرَتْ العسكرية المصرية صفحة مضيئة ومشرقة فى معركة نصيبين (نزيب Nezib)[١] التى دارت رحاها فى يونيو ١٨٣٩ بين القوات المصرية الحديثة العهد بالجندية النظامية[٢] والقوات العثمانية التى تم تزويدها بالعديد من الخبراء الروس والألمان[٣].

وعلى الرغم من تفوق القوات العثمانية من ناحية العدد والعدة وبخاصة المدفعية فإن الجيش المصرى كان يفوق جيش العثمانيين فى نواحى النظام

---

١ – يسميها المؤرخون العرب نصيبين نسبة إلى مدينة تقع شمال شرقى حلب ويسميها الأتراك والأوربيين نزيب وكان العديد من الرحالة أمثال ابن جبير والقزوينى قد زاروها وقد وصفها ابن جبير بقوله إنها مدينة " شهيرة العتاقة والقدم .. وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار .. ويتالق عليها رونق الحضارة وإن كان شعث البادية باد عليه " .

أنظر رحلة ابن جبير – تحقيق حسن نصار – القاهرة مكتبة مصر ، ١٩٥٥ كما وصفها القزوينى بقوله إنها مدينة عامرة كثيرة المياه والأشجار والبساتين .

أنظر زكريا بن محمد القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ ص ٤٦٧ .

٢ – يرجع ذلك الى حرمان الأتراك ومن قبلهم المماليك لأبناء مصر شرف الانتماء إلى الجندية .

٣ – محمد كرد على : خطط الشام جـ٣، دمشق. مطبعة الترقى ١٣٤٣هـ ص ٦٣ وكان من أبرز هؤلاء الخبراء القائد الألمانى الشهير " فون مولتكه " للتفاصيل انظر . عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص ٥٥٥ .

وقوة التدريب والمران وبراعة القيادة[1] هذا بالاضافة إلى معنوياته العالية ؛ خاصة وأن القوات المصرية كانت قد خرجت ظافرة من جميع المعارك التى قاتلت فيها العثمانيين فى بلاد الشام[2] مما زاد من ثقتها بنفسها وبقيادتها التى خاضت معها المعارك ورفعوا معا أعلام النصر من قبل[3] .

والدراسة التى بين أيدينا تعد الثالثة ضمن سلسلة الدراسات التى أخرجناها عن وثائق عابدين الخاصة ببلاد الشام فى عصر محمد على ، والتى كان باكورتها دراسة صدرت تحت عنوان " الجيش المصرى وفتح عكا" ثم تبعتها دراسة تحت عنوان " ثورات الدروز والموارنة ضد حكم محمد على فى بلاد الشام " وها نحن أولاء نقدم الدراسة الثالثة عن انتصار الجيش المصرى على القوات العثمانية فى معركة "نزيب" وسنتبعها بدراسات أخرى إن شاء الله .

وهذه الدراسة كسابقاتها تعتمد على مجموعة منتقاة من الوثائق المصرية المحفوظة أصولها – المكتوبة باللغة التركية القديمة – فى دار الوثائق القومية بالقاهرة [4] والتى تم ترجمتها فى عصر الملك فؤاد [5] ذلك الملك الذى

---

١ – عبد الرحمن الرافعى عصر محمد على، القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٥١ ص ٣١٦ .

٢ – عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠ ص ٤٦٠ .

٣ – الرافعى : المرجع السابق ص ٣١٦ .

٤ – عرفت هذه الوثائق باسم وثائق عابدين نظرا لأنها كانت تحفظ باحدى مبانى قصر عابدين بالقاهرة ، ولما نقلت بعد ذلك إلى دار الوثائق القومية احتفظت باسمها القديم

٥ – ترجمت هذه الوثائق ترجمة دقيقة إلى اللغة العربية حيث كان يعهد الى مترجمين بترجمة الوثيقة الأصلية ، وبعد ذلك يقوم مراجع بإعادة النظر فى ترجمتها وإدخال ما يراه لازما من تعديلات ثم يوقع بعد ذلك على صحة ما تم ترجمته .

اقترن عصره بالنهضة العلمية والأدبية التى ظهرت فى مصر إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والذى وجه جلّ عنايته إلى الدراسات التاريخية الخاصة بأسرته وذلك لإحياء ذكرى والده " اسماعيل " وجديه "محمد على " و " ابراهيم ".

ويتضمن هذه المجموعة من الوثائق عدد (٢٢) وثيقة تشتمل على تقارير حربية خاصة بالجيش المصرى توضح مراحل الاستعدادات لمعركة "نزيب" سواء من الجانب العثمانى أم من الجانب المصرى هذا إلى جانب مراسلات متعددة من "إبراهيم باشا " إلى " محمد على " أو منه إلى قواده وجنوده أو من قواده وكبار رجالاته اليه . ونظرا لأن الوثائق تعد من المصادر المهمة والعظيمة القيمة والفائدة ، خاصة وأنها تعبر عن روح العصر الذى كتبت فيه ، وتكشف لنا بصورة قاطعة العديد من الأحداث التى لا يرنو اليها الشك وتصور الحياة اليومية وتحدد التواريخ والأماكن بطريقة واضحة كما أنها الأصول التى يصعب كتابة التاريخ الصحيح أو تحقيق الحوادث التاريخية بدونها لما تتسم به من الأصالة والتفرد والعطاء حيث تقدم العديد من المعلومات ذات الفائدة لتاريخ بلاد الشام السياسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بصفتها شاهدا معاصرا لوقائعه التاريخية ونظرا لكل ذلك فقد اعتمدنا على النصوص الكاملة للوثائق الخاصة بهذه المعركة ، كما قمنا بدراستها وتحليلها ونشرها كاملة كما هى دون زيادة أو نقصان حفاظا على روح النص[1] .

---

١ - من المعروف أن لغة الوثائق بصفة عامة تأثرت باللغة التركية من حيث الأخطاء الإملائية ، وبنية الجملة وطولها .

وقبل أن نترك هذه الوثائق لتحكى لنا الاستعدادات الحربية لهذه المعركة وتطورات أحداثها نود أن نذكر أنه بتقديمنا للمكتبة العربية هذه الدراسة الوثائقية التى تتصل بواحدة من أهم المعارك التى قلقلت التوازن الأوربى والمسألة الشرقية فاننا نهدف من ذلك تقديم العديد من الدروس ، واللمحات المستفادة ، من هذه المعركة حتى تستفيد منها الأجيال الحالية والمستقبلة، ويكون التاريخ المصرى بمثابة المدرسة التى تتعلم منها الأجيال على مدى الدهور والعصور ، وفيما يلى نعرض لموضوع الدراسة .

بعد قبول السلطان العثمانى لصلح " كوتاهية "[1] فى مايو ١٨٣٣ بدأت آمال محمد على تكوين دولة مستقلة تمتد حدودها إلى أقصى بلاد الشام شمالا تبدو واضحة للعيان ، وفعلا فاتح محمد على الدول الكبرى بشأن تطلعاته هذه ، ولكن معظمها وخاصة انجلترا عارضت فى ذلك أشد المعارضة وحذرت محمد على من عواقب هذه الخطوة ، وهددته باستخدام القوة إذا تمسك برأيه[2] بينما تحفّظ بعضها مثل فرنسا على مثل هذه التطلعات . وقد

---

١ – بمقتضى هذا الصلح اتفق الطرفان على إخلاء قوات محمد على لإقليم الأناضول وإعادتها إلى ما وراء جبال طوروس فى نظير أن يمنح محمد على ولاية مصر طوال حياته ، ويتم تعيينه على ولايات الشام الأربع (دمشق وحلب وعكا وطرابلس) وعلى جزيرة كريت ، وأن يعين ابنه ابراهيم واليا على إقليم أطنه ، وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة كوتاهية نسبة إلى المدينة التى كان بها ابراهيم باشا عند توقيعها .

٢ – لتفاصيل ذلك انظر بيير كرابيتيس : إبراهيم باشا – ترجمة محمد بدران – القاهرة، لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ص ٢٢١ .

استغلت الدولة العثمانية ذلك الموقف، وبدأت فى استفزاز محمد على والتحرش بقواته المرابطة فى بلاد الشام. ولما كانت الحرب واقعة لا محالة بين الطرفين فقد بدأت القوات العثمانية تستفز القوات المصرية وتغير على مواقعها ، كما بدأ محمد على يطالب السلطان "محمود الثانى" بأن يكون حكم مصر والولايات الشامية التابعة لها وراثيا فى ذريته مما أغضب السلطان، وجعله يسرع باعلان الحرب عليه فبعث إلى بلاد الشام بجيش كبير فى عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م مجهز بالمدفعية تحت قيادة "حافظ باشا" يصحبه أربعين مهندسا روسيا وبروسيا [١]، وقد أخذ هذا الجيش فى استفزاز القوات المصرية، والاعتداء على بعض مواقعها، وتحريض الأهالى على الانقضاض عليها .

ونتيجة لذلك زحف " ابراهيم باشا "إليهم بقواته المكونة من أربعين ألف مقاتل[٢] حيث تجمع الجيشان بالقرب من سهل " نزيب " ولما ذاع خبر تقدم الجيشين أمام بعضهما واستعدادهما للقتال طمحت أنظار دول أوربا الى ما يكون وراء هذه المعركة من النتائج المهمة التى ربما انقلب بسببها التوازن بين " محمد على " والسلطنة العثمانية ، وانتقل مركز الخلافة من الأستانة إلى القاهرة[٣] وخشوا من سوء العاقبة لوثوقهم من انتصار المصريين على

---

١ - محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ - ترجمة الوثيقة ١٢٠-٩ بتاريخ ١٧ من ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

٢.- محمد كرد على : المرجع السابق جـ٣ ص ٦٣ .

٣ - محمد فريد : البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٨ هـ ص ١٢٦ .

الأتراك، وتمكنهم من تهديد أمن الدولة العثمانية فى عقر دارها ، ونتيجة لذلك حاولوا إيقاف الحرب ، وحرصوا على ألا تكون القوات المصرية هى البادئة بالهجوم[1] فطلبت روسيا من " محمد على " أن ترتد قواته نحو دمشق ووعدته بأن تبذل نفوذها لدى السلطان لتقنعه بسحب جيوشه من الحدود السورية، كما طلبت فرنسا من السلطان أن يتجنب نشوب حرب جديدة ووجهت مثل هذا النداء إلى " محمد على " .

ورغبة من " محمد على " فى كسب ود الدول الكبرى وعدم إغضابها فقد كانت أوامره إلى " إبراهيم باشا " واضحة فى عدم البدء بالعدوان ، كما كان رده على هذه الدول يتضمن رغبته فى السلام بشرط ضمان عدم اعتداء العثمانيين على قواته ، ومساندة الدول الكبرى له فى مطالبه بشأن مسألة وراثة الحكم وتوطيد دعائم أسرته وعلى الرغم من تحرش العثمانيين بقوات " محمد على " فإنها تحملت كثيرا حرصا على تنفيذ أوامره ولكن ازدياد تحرش القوات العثمانية بالقوات المصرية ومهاجمتها لبعض فرق الجيش المصرى فى " عينتاب "[2] واجتيازها نهر الساجور[3] وتخطيها الحدود المرسومة فى اتفاق "كوتاهية" واحتلالها لقرية " تل مباشر " وإثارتها للفتن بين القبائل فى بلاد

---

١ – نفسه ص ١٢٨ – ١٢٩ .

٢ – منطقة قريبة من الحدود التركية ، وتكتب عيّن تاب أيضا .

٣ – يمر بمدينة عينتاب ويصب فى نهر الفرات .

الشام ، وقيامها بتوزيع الاسلحة عليهم[1] لشق عصا الطاعة على القوات المصرية قد جعل " محمد على" يغير من موقفه تجاه مهادنة الدولة العثمانية فكتب رسالة إلى ابنه إبراهيم فى العاشر من يونيو ١٨٣٩ يأمره فيها بمحاربة الأتراك وسحق جيوشهم ماداموا لم يراعوا العهود والمواثيق ، وحتى لا يفلت منه زمام الموقف فقال " إذا استمررنا فى خطة الصبر والتريث التى جرينا عليها فلن نستطيع أن نوقفهم فى المستقبل لأنهم سينشرون الفوضى فى كل مكان تدريجيا ، ولقد تذرعنا بالصبر والحكمه حتى لا نقاوم رغبة الدول العظمى ، فانتهز أعداؤنا هذه الفرصة ليتقدموا فبلغت الحالة مبلغا لم يعد لها علاج فإذا تريثنا أكثر مما فعلنا أضعنا الوقت ، وهذا لا يلائم موقفنا فلم يبق أمامنا سوى أن نتجه إليهم ونهاجمهم وبما أن الاعتداء يجىء من ناحيتهم فمما لا ريب فيه أن الدول العظمى ستعذرنا وتنصفنا . والخلاصة أنه عندما تتلقى هذا التلغراف تشرع فى مهاجمة قوات الأعداء التى دخلت أراضينا ، وبعدما تطردهم تزحف على جيشهم الكبير وتنازله[2].

ومن هذه الرسالة يتضح أن " محمد على " كان قد فاض به الكيل من مراوغة العثمانيين له ، مما جعله يتخلى عن وعوده للدول الكبرى ، ويتناسى

---

١ - محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة، القاهرة، مطبعة الشعب، الطبعة الأولى ، ١٩٢٠ ص ١٢٩ .

٢ - محافظ عابدين: محفظة رقم ٢٥٧ وثيقة بعنوان الجناب العالى إلى السر عسكر بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٥٥هـ .

سياسته نحو مهادنتهم ، ويأمر ابنه برد الأتراك على أعقابهم ، وتخطى الحدود إذا اقتضت الضرورة .

وتذكر لنا الوثائق أنه نتيجة تشجيع العثمانيين لأهالى القرى المجاورة لنزيب على الثورة ضد القوات المصرية بتقديم الأسلحة، وبذل الوعود المتعددة لهم قام هؤلاء بتقديم المساعدات مثل المؤن والحطب وغيرها الى الجيش العثمانى على حين كانوا يمنعونها عن القوات المصرية[1] مما أدى إلى قيام الإدارة المصرية بتهديد مشايخ هذه القرى بالعقاب إذا استمروا على هذا الموقف. يضاف إلى ذلك أن أهالى قرى "عينتاب" أعلنوا ولاءهم للعثمانيين ، وتحصنوا فى الجبال لمواجهة القوات المصرية[2] وإلى جانب ذلك فقد أمد القائد العثمانى "حافظ باشا" أهالى القرى المجاورة لنزيب ببعض الأسلحة والمعدات لمساعدته فى طرد القوات المصرية ونتيجة لذلك نجح أهالى قرية "آورل" فى السيطرة على ١٤ قرية مجاورة لهم، وإعلان ولائها للعثمانيين[3] .

ونظرا لخطورة الموقف وتطوراته المتلاحقة فقد رأت القيادة المصرية

---

١ – محافظ عابدين : رقم ٢٥٧ ، ترجمة الوثيقة ٣/٢٧/١٠٠ بتاريخ ٢٦ صفر ١٢٥٥ هـ تحت عنوان " وقوف بعض أهالى القرى القريبة من نزيب بجانب العثمانيين " .

٢ – محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢/٢٧/١١٥ بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان " انضمام بعض أهالى القرى إلى العثمانيين نتيجة للخوف من تهديداتهم " .

٣ – محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ وثيقة رقم ٣/١١٩ بتاريخ ٥ ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان " استيلاء القوات العثمانية على بعض القرى المجاورة لنزيب ".

ضرورة سحب أهالى القرى القائمة على الحدود إلى الخلف ، ومهاجمة القرية التى تقوم بأى حركات معادية ضد القوات المصرية " ومحو أهلها كليا "[1].

ولما كان موقف القوات المصرية يقتضى التحقق من الأمر فقد أرسلت القيادة المصرية عيونها للتعرف على تحركات الجيش العثمانى[2] واستطلاع مواقعه ، والطرق التى يسلكها حتى يتحدد على أثرها مواطن الضعف والقوة فيه ، فذهب بعض هذه العيون إلى مكان مرتفع بالقرب من الحدود الفاصلة بين القوتين حتى يتمكنوا من استطلاع الأمور هناك[3] ، وبالفعل تأكدوا من وصول بعض الدوريات العثمانية إلى " نزيب " ، ونصبها للخيام[4] وقيامها ببناء الاستحكامات وإقامتها للعديد من الحراس على الطرق والروابى الواقعة بجوار قرية " أورل "[5] ليلا وأنهم استطاعوا بمعونة القائد الألمانى الشهير

---

١ – محافظ عابدين: محفظة رقم ٢٥٧ وثيقة رقم ٧/١١٩ بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان "الاستعداد للمواجهة بين القوات العثمانية وقوات محمد على فى نزيب".

٢ – محافظ عابدين: محفظة رقم ٢٥٧، ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٠/٢٧/١١٥ بتاريخ ٤ربيع الأول ١٢٥٥ هـ تحت عنوان "تردد الشائعات حول وصول الجيش العثمانى إلى نزيب".

٣ – محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٥–٢٧–٥ بتاريخ ١١ من ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان " تردد الشائعات حول وصول القوات العثمانية إلى نزيب " .

٤ – محافظ عابدين: محفظة رقم ٢٥٧ ، ترجمة الوثيقة ١١٥–٢٧–٨ بتاريخ ١٢ من ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان "بث العيون والجواسيس لاستطلاع أخبار القوات العثمانية"

٥ – محافظ عابدين: ترجمة الوثيقة رقم ١١٥–٢٧–٦٠ بتاريخ ١٣ من ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان " معاينة قوات محمد على لمواقع القوات العثمانية فى نزيب .

" فون ملتكه "[1] وبعض الضباط الألمان اختيار مواقع منيعة لهم عند "نزيب"[2].

والجدير بالذكر أن الأمر لم يتوقف على استعانة الجيش العثمانى بالخبراء الألمان بل تعداه إلى الاستعانة بالخبراء الروس ويؤكد ذلك ماذكرته احدى الوثائق من أنه كان يوجد فى غرفة عمليات القائد العثمانى بعض الخبراء الروس الذين كان يؤخذ رأيهم في كافة الأمور العسكرية ، ولا يستطيع القائد العثمانى مخالفة أى رأى لهم[3] .

وعن أعمال القتال وتطوراته بين الطرفين فتحدثنا الوثائق أنه قبيل اندلاع المعارك بين العثمانيين والمصريين حدثت عملية فرار لبعض الجنود من كلا الطرفين إلى الجانب الآخر فقام بعض أفراد الآى الفرسان الخامس العثمانى بالفرار الى المعسكرات المصرية بكامل أسلحتهم وطلبوا الالتحاق بالجيش المصرى[4] ، كما هرب بعض الجند والضباط من الجيش المصرى، والتجئوا إلى المعسكر العثمانى وحاربوا فى صفوفه[5] .

---

١ – طار صيته فى الآفاق خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وكانت له اليد الطولى فى انتصار بلاده على فرنسا خلال الحرب السبعينية .

٢ – لتفاصيل ذلك أنظر . كرابيتيس : المرجع السابق ص ٢٣٧-٢٣٨ .

٣ – محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧– ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٢٠ – ٩ بتاريخ ١٧ من ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان " محاولات لتقصى اخبار القوات العثمانية المرابطه فى نزيب" .

٤ – محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٥-٢٧ بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٥٥ تحت عنوان هروب بعض افراد الجيش العثماني الى المعسكر المصرى.

٥ – محافظ عابدين: محفظة رقم ٢٥٧ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٥-٢٧-٣٤ بتاريخ ١٠من ربيع الأول ١٢٥٥هـ تحت عنوان "هروب عبد طواشى، وآخر زنجى من نزيب" .

وتحدثنا الوثائق أن " ابراهيم باشا " خرج على رأس قوة لاستكشاف مواقع العدو ، وأنه بعد أن اكتشف بالمنظار قوة المعسكر العثمانى ، وصعوبة مهاجمته من الأمام أو الجناحين رأى ضرورة قيام قواته بحركة التفاف للوصول إلى خلف مواقع العدو حتى يضطر إلى ترك مواقعه المحصنة إلى أى مواقع أخرى أقل تحصينا .

وفى الحادى عشر من ربيع الثانى ١٢٥٥هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩م عبر الجيش المصرى جسر نهر مزار وبعد أن نجح فى اتمام حركة الالتفاف حول القوات العثمانية أشار الضابط الألمانى " ملتكة " على حافظ باشا القائد العام للقوات العثمانية بالتقهقر إلى بلده " بيير " تفاديا من وقوعهم فى الشرك الذى نصب لهم إلا أن القائد العثمانى عارض فكرة التقهقر معارضة شديدة ، وقال قولته المشهورة " ماذا يقول عنى التاريخ إذا تقهقرت ؟ وانحاز المشايخ الأتراك إلى رأيه وقالوا " إن الترك لا يولون الأدبار أبدا " وكانت النتيجة كارثة على الجيش التركى حيث اشتبك الجيشان عند سهل "نزيب" من أعمال البيرة على الفرات فى معركة حامية الوطيس استمرت حوالى ثمانى ساعات ونصف ، وكان بدايتها هجوم للقوات المصرية وقع على أثره الاضطراب بين صفوف الجيش العثمانى وتضعضعت أركانه ، وبحر فرسانه وقادته ، وولى رجاله الأدبار[1] بعد أن قتل منهم ما بين ستة آلاف واثنتا عشر ألف مقاتل[2] ووقع فى الأسر ثمانية آلاف أسير[3] هذا

١ - كرابيتس : المرجع السابق ص ٢٤٠ .

٢ - محمد كرد على : المرجع السابق جـ٣ ص ٦٣ .

٣ - كرابيتس : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

إلى جانب العديد من الجرحى كما استولت القوات المصرية على عشرين ألف بندقية ، ومائة واربعون مدفعا بذخائرها[1] وكذلك استولوا على خزانة الجيش الذى لم يتمكن الترك من أخذها بعد هزيمتهم ، وكان بها من النقد ما قيمته ستة ملايين فرنك[2] هذا إلى جانب استيلائهم على خيمة " حافظ باشا " المزخرفة بما فيها من أوراق رسمية ، وخطط وخرائط ووثائق وأوسمة ومراسلات[3] .

وبعد هذا النصر المبين الذى حققه الجيش المصرى جلس " إبراهيم باشا" فى خيمة القائد التركى يكتب لوالده واصفا تفاصيل المعركة وكان مما قاله له "رتبنا جيشنا فى صفوف القتال تجاه الجيش العثمانى فى ضواحى قرية " نزيب " بالأراضى التابعة للشام ، وعلى مسافة بضعة فراسخ من الفرات ، وكان جيشنا مؤلفا من ثلاثين ألف جندى نظامى ، وكان جيش العدو مؤلفا من تسعين ألف جندى نظامى وغير نظامى ... وتفرق هذا الجيش كان تاما وسريعا ، بعد معركة دامت ساعتين وكان هجومنا عليه من كل ناحية فى وقت واحد، وكان على قيادة الميمنة "أحمد باشا" وعلى الميسرة "سليمان باشا"

---

١ - يذكر كرد على أن العدد كان ١٦٦ مدفعا على حين يذكر الرافعى أن مجموع المدافع التى استولت عليها القوات المصرية بلغت ٧٤ مدفعا فقط .

انظر خطط الشام جـ٣ ص ٦٣ ، وتاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جـ٣ ص٣٠٦.

٢ - الرافعى : المرجع السابق جـ٣ ص ٣٠٦ .

٣ - عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، القاهرة دار المعارف١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠ ص ٤٧٧ .

أما أنا فكنت أتولى قيادة القلب ... وإنى أود أن أقتفى أثر الأعداء ولكنى لا أجد منهم أحدا .

وهكذا أصبح ابراهيم باشا سيد الموقف بلا منازع ، وأصبحت الأبواب المفضية إلى عاصمة الخلافه مفتوحة على مصراعيها لاستقبال القوات المصرية الظافرة التى لم يستطع أن يصمد أمامها ما يوقف سيرها أو يحد من تقدمها[1] مما أكد مدى ما وصلت إليه العسكرية المصرية من تقدم فى العلوم والتكتيكات العسكرية الحديثة ، وأثبتت قدرتها على تحمل التدريبات الشاقة التى مكنتها من تحقيق ذلك النصر .

وبعد هذا النصر المؤزر طلب إبراهيم باشا رأى والده فى اجتياز جبال طوروس والتقدم إلى الاستانة التى اصبحت مفتوحة أمامه ولكن والده طالبه بالتوقف خشية العواقب ومغباتها .

والسؤال المطروح هنا هل كان جديرا بابراهيم باشا أن يواصل انتصاراته ويتقدم إلى عاصمة الخلافة ولا يرتبط بعجلة والده السياسية أم كان يتريث فى الأمر خشية العواقب والتقلبات الدولية كما كان يرى والده.

يرى البعض أنه كان جديرا بإبراهيم باشا ألا يعبأ بالمفاوضات والارتباكات السياسية ويواصل انتصاراته حتى يدخل الآستانة ويملى إرادته من هناك[2] ويفاجىء أوربا بخلع السلطان مما يضطرها للتسليم بالأمر الواقع.

---

١ – كرد على : المرجع السابق جـ٣ ص ٥٥ وللتفاصيل انظر أيضا الفريد بلوز : محمد على وأوربا – ترجمة رينيه وجورج قطاوى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٢ ص ١٣٣.

٢ – عبد الرحمن زكى: المرجع السابق ص ٤٢٨ .

ويرى البعض الآخر أن خوف محمد على من تدخل الدول الأوربية كان له ما يبرره وخاصة أنه كان يشعر بأن أوربا لن تسمح له بتهديد مصالحها والقضاء على كيان السلطنة العثمانية الذى ترى فيه عاملا فى حفظ توازن القوى مما جعله يؤثر المفاوضة ، ويحاول الوصول إلى صلح عن طريق التفاوض والتفاهم مع الأوربيين وساعده على ذلك شعوره بأن استيلاء ابنه إبراهيم على مناطق جديدة قد لا يستطيع الاحتفاظ بها طويلا يعد من الأمور التى تقلل من ثمرة انتصاراته وتضعف من موقفه[1] .

وفى رأينا أن محمد على أخطأ فى إرساله الأوامر لابنه ابراهيم بالتوقف بعد انتصاراته الهائلة فى نزيب ولو كان قد سمح له بالتقدم والزحف إلى الاستانة لوضع الدول الأوربية أمام الأمر الواقع ، ولأصبحت شروط التسوية فى صالحه .

وعلى كل حال فبعد هذا النصر الكبير توضح لنا إحدى الوثائق أن السلطان العثمانى " محمود الثانى" قد وافته المنية فى ١٩ من ربيع الآخر ١٢٥٥هـ الموافق أول يوليو ١٨٣٩ قبيل أن تصل إليه أخبار هزيمة قواته ، وأن هذه الوفاة المفاجئة قد أثرت على مجرى الأحداث الحربية فبعد أن تولى السلطان " عبد المجيد خان " أمور السلطنة[2] ورأى دعائم عرشه

---

١ – الفريد بلوز : المرجع السابق ص ١٣٥ .

٢ – تولى أمور الدولة العثمانية ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وكانت الحكومة العثمانية وقتذاك فى غاية الاضطراب بسبب الانتصارات المتلاحقة لقوات محمد على ، ونتيجة لذلك عجز عن القيام بالحكم واختار للصدارة العظمى خسرو باشا خصم محمد على العنيد . محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤٥٥ .

تتزلزل أمام القوات المصرية ، وأن سلطنته مهددة بجيوش محمد على أسرع بإصدار عفوه وصفحه التام عن " محمد على " ، كما أمر بوقف تحركات قواته العسكرية[1] ، وإلى جانب ذلك أمر بإهداء " محمد على " وساما ساطعا كالوسام الذى يحمله الوزراء العظام ، وأن ينعم عليه بالقطر المصرى على أن يتوارثه أبناؤه من بعده على شرط أن يقوم بجميع واجبات التبعية وفرائض العبودية[2] " ولكن الأمور لم تلبث أن تبدلت خصوصا بعد أن قام " أحمد فوزى باشا " قائد الأسطول العثمانى بالذهاب الى الاسكندرية ، وتسليم أسطوله طائعا إلى " محمد على "[3] ، ونتيجة لكل ذلك بدأ انهيار الدولة العثمانية يبرز رويدا رويدا فأصبحت بلا خليفة متمرس على أعباء الحكم وبلا جيش وبلا اسطول أيضا ، واتضح لأوربا أن هذه الدولة أصبحت ثمرة ناضجة بين يدى " محمد على " مما أدخل المسألة المصرية فى طور أكثر تعقيدا ، وجعل معظم الدول الأوربية تتدخل بكل ثقلها فى المسألة حتى لا يتعاظم نفوذ " محمد على " إلى الحد الذى يضعف نفوذها فى المنطقة[4] ويهدد أطماعها ومصالحها فأرسل سفراء فرنسا وبريطانيا والروسيا والنمسا وبروسيا بمذكرة

---

١ - محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ ، وثيقة رقم ٣/٢٧/١٧٦ بتاريخ ٢٥ ربيع الثانى ١٢٥٥هـ تحت عنوان " وفاة السلطان محمود ، وتولى السلطان عبد المجيد عرش السلطنة ، وإصدار عفوه عن محمد على " .

٢ - محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٧ وثيقة رقم ١٧٦-٢ بدون تاريخ ، تحت عنوان "تولى السلطان عبد المجيد عرش السلطنة وإصدار عفوه عن محمد على " .

٣ - كان هذا الأسطول يشمل ثمانى سفن كبيرة ، واثنتا عشره فرقاطه .

٤ - يضاف إلى ذلك خشية انجلترا وقلقها من انتهاز روسيا للموقف وتوسعها حتى حساب الدولة العثمانية المنهوكة القوى .

إلى الباب العالى فى السادس عشر من جمادى الأول ١٢٥٥هـ الموافق السابع والعشرين من يوليو ١٨٣٩م وهاك ترجمتها : " إن سفراء الدول موقعى هذا يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالى أنهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بأن الاتفاق على المسألة الشرقية تام بينهم . فهم يطلبون منه أن يوقف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظرا لما يكون له من المنافع التى تراها" وهذا يعنى ضرورة ألا تقر الدولة العثمانية شيئا فى أمر المسألة المصرية دون الرجوع إلى الدول الموقعة على هذه المذكرة مما شجع الباب العالى والسلطان على الصمود فى وجه " محمد على " .

وانتهى الأمر بعقد معاهدة فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ ألزمت " محمد على " بالتخلى عن بلاد الشام فيما عدا الجزء الجنوبى منه ، وإرجاع الجزيرة العربية للدولة العثمانية[1] والاكتفاء بمصر كى يحكمها هو وأولاده من بعده عن طريق الوراثة ، وولايتى عكا وصيدا ليحكمها مدة حياته فقط ، وأن يخلى سوريا وكريت وبلاد العرب وغيرها من الجهات التى بها جنوده فى مدة عشرة أيام ، وإن رفض ذلك بعد انتهاء هذه المدة يسقط حقه فى عكا وصيدا ، وإن استمر رفضه فى العشرة أيام التالية لرفضه الأول تقوم الدول الأوربية ، بمساعدة الدولة العثمانية عسكريا ضده .

وعلى الرغم من اعتراض فرنسا على قسوة شروط هذه المعاهدة ، فقد استطاعت بريطانيا فى نهاية الأمر أن تقنع فرنسا بنصح "محمد على" بالاعتدال كما نجحت فى إذكاء نار الفتن فى لبنان ضد حكم "محمد على "[2] .

---

١ - Kelly, J.B:Britian and the Persian Gulf, London, 1965,P.282.

٢ - لتفاصيل ذلك انظر كتابنا ثورات الدروز والموارنة ضد حكم محمد على جبل لبنان .

ولإرهاب محمد على بدأ الأسطول الانجليزى فى ضرب بيروت وبعض سواحل الشام مما اضطره فى النهاية إلى الرضوخ لفرمان ١٨٤١م الذى يقضى بإخراجه من الجزيرة العربية، وبلاد الشام وكريت ، وقصر نفوذه على ولاية مصر[١] بحيث تنتقل بعد وفاته بالإرث لأولاده وأولاد أولاده الذكور بشرط أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالى منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال[٢] وبذلك عادت مصر إلى حدودها القديمة ، كما تم تحديد قواتها المسلحة بحيث لا تزيد عن ١٨ ألف جندى ، وأن تدفع للدولة العثمانية ٣٢٠ الف جنيه سنويا .

وفيما يلى نعرض لوثائق هذه الدراسة .

---

١ - إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ١ القاهرة ، المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى ١٣١٢هـ ص ٦٩٠-٦٩١ .

٢ - لتفاصيل ذلك انظر فيلب جلاد : قاموس الادارة والقضا ، المجلد الخامس القاهرة ، ص١٥٥.

ثانيا : الوثائق

وثيقة رقم (١)

موضوع الوثيقة : وقوف بعض أهالى القرى القريبة من نزيب[١] بجانب العثمانيين .

تاريخها : ٢٦ صفر ١٢٥٥ هـ

مصدرها : محافظ عابدين . محفظة ٢٥٧ ترجمة الوثيقة ١٠٠/٢٧ – ٣

أخذت أقوال الأشخاص المكتوبه الأسامى فى القائمة المرافقه لهذا التقرير وذكرت خلاصتها فيما يلى :

إن أهالى قرى رشى التابعة لعينتاب القريبة من الحدود أعنى بها القرى الكائنة فى جهة " نزيب " يحملون الحطب الى معسكر العثمانيين ويترددون اليه ، وكلما أوفدنا نحن رجالنا إلى تلك الجهة ليطلبوا منهم الحطب اللازم للشونة قابلوهم بالرفض فيرجعون بلا شىء فى حين أنهم أقبلوا على العثمانيين إقبالا كليا ، ويخبر بعض الناس بأن هناك بعض قرى عينتاب غير القرى المارة الذكر يحلون الحطب الى معسكر العثمانيين فى نزيب .

هذا وقبض بعض مشايخ كرات[٢] على أربعة انفار من العثمانيين كانوا يفرون إلى هنا ، وأعادوهم إلى معسكرهم مع أن الواجب كان يقتضى بأن

١ – سهل نزيب من أعمال البيرة على الفرات ويقع على الطريق الموصل بين بيره جك والاسكندرونة.

٢ – إحدى قرى عينتاب .

يأتوا بهم الينا ، ولم يعد هؤلاء المشايخ الى قريتهم بعد ، وإذا ما عادوا وقبض عليهم فتقرير العقوبة التى ستنزل بهم منوط بارادة جناب السر عسكر.

العبد

ميرلواء[1] محمد متسلم عينتاب

---

١ – بمعنى أمير اللواء .

– يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :

– مساعدة بعض أهالى القرى القريبة من تزيب للقوات العثمانية عن طريق حمل الحطب إلى معسكراتهم فى حين أنهم كانوا يرفضون إمداد القوات المصرية به .

وثيقة رقم (٢)

موضوع الوثيقة : الاستعدادت العسكرية للمعركة الفاصلة فى نزيب .

تاريخها : ٢٩ صفر ١٢٥٥ هـ

مصدرها : محافظ عابدين . محفظة ٢٥٧ ترجمة الوثيقة ١٠٠/٢٧ – ٤

أنباء الجيش

وصل الجيش وجميع المعدات قادما من جهة ملاطية[١]، وإنما تأخر مدفعان كبيران فذهب حافظ باشا[٢] منذ يومين لاحضارهما، وما زالت العساكر تصل من بيرة جك[٣] عابرين بالماء إلى هذه الجهة، وعندما يصل آخر فوج من الجيش يقومون إلى نزيب ويجمعون الآن فيه (أى فى نزيب) المؤن والحطب

١ – بشرق الأناضول .

٢ – سر عسكر باشا الجيش فى آسيا . ولد فى عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية ، والتحق بخدمة السلطان حيث ارتقى سريعا ، وكان جراء نصره الكبير فى كردستان وتمكنه من اخضاع الكرد أن أنعم عليه السلطان بنيشان الافتخار ، وترقيته إلى رتبه سر عسكر الجيش فى آسيا .

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية: ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا مقال للبكباشى عبد الرحمن زكى تحت عنوان "حملة الشام الأولى والثانية ١٨٣١–١٨٣٩" ص ٣٦٩ .

٣ – تعرف المنطقة المحصورة بين أقصى الانحناء الشرقى المائل فى نهر الفرات وخليج اسكندرونة بنواحى بيره جك ، وهى منطقة ذات أهمية عسكرية كبيرة ويطلق عليها أحيانا (بلاجيق) .

أنظر: معجم البلدان، المجلد الأول، بيروت دار صادر ١٩٧٩ ص ٥٢٦ وانظر ايضا محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق إحسان حقي – بيروت، دار النفائس ١٩٨٣ ص ٤٥٢ .

ناقلين إياهما من بُراق[1] ومزار[2] كما انهم يستدعون من القرى المجاورة النجارين ليرمموا المواضع المحتاجة الى الترميم فى المدافع ، وانهم حفروا خنادق حول المعسكر إلا ثلاثة مواضع منها فتركوها بلا أبواب وعينوا عندها الخفراء ، فعندما يأتى رجل غريب يسألونه أولا .. إلى من يقصد ثم يصرحون له بالمرور ، وقد نبهوا أيضا على أهالى القرى التابعة لهم الكائنة فى هذه الجهات بأنهم إذا وجدوا رجلا غريبا قبضوا عليه ، وجاءوا به إلى حافظ باشا .. ويقول الذين يترددون الى المعسكر أنه يشاع بين الجيش أن إبراهيم باشا نقل من عنيتاب ، معداته التى كانت فيها [3] ، وانه سينسحب إلى الوراء ، ويقال أيضا أن قواتهم (أى العثمانيين) بلغت مائة الف جندى ومائة وخمسين مدفعا وانهم لا يقاسون أى مشقة من جهة المؤن فيشترون الغلال من القرى المجاورة ، ويدفعون ثمنها أولا فأول على سعر الكيلة الواحدة خمسين قرشا وأن سليمان باشا يقيم فى بيرة جك [4] وانه وصل خلال هذه الأيام الثلاثة باشا أرناؤوطى[5] على رأس العشرين الف جندى وهم يعبرون

---

١ – براق بالضم قرية من قرى حلب .

انظر مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ١ ص ١٣٦.

٢ – مزار: قرية داخل الأراضى السورية وتقع على الطريق الموصل إلى نزيب .

٣ – مدينة كان العثمانيون قد استولوا عليها من القوات المصرية.

لتفاصيل ذلك انظر

محمد فريد: البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية ص ١٣٠ .

٤ – سبق إيضاح مكانها

٥ – بمعنى البانى .

الآن الماء إلى هذه الجهة ، ويقولون أيضا أنه فى خلال ثمانية أيام سيصل الجيش كله عن آخره ، وعندما يتم ذلك يقوم الى نزيب.

العبد

محمود بكباشى الأورطة الثانية للآلاى
الثانى عشر المشاة

- يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :
- قيام القوات العثمانية بعمل الاستعدادات اللازمة للتجمع عند نزيب ، واتخاذهم الحيطة والإجراءات الأمنية حول معسكراتهم .
- وصول عدد القوات العثمانية التى تستعد للاشتراك فى المعركة إلى حوالى مائة الف جندى ، ومائة وخمسين مدفعا .

وثيقة رقم (٣)

موضوع الوثيقة: تردد الشائعات حول وصول الجيش العثمانى إلى نزيب.

تاريخها : ٢٩ صفر ١٢٥٥ هـ .

مصدرها : محافظ عابدين . محفظة ٢٥٧ ترجمة الوثيقة ١١٥/٢٧ ـ ١٠

من محمد كاشف وكيل محمد خفتانى زعيم عريان حما .

مولاى حضرة صاحب الدولة ولى النعم

لما شاع بعنيتاب أن جيش الخصم (العثمانيين) قد ورد (نزيب) أرسل حضرة الميرلو[1] فرهاد بك البكباشى[2] محمود افندى من الآلاى الثانى عشر ليتحقق من أمرهم ، ولقد ذهبت مع البكباشى المشار اليه وعلمنا بعد التحقيق أن الجيش ماكث كما كان من قبل وانما أربعة من الباشوات[3] جاءوا مع فوج من الركب ثم عادوا بعد أن عاينوا المحل الذى يعسكر فيه الجيش. وفى نحو الساعة الثانية من يوم الجمعة انطلقت من الجيش مع البكباشى فبلغنا قرية (أغجة كند) راكبين ، واحضرنا شيوخها لدينا . واذ كنا نلقى اليهم وصايانا ظهر سته فرسان من داخل القرية . فسألنا الشيوخ من هؤلاء الركب قالوا

١ – تعنى أمير اللواء .

٢ – تطلق ايضا بنباشى وهى رتبة عسكرية بمعنى رئيس الألف ، واستبدلت فى الجيوش العربية الآن بكلمة مقدم .

٣ – الباش من التركية بمعنى الرأس وتستعمل بمعنى الرئيس وتطلق هذه الكلمة على رجال الجيش إذا صاروا ألويه .

لا نعرفهم فبعثنا تركيا وهناديين وقلنا لهم قفوا على بعد منهم واسألوهم من اين أتوا وأين هم ذاهبون إن كانوا من جنود الخصم فان كانوا أتوا هاربين أو كانوا من الذين فروا من أرضنا فأتوا بهم . فسألهم جنودنا إذ دنوا منهم من أنتم ؟ فعلموا أنهم من الجنود السباهية[1] اذ تكلموا فيما بينهم باللغة الأرناؤوطية[2] ثم هجموا عليهم وأطلقوا عيارًا من غدارة وآخر من بندقية فقابلهم رجالنا بعيارى بندقية فسقط أحد السباهيين مصابا . وقد كتب البكباشى تقريرا مفصلا عن هذه الواقعة فان سرنا وتجولنا فى القرى عملا بالارادة السنية وبما وصانا به حضرة فرهادبك فان بين جيوشهم قرى تبعد بعضها عن بعض مسافة ربع ساعة ولعلنا نلقى فى طريقنا ثلاثة أو خمسة من فرسانهم ، فاذا تسلطوا علينا واطلقوا عيارات فهل نقابلهم باطلاق النار أم نكف عنهم ؟ وقد اجترأنا على تقديم هذا الكتاب لتستأذنوا أعتاب جناب السرعسكر[3] .

---

١ – السباهية كلمة تركية مأخوذة من أصل فارسى ومعناها الفرسان وتكتب فى صيغة المفرد سباهى .

انظر الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص ١٣٠ .

٢ – تعنى الألبانية .

٣ – بمعنى قائد القوات المصرية (ابراهيم باشا) .

– يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

– محاولة التحقق من وصول الجيش العثمانى إلى نزيب بعد الشائعات التى ترددت حول ذلك .

– حدوث اشتباكات بين عيون الجيش العثمانى التى حاولت استكشاف المنطقة وعيون قوات محمد على .

وثيقة رقم (٤)

موضوع الوثيقة: استيلاء القوات العثمانية على بعض القرى المجاورة لنزيب ، وتمكنها من القبض على بعض الأسرى .

تاريخها : ٥ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها : محافظ عابدين . محفظة ٢٥٧ ترجمة الوثيقة ١١٩ – ٣ .

يعرض عبدكم

إن الأخبار التى اتصلت به هى أن أهالى قرية أورل[١] قد استولوا على ١٤ قرية[٢] ، وأن حافظ باشا قد أمدهم بمائتى بندقية ، وكمية من الجبة خانة[٣] والبس الكساوى لكبار (رجال)[٤] القرى ، وأن خيالة الهنادى الثلاثة الذين قبض عليهم[٥] أرسلوا فى يوم ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٥٥هـ إلى حافظ

---

١ – احدى قرى عينتاب .

٢ – كانت هذه القرى تابعة لمدينة عينتاب ، وقد نهبها الاتراك واستولوا عليها ، ثم وزعوا الأسلحة على أهلها لمقاتلة المصريين .

أنظر : نكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ص ٣٧٥.

٣ – الجبة تعنى الدرع ، والجبة خانة تعنى مخازن الأسلحة والدروع .

٤ – مزيد على النص حتى يستقيم المعنى .

٥– كان من بين هؤلاء الأسرى فرجانى شيخ عرب الهنادى الذى حاول حافظ باشا استدراجه لمعرفة أخبار الجيش المصرى ، ولكنه كان عنيدا فى ردوده عليه كما أنه استطاع أن يؤكد له أن جيش ابراهيم باشا يملك من القوات والأسلحة والعتاد ما يفوق قواته لتفاصيل ذلك انظر كرابيتيس : المرجع السابق ص ٢٣٣-٢٣٤.

باشا ، فاكرم حافظ باشا الذين اتوا بهم . ولما سمع من أوفدناهم إلى هناك صوت اطلاق ٥ مدافع فى نزيب استوضح[1] الناس أسباب ذلك فقيل لهم إن اطلاق المدافع تحية لحافظ باشا بمناسبة وصوله مع الجيش الى نزيب والناس هناك يقولون إن جوادنا[2] لن يغادر حلب ، والشائع بينهم أن الجيش يزحف على عنيتاب هذا وقرى هذه الجهة أخذت تشعر بالخوف من جراء استيلاء الخصم على بعض القرى ، ولكن القرى التى تنزل حولها غير خائفة بينما القرى الأخرى تشعر بهذا الخوف ، والقول أن بعض القرى هنا كتبت خطابات إلى الخصم ، ولكن ذلك لن يتحقق ، ولا أدرى نصيب هذه الأخبار من الصحة .

٥ ربيع الأول ١٢٥٥

محمد

---

١ - فى النص استوضحوا .

٢ - المقصود به ابراهيم باشا .

- يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :

- نجاح أهالى قرية أورل القريبة من عينتاب فى الاستيلاء على ١٤ قرية من القرى المجاورة لهم .

- تمكن القوات العثمانية من القبض على بعض عرب الهنادى من قوات ابراهيم باشا .

- وصول القائد العثمانى حافظ باشا مع جنوده إلى نزيب واطلاق المدافع تحية لقدمه.

وثيقة رقم (٥)

موضوع الوثيقة: القيام ببعض التحريات لمعرفة تحركات الجيش العثمانى نحو نزيب .

تاريخها : ٨ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة ٢٥٧ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٠٠/٢٧-٥٤.

من : محمد بك المعجونى

الى : الباشا السر عسكر

هذا ما يرفعه عبدكم

غادر الجيش اثنان من الباشوات أمس وقدما (نزيب) ولم يبق أحد من الجنود الذين بتلك الجهة ومضوا كلهم الى هذه الجهة وأخذ الجيش ينقل إلى هذا الطرف على التعاقب ، وقد انتدب رجلا أوفدته مرة أخرى ليأتينى بخبر صحيح بعد التحرى . فإذا عاد فسوف يرفع الخبر الذى يأتى به الى اعتاب حضرة السر عسكر هذا ما حملنى عل تحرير هذه العريضة . والأمر لحضرة من له الأمر .

- يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :
- مغادرة اثنان من الباشوات الى نزيب .
- تنقل الجيش حول هذه المنطقة بصفة دورية .
- محاولة التعرف على تحركات القوات العثمانية .

وثيقة رقم (٦)

موضوع الوثيقة: انضمام بعض أهالى القرى إلى العثمانيين نتيجة للخوف من تهديداتهم ومحاولات اقناع القيادة المصريه لهم بالعدول عن ذلك . .

تاريخها : ١٠ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة ٢٥٧ ترجمة الوثيقة التركية رقم $\frac{١٠٠}{٢٧}$-٢٢.

من الميرالوا[١] فرهادبك والبكباشى[٢] محمد حاذق من مدفعية الفارديا[٣]:

هذا ما شاهدناه رأى العين من الأمور وما علمناه سماعا من الشئون عند سيرنا وتجولنا اخيرا فى (اورل)[٤] و (طلقار) وسائر قرى عنيتاب كنا نسمع ما شاع متواترا من أن أكثر قرى عنيتاب تميل إلى تلك الفئة (أى العثمانيين) وقد جمعنا أخيرا زعيم قبيلة (اورل) وعمد قريتى (خيام) و (كرات) وغيرها من القرى ومحمد كاشف الذى أُمِّر على خيالة الهناديين فى الموضع الذى يقال له (طلغار) فسألنا محمد كاشف عن سلوك القرى وعما إذا كان فى أهل القرى التى مر عليها من يسىء الأدب ويطغى سرا أو علانيه . فقال أنه

---

١ – سبق توضيحه.

٢ – سبق توضيحه.

٣ – تعنى الحرس .

٤ – سبق توضيح مكانها .

لم ير طغياناً من أحد بل وجدهم خاضعين لجميع الأوامر قائمين بتأدية المطلوبات وانه لم ير أحداً أساء الأدب غير الخمسة والعشرين رجلا الذين خانوا من أهل (كرات) وأن العصاة المذكورين أخذوا أموالهم من القرية فاقاموا بالجبل والأجمة الواقعين على الحدود (روم قلعة[1]) من ناحية (كرات[2]) ثم سألنا عمد القرى الذين جمعناهم : قد وقع من بعض اهل القرى الواقعه على الحدود مجون وأعمال مخالفة للرضا العالى تارة بعد أخرى ، فما السبب فى ذلك ؟ فقالوا إن هذه القرى تقع على الحدود وعلى مقربة من الجيش ، فيأتى بعض الناس من قرى تلك الجهة كتزيب وغيرها موفدين خُفية إلى القرى من قِبَلْ بطال بلك متسلم (بيله جك[3]) فينذرون أهلها قائلين " اخضعوا لحكومة هذه الجهة من فوركم واظهروا لها صداقتكم واخلاصكم والا فتسبى اطفالكم ونساؤكم وعيالكم وننهب اموالكم وتكون عاقبة أمركم كذا وكذا فإن سرتم سيرتكم هذه ولم تتبعونا فانهم يغيرون على قريتكم ويقتلونكم تقتيلاً ولما كان طائفة العمال كالانعام بطبيعة الحال لا تحيط عقولهم بالأمور الدقيقة أخذوا يخافونهم فقلنا لهم فى سبيل النصح والموعظة . نسأل الله تعالى الذى لا شريك له أن يمنح مولانا ولى النعم الخديو الأكرم معدن المرحمة الأعظم عمراً ليس له من نفاد . فانكم لن تراعوا فى ظله الجليل وان يصيبكم ضير . وان يستطيع أحد منكم أن يمسكم بسوء صغيرا أو كبيرا لا فى أموالكم

---

١ - كلمة الروم حسب المعنى الشائع فى ذلك العصر يقصد بها الدولة العثمانية ، وروم قلعة كانت عبارة عن قلعة حصينة غربى الفرات مقابل البيرة .

٢ - سبق ايضاح مكانها .

٣ - صحتها بيراجيك وهى قرية فى منطقة الفرات .

وعيالكم ولا فى قراكم ، فامضوا على ما أنتم عليه راغبين واجتهدوا واعملوا بما اوتيتم من قوة . فان خدعتم بمثل هذا التحريض الواهى وصدر منكم عمل يخالف الرضاء العالى فلن تجدوا محيصا من لهيب غضب جناب السر عسكر ويذهب اولادكم وأموالكم أدراج الرياح فلا تلتفتوا إلى ضوضاء أمثال هؤلاء السفهاء . ولئن لجئوا إلى القتال ، أفلم تعلموا أن المشاهدة والتجربة أثبتت غير مرة أن مثل هؤلاء اللقاط من الجنود لا يستطيعون لقاء الجيش المصرى ؟ فان جاء قراكم أحد منهم للتحريض أو اتاكم كتاب فاعرضوه فى حينه على محمد كاشف . والناس كلهم يعلمون مدى عطف حضرة مولانا الخديو[1] الاكرم على الرعية. وقد انصتوا جميعا لكلا منا حتى ذهب عنهم الروع الذى القى فى قلوبهم . أما ما قيل حتى الآن فى القرى إلى تلك الجهة وخيانتهم فليس كما راج. وإنما الذين خانوا كما اشيع هم الخمسة والعشرون أو الثلاثون نفسا الذين اسلفنا ذكرهم من اهل (كرات [2]) . وقد سمعنا انهم قبضوا حتى الآن على ستة عشر من هاربى الخصم وجاءوا بهم فأخذوا مكافأة قدرها اثنان وثلاثون كيسا، ولقد هرب رجلان فى هذه الايام فالتحقوا بأولئك العصاه . ولقد صممنا على أن نتخذ حيلة فنغير على العصاه الذين سبق ذكرهم من أهل (كرات) إلا اننا عدلنا عن ذلك لأن الأرض التى يسكنونها وعرة ذات صخور لا تستطيع الخيل السير فيها كما أنها مجاورة للحدود ومسكونة بعشيرة تابعة لروم قلعة فان غزوناهم ليلا لأجلبوا بقولهم إن القوم قد اغاروا على أرضنا وساءت العاقبة. فاكتفينا بتوصية عمد القرى بأن

---

١ - يقصد الباشا .

٢ - سبق ايضاح مكانها .

يقبضوا على من أتاها منهم على الفور. وقد علمنا من كلام زعيم قبيلة اورل أن السبب فى سلوكهم طريق العصيان هو بطال بك اذ سبق أن أرسل كتبا الى زعيم قبيلة (أورل) مرات كثيرة وأوفد اليه رجالا ليسأله اتباع تلك الجهة إلا أن الزعيم المشار اليه رفض دعوته بتاتا وأبى أن يمس كتبه بيديه بل أحرقها . فأراد بطال بك أن يغيظ زعيم القبيلة وأكرم مثوى رجل من أهل كرات يقال له محمد وأتاه أمرا كتابيا باسناد زعامة قبيلة (اورل) اليه وقد وصينا الزعيم المشار اليه بأن يرسل الينا كل الاوراق التى ترسل اليه أو الى عمد سائر القرى من الخصم فى حين ورودها . ونقدم الى اعتاب دولتكم كتاب التحريض الذى جاء به شيوخ (برستى) من متسلم (روم قلعة)

أخبار أخرى

رأينا حين كنا جالسين بالقرية التى يقال لها (طلغار) رابية تقرب من مقامنا وواقعة على استقامة قرية (نزيب) فارسلنا اليها محمد كاشف فى نفر من الفرسان فوجهوا اليها المكبرة[1] فابصروا بها فرسانا يتراوح عددهم بين الثمانمائة والألف ورأوا سبع عشرة خيمة ثلاث عشرة منها صغيرة واربعة قباب كما وجدوا الخيل مربوطة كلها فى الزراعات الواقعة حول (نزيب) وقد خرجوا من خيامهم إذ كان فرساننا ينظرون اليهم فاخذوا يعاينون بالمكبرة وجاء نحو ستماية فارس منهم يوم مصرع السباهى الذى قتله فرسان الهنادية فنقلوا جثته . ولقد قام الحاج عمر أوغلى منذ نحو ثلاثة ايام من بيرة جك وسار الى مرعش [2] على أن يأتى (كورد داغى) عن طريق(كليس) وقد

---

١ - يقصد المنظار .

٢ - مدينة ساحلية بين بلاد الشام وتركيا .

حضر منذ نحو عشرة أيام من نزيب واتوا (مزار) مع بضع مئات من الفرسان واستحسنوا أن يتخذوا السهل الواقع على ساحل النهر بين مزار ونزيب معسكرا ولقد وصينا محمد كاشف وأكدنا عليه شديدا بأن لا يدنوا من الحدود وان يتجولوا على بعد منها وان لا يطلق أحد عيارا عملا بالارادة السنية .

- يستخلص من هذه الوثيقه ما يلي :
- ميل العديد من قرى عينتاب إلى العثمانيين ، وخروج بعض أهلها الى الجبال وتحصنهم بها .
- تهديد العثمانيين لبعض اهالي القرى بسبى نسائهم واطفالهم ونهب اموالهم إذا لم يدخلوا تحت امرتهم .
- نصح قواد محمد على لهؤلاء الاهالى بالوقوف بجانب القوات المصرية وعدم الانحياز للعثمانيين الذين لا تستطيعون لقاء الجيش المصرى .

وثيقة رقم (٧)

موضوع الوثيقة: زحف الجيوش العثمانية على منطقة نزيب .

تاريخها : ١٠ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة رقم ٢٥٧ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٥/٢٧ -٥٤ .

الكتاب الذى كتبه السر عسكر الى البك المعجونى .

ذكرتم فى كتابكم المكتوب فى ٨ من ربيع الأول أن اثنين من الباشوات قاما من معسكر القوم فأتيا نزيب ، وإن جنودهم الذين سلكوا الجهة انتقلوا جميعا إلى هذه الجهة فلم يبق منهم أحد وأن جيشهم ماض إلى هذه الجهة على التوالى . إلا انكم لم تذكروا أين ينزل ويعسكر جيشهم الذى منى فى الانتقال إلى هذه الجهة على التعاقب فاشعرونا سريعا بالمواضع التى ينزلون بها واعلموا أنه لا يتبقى لكم أن تكتبوا مثل هذه الخطابات المبهمة بل عليكم أن تفصلوها تفصيلا .

- يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :
- قدوم القوات العثمانية إلى نزيب استعدادا للمواجهة العسكرية مع قوات محمد على .
- خطورة الموقف تقتضى التفاصيل فى المعلومات المرسلة الى قيادة محمد على حتى يتم الاستعداد للأمر فى حينه .

وثيقة رقم (٨)

موضوع الوثيقة: هروب عبد طواشى وآخر زنجى من نزيب .

تاريخها : ١١ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة رقم ٢٥٧ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٥/٢٧ -٣٤ .

من : الميرلو فرهاد بك

الى : الباشا السر عسكر

هذا ما يرفعه عبدكم

فى ٩ من ربيع ١٢٥٥هـ جاءنا عبد طواشى وآخر زنجى هاربين من نزيب هما للمدعو صالح بك اميرالاى الفرسان الثالث الذى ارتكب زرية الفرار من قبل وقد اتيا معها بجواد ونخبر دولتكم أنهما يقولان إن صالح بك مقيم بنزيب وأنه كان يؤذيهما فهربا من أجل ذلك والأمر لحضرة من له الأمر .

مولاى

قد فهم من مقالة العبدين المذكورين أن صالح بك المذكور حائز رتبة الميرلوا وان تحت إمرته آلايين فى ١٠ من ربيع الأول ١٢٥٥ .

صورة رد مولانا السر عسكر

ارسلوا الينا ذلك الطواشى والعبد الزنجى التابعين للخائن صالح بك اللذين فرا من نزيب .

- يستخلص من هذه الوثيقه ما يلى :
- هروب عبد طواشى وآخر زنجى من نزيب ، ومحاولة التعرف منهما على بعض اسرار العثمانيين .

وثيقة رقم (١٨)

موضوع الوثيقة: الاستعدادات للمواجهة بين القوات العثمانية وقوات محمد على فى نزيب .

تاريخها : ١٦ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة رقم ٢٥٧ وثيقة ١١٩-٧ .

صورة الخطاب المؤرخ فى ١٦ ربيع الأول ١٢٥٥هـ الموجه الى معجون بك لقد وصلنا خطاباكم المؤرخ فى ١٥ ربيع الأول ١٢٥٥هـ الذى أشرتم فيه إلى أنه قد أطلق ٥ مدافع فى نزيب . ولما استوضح أسباب إطلاقها قيل أنها تحية لقدوم حافظ باشا مع الجيش إلى نزيب ، وأن بعض القرى قد حملها الخوف على إرسال خطابات الى الخصم . فيامعجون لقد قام اليكم نهار أمس خفتان بك وخياله وليس من شبهة فى أنه اليوم قد وصل فلوان . هذه القرى قد عمدت الى حركات معادية لأمكن اخماد حركتها بواسطة الخيالة . إن جيشنا عظيم ولا يمكننا أن نقوم به دفعة واحدة ولذا فقد سيرنا الى جلان[1] اليوم أحمد باشا المنكلى فى الايات الخيالة والطوبجية والذى نطلبه منكم الآن هو موافاتنا بخبر قيام جيش الخصم إلى نزيب حقيقيا حتى نزحف نحن أيضا إذ ذاك فى الآيات الشاه فوافونا بالخبر اليقين عن قيام جيش الخصم الى نزيب على عجل. ولقد كتبنا اليكم نهار أمس بشأن سحب

---

١ - سبق إيضاح مكانها.

أهالى القرى القائمة حولكم حتى أورل الى الخلف ، وقد ذكرتم أن حافظ باشا قد سلّح بعض قرانا . إن هذه القرى تابعة لنا فاذا ما عمدت هذه القرى إلى اطلاق النار عليكم فان من حقنا أن نهاجمها وعليه دعوا الهنادى يهاجمون القرية التى تجرأ على مثل هذا العمل وامحوا أهلها كليا.

- يستخلص من هذا الأمر :
- خوف بعض أهالى القرى من إطلاق المدافع ترحيبا بقدوم القائد العثمانى حافظ بك.
- ضرورة التاكد من زحف الجيش العثمانى الى نزيب حتى يمكن مواجهته فى الوقت المناسب .
- الاستعداد لمهاجمة القرى التى تنضم للعثمانين وتطلق النار على قوات محمد على .

وثيقة رقم (١٩)

موضوع الوثيقة: محاولات لتقصى أخبار القوات العثمانية المرابطة فى نزيب.

تاريخها : ١٧ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة رقم ٢٥٧ ترجمة الوثيقة رقم ١٢٠-٩ .

فى نحو الساعة الثامنة من يوم الأربعاء الموافق ١٧ ربيع الأول ١٢٥٥هـ وصل الى عتتاب عبدكم محمد كاشف . وقد بسطنا فى هذا التقرير الحالة التى شاهدها بعنيه فى تلك النواحى والأخبار التى استقاها من بعض الناس.

الأمور التى شاهدها بنفسه

فى يوم ١٦ ، ١٧ ربيع الأول ١٢٥٥هـ قام عبدكم محمد كاشف فى جماعة من الخيالة الى الهضبة القائمة الى جانب نزيب فشاهد بواسطة المنظار أن ثمة أربعة آلايات من المشاة ونحو ٨٠٠ خيال ، ٤٠ مدفعا تمكن بواسطة المنظار من أن يحصى عددها واحدا واحدا ثم كشف جهة المزار واتضح له أن هناك نحو ثمانية وتسعمائة من خيالة المرتزقة ومدفعان وقد اقيم فى قرية اورل نحو ٢٠٠ خيال من الخيالة المرابطة فى المزار . جعل مكان هؤلاء الخيالة فى ضواحى اورل ، وفى يوم الاربعاء شاهد قوة قوامها آلايان من الخيالة والمشاة من أساس الآلايات المرابطة فى نزيب تسير نحو المزار .

وقد حفروا خندقا حول القوات الموجودة فى نزيب وأقاموا عليه طابيتان ركزوا فيها المدافع ويرابط فى الخندق طائفة من عساكر ال " نفر عام " الذين جمعوا من القرى .

الأخبار التى استقاها من الناس

لقد علم مما سمعه ممن فر ناحية الخصم ومن بعض كبار السن فى القرى أن الجيش المرابط فى نزيب قد قام الى المزار ، واوريل وان الجيش المكون من قوة كبيرة المرابطة فى بيله جك سيأتى إلى نزيب وأن جميع العساكر ترغب فى الفرار من الجيش ولو أن الضباط يحرصون على مراقبة العساكر لعمدوا إلى الفرار إذ ان ذلك أقصى آمالهم وأن فى الجيش نحو ٢٠ أو ٢٢ الف من العساكر النظاميين وباقى افراده من عساكر الرديف والمرتزقه وقد كتبوا الى المتسلمين يطلبون منهم جمع عساكر مرتزقه غير الموجود منهم فى الجيش وهم يرمون من وراء جمع هؤلاء المرتزقه إلى الاستفادة منهم فى تعبئتهم فى الخندق الذى حفروه حول نزيب إذا ما زحف الجيش الى الأمام وانهم أرادوا أن يقيموا جسرا فوق نهر مراد إلا أن شدة جريان المياه قد حالت دون ذلك وأن لدى سر عسكرهم ٤٠ مهندسا من الروس يترأسهم أحدهم كباشمهندس والسر عسكر يعمل برأى هذا الباشمهندس ولا يخالفه فى شئ والخطة التى يريدون اتباعها هى أن يزحف الجيش على المزار فعنتاب حيث يسير سليمان باشا فى نفس الوقت الى عنتاب فى قوة من العساكر وقد طلبوا من البلاد عددا معينا من الرجال باسم " مقطوعية " على أن يصرف لكل رجل منهم على حساب البلدة ١٥٠ قرشا ليبتاع جوادا رديئا و ٥٠ أو ٦٠

قرشا لشراء طبنجة والبلده التى طلبوا منها تقديم مائتى خيال أرسلت مائة أو مائة وخمسين خيالا وقد صرفوا على هذا الحساب لكل خيال ١٥٠ قرشا ثمنا للجواد و ١٥٠ قرشا لشراء طبنجةولمصروف الطريق والمجموع ٣٠٠قرشا ولما أن أمضى هؤلاء الخيالة مدة ٣٠ يوما فى الجيش نفد المبلغ الذى قبضوه من بلادهم وجاعت خيلهم كما جاءوا هم أيضا فتقدموا بعريضة إلى السر عسكر يشكون فيها حالهم فرد عليهم السر عسكر بقوله لقد ارسل إلىّ متسلموا بلادكم يقولون أنهم صرفوا لكل واحد منكم ١٥٠٠ قرشا ذهبا انصرفوا أيها الوقحاء ، وطردهم ولما كانت حالة عساكر " النفر العام المشاه " لا تختلف عن حالة الخيالة من هذا النوع من العساكر فان الشائع أن هؤلاء العساكر اذا ما اقتربوا من مناطق المصريين سوف يفرون فى الحال بمجرد سنوح الفرصة ..

البكباشى الطوبجى	المير لواء
حانق	فرده‌اد
محمد حانق	عبده فرهاد

- يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- قيام بعض الخيالة المصريين تحت قيادة محمد كاشف إلى الهضبة القائمة إلى جانب نزيب لتقصى أمور القوات العثمانية الرابطة هناك .

- نجاح هؤلاء فى استكشاف المواقع العثمانية وعدد أفراد القوات المرابطة فيها والتسهيلات والمصاعب التى يواجهونها .

- تواجد عدد من الخبراء العسكريين الروس ضمن القوات العثمانية .

وثيقة رقم (٢٠)

موضوع الوثيقة: وفاة السلطان محمود وتولى السلطان عبد المجيد عرش السلطة واصدار عفوه عن محمد على .

تاريخها : ٢٥ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين وثيقة رقم ١١٥/٢٧ -٣ .

من محمد خسرو[1] الصدر الاعظم إلى إبراهيم باشا .

سيدى حضرة صاحب العطوفة والرأفة بهى الشيم

على أثر انتقال المغفور له السلطان محمود الى رحمة الله ، بتقديره سبحانه وتعالى جلس على كرسى السلطنه صاحب الشوكه والمهابة مولانا السلطان عبد الجيد خان ونظرا لما فطر عليه جلالته من الذكاء وبعد النظر قد أصدر عقب جلوسه إرادته بالصفح والعفو التام عن حضرة صاحب الدولة والدكم ، على نحو ما جاء فى صورة خطاب المثنى عليكم المرسلة الى عطوفتكم من طيه ، وبناء على منطوق هذه الإرادة كتب قبل بضعة ايام إلى والدكم المشار اليه فى ذلك وانتدب لمقابلة دولته صاحب السعادة عاكف افندى من رجال الدولة العية ، وكاتب دار شورى الباب العالى، ولقد كتب كذلك من قبل المثنى عليكم إلى صاحبى العطوفة حافظ باشا (قبودان باشا) وزير البحرية

---

١ – اختير خسرو باشا للصدارة العظمى بعد أن عجز السلطان عبد المجيد عن القيام بالحكم لحداثة سنه ، وكان خصما عنيدا لمحمد على .

بشأن وقف الجيش والاسطول السلطانى من مكانهما وقد بادرنا الى بيان هذا العفو السامى الى مقامكم الكريم أيضا لتحيطوا بهذه البشرى هذا وان ما جبلتم عليه من الحمية والروية ليحمل عطفوفتكم ايضا على أن تتوقفوا حيث انتم وان تقوموا بما تتطلبه واجبات التبعية ومن أجل الفات نظركم الى ذلك قد بعثنا اليكم بهذا الخطاب الودى مع اثنين من السعاة والمثنى عليكم بأمل ، على أثر وصوله ان شاء الله تعالى ، وأن تتفضلوا باجراء اللازم نحوه.

٢٥ ربيع الثانى ١٢٥٥هـ

عبده

محمدخسرو

- يستخلص من هذه الوثيقة ما يلي:
- وفاة السلطان محمود وتولى السلطان عبد المجيد زمام الحكم .
- إصدار السلطان عبد المجيد عفوا عن محمد على والكتابه اليه بذلك .
- إعلان ابراهيم باشا بهذه البشرى ومطالبته بوقف العمليات العسكرية ضد الدولة العثمانية .

وثيقة رقم (٢١)

موضوع الوثيقة: الاستعدادات التى اتخذت بين قوات محمد على عقب وفاة السلطان .

تاريخها : ٢٥ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ .

مصدرها: محافظ عابدين وثيقة رقم ٢٥٧ -١٨٠ .

تلقيت يوم ٧ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ أمركم الكريم المؤرخ فى ٢٦ ربيع الثانى١٢٥٥ الذى تفضلتم واشرتم فيه الى أن الآستانه بعد وفاة السلطان محمود قد اخذت تستعد وتوحد كلمتها وان الأمر ، والحالة هذه يقضى بأن نحتفظ بعساكرنا مجتمعين دون ان تتحرك من مواقعها أو تتقدم إلى الامام وأن تنتظر اوامركم الكريمة التى تصدر الينا بعد الآن . ولقد قدمت من طيه كشفا يحوى اسماء المواقع التى ترابط فيها الالايات المذكوره ومدافعها وكيفية توزيعهم على الجهات وسيقف ولى النعم على الموضوع بعد الاطلاع ، على الكشف ولكننى أرى وجوب شرح الأسباب التى حملتنا على ذلك التوزيع . فأول هذه الأسباب قرب هذه الجهات إلى بعضها فبيرة جك[1] تبعد مسافة مرحلتين عن غشاب وأورفة[2] عن فيرى جك مسافة ٣ مراحل وكذا روم قلعة فانها تبعد مسافة مرحلتين عن فيرى جك[3] بسير العساكر المشاة والسبب

---

١ - سبق توضيح مكانها .

٢ - قرية كبيرة من نواحى عزاز بحلب انظر مراصد الاطلاع جـ١ ص ٣٧ .

٣ - سبق توضيح مكانها .

الثانى هو أننا لو جمعنا قواتنا فى مكان واحد لكان علينا أن نعد لهذه القوات مقادير كبيرة من المؤنه ، وهذا لا يتسنى لها فى بعض الأوقات مع وجود قواتنا يجب التوزيع المدرج فى الكشف ولا تستطيع تموين جميع العساكر كما ينبغى حتى أننا عجزنا فى بعض الأيام عن صرف تعييناتهم وقد كنا نود ابقاء الاى حملة الدروع (الزرخلى[1]) فى عنتاب ولكن قلة الشعير هناك جعلنا نرسله إلى قرى حصار[2] مضطرين ولما كان سليمان باشا يقيم الآن فى عنتاب فقد كتبنا اليه بأن ينقل إلى عينتاب الآليات الموجودة فى بيرة جك إذا كان من الممكن توفير المئونه اللازمة لها هناك وما مرابطة بعض الالايات عند نهر ايجة بين مرعش وعنتاب إلا لقلة المئونة ولئن كانت ثمة قوات كبيرة ترابط فى ادنة فسببه أن اطنه من البلاد التى تتوفر فيها المحصولات فضلا عن أن لنا فى اللاذقية كميات عظيمة من الشعير والبقسماط فاذا ما دعت الحاجة اليها جيء بها على السفن فلا تعانى القوات هناك أى ضيق من هذه الناحية . ان توزيع القوات على هذا الوجه قد تم ياولى النعم ابان صدور امركم القاضى بمداومة الزحف حتى قونية[3] وفقا لما كانت تتطلبه الحالة إذ ذاك . وذلك قبل أن يصل المعاون الفرنسى وقبل الجلوس السلطانى . هذا ولو

---

١ – أصل هذه الكلمة فى العربيه زرد بفتح الزاى والراء وتعنى الدرع الحديد الذى يلبس فى الحرب .

انظر د. أحمد سليمان : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ ص ١٢١ .

٢ – على الحدود بين بلاد الشام وتركيا ومعناها الطابور الأسود .

٣ – سبق إيضاح مكانها .

كنا قد نقلنا الى مرعش[1] الآليات الخيالة والبطاريات المدفعية الموجودة بأدنه لعانينا الضيق الشديد نظرا لأنها أرض غجرية قليلة المحصول بل ربما كان من المستحيل علينا تموينها من تلك الجهة . ويقى لو أن الأمر وجب أن تتحرك جميع عساكرنا نحو قونية متبعة طريقا واحدا لتعذر علينا أن نجد المئونة فى غير ٤ مراحل من الـ١٨ مرحلة التى ستقطعها فى الطريق من مرعش الى سيواس إذ أن المسافة من مرعش الى ملاطية[2] ٨ مراحل ومن ملاطية الى سيواس كذلك ٨ مراحل وكان علينا والحالة هذه أن نحمل معنا على الدواب مؤنة المراحل الأخرى فى حين أنه من المستحيل ان نجد العدد المطلوب من الدواب لهذه الغاية ونحن انما نتقدم ببسط موقفنا ليقف ولى النعم على كنه الأمر مولاى . أن ما بدا بالاستانه من مظاهر الاستعدادات وتوحيد الصفوف يرجع إلى انهم لم يكونوا قد علموا بما أصيبوا به ابان المحاربة فى فشل وانهزام ، فان أمركم الكريم المتضمن خبر هذه الاستعدادات مؤرخ فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٥٥ فعلى فرض أن تابع " توسيجه " بلغ اعتابكم الكريمة فى مدة ٦ أيام فيكون والحالة هذه قد غادر الاستانه فى ٢٠ من ربيع الثانى ١٢٥٥ بينما أن المحاربة وقعت فى ١٢ ربيع الثانى ١٢٥٥ فالفرق إذا ٨ ايام ومن المستحيل على الساعى أن يقطع المسافة من نزيب إلى الاستانه فى مدة ٨ ايام بينما خطاب الصدر الأعظم المقدم من طى عريضتى المرفوعه إلى

---

١ – مدينة بالثغور بين الشام وتركيا أحدثها الرشيد .
انظر مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ٨١ .

٢ – تكتب أيضا ملطية وهى مدينة متاخمة لبلاد الشام ، وقد بناها الاسكندر .
انظر مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ١٤٥ .

اعتابكم قبل تاريخ هذه العريضة بيوم واحد وصورة الخطاب التى بعثوا بها إلى مقامكم الخديوى مع كاتب شورى الباب العالى مؤرخان فى ٢٥ ربيع الثانى ١٢٥٥ فالفرق بين هذا التاريخ وتاريخ المحاربة هو ١٣ يوما وعلى هذا الحساب يكونوا قد علموا بخبر الهزيمة على الرغم من ظهورهم بمظهر التجاهل وهذا تبينه الارقام وأساليب خطاباتهم سيما اخطارهم للسعاة الذين قدموا علينا بان يقولوا للناس ابان الطريق ليس ثمة محاربة وانما صلح واتفاق وعلى كل فان عبدكم هذا سيقف من الاوامر التى سيلقاها على مدى استعدادتهم ومواقفهم وأحوالهم وسأعمل اذ ذاك على اتخاذ الاجراءات التى تتطلبها الحالة ، والارادة الكريمة والأمر والارادة لمن له الأمر.

٩ جمادى الأول ١٢٥٥هـ

من مرعش

سلام

على ابراهيم

- يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :
- وفاة السلطان محمود فجأه جعل الأستانه توحد كلمتها.
- توزيع قوات محمد على فى مواقع متعددة حتى تسهل عملية تموينها .
- رغبة الأستانه فى الصلح والاتفاق مع محمد على خصوصا بعد الهزائم التى منيت بها قواتها .

وثيقة رقم (٢٢)

موضوع الوثيقة: محاولات السلطان عبد المجيد استرضاء محمد على .

تاريخها : بدون .

مصدرها: محافظ عابدين محفظة رقم ٢٥٧ وثيقة رقم ١٧٦ -٢ .

(صورة غير مختومة) من الصدر الأعظم

على أثر وفاة المغفور له السلطان محمود تبوأ كرسى السلطنة حضرة صاحب الشوكة والمهابة والقدرة مولانا السلطان عبد المجيد خان على نحو ما جاء فى الخطاب المقدم من حضرتكم قبل بضعة ايام ونظرا لما اتصف به جلالته من العظمة وبعد النظر فقد تفضل عند جلوسه السعيد وأصدر نطقا كريما قال فيه جلالته إن محمد على باشا والى مصر قد قام ببعض الحركات التى أوجبت تأثر ساكن الجنان والدى الماجد حيث وقعت أمور كثيرة حتى الآن من جراء ذلك ، ولقد شرع فى هذه الآونة أيضا فى اتخاذ التدابير التى يتطلبها الموقف ولكننا من أجل وقاية عباد الله مما من شأنه أن يخل براحتهم واطمئنانهم وهم وديعة الله فى أيادينا وحبنا فى الابتعاد عن سفك دماء المسلمين قد أصدرنا أخيرا عفونا وصفحنا السلطانى عن الوالى المشار اليه على أساس مضى ما مضى وقد عولنا على ان نهديه وساما ساطعا كالوسام الذى يحمله الوزراء العظام وأن أنعم عليه بالقطر المصرى على أن يتوارثه ابناؤه من بعده على شرط أن يقوم بجميع واجبات التبعية وفرائض العبودية هذا ولما كان قد عهد إلى المثنى عليكم بمنصب الصداره العظمى وكانت ثمة علاقات قديمة طيبه بين العاجز وبولتكم فان المثنى عليكم قد سر أيما سرور

لصدور هذه الإرادة الكريمة ، ولقد كتبت عقب صدورها مباشرة إلى عطوفة حافظ باشا سر عسكر جيش الشرق بشأن وقف حركات الجيش السلطانى . وقد كان الاسطول السلطانى أيضا على وشك أن يجتاز (البوغاز) فاوقف هو الأخر . وقد شرع فى اعداد الوسام الرفيع الشأن مع الفرمان السلطانى وفقا لما جاء فى الارادة السنية وعلى نية ارسالهما بعد الآن ، وقد قام صاحب السعادة عاكف افندى كاتب دار شوى الباب العالى وأحد رجال الدولة العلية ليشرح لدولتكم بادىء الأمر على وجه التفصيل أمر الارادة السنية المشار اليها ويزف اليكم بشرى صدورها ويبسط لحضرتكم مبلغ الحاجة إلى الاتحاد معكم فى سبيل جمع كلمة المسلمين وعدم تفرقهم ، ونظراً للظروف الدقيقة التى تحيط بالدولة العلية وليدلى لدولتكم بالأسس التى يقوم عليها الاتحاد والاتفاق بين الطرفين ، وانه لمن المأمول من الله سبحانه وتعالى أن يؤيد بروح من عنده جلالة مولانا السلطان وأن يتم فى ظل جلالته لجميع البلاد والعباد الرخاء والأمن والاطمئنان ولا جدال فى أن هذه الامنية . انما تتم تبعا ضد العناصر الاسلامية ، ومن البداهة انكم عملا بما فطرتم عليه من الفطنة والكياسة ورجاحة العقل ، ونزولا على ما جاء بالادارة السنية ستسدلون ستار النسيان على ما مضى على أساس قاعدة مضى ما مضى وتقوموا بواجبات التبعية كاملة وتسحبون جيوشكم الى الخلف حيث تعنون بعد الآن بأمر الاتحاد والاتفاق .

- يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :
- تولى السلطان عبد المجيد أمور السلطنة ورغبته فى ايقاف النزاع مع محمد على حتى لا تتفرق كلمة المسلمين .
- الانعام على محمد على بأحد الأوسمة ، ويحكم البلاد المصرية وتوارثها بين أبنائه بشرط أن يعلن الولاء للدولة العثمانية ، ويسحب جنوده من بلاد الشام .

الخاتمة

وهكذا قضت معركة نزيب على قوة الدولة العثمانية الحربية وكان فيها أكبر انتصار حققه الجيش المصرى فى حروبه مع العثمانيين مما يؤكد مدى ما وصلت اليه العسكرية المصرية من تقدم فى العلوم والتكتيكات العسكرية الحديثة ، وقدرة الجندى المصرى على تحمل التدريبات الشاقة التى مكنته من تحقيق هذا النصر ، وجعلت الطريق أمامه مفتوحا إلى الآستانه مما أدى إلى قلقه التوازن الدولى والمسألة الشرقية وجعل الدول الأوربية تسرع لتلافى الكارثة فوقفت بالمرصاد أمام تطلعات محمد على وأعلنت وجوب المحافظة على كيان الدولة العثمانية المتهالك ، وانتهى الأمر بإبرام معاهدة لندن ١٨٤٠ التى تقضى بجعل حكم مصر وراثيا فى أسرة محمد على ، وإرجاع مصر إلى حدودها الأصلية ، وحرمان محمد على من السيطرة على الجزيرة العربية وسورية وكريت وإقليم أدنة .

مذكرة الدول إلى شكيب أفندى

سفير الدولة العثمانية في لندن

٣٠ يناير ١٨٤١

« إن الموقعين أدناه المفوضين من قبل دول النمسا و بريطانيا و بروسيا وروسيا تلقوا بمزيد الاعتبار ما قد حرره رشيد باشا عن الآستانة بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠ إلى شكيب أفندي سفير الدولة العثمانية في لندن لتبليغه إلى سعادة اللورد بالمرستون و إعلانه بعد ذلك إلى وكلاء الدول الموقعة على اتفاق ١٥ يوليه . ومضمون التحريرات المذكورة أن جلالة السلطان متردد في إعطاء محمد علي حكومة مصر بطريق التوارث . و بعد أن فحص الموقعون أدناه هذه المسألة بمزيد الاعتناء تقرر بالاتحاد بينهم أن يكلف شكيب أفندي بإبلاغ ملاحظاتهم الآتية إلى الباب العالي . إنهم يرون واجباً عليه التنبيه في بادىء الأمر إلى أنه في تاريخ تحريرات رشيد باشا الآنفة الذكر ما كان وكلاء الدول الأربع المذكورة باشروا بعد — باتفاقهم مع الباب العالي — المسعى الذي تقرر في لندن في ٢٥ أكتوبر . و يظهر من التقارير الأخيرة الواردة من الآستانة بتاريخ ٢٧ ديسمبر أنه في ذلك العهد لم يكن وكلاء الدول المذكورون مصممين على إعطاء الوزير العثماني النصائح التى كانوا مكلفين بإعطائه إياها . أما مقاصد الدول المتحالفة فلم تتغير في هذه الأثناء ، والدليل

على ذلك هو بعدها عن بعضها بعضاً بعداً كبيراً وأن القواعد التي اتفقت عليها لم تكن محتاجة لتجديد المخابرة بخصوصها فانها جميعها أرسلت لسفرائها في الآستانة أوامر دالة على اتفاقها . ولنفس هذه المناسبة أرسلت بريطانيا أوامرها إلى سفيرها في الآستانة بتاريخ ١٧ ديسمبر ومن شأنها تثبيت تعلياتها المؤرخة ١٥ أكتوبر وفي ٢٩ ديسمبر أرسلت دولة النمسا أوامرها القطعية بالمعنى نفسه إلى سفيرها وعقب وضع التعليمات المتفق عليها في لندن بتاريخ ١٥ أكتوبر و١٤ نوفمبر أعلن بلاط برلين الملوكي قبوله التعليمات المذكورة . وفي ٢٣ ديسمبر أرسل قيصر روسيا إلى القائم بأعمال مملكته في الآستانة أوامر محررة بذات المعنى ، هذه أمور يذكرها الموقعون على هذا ويرجون أن يكون لما أبدوه من النصائح تأثير فعال على الآراء التي أوضحها رشيد باشا يوم ٨ ديسمبر وأن تكون نتيجتها وضع حد للتردد الذي أظهره هذا الوزير فيما يجب على الباب العالي اتباعه في مستقبل الأيام . ولكن حباً في إزالة هذا التردد وعدم إضاعة الوقت استحسن الموقعون أدناه عدم انتظار ورود التقارير من الآستانة ودون أن يتوقفوا أكثر من هذا عن إعطاء ردهم على ما أعلنه شكيب أفندي رأوا أن يظهروا مرة أخرى لسفير الدولة العثمانية آراء دولهم كتابة كما أوضحوها له شفاهاً من قبل . فالدول تكلف الحضرة السلطانية أن تعامل محمد علي ليس فقط بكرم وسماحة بالغاء الأمر الذي أصدرته بخلعه بل أن تمده أيضاً بأن أولاده من صلبه يتولون من بعده باشاوية مصر الواحد بعد الآخر بطريق التوارث متى خلا هذا المنصب بسبب وفاة الباشا الذي كان يتولاه . ولم تكن الدول الأربع في نصحها هذا للباب العالي البادئة بهذه الفكرة بل إنها تذكر الحضرة السلطانية بآرائها التي أبدتها هي نفسها في بداية احتدام المسائل الشرقية تلك الآراء التي اتخذت أساساً لاتفاق ١٥ يوليه . هذا وأن الدول الأربع إنما كانت

حال إبدائها النصائح التي تكرر ذكرها في هذه اللائحة على يقين بأنها لم تشر بصلح مناف لحقوق السلطنة وساطة الحضرة السلطانية الشرعية ولا إلى طريقة مخالفة للواجبات المفروضة على والي مصر بوصف كونه أحد رعايا الدولة العثمانية انتدبته لأن يدير باسمها ولاية عثمانية . تلك حقيقة ثابتة ليس فقط بنصوص البنود ٣ و ٥ و ٦ من ملحق معاهدة ١٥ يوليه بل ثابتة أيضاً بالتعليمات التي أصدرتها الدول الأربع إلى وكلائها في الآستانة عقب مداولة يوم ١٥ أكتوبر . وقد تقرر في الفقرة الخامسة من الملحق المذكور أن كافة المعاهدات والقوانين العثمانية الحاضرة والمستقبلة يتبع الإجراء بموجبها أيضاً في ولاية مصر كما هو الحال في سائر الممالك العثمانية . ذلك شرط تعتبر الدول أن لا غنى عنه وأنه في نظرها ضربة لازب لاتصال مصر بالدولة العثمانية كأنها جزء من ممالكها . ومذكور في الفقرة السادسة أن القوات البرية والبحرية التي تتخذها ولاية مصر وهي جزء من الجيش العثماني إنما تعتبر كأنها رهن خدمة المملكة العثمانية عموماً . وفي النهاية تقرر قطعياً بموجب التعليمات المحررة بلندن في ١٥ أكتوبر التي تثبتت في لائحة ١٤ نوفمبر أنه إذا خالف محمد علي أو أحد ورثته من بعده الشروط التي كانت أساساً لتوليته مصر بطريق التوارث تصبح حينئذ توليته معرضة للالغاء . فيظن الموقعون على هذا أن تنفيذ الشروط المذكورة أعلاه فيه ما يوافق مقاصد الحضرة السلطانية ويطابق جل أماني الدول الأربع المتحالفة ويؤدي إلى الغاية المقصودة من معاهدة ١٥ يوليه أي استقرار السلام ، فتكون الدول قد حصلت بواسطة تنفيذ هذه الشروط تماماً على الأماني التي قصدتها من اهتمامها والاحتياطات التي اتخذتها وتكون الحضرة السلطانية مطمئنة في مستقبل الأيام إلى طاعة والي مصر وخضوعه لسدتها الملوكية ويصبح المصريون أيضاً في مأمن من المظالم التي ألمت بهم في هذه السنوات الأخيرة

بسبب سوء معاملة حكومتهم المحلية وأخيراً يكون محمد علي قد حصل لنفسه ولأسرته من بعده على مركز كفيل بضمان مستقبله دون أن يمس ما عليه من الواجبات للسلطنة السنية .

« و يرجو الموقعون أدناه من شكيب أفندي أن يعرض ملاحظاتهم هذه على البلاط الملوكي العثماني وأن يوصي الحكومة السلطانية بأن تعيرها مزيد الالتفات »[1]

الإمضاءات

استرهازي . بولاو . بالمرستون . برناو .

(١) « قاموس الادارة والقضاء » لفيليب جلاد بك — المجلد الخامس صحيفتا ١٤٨ و ١٤٩

فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

« إلى وزيري

« رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريباً بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في إدارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة في تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم . فتقدرون في الوقت نفسه إحساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون بحيث هذه المزايا التي امتزتم بها في أولادكم . وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبينة حدودها في الخريطة المرسلة اليكم من لدن صدرنا الأعظم ومنحناكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها : متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق أولادكم وهلم جرا . وإذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أياً كان في الولاية وإرثها ومن وقع عليه من أولادكم الاختيار لولاية مصر بالإرث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة . على أن حق التوارث المنوح لوالي مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه . وجميع أحكام خطنا الشريف الهمايوني الصادر عن كلخانة

وكافة القوانين الادارية الجاري العمل بها أو تلك التي سيجري العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الأيام بين بابنا العالي والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر أيضاً . وكل ما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجري تحصيله باسمنا الملوكي . ولكي لا يكون أهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانيــة . وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تتحصل في الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء ويؤدى إلى خزينة بابنا العالي العامرة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالي وبأثمان الغلال الملزمة مصر بتقديمها سنوياً إلى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أي من يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ . ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنه في مستقبل الأيام لتكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التي ربما تجد عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالي الوقوف على مقدار الإيرادات السنوية والطرق المستعملة في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الأحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية فينظر في ذلك فيما بعد ويجري ما يوافق إرادتنا السلطانية . ولما كان من اللازم أن يعين بابنا العالي ترتيباً لسك النقود لما في ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت إرادتي السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا

الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في ضربخانتنا العامرة بالآستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها . ويكفي أن يكون لمصر في أوقات السلم ثمانية عشر ألفاً من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالي أسوة بقوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزداد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين . على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية وهي بعد أن تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضاً في مصر بحيث ينتخب من العساكر الموجودة في الخدمة حالاً عشرون ألف رجل ليبدأوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل في مصر وترسل الألفان إلى هنا لأداء مدة خدمتهم . وحيث إن خمس العشرين ألف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة في نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل في ذلك مواجب الإنسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندي من الجنود الجديدة والأربعمائة يرسلون إلى هنا . ومن أتم مدة خدمته من الجنود المرسلة إلى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون إلى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية . ولكون مناخ مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الأقمشة المستعملة لملبوسات العساكر هنا فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضباط وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم

رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية أن تعين ضباطاً برية و بحرية حتى رتبة الملازم أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين فيها راجع لإرادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالي مصر أن ينشىء من الآن فصاعداً سفناً حربية إلا بإذننا الخصوصي . وحيث أن الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا الامتياز و إلغائه في الحال . و بناء على ذلك فقد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكي كي تقدروا أنتم وأولادكم قدر إحساننا الشاهاني فتعتنون كل الاعتناء بتنفيذ الشروط المقررة فيه وتحمون أهالي مصر من كل فعل إكراهي وتكفلون رفاهيتهم وسعادتهم مع الحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية و إخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم . » [1]

---

(١) « تقويم النيل وعصر محمد علي باشا » تأليف أمين سامي باشا الجزء الثاني ص ٥١٠

ثانيا: النصـــوص

١- قصة الحضارة The Story of Civilization للكاتب الأمريكي دل ديورانت. وهى عبارة عن موسوعة كبرى فى تاريخ العالم. وقد خصص الكاتب الأمريكي من أجلها الجزء الأكبر فى حياته، وطاف من أجلها العالم كله أكثر من مرة.

وهذه الموسوعة مكونة من ٤٢ جزءا وتم ترجمتها فى عام ١٩٤٦ بتكليف من جامعة الدول العربية، ثم قامت مكتبة الأسرة بإعادة طبعها فى الآونة الأخيرة.

العثمانيون
١٢٨٨م – ١٥١٧م

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك : « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنلندية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسيوى شرقى الأورال) من الهون ، وأن اسمهم يعنى « خوذة » وهى فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهـــذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً ؛ واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها سلجوق ؛ ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى ، وفرت عشيرة أخرى من أقرباء العشيرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل «أر» من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها سلجوق أمير قونيه بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (؟) مات أرطغرل ، فاختير ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية فى تركستان وخراسان . وفى ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا فى طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلا على ولاية صغيرة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وفى ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى ينى شير . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا فى ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال أرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرة مدن بيزنطية ناعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهى بروسه ، وأخفق أول الأمر فى الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، فى الوقت الذى كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت فى ينى شير (١٣٢٦) .

واتخذ أورخان من بروسه ، التى تقلست بر فات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة فى المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفى نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التى صارت فيما بعد أزميد ، وفى ١٣٣٠ استولى على نيقيه التى أصبحت أزنيق ، وفى ١٣٣٦ استولى على برجاموم التى أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة فى القدم والتى تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت فى المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتى كان العثمانيون قد استولوا عليها فى ذاك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلا ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البيزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص فى حرية العقيدة — وكان كثير من هؤلاء المسيحيين فى الشرق الأدنى هراطقة مرهقين .

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة . وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضى المفتوحة ، وهكذا تحل الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف عاجزة محيرة . ومذ وسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان فى بناء معاقل على أرض أوربا . وقضى أورخان نحبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكراه بين جوانح شعبه .

وكون خلفاؤه من بعده أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل ، فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولما كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة فى المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رءوس أبنائهم(٢٢) . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضى البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه فى ميدان القتال فى قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة فى ذاك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« يلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى تميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفتش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتألق غروره وكبرياؤه حتى سقوطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إنى أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنك ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنك تخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى ؛ ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتك على أن تقسم بشريعتك وعقيدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرتك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن ألزمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، واخرج إلى قتالى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك ... وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فإنى قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى »(٣٣) .

ولما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ؛

على الرغم من الرسائل المهينة التي كانا قد تبادلاها على مدى عام ؛ وأمره تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ؛ ولكن عندما حاول بايزيد الهرب ، احتجز في غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ؛ وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فدعا تيمورلنك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل السيدة دسپوانا لتسهر على رعايته ومواساته : ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية في السلطان المحطم ومات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم من أنه فقأ عيني أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب السيد المهذب ، بفضل سلوكه الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات السلم العشر التي منحها للعالم المسيحي ، وكان لمراد الثاني مثل هذه المشارب ، فآثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاحماً له ليخلعه ، ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثاني في وارنه (١٤٤٤) أنه قائد كأحسن ما يكون القواد : ثم عاد إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى : حيث عقد مرتين في كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث في العلوم والفلسفة . واقتضت ثورة في أدرنه عودته إلى أوربا . فأخمدها ، وقهر هونياد في قوصوه . وعندما مات في ١٤٥١ ، بعد أن قضى في الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون في مصاف أعظم حكام عصره ؛ وقد أمر في وصيته بأن يدفن في بروسه في مصلى متواضع غير مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ، وسقوط المطر والندى على جدثه »(٣٤) .

وتساوى محمد الثاني مع أبيه في الثقافة والفتوحات والفطنة السياسية وطول الحكم ، وليس في العدل ولا في النبل : فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم في مفاوضاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خططه فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتي عرفت لانتزعتها »(٣٥) . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع في عديد من الآداب ، بارعا في الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء في فارس والهند . وجاء بعده في المرتبة الثانية كنصير للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيده كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبو الأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت القسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان في أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذي لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها ؛ فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسي ، ولم تجد العقاقير نفعاً في تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر في عداد الأغوات . وقضى نحبه في سن الواحدة والخمسين في اللحظة التي بدا فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامي .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولي بايزيد الثاني العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدت سيطرة الأتراك على شرق البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعيه بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركي على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقد الصلح ومنحها بايزيد شروطاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يلبث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ، فإن الطباع والأشكال السائدة فى عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذى يليه ، والذى يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهفاً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذى يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدرى سليم الأول بسياسة السلم التى انتهجها والده : وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعا بالصيد والقنص وحياة المعسكر ؛ واستحق لقب « العبوس » لأنه شنق تسعة من ذوى قرباه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة إسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فقطع سليم على نفسه عهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة فى القدس ، وبودا ورومه ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس[٣٦] . وإذ أثار النعرة الدينية فى شعبه إلى حد القتال ، فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفى ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى المماليك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) ، وحمل من القاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دينى عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) .

وفى أوج مجد قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحى ؛ فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فقضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقاً لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

قصة الحضارة

تأليف

ول ديورانت

الجزء الخامس من المجلد السادس ٢٦

٨ – الحضارة العثمانية

أولا – الحكومة :

هل كان العثمانيون متحضرين ؟ الحق أن الانطباع بأن العثمانيين كانوا متبربرين همجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهماً قصد به تقربة الذات . فإن أساليبهم فى الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب . فالأرض كان يفلحها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين كان عليهم فى كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان بطريقة مرضية ، فى الإدارة وفى الحرب . وباستثناء النسيج والخزف ، وربما الأسلحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ، كما كان الحال فى فلورنسه وفى فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا مشهورين بمنتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظراؤهم فى أوربا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً . وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجلد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخلت مصر وسوريا وفارس والبندقية طور اضمحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية والدراويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبذ فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى ، وكان العلماء الذين فسروا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجموعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

خاص فى البلاد بعد السلطان والوزير الاكبر . ولما كان الموت حتما مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية فى الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضى ، فقد [تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا فى ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أنه حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شىء فى هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تذمر أو شكوى . وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن فى تركيا الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود فى ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم فى الأمور التى لا يكون المسلمون طرفاً فيها(٢٧) . واحتضن محمد الثانى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك فى مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا فى حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان فى مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول فى الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت فى ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية . وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

نزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية فى خدمة السلطان ه

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعى ومعه قواته المجندة ليشكلوا فوق الخيالة الذين بلغ عددهم فى عهد سليمان ١٣٠٫٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المقصب) أو الحرير ذى اللون القرمزى أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التى تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياد رأتها عينا بوسبك Busbeq وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعى الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان فى قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شىء فى الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد ، وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفذة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذى يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً — نحو عشرين ألفاً فى عهد سليمان ، وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرماً عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقنون الروح العسكرية والمجد الحربى والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً فى الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميلشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهى والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضلة لا تزال هى القوس والنشاب والرماح ، وكانت الأسلحة النارية فى بداية استعمالها ، وفى الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هى المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما فى العالم من نوعهما فى ذلك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ، أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . ومهما يكن من أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لزاماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب ، وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شىء — سادة على السلاطين .

وكان المجندون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكلون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحبون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر برج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على النقيض من ذلك ، فإن سليمان آثر هؤلاء المتحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر[٢٨] ، ولو كانت عرضة للرشوة بشكل يسىء إلى سمعتها ، وضم الديوان — وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية — كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة ، وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان ، وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام[٢٩] ؛ كما اعتقد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوربا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أندر»(٣٠) . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة فى شوارع القسطنطينية التى يحتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى(٣١) . وفضلت الأقاليم التى وقعت تحت الحكم الإسلامى – رودس ، اليونان ، البلقان – فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة فى ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج(٣٢) .

وكانت معظم مكاتب الإدارة فى الحكومة المركزية مستقرة فى « السراى » أى المساكن الإمبراطورية – وهى ليست قصراً ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحريمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذى يبلغ محيطه ثلاثة أميال باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالى » ، وهو اصطلاح حدث فى شيء من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء فى المقام الثانى بعد السلطان فى هذا التنظيم المركزى الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسى ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية فى أكثر الحكومات الأوربية ولعاً بالرسميات ، وأما أشق التزامات الوزير فهى إرضاء السلطان فى كل هذه الأمور ، حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم ، وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكلمة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصيرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاماً كبيراً فى نجاحه ، وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانياً أسره قراصنة المسلمين وأحضروه إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الصلاحيات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بحديثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغي أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذي ينثر اللآلئ»(٣٣) . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى في أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم – تلك هي أن يخفي زهوه الداخلي بتواضع خارجي أو ظاهري . لقد كان لديه كثير من الأسباب التي تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذي سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذي أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى المجر ، بإصلاح المساوئ ومعاملة الجميع بالعدل والكياسة ؛ وكذلك كان له العذر في أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصلت على رقبته ؛ وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع في هذا السلب أن ينقذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره في القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثرثرة الناس بامتهان القرآن ؛ وأقام في بعض الأحيان حفلات تفوق في نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتاظت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ، ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفى ٣١ مارس ١٥٣٦ ، وجد إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكى : وهذا عمل ينافس فى وحشيته إحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطوريين . وقد عبر عنه محمد الثانى صراحة فى سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش ، يكون لهم الحق إعدام إخوتهم تأميناً للسلام فى الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا »[٢٤] . وبهذا حكم محمد الفاتح ، فى هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثمانى ، وهى أن تؤول ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذى كان لذلك دائماً ، تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء : وعلى النقيض من مثل هذه المساوئ فى الحكم الفردى المطلق ، يمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة فى الحكومة العثمانية ، تلك هى أن الطريق إلى للرفعة والمكانة العالية ، فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام ومهما يكن من شىء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة الأرستقراطية وراثية حيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا المستوى العالى من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال فى العرش العثمانى .

٢-قيام الدولة العثمانية لمحمد فؤاد كوبريلى:

يمثل هذا الكتاب خلاصة جهد علمى ضخم قام به المؤرخ التركى محمد فؤاد كوبريلى صاحب العديد من المؤلفات عن التاريخ العثمانى. وقد ناقش هذا الكتاب الآراء والأقوال التى قيلت فى قيام الدولة العثمانية وربط بين نشأة هذه الدولة وظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى منطقة الاناضول إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين كما أوضح الدور الذى لعبته الدولة العثمانية فى حياة أوربا والشرق العربى.

وقد ترجم هذا الكتاب من التركية إلى العربية الدكتور أحمد السعيد أستاذ اللغة التركية وعضو مجمع اللغة العربية.

فى القرن الثالث عشر انهارت دولة سلاجقة الروم أمام زحف الغزاة من مغول ايران •

فكيف قام فى القرن التالى تنظيم سياسى جديد فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول على حدود البيزنطية السلجوقية ؟ •

وكيف تحول هذا التنظيم فى أقل من مائة عام الى دولة قوية تحكم البلقان وجزءا كبيرا من أناضول السلاجقة ؟ اننا نستطيع بالنظر الى النتائج الخطيرة والمستمرة التى تمخض عنها هذا الحادث التاريخى أن نعتبر ظهور الدولة العثمانية مشكلة من مشكلات تاريخ العصور الوسطى •

ولكن هذه المشكلة لم توضح التوضيح الذى تستحق ، فهى لا تزال حتى الآن معمى يحول دون الكشف عنه ركام من الأساطير خلفه لنا أصحاب الحوليات فى العصور الوسطى، حتى اذا كانت سنة ١٩١٦ وأصدر Gibbons كتابه عن تأسيس الامبراطورية العثمانية :

The Foundation of the Ottoman Empire.

صار موضوع تأسيس الدولة العثمانية مثار جدل ومناقشات بين المستشرقين :

فأما Clement Haurt فخص كتاب Gibbons بمقالتين (١) احداهما فى Journal des Savants والأخرى فى Journal asiatique ومع انه يتحرز فى هاتين المقالتين من قبول بعض التفصيلات ، فانه يقبل النتائج التى توصل اليها Gibbons فى جملتها ، ويقرر أننا قد تخلصنا بفضل هذا الكتاب من الأساطير الساذجة التى تغص بها أصول التاريخ العثمانى •

وأما عالم التركيات الألمانى F. Giese ، فمع أنه يحاول فى مقال له عن كتاب Gibbons أن ينقد نظريته

(١) J. A. serie II, Vol. IX (1917) p. 345-350, Journal des Savants (avril 1917), p. 157-166.

فى قيام الدولة العثمانية من أساسها وأن يعرض من عنـده بعض وجهات النظر الجديدة فانه يقبل بعض النتائج التى توصل اليها Gibbons (٢) ·

وقد عنى أيضا بهذه المشكلة بعض العناية كل من : R. P. Blake, (٣) و W. L. Langer, و R. Tshudi. (٤) و (٥) J. H. Kramers محرر مادة « عثمانلى » فى دائرة المعارف الاسلامية ·

وظهرت عدا ذلك ـ أعمال أخرى تعالج نقاطا مختلفة تتصل بهذه المشكلة من بعيد أو من قريب ولكنها ـ خلا منها كتاب جيبونز ـ ظلت محصـورة داخـل دوائر المستشرقين الضيقة ومجهولة بالنسبة للبيئات التاريخية بالمعنى الواسع ·

ومهما يكن من أمر فلابد أن نعترف بأن النتائج التى حصلنا عليها ليست كافية لا كيفا ولا كما ، وبأننا لا نزال بعيدين عن أن نكون قد حللنـا لغز تأسيس الامبراطورية العثمانية أو حتى أن نكون قد وضحناه بعض الشيء ·

ومن هنا كان حرصنا على أن نختار هذه المشكلة الهامة بقدر ما هى مجهولة لتكون موضوعا للمحاضرة ·

ولنبدأ أولا بتلخيص الآراء السائدة فى هذه المشـكلة ولننقدها ، ولنبحث بعد ذلك فى أى المناهج يجب أن نتبع لكى نستطيع القاء الضوء على هـذه المشـكلة ، فى حـدود الامكانيات التى تمدنا بها المصادر الموجودة فعلا بين أيدينا ·

فاذا فرغنا من هذا فلنعرض النتائج التى توصلنا اليها بهذا المنهج فى خطوطها الرئيسية ودون ايغال فى التفصيلات الفرعية ، ولنعرض أيضا المشكلات التى لم تتناول بالبحث حتى الآن مع أن المنهج يتقاضانا أن ندرسها ·

---

(٢) Problem der Entstehung des osmaniscden Reiches (Zeitschrift für semitistik, Band II, Heft 2 (1928), S. 246-271,

(٣) Vom alten Osmanischen Reich, Tubingen, 1930.

(٤) The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background (The American Historical Review, Vol. xxxvii, No 3, April 1932 ? P. 468-505.

(٥) Encyclopédie de l'Islam Art Turque IV Histoire 1923.

١ ــ نظرية جيبونز
عرض ونقد

الآراء السائدة الآن فى موضوع نشوء الدولة العثمانية هى آراء جيبونز ، فهى سائدة بين علماء التركيات وفى دوائر المؤرخين بالمعنى الواسع ، ومازال ينظر الى هذا المؤلف حتى فى آكثر كتب التاريخ جدية كتلك التى تنشر منذ الحرب العالمية الأولى (فى فرنسا مثلا) على أنه مصدر أساسى فى بابه ٠

والحق أن جيبونز حرر كتابه بعناية ، ودرس بعض النقاط التفصيلية المتعلقة بالتاريخ السياسى والعسكرى بدقة لا نجدها عند من سبقه من المؤرخين وعلل لبعض المسائل الأساسية تعليلات مضبوطة ، ومن أمثلة ذلك قوله ان الامبراطورية العثمانية لم تستطع توسيع ممتلكاتها فى الأناضول الا بعد غزو شبه جزيرة البلقان ، وقوله أيضا أن فتح العثمانيين للبلقان لم يكن غزوا يقصد فقط الى التدمير والسلب ولكن كان عملية توطين تنفذ طبقا لخطة ٠٠ ومع هذا فان نظرية جيبونز الأساسية تبدو لنا واهية الأساس ٠

ولنلخصها أولا لبيان ذلك :

(أ) كان ارطغرل أبو عثمان الذى نسبت اليه الامبراطورية رئيس قبيلة صغيرة وفدت على الأناضول فى عهد السلطان السلجوقى علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيز خان واستقرت فى سكود فى شمال غرب الأناضول ٠

(ب) وكان عثمان وقبيلته أتراكا كفارا يزاولون الرعى ، فلما عاشوا فى بيئة اسلامية دخلوا فى الاسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة ، وأثار فيهم هذا الدين

الجديد رغبة فى ادخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم فى صداقة على الدخول أيضا فى حوزة الاسلام ، ولم يكن تحت امرة عثمان قبل دخوله فى الاسلام الا أربعمائة محارب يقيمون فى دورهم ويزاولون حياة فارغة وادعة ٠

ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن تضاعف بين سنتى ١٢٩٠ و ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى لاصقت حدود البيزنطيين وأدى ذلك الى ظهور جنس Race جديد انتسب الى رئيسه وذلك هو الجنس العثمانى ، ولم يكن هذا الجنس تركيا خالصا منذ بداية أمره ولكنه كان جنسا جديدا مختلطا ناشئا عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون ٠

(جـ) وزاد جمهور العثمانيين بنسبة عظيمة فى وقت قصير ، ومن الخطأ أن يعلل ذلك بالامدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق لأن أراضى العثمانيين كانت تقع فى أقصى غرب الأناضول ، وكان لابد للكتل البشرية لكى تبلغ ذلك المكان أن تلتحق أولا بخدمة حكام آخرين فى شرق الأناضول وأن تأخذ منهم أراضى ، ومن هنا لا يمكن شرح هذه الزيادة الا بذوبان العنصر المحلى المكون كله من الاغريق ٠

(د) ولا يمكن أيضا أن تعلل سرعة تأصل الامبراطورية العثمانية فى البلقان بهذه الأسباب المذكورة وحدها فقد ساعد أيضا على ذلك التأصل الموقف فى بيزنطة وفى البلقان وفى العالم الغربى ٠

والى جانب هذه العوامل الخارجية يجب أن نذكر أيضا قوة شخصية السلاطين العثمانيين الأوائل ٠

ولما كان نصارى البلقان الذين دخلوا فى حوزة الحكم العثمانى لم يعيشوا مثل نصارى الأناضول قرونا طويلة فى جوار المسلمين فقد ابتدعت فى عهد مراد الأول طرق جديدة

لادخالهم فى الاسلام ، ومن هذه الطرق أن أسرى الحرب كانوا يعتقون من الرق اذا هم دخلوا فى الاسلام .

ولكن لما كانت هذه الطريقة لا تطبق الا فى دائرة محدودة فقد كانت نتائجها أيضا محدودة وظهرت الضرورة لتأسيس الجيش الانكشارى (الذى يتكون من أبناء النصارى)، ولوضع نظام الدوشيرمة الذى يدخلهم كرها فى الاسلام، وقد كانت العناصر الاغريقية والصقلية فى البلقان تفضل أن تدخل فى الاسلام أفواجا على أن تسلم أبناءها للعثمانيين .

فان أدخلنا فى اعتبارنا أن الجيش الانكشارى لم يكن له حتى فى القرن الخامس عشر — أهمية عددية ، ولم يكن يكون العنصر الأساسى فى الجيش رجحنا انه لم يكن تشكيلا يراد به تقوية الجيش وأنه انما كان — ببساطة — وسيلة لنشر الاسلام .

هذه هى الأفكار الرئيسية التى يدافع عنها كتاب جيبونز، والملاحظ أنه يحاول جاهدا أن يرجع قيام الدولة العثمانية الى سبب دينى خالص ، وانه يعتقد أن الدخول فى الدين الجديد أظهر جنسا جديدا هو الجنس العثمانى .

ويجب أن نلاحظ قبل الشروع فى نقد هذه الأدلة أن ارجاع واقعة تاريخية لها هذه الخطورة الى العامل الدينى وحده انما هو تعليل من جهة واحدة وانه — حتى اذا احتوى على حقيقة جزئية — قاصر دائما وغير مقنع أمام تعقد الحقيقة التاريخية .. وعدا ذلك فان استعمال المؤلف دائما لكلمة جنس فى مكان كلمة شعب وبالعكس سبب كثيرا من اللبس . ومع هذا فانه اذا كانت الامبراطورية العثمانية وهى حقيقة تاريخية قد وجدت ، فلم يوجد أبدا جنس عثمانى ولا حتى شعب عثمانى .

وأما ما يدعى جيبونز من أن بالمصادر العثمانية من الحجج ما يدل على أن عبارتى (عثمانى) و (تركى) كانتا علمين على شعبين أو على جنسين متميزين فان مرد هذا

الادعاء الذى يحاول جيبونز أن يؤيد به جزءا أساسيا من نظريته هو سوء الفهم للمصادر العثمانية ، وذلك أن كلمه (عثمانى) وهى اصطلاح سياسى لا اتنوغرافى كانت تطلق دائما عند كتاب التاريخ القدماء على طبقة رجال الحكومة والادارة التى تعيش فى خدمة الدولة وتتقاضى منها الأجر .

ولما كنا سنرجع الى هذه المسألة فيما بعد فلندرس الآن على أى الحجج تعتمد دعوى جيبونز أن عثمان وقبيلته لم يكونوا فى أول الأمر مسلمين .

لم يدلل جيبونز على هذه الدعوى التى كان يشاركه فيها : Noldeke (٦) و Rambaud (٧) قديما ثم Babinger (٨) و Grousset (٩) حديثا بأى دليل معقول .

وليس من البرهان فى شىء أن يقرر — اعتمادا على شواهد اتنوغرافية متأخرة ومشكوك فى صحتها — أن قبائل تركمانية ليس لها من الاسلام الا الاسم كانت تعيش فى شمال سوريا وأن هذه القبائل — فى قول مدونى التاريخ — كانت لها قرابة بقبيلة عثمان .

لقد كان أقوى ما استند اليه جيبونز فى تقرير هذه الدعوى أسطورتين وردتان فى الحوليات العثمانية القديمة لأن جيبونز يرى من الجائز اذا أعوزتنا المصادر التاريخية فى دراسة فترة ما أن نرجع بحيطة — الى مثل هذه الأساطير لما تعكس من الواقع التاريخى الذى حرفه الخيال الشعبى .

وترد هاتان الأسطورتان بروايات مختلفة : ففى بعضها يذكر أرطغرل أبو عثمان بدلا من ابنه . ويمكن رد هاتين الأسطورتين الى أبسط صورهما على هذا النحو :

---

(٦) Zeitschrift der Deutschen Morgonlàndischen Gesellschafl, Band XIII.

(٧) Lavisse et Rambaud, Histoire générale, Vol. III, p. 822 — 824.

(٨) Der Is'am in Kleinasien, Zeits. Deutsch. Morg. gesellchaft Band 76 (1922), S. 132.

(٩) His:oire de l'lsie Vol. I, 1922, p. 274.

(أ) قضى عثمان ليلة فى دار أحد الزهاد المسلمين وقبل أن ينام جاء صاحب البيت بكتاب فوضعه على رف ، فسأله عثمان : ما هذا الكتاب ؟ فأجاب انه القرآن الكريم ثم أجابه حين سأله عن محتواه بأنه كلمة الله أنزلت للناس بطريق النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمل عثمان الكتاب وأخذ يقرأ واقفا حتى الصباح ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكا يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم لقاء احترامه القرآن .

(ب) طلب عثمان الى الشيخ أده بالى أن يزوجه ابنته فرفض الشيخ طوال عامين وفى احدى الليالى رأى عثمان وهو نائم فى بيت الشيخ كأن قمرا يخرج من صدر أده بالى ويقع فى صدره هو ثم تخرج من سرته شجرة يغطى ظلها الارض كلها وأول أده بالى الرؤيا بأن أسرة عثمان ستحكم العالم وزوجه ابنته .

وانه لمن مجانبة الحيطة كما يقول Giese فى نقده لجيبونز أن نستنبط من هذه الأساطير أن عثمان دخل فى الاسلام فى ذلك الوقت ، وقصارى ما يمكن استنباطه هو أنها محاولة لدعم مشروعية حكم العثمانيين على سائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل الهى .

ومع أن ملاحظة جيزة هذه من الحق بحيث لا تناقش فانى أرجو أن أزيد المسألة تعميقا وأن أبين ـ بالمناسبة ـ الى أى مدى يمكن أن نخطىء الاستنباط اذا نحن أغفلنا النقد الداخلى للحوليات القديمة ولا أظننا نستغنى ـ ونحن بصدد الكشف عن طبيعة هذا الموضوع الذى هو نقطة البداية لآراء جيبونز ـ عن هذا الاستطراد بل انى مبين فيه أيضا أنواع الحيطة التى يجب التزامها عند استعمال المعلومات التى توردها الحوليات العثمانية بخصوص هذه العهود المتقدمة .

نقرأ فى « طبقات ناصرى » للجرجانى وهو من مؤرخى القرن الثانى عشر رواية شبيهة تماما بهذه الأسطورة :

قبل آن يولد فاتح الهند محمود الغزنوى بساعة واحدة رأى أبوه سووك تكين فيما يرى النائم كأن فى بيته شجرة تخرج من موقد نار وتظلل الأرض كلها ، وأنبأه مفسر الرؤى بأن ابنه سيكون غازيا (١٠) ٠

ويعطينا رشيد الدين الذى حرر وهو فى بلاط الايلخانيين فى القرن الرابع عشر أول تاريخ عالمى وهو كتابه جامع التواريخ (وذلك فى الجزء الخاص بتقاليد الغز) وجها آخر لأسطورة الشجرة ترى فى الحلم ، والأسطورة فى هذا المقام خاصة بحاكم من حكام الغز الأسطوريين يقال له طغرل وبأخوين له ، فقد رأى أبوهم قبل أن يؤسس هؤلاء الثلاثة دولتهم كأن ثلاثة جذوع تخرج من سرته ثم تأخذ فى التعاظم بغير حد حتى تظلل كل الأرض وتصبح فروعها فى السماء وسأل ساحر القبيلة عن تأويل رؤياه فأنبأه ـ وكان قد أعلن من قبل أن سيخرج من القبيلة حاكم ـ بأن أولاده سيكونون ملوكا وأمره ألا يقص رؤياه على أحد (١١) ٠

وأما موضوع عظمة الأمر جزاء احترام القرآن واخبار الملك أو النبى بذلك فى الحلم فقد ورد نظيره فى كتاب من الكتب المعنونة بـ (سلجوقنامه) صنف فى القرن الرابع عشر أى قبل أن تصنف حوليات العثمانيين ٠

دخل لقمان جد السلاجقة غرفته ليلة زواجه وكانت العادة فى ذلك الوقت أن يكون فى الجهاز سبعة مصاحف ، وبصر لقمان بالمصاحف السبعة موضوعة فوق الكراسى الخاصة بها ، فهاله ـ من تقديسه القرآن ـ أن يقضى تلك الليلة فى نفس الحجرة ، وقيل له ان المصاحف يمكن ان تنقل ولكنه رفض أيضا وصحب امرأته الى مكان آخر ٠

وفى نفس الليلة رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى

---

(١٠) The Tabaqat-i Nashiri Khalkutta, 1864, p. 9.

(١١) فى عدد من مخطوطات رشيد فى الجزء الخاص بتقاليد الأتراك الغز ٠

المنام ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم ولأولاده بالسعادة الأبدية لقاء احترامه القرآن (١٢) ٠

وكثيرا ما تصادفنا رؤى من هذا القبيل فى حوليات التاريخين القديم والوسيط ابتداء من هيرودوت ولكنا نرى أن الأحلام التى ذكرنا هى المثل الأولى لحلم عثمان ٠

وأما الرواية الغزية التى أوردها رشيد الدين فاحد احتمالين اما أن تكون رواية شفوية كانت جارية على ألسنة أتراك الأناضول فتلقفها أصحاب الحوليات العثمانيون واما انها اقتبست ـ وهذا هو الأرجح ـ من كتاب رشيد الدين الذى كانت له منزلة خاصة فى البلاط العثمانى فى القرن الرابع عشر ثم أسندت بعد ذلك الى الأسرة العثمانية ٠

وعندما نعرض للوضع الدينى فى الأناضول وفى القبائل التركمانية فى القرن الرابع عشر فسنبين فى وضوح أكثر أن Gibbons قد بدأ من نقطة ضعيفة ونستطيع بهذه المناسبة أن ننبه الى أن الحوليات العثمانية القديمة تضم أساطير من نفس النوع وان كانتلها موضوعات أخرى ، ومن ذلك ما يرد فى طيات قصة فتح (بيله جك) من أن رجالا أدخلوا القلعة متخفين فى بعض الأمتعة ٠

ونجد وجوها أخرى لهذا الموضوع فى القصص الاسلامية الخاصة بفتح سمرقند (١٣) وفى كتاب طبقات (١٤) ناصرى وفى الملحمة الأناضولية الخاصة (١٥) بدانشمند غازى وهو من أشهر غزاة اسيا الصغرى، وفى ظفر نامه(١٦)

---

(١٢) المكتبة الأهلية بباريس ملحق المخطوطات الفارسية Nom. 1559.

(١٣) باقى : فضائل الجهاد مخطوطة تركية من القرن الخامس عشر وتوجد نسخ منها فى كثير من المكتبات ٠

(١٤) انظر النص الفارسى ص (٩٥) ٠

(١٥) انظر كتابنا « تورك أدبياتى تاريخى استانبول ١٩٢٨ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ ٠

(١٦) انظر النص الفارسى كلكتا ١٨٨٦ ـ المجلد الثامن ص ٢٣٩ ٠ (Bibliothec, Indica).

لشرف الدين الذى يتناول مناقب تيمورلنك ثم نجدها أخيرا فى رحلة اوليا جلبى (١٧) ٠

ولقد قرر جيبونز تأييدا لرأيه أنه لا يوجد مصدر تاريخى واحد يذكر أن قبيلة عثمان أو أى قبيلة من القبائل التى وفدت على الأناضول فرارا من زحف جنكيز كانت على دين الاسلام ، أى أنه مع تسليمه بأن الأتراك السلاجقة الذين توطنوا الأناضول بعد معركة ملاذكرد كانوا مسلمين تماما ، ويرى أن القبائل التى فرت أمام غزو جنكيز وظهرت أمام حدود الأناضول فى القرن الثالث عشر لم تدخل فى نطاق التأثير الاسلامى القوى رغم انها عاشت أجيالا كثيرة على الحدود الايرانية ، ويرى أن قبيلة عثمان الصغيرة ـ مثلها كمثل هذه القبائل ـ لم تترك الوثنية الى الاسلام الا بعد أن استقرت بين الأتراك المسلمين فى غرب الأناضول ٠

الحق أن جيبونز لم يكن واقفا على الأحوال الدينية فى الأناضول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر فترتب على ذلك أن كانت آراؤه فى هذا الموضوع متهافتة فى كثير من وجهات النظر تهافت آرائه المعتمدة على أسطورة حلم عثمان المذكورة آنفا ، وبالاضافة الى ذلك فان جيبونز ـ لخلو ذهنه من أى فكرة عن التنظيم الاتنوغرافى للترك وعن ظروف توطنهم فى الأناضول ـ لم يخطر بباله أن عبارة (سلاجقة) مثلها كمثل عبارة (عثمانيون) علم سياسى لا اتنوغرافى ، وانها مشتقة من اسم مؤسس الأسرة ٠

ولكن لجيبونز فى هذا المقام خطأ أكبر يجب أن نشير اليه فقد زعم أن القبيلة التى ينتمى اليها عثمان هى احدى القبائل الفارة أمام غزو جنكيز خان ، جاءت لتستقر فى الأناضول ، ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا الزعم كأنه حقيقة انعقد عليها الاجماع ، ونقرر أن المعلومات الخاصة بهذا

---

(١٧) سياحتنا من المجلد الثامن ص ٢٠٩ وللاطلاع على وجوه أخرى انظر :
J. G. (Frazer) le Romeu d'or Paris 1924. p. 267.

الموضوع والواردة فى كتب الحوليات العثمانية التى ترجع الى أواخر القرن الرابع عشر غير جديرة بالثقة ، وأن جيبونز عجز ـ لأنه ليس من أصحاب الدراسات التركية ـ عن ان يقوم هذه المصادر كما ينبغى .

واذا كانت المصادر الخاصة بالعصر السلجوقى خالية تماما مما يثبت وجود هجرة فى ذلك الوقت نحو الحدود الغربية للامبراطورية السلجوقية فاننا مضطرون ـ استنادا الى المعلومات التى بين أيدينا اليوم ـ أن نرجح ـ كما سنبين فيما بعد ـ أن قبيلة عثمان كانت من القبائل التى وفدت على الأناضول بعد فتحه على يد السلاجقة أول مرة .

وقد استقر الخطأ منذ قرون فى الحوليات العثمانية القديمة وفى الكتب الأوربية المعتمدة على هذه الحوليات فتلقاه المؤلفون جميعا الشرقيون منهم والغربيون ممن تناولوا تاريخ العثمانيين بعد Hammer كأنه حقيقة . وربما كان من الاجحاف أن نحمل جيبونز مسئولية هذا الخطأ فلم يكن خطؤه الا أنه قبل الأسطورة التى صنعتها عقلية كتاب التاريخ فى العصور الوسطى دون احساس بالحاجة الى نقدها .

ومع هذا فان هذا الخطأ الأول لجيبونز لا يقاس بخطأ له ثان سندقق فيه النظر الآن :

لقد فرض جيبونز أن الامبراطورية العثمانية خرجت من قبيلة بدوية أو شبه بدوية تضم فى جملتها أربعمائة خيمة وشرح تطور الحوادث بعد ذلك على أساس أن هذه النقطة قد فرغ منها ، والواقع أن هذه الطريقة من طرق النظر مازالت تتناقل ابتداء من أصحاب الحوليات العثمانية القدماء الى جيبونز بل الى ما بعده دون أن تكون موضع نقد ولم يتخل عنها المؤرخون الغربيون ولا الشرقيون لأنهم اغتروا ببساطتها .

ولقد كان كتاب الحوليات فى العصور الوسطى يعللون هذا الحادث الخارق وهو قيام الدولة العثمانيـة بعلل غـير طبيعية تلائم أذهانهم اللاهوتية كالذى رأينـا من أسـطورة الحلم ولكن منطق القرن العشرين لا يقنع بهـذا النوع من التعليلات حتى ولو أمكن ـ بشىء من التأويل ـ أن نصبغه بصبغة واقعيـة • نعم ، لقد كان جيبونز شـديد الايمـان بالرواية القائلة إن الدولة العثمانية نشأت فى جماعة من أربعمائة خيمة ولـكن ألم يكن من الترك الوافدين عـلى الأناضول قبل قبيلة عثمان أو معها فى وقت واحد من التحق بالعثمانيين ؟ وهل كان بطن صغير كذلك الذى ينتمى اليـه عثمان يقوى بامكانياته وحده عـلى ايجـاد تنظيم يستطيع عثمان أن يطاول به بيزنطه وأن يحكم به ـ فى زمن قصير ـ بلاد البلقان •

ان جيبونز يجيب عن هذين السؤالين البسيطين دون أن يبذل جهـدا أى جهـد ودون أن يرجع الى أى وثيقة أو ان يأخذ فى اعتباره ظـروف الأناضـول التاريخيـة فى تلك الحقبة •

لقد وضع مقدمات باطلة فاستنبط منها نتائج خاطئة وهذا هو يقول :

انه قبل انتهاء عهـد أورخان كانت كتلة المغـامرين الآسيويين التى تجمعت من قبل حول عثمان قد زادت حتى بلغت نصف مليون ولم يكن من المعقول أن تكون هذه الزيادة طبيعية ، كما لم يكن من المعقول أن تكون نتيجة امدادات من البدو الوافدين من الشرق لأن الاتصـالات كانت منبتة بين أورخان وبين الأراضى الآسـيوية الداخليـة ، ولقـد كان منافسوه أى بكوات الاناضول الآخرون لا يتوانون عن اغراء هؤلاء المغامرين قبل وصولهم الى أورخان ، ومن هنـا فقد كـون أورخان شـعبه من العنـاصر المحليـة وأغلبهـا من الاغريق » •

وبعد أن قرر مؤلفنا أن هذه العناصر كونت ـ بدخولها

فى الاسلام — الجنس العثمانى ، أضاف أن العناصر اللازمة لتنظيم الدولة كانت موجودة بين الاغريق الذين هم أقدر من الأتراك البدو على مثل هذه المهمة •

هذا هـو رد جيبونز عـلى السؤالين اللذين طرحناهما وهو رد يلائم الرأى الذى كان سائدا بين المؤرخين الغربيين من قبله ، والذى مازال ينظـر اليـــه حتى الآن كأنه من المسلمات (١٨) •

ولكن سيتضح فيما بعد أن هذه السلـلة من التعليلات ليست الا أوهاما وأحكاما ارتجالية لا تمت للحقيقة التاريخية بصلة ، فقد كان المسيحيون الداخلون فى الاسلام من أمثال أسرة كوسه ميخال نادرين جدا بين رجالات الامبراطـورية العثمانية فى القرن الرابع عشر بل وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر •

وكما كانت البيروقراطية التى تستـمد أصـولها من التقاليد السلجوقية والايلخانية مكونة كلها من عناصر تركية فكذلك ، وكما يستدل من الوثائق التى بين أيدينا على نحو قاطع — كان كبار رجال الادارة وقادة الجيش يكادون أن يكونوا جميعا من الترك • ولم يكن ما اعتـور هذه الارستقراطية التركيـة القابضـــة عـلى مقـاود الادارة فى الدولة من قلة العـدد وضـعف النفـوذ ، ثم ما تلى ذلك من احـــلال أولاد الدوشيرمة محلهم فى المناصب لم يكن ذلك سابقا عـلى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ولقد كانت هـذه الاستعانة ضرورة فرضت نفســها عـلى كل الامبراطوريات ذات الحكم المطلق المكونة من عناصر غير متجانسة ، وكانت لها أسبابها الخاصة ، ومن العبث أن نعـزوها الى « عجـز الأتراك البدو عن أن ينظموا دولة » •

واذا سلمنا بما يقال من أن قبيلة عثمان كانت لا تزال

---

(١٨) نكتفى هنا بمثال واحد انظر
Ch. Diehl Byzance. grandeur et Décadence, Paris, 1919, p. 325—326.

بدوية أو شبه بدوية فى بداية القرن الرابع عشر ، وفى أوائل أيام الدولة العثمانية ، فلا شك مطلقا فى أن الحياة فى المدن كانت متطورة فى ذلك الوقت بدرجة كافية عند أتراك الأناضول ، ولا شك أيضا فى أن العثمانيين كانوا يجدون كل العناصر اللازمة لادارة الدولة بين من كونتهم الأنظمة الادارية فى الدولتين السلجوقية والايلخانية وفيمن تمرسوا بالادارة فى امارات الأناضول التى أسست قبل القرن الخامس عشر بل فى من خرجتهم الأجهزة الادارية فى الامبراطورية المملوكية فى مصر وسوريا ، وان فى وسعنا أن نقرر — على العكس تماما مما يقول جيبونز — ان مناطق الحدود — وفيها ظهرت دولة العثمانيين — كانت كفيلة بجذب جماعات المهاجرين لا من البدو فقط ولكن من أهل الحضر أيضا ومن كل أنحاء الأناضول ٠

ولسنا نريد ونحن نقرر هذا أن ننكر أن التبشير الاسلامى قد نشط بين العناصر المسيحية المحلية فى بلاد العثمانيين ولكننا لا نقبل القول بأن دخول هذه العناصر فى الاسلام وخاصة فى القرن الرابع عشر — كان من السعة بالدرجة التى يزعمها جيبونز ٠٠ السعة الكفيلة بأن تخلق جنسا أو شعبا جديدا كل الجدة مغايرا للترك ويعتبر — فى نفس الوقت — النواة الأولى لامبراطورية كبيرة ٠

وأما قول جيبونز ان الامبراطورية العثمانية وضعت نظام الدوشيرمة خصيصا لنشر الاسلام فى البلقان فقول فردى متعسف لا يتفق مع الوقائع التاريخية ٠

ومع أن جيزه Giese لم يأت فى حديثه عن تهافت نظرية جيبونز ببرهان قاطع ولا بدليل مقنع فانه بسط المسألة ووضعها واضحة بين أيدى الباحثين ، وعنده ان طائفة الاخيان التى تحدث ابن بطوطة عن أهميتها الاجتماعية فى الأناضول فى القرن الرابع عشر لعبت الدور الأهم فى تأسيس الدولة العثمانية وأن الشيخ أده بالى ، حما عثمان،

وكثيرا من رفاق عثمان فى ميدان الحرب ، وأخاه علاء الدين باشا نفسه كانوا جميعا من هذه الطائفة ·

ويرى جيزه أيضا أن العثمانيين الأولين قد استعانوا بهذه الطائفة الدينية على تأسيس الامبراطورية ، ولما أسسوا أول تنظيماتهم العسكرية وهو جيش المشاة المعروف بـ (يا يا Ya Ya) · ألبسوه زى الآخيان ، ولما أسس الفيلق الانكشارى فى عهد مراد الأول احتفظوا له بغطاء الرأس الذى يستعمله الآخيان ·

ولقد كان Clement Haurt على حق حين دعا — من Giese — الى ألا نغفل أدوار الطوائف الدينية المختلفة وطائفة الآخيان بخاصة فى تأسيس الامبراطورية العثمانية، ولقد أبرزت أنا — وقبل جيزه أيضا — أدوار الطوائف الدينية ودور البكتاشية فى تأسيس الجيش الانكشارى ، وذلك عندما تناولت الأوضاع الدينية فى الأناضول ابان تأسيس الامبراطورية العثمانية ، فى سلسلة من المقالات نشرتها سنة ١٩٢٢ بعنوان «الاسلام فى الأناضول»(١٩) ·

ومع أننى لا أستطيع أن أشارك جيزه آراءه ، وسبق أن بينت رأيى فيها (٢٠) فلابد من الاقرار بأن هذا العالم الألمانى قد أسهم فى توجيه المشكلة توجيها جديدا بتصحيحه أخطاء جيبونز وبابرازه دور الآخيان فى تأسيس الدولة العثمانية ، يقول جيبونز : يجب أن نطرح من الآن الفكرة الخاطئة القائلة بأن عثمان بمفرده ، وبقبيلة تركمانية من أربعمائة خيمة قد ألقى أساس الدولة العثمانية ·

ان الأسئلة والحق يقال مازالت واردة فى أمر هذه المشكلة ولكن العمل على محو المفاهيم الخاطئة فى أى مشكلة من المشاكل انما هو خطوة نحو الحل ·

---

(١٩) أناطوليدة اسلاميت ، ادبيات فاكولته سى مجموعة سى ١٩٢٢ المجلد الثانى العدد (٥) ·

(٢٠) عثمانلى دولتنك قورولوشى ، حيات مجموعة سى عدد ١١ ، ١٢ ، ١٩٣٧ ·

٢ ـ كيفية دراسة المشكلة
دراسة علمية

ان كل هذه الايضاحات كافية لبيان مدى التخلف الذى مازالت عليه دراسة نشوء الامبراطورية العثمانية ، واذا كنا قد شجبنا نظرية جيبونز القاصرة والتى أقامها صاحبها على أسطورة وجدنا مثالها الأول فى مصادر سابقة ، على حوليات العثمانيين فان معلوماتنا عن هذه الواقعة التاريخية الهامة من وقائع العصور الوسطى المتأخرة ليست أكثر تقدما منها فى أيام هامر أو ـ بصراحة أكثر ـ اننا لم نتخلص حتى الآن من أقاصيص قدماء أصحاب الحوليات العثمانية الساذجة ولكننا ، من غير شك ، وبفضل التقدم الذى أحرزه البحث فى تاريخ العصور الوسطى الغربية والبيزنطية منذ قرن من الزمان ، قد أوتينا من العلم بالأوضاع فى بيزنطة وفى البلقان فى القرن الرابع عشر مالا يمكن أن يقاس بما كان معروفا أيام هامر ، كما وقفنا أيضا على العوامل الخارجية التى يسرت سرعة تطور القوة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان ، ولا شك فى أن هذا كله كفيل بأن يعيننا على فهم نشأة الدولة العثمانية •

ولكن الحقيقة الواضحة أيضا هى أنه لابد لحل هذه المشكلة من الوقوف قبل كل شىء على عواملها الداخلية ، فمن وجهة النظر الاتنوغرافية :

الى أى بطن ينتمى مؤسسو الامبراطورية العثمانية ؟

وفى أى زمان جاءوا ليستقروا فى شمال غرب الأناضول ؟ وماذا كان وضعهم الاجتماعى ، هل كانوا بدوا ؟ هل كانوا نصف بدو أم هل كانوا أهل حضر ؟ وهل تزايدت كتلتهم البشرية بما يتناسب مع تزايد دورهم السياسى ؟ والى أى مدى كانت العناصر التى زادت كتلتهم

بالالتحاق بهم تركية ؟ والى أى مدى كانت أجنبية ؟ وماذا كانت نسبة العناصر الوافدة من الخارج الى العناصر المحلية وماذا كان بين العنصرين من صلات ؟ وماذا كانت نسبة العناصر البدوية الى العناصر الحضرية والزراعية ؟ وكيف كانت العلاقات بين المسلمين والنصارى ، وما مدى قوة الطبقات الاجتماعية ودور كل منها فى تأسيس الامبراطورية؟ وهل كانت الامبراطورية العثمانية تشكيلا ديمقراطيا أو كانت تشكيلا ارستقراطيا ؟ وما التحول الذى طرأ على معنى السيادة فى القرن الرابع عشر ؟ والى أى مستوى وصلت الحضارة المادية والروحية ؟

ان هنا مجموعة من الأسئلة الأساسية تتعلق بالاتنوغرافيا وبتاريخ الديانات وتاريخ القانون والتاريخ الاقتصادى أو تتعلق — اذا أردنا الايجاز الشديد — بتاريخ الحضارة المادية والروحية ، ولابد بادىء ذى بدء من أن تكون لدينا فى موضوعها معلومات كافية •

ولكننا لا نجهل هذه العوامل الداخلية فقط بل نجهل أيضا ظروف الشرق الأدنى التاريخية فى القرن الرابع عشر وهى عوامل خارجية لا غنى عنها لفهم تطور الامبراطورية العثمانية ولا نعرف حتى الآن يقينا الدور الذى لعبته امبراطورية القبيلة الذهبية فى الأناضول فى الفترة التى نتحدث عنها ولا الدور الذى لعبته الامبراطورية التركية فى مصر والشام ، ومازالت معلوماتنا غير كافية عن الامارات الأناضولية ماذا كان موقفها الواحدة تجاه الأخرى وماذا كان موقفها ازاء هذه القوى الخارجية ثم ازاء العثمانيين •

أليس التصدى لحل مشكلة قيام الدولة العثمانية مع وجود هذه الظروف وهذه المجهولات تعرضا لمهمة لا يمكن أن تتحقق ؟ ان جميع الذين تناولوا هذه المشكلة — ولا أستثنى منهم أحدا حتى جيبونز نفسه — لم يدققوا النظر

الجاد فى هذه الأسئلة التى عددناها ، بل لم يفكر أحد منهم فى أن يبسطها للدرس ·

وانه ليحق لنا أن نأسف لأن كل الأعمال الخاصة بتاريخ العصر الوسيط الشرقى لم تتخط مرحلة التاريخ الروائى القانع بسرد الحوادث السياسية والعسكرية ولأن النتائج التى قدمتها لنا الدراسات الخاصة ببداية عهد الامبراطورية العثمانية حتى من وجهة النظر البسيطة السياسية والعسكرية نتائج هزيلة مختزلة ومتناقضة فى أغلب الأحيان ، ولكن ، أنعزوا هذا كما فعل جيبونز الى قلة ما بين أيدينا من المصادر التاريخية ؟ وهل عدم كفاية المواد يجعل الدراسات الجادة للأسئلة التى ذكرناها أمرا مستحيلا ، وهل قضى على مشكلة نشوء الدولة العثمانية بأن تبقى بغير حل كأنها المعادلة المختلفة الطرفين ؟

لا نظن ذلك ، وتأييدا لرأيى فسأحدد قبل كل شىء طبيعة المصادر التى بين أيدينا وقيمتها ، وسأذكر بعد ذلك اى منهج يجب أن نتبع ·

(أ) المصادر

المصادر الاسلامية الخاصة بالأناضول فى القرن الرابع عشر وهو قرن تأسيس الامبراطورية العثمانية نادرة ولا تكفى واذا استثنينا بعض الكتب ذات الأهمية المحدودة والمحررة فى داخل امبراطورية الايلخانيين وبعض الفقرات التى حررها أصحاب الحوليات وكتاب التراجم من المصريين ومشاهدات ابن بطوطة ، أمكن القول بأن الانتاج التاريخى المخصص للاناضول مباشرة لم يك شيئا فى ذلك القرن ·

ولكن جيبونز ــ الى كل ذلك ــ لم يستعمل من هذه المصادر القليلة التى مازال معظمها مخطوطا الا ما ترجم الى اللغات الغربية ، وهذه الترجمات ــ رغم قلتها ــ ترجع الى عهود قديمة لم تكن الدراسات الشرقية فيها متقدمة كما هى اليوم ، ثم هى ترجمات نصوص غير محققة قرئت قراءة سيئة وفسرت خطأ فهى غير جديرة بالثقة ·

ومع هذا فيمكن أن نرجع بالاضافة الى هذه النصوص ـ الى مصادر أخرى هامة خاصة بتاريخ هذه الحقبة مثل كتاب جامع التواريخ وتاريخ أولجايتو ثم صبح الاعشى والتعريف ، ونستطيع كذلك الرجوع الى كتب حررت فى القرن الخامس عشر ولكنها تضمنت معلومات قيمة عن القرن الرابع عشر مثل تاريخ العينى والدرر الكامنة ٠

وأما بخصوص الكتب التى حررت فى الأناضول فى القرن الرابع عشر فانها مع كونها محدودة جدا فانها لم تستعمل حتى الآن الا قليلا ، ونستطيع أن نضع على رأس هذه الكتب الحوليات الفارسية المعنونة بمسامرات الاخبار لمحمود بن محمد الاقسرايى وذلك لقدمه وأهميته ويتكون هذا الكتاب الذى توجد منه نسختان فى استانبول احداهما فى مكتبة أيا صوفيا تحت رقم ٣١٤٩ والأخرى بمكتبة يكى جامع تحت رقم ٨٢٧ ، يتكون من أربعة أقسام أضخمها وأهمها هو الأخير الذى يكون ثلثى الكتاب والذى يعالج ـ معتمدا على مشاهدات المؤلف ـ تاريخ الايلخانيين ومتأخرى السلاجقة الذين كانوا تحت حمايتهم ٠

وقد حرر هذا الكتاب سنة ٧٣٢ (١٣٢٣) وقدم الى حاكم الايلخانيين على الأناضول دمرداش ابن الأمير جوبان٠

ولكنه لم يستغل حتى الآن كما ينبغى ولم يقرأه من المؤرخين العثمانيين الا منجم باشى ثم عنى به بارتولد بعض الوقت (٢١) ٠

ويأتى بعد ذلك كتاب القاضى أحمد النيكدى المحرر سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢) والمعنون بـ (الولد الشفيق) وهو لم يستعمل حتى الآن وتوجد نسخته الوحيدة فى مكتبة الفاتح تحت رقم ٤٥١٩ ويضم هذا الكتاب الذى يمكن وصفه بأنه دائرة معارف للعلوم الاسلامية معلومات عن

---

(٢١) W. Barthold. Zap. Vost. Otd Imper. Russk. archeol, Ob. XVIII, 0124.

تاريخ السلاجقة ومواد عظيمة الأهمية للتاريخ الدينى والاجتماعى للأناضول فى القرن الرابع عشر ·

ويتناول المؤلف فيما تناول من تاريخ الدول الأولى تاريخ السلاجقة ولكن باختصار شديد واذا استثنينا ما قال عن السلاطين المتأخرين فكلامه فى تاريخ السلاجقة غير هام ولكن قيمة الكتاب مع هذا كبيرة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعى ، وقد ذكر المؤلف انه أفرد تاريخ السلاجقة بكتاب ولكن هذا الكتاب لم يعثر عليه من أسف حتى الآن ·

ويلى ذلك الكتاب كتاب الحوليات الكبير الذى ألفه عزيز بن أردشير الاسترابادى والمعنون بـ (بزم ورزم) والمقدم الى القاضى برهان الدين سلطان سيواس ، وهذا الكتاب الذى نشره معهد الدراسات التركية باستانبول سنة ١٩٢٨ هو أهم ما نملك من مصادر فى تاريخ الأناضول فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ·

واذا أضفنا هنا الكتيب المعنون بـ (سلجوقنامه) والمحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس والذى درسه Houtsma (٢٢) قديما فاننا نكون قد سردنا القائمة الكاملة للمصادر الرئيسية التى كتبت فى الأناضول فى القرن الرابع عشر (وقد جهل جيبونز هذا الكتاب الأخير لسبب ما) ·

وربما أمكننا أيضا أن نذكر كتابا مشكوكا فى قيمته وان كان قد حرر فى القرن الخامس عشر وذلك هو كتاب « شكارى » الخاص بتاريخ دولة قرمان (٢٣) ، وكذلك كتاب (دستور نامه أنورى) الذى يبدو انه صنف بالاستعانة بنص قديم عن تاريخ آيدين ولا يخلو هذا الكتاب من أهمية

---

(٢٢) Mededeelingen AK. W. amsterdam; ofd. letterkunde, 3 Reihe, 9 Teil, 1893.

(٢٣) P. Wittek, Das Fürstentum Mentesche (Istambuler. mitteilungen 2, 1st, 1934 S, 50 Not 2).

فيما يتعلق بتـاريخ العثمانيين فى القـرن الـرابع عشر والخامس عشر •

ولا يقف أمر المصادر الخاصة بالأناضـول فى القرن الرابع عشر عند هذا الحد فلدينا أيضا مجموعات الكتابات الرسـمية المعروفة بالمنشـآت ، وكتب مختلفـة فى الادب والتصوف وكذلك الوقفيات وكتب منـاقب الأولياء وغيرها وقد ترجم أحـد كتب المنـاقب وهـو كتـاب الافلاكى الى الفرنسية بقلم : Clement Huart وبعنوان Les Saints des denviches tourneurs.

وبعـد أن نشره هيـوار تنبـه الى أنه ليس مصـدرا للأوضاع الدينية فقط ولكنه مصدر تاريخى فى نفس الوقت وذكر فى مقال له فى Journal asiatique قدرا من المعلومات التاريخية التى استخلصها (٢٤) منه ولما ضاهينا نحن ما ورد بهذا الكتاب عن امارات الأناضـول بعـدد من الوثائق التاريخية المختلفة قررنا انه مصدر تاريخى جدير بالثقة (٢٥) •

ولا ندعى بذلك أن كل مجموعات المناقب لها ما لكتاب الافلاكى من قيمة تاريخية ولكنا نستطيع القول بأن هـذا النوع من الكتب اذا أخضع لعمليات النقد التاريخى المحكم يصبح مصدرا أساسيا للتاريخ الاجتماعى •

ويكفى هذا العرض السريع لبيان أننا نملك قدرا من المصادر الهامة عن تاريخ الأناضول فى القرن الرابع عشر •

وعدا هذا فان الأبحاث الابيجرافية والتنمية التى تمت فى البلاد الشرقيـة وبخاصة فى تركيا طوال هـذه الخمس والعشرين سنة الآخيرة هيأت لنا أن نجمـع عن فترة قيـام الدولة العثمانية قدرا كبيرا من الوثائق •

---

(٢٤) De la Valeur Historique des mémoires des Derviches Tour-neurs (J. A., XI, serie t/XIX (1922), p. 308—317.

(٢٥) انظر « أناطولى بكلكرى » حقنده نوطلر » تركيات مجموعة سى المجلد الثانى ١٩٢٨ ص ١ ـ ٣٢ •

ولكن المعنيين بدراسة نشوء الدولة العثمانية من علماء الغرب سواء من يجهل منهم اللغات الشرقية مثل جيبونز أو من يعرفها كالمستشرقين لم يستغلوا جميعا المصادر التى ذكرنا كما ينبغى وقنعوا بمعلومات مستخرجة من بعض الحوليات القليلة الأهمية ٠

ويمكن فى هذه الظروف أن نفهم بسهولة لماذا لم تظهر دراسة جادة عن تاريخ الأناضول الاجتماعى فى القرن الرابع عشر ، ومن الواضح أننا نخطىء اذا رددنا هذا الى قلة المواد وعدم كفاية المصادر فقط ٠

ولكيلا يقع شيء من سوء الفهم فانى أذكر هنا نقطة هامة وهى ان المعنيين بدراسة مشكلة قيام الدولة العثمانية لم يستشعروا جميعا الحاجة الى دراستها فى اطار التاريخ العام للأناضول فى القرن الرابع عشر ولذلك لم يجشموا أنفسهم الاستيعاب الكامل للمصادر التى ذكرناها وانما ركزوا كل عنايتهم وانتباههم على نقطة واحدة هى البحث عن مصادر خاصة بالامبراطورية العثمانية وبالأسرة العثمانية ثم حاولوا حل مشكلة قيام الدولة بالاعتماد على هذه المصادر وحدها وكان من الطبيعى أن يؤدى بهم هذا التصور للمشكلة الى طريق مسدودة ٠

ولقد قرر جيبونز ــ وهو ضحية هذه النظرةالقاصرة ــ انه لا توجد مصادر عثمانية قديمة خاصة بتاريخ العثمانيين وأن الحوليات القديمة التى تتحدث عن تاريخهم ترجع الى أواخر القرن الخامس عشر ، وان المؤرخين البيزنطيين والغربيين بدورهم لا يمدوننا بالمعلومات الجديرة بالثقة عن نشأة العثمانيين المتواضعة ٠

وهذه الدعوى من دعاوى جيبونز الذى لا تتجاوز معلوماته عن أقدم المصادر العثمانية المحررة داخل أراضى العثمانيين معلومات هامر دعوى صادقة فى جوهرها ٠

ويكاد الوضع الآن لا يفترق عما كان عليه رغم كثرة

ما حقق من الحوليات العثمانية القديمة وما طبع من النصوص الجديدة منذ سنة ١٩١٦ ٠

ومع هذا فان بين أيدينا اليوم مصادر لم يكن يجهلها جيبونز فقط بل لم يطلع هامر نفسه على كثير منها ، ومن هذه المصادر كتاب تاريخ عاشق باشا الذى نشر نشرتين متميزتين احداهما عن الأخرى الأولى من عمل (عالى) والثانية من عمل (جيزه) وكتاب : (تواريخ آل عثمان) وهو كتاب مجهول المؤلف نشره جيزه أيضا ، وتاريخ أوروج بك الذى نشره Babinger ، وتاريخ لطفى باشا المطبوع فى استانبول وبهجة التواريخ للمؤرخ شكر الله وقد نشره Thseif ، وتاريخ قرمانى محمد باشا وقد نشره مكرمين خليل كما نشر دستور نامه أنورى ٠

ومن هذه المصادر القطعة التى أضافها الشاعر أحمدى فى آخر منظومته الكبيرة اسكندرنامه المكتوبة أواخر القرن الرابع عشر وكذلك كتب بهشتى وروحى وابن كمال وهى تواريخ مختلفة عن آل عثمان مازالت مخطوطة ثم تاريخ العثمانيين المفتوى وكتب كثيرة من هذا القبيل مجهولة كلها عند هامر ، ولكنها غير مجهولة فى عالم العلم ، وان كانت لاتزال مخطوطة (٢٦) فاذا أضفنا الى ذلك بعض قوائم الكتب المجهولة المؤلفين (٢٧) وبعض المجموعات المعروفة بقانوننامه (٢٨) من المطبوعة فى استانبول وفينا وبعض الوثائق الرسمية النادرة (٢٩) ، واذا أدخلنا فى اعتبارنا الأبحاث الابيجرافية والنمية التى تمت فى الخمسة والعشرين عاما الأخيرة عن الحقبة العثمانية أدركنا الى أى حد تندر المصادر عن تاريخ العثمانيين فى القرن الرابع عشر ٠

---

(٢٦) F. Babinger, Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke, Leipzig 1927.

(٢٧) مكرمين خليل ، دستور نامه أنورى (مقدمة) تركى ص ٦١ ٠

(٢٨) ملى تتبعان مجموعة سى (عدد ١ ، ٢) تاريخ عثمانى انجمنى مجموعة سى (سنة ٣ ، ٤) ٠

Mitteilungen Zur Osmanischen Geschichte ; nu. I.

(٢٩) نشر معظم هذه الوثائق القديمة فى مجلة تاريخ عثمانى « انجمنى » ٠

واذا استثنينا بعض الحـوليات الخاصـة بأوائل القرن الرابع عشر أو نصـفه الأول فان بقية الانتـاج متأخر من الناحية الزمنية ويرجع بعامة الى أواخر القرن الخامس عشر أو حتى الى ما بعده ٠

وأما الكتب التى حررها كتاب التاريخ والتى تعطى عن الفترات الأولى للامبراطورية العثمانية معلومات معتمدة على الروايات الشعبية الشفوية أو على الأساطير المخترعة لغايات خاصة فانها ليست الا امتدادا للملاحم الشعبية القديمة ويجب ألا ننسى انها جميعا ينسخ بعضها عن بعض بفروق لا تكاد تذكر ، ولابد ـ لكى تستـغل هـذه الكتب ـ من أن تمحص وتعالج بقواعد النقد التاريخى ٠

واذا كنا قد أشرنا الى ندرة الوثائق الرسمية الخاصـة بالقرن الـرابع عشر فذلك لأن مكرمين خليـل قد أثبت ان ما ورد فى منشآت فريدون بك من الوثائق الخاصـة بهـذه الفترات الأولى منتحل (٣٠) عن آخـره وهـذه هى الوثائق التى كانت تستعمل حتى الآن بتحفظ يقـل أو يكثر حـول موثوقيتها كمصدر رئيسى ٠

ومع هذا فلو عرف مؤرخ هذه المصادر الجـديدة التى كان يجهلها جيبونز واستعملها كلها فلن يكون موقفـه خيرا من موقف جيبونز بكثير ما لم يتجاوز المجـال الضيق الذى التزمه جيبونز وذلك لأن هذه المصـادر لا تعطى عن تاريخ الفترة الأولى للامبراطورية مواد مغايرة للمواد التى كانت معروفة من قبل ٠

هذا ، وليس لنا أن نتطلع ـ فى تاريخ هـذه الحقب المتقدمة ـ الى الحصول على مصادر اسلامية أو بيزنطية أو اغريقيـة أكثر مما كان معـروفا سنة ١٩١٦ ٠ نعم ، ان النشرات المحققة للحوليات البيزنطية التى ترجع الى القرن

(٣٠) تاريخ عثمانى انجمنى عدد ٧٧ ، ٨١ ٠

الرابع عشر قد تصحح بعض التفاصيل الخاصة بتاريخ العثمانيين فى ذلك القرن كما أن بعض الوثائق التى يمكن العثور عليها فى الأرشيفات الايطالية قد تلقى الضوء على بعض مسائل تاريخ الشرق الأوسط فى تلك الفترة ٠

ولكن ليس من الممكن عقلا أن نعثر فى المصادر المصرية أو البيزنطية أو الغربية على وثائق جديرة بالثقة تنطلق مباشرة بنشوء الدولة العثمانية ٠

فماذا نصنع ازاء عدم كفاية المصادر العثمانية عن القرن الرابع عشر ، ربما أمكن اذا أمعنا النظر فى الآثار الأدبية والعلمية والوثائق المختلفة التى كتبت فى تلك الفترة فى المناطق العثمانية أن نلقى الضوء على بعض المسائل التى لم توضحها كتب الوقائع وبخاصة المسائل المتعلقة بالتاريخ الاجتماعى ، ولكنى اظن أن هذه المصادر لن تكفى هى أيضا لتوضيح هذه المشكلة الكبيرة ، ولنتقدم الآن الى جوهر دعوانا : ان استعصاء مشكلة قيام الدولة العثمانية على الحل حتى الآن لا يرجع الى قلة المواد التاريخية أو الى عدم كفاية المصادر فحسب وانما يرجع قبل كل شىء الى خطأ فى طريقة التناول ناشىء عن عقيدة ساذجة خاطئة ولا تمت للعقلية التاريخية بصلة واذا لم نتخلص من هذه العقيدة الخاطئة الواردة فى الحوليات العثمانية القديمة والتى يتناقلها المتوغلون فى تاريخ العثمانيين فى الشرق والغرب فستظل هذه المعضلة المستغلقة بغير حل ٠

(ب) منهج البحث

وسأحاول الآن أن أشرح هذه الفكرة الخاطئة فى بساطة وايجاز بعد أن حاولت منذ سنين طويلة أن أقوض أركانها فى أبحاثى عن التاريخ الأدبى والدينى والقانونى للدولة العثمانية وسأتحدث أيضا عن كيفية طرح مشكلة قيام

الامبراطورية العثمانية للبحث وعن نوع العقلية التى يجب أن تتناول بها وعن المنهج الذى يجب أن يتبع فى معالجتها ٠

انه لمن الخطأ أن نعزو تأسيس الامبراطورية العثمانية الى قبيلة من أربعمائة خيمة كانت تقطن فى القرن الثالث عشر الحدود البيزنطية السلجوقية فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول ، دون أن نفكر ـ لشرح هذه الواقعة ـ فى الظروف التاريخية والاجتماعية للأناضول فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وذلك ان المنطقة الجغرافية التى نشأت فيها الامبراطورية العثمانية لم تكن جزيرة معزولة وسط المحيط ولا كان أهلها يشكلون عنصرا متميزا عن بقية أتراك الأناضول السلجوقى وانما كانوا سواء فى أثناء استقلال الدولة السلجوقية أو فى عهد سيادة الايلخانيين ـ يكونون مع بقية أتراك الأناضول ـ وحدة سياسية واقتصادية وثقافية ، نعم لقد كانوا يعيشون على الحدود وكانت ظروفهم ـ لذلك ـ مغايرة لظروف الأتراك فى الداخل ولكن هذه المغايرة لم تكن خاصة بهم فقد كانت قبائل تركية أخرى تعيش كذلك على الحدود ، وفوق ذلك فلم يكن نظامهم الاجتماعى يفترق عن النظم الاجتماعية عند غيرهم من أتراك الأناضول ٠

قل ان شئت انهم كانوا بدوا أو نصف بدو أو قل انهم كانوا أهل حضر انقطعت بينهم وبين البداوة كل الأسباب فلم يكن الأناضول ـ على أى حال ـ يخلو من قبائل تعيش فى ظروف مشابهة تماما لظروفهم وحتى اذا نحينا ملاحظاتنا هذه جانبا وسلمنا جدلا بصحة نقيضها فان ذلك لا ينفى ضرورة دراسة المشكلة داخل الاطار العام لتاريخ الأناضول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ولقد اخترع المؤرخون العثمانيون القدماء من أصحاب المدائح سلاسل نسب خيالية لسلاطينهم الذين لم يكونوا ينحدرون ـ بغير شك ـ من عائلة ملكية وحرص هؤلاء المؤرخون ـ لكى يجعلوا من تأسيس الامبراطورية احدى المعجزات ـ على أن يشرحوه

بأسباب خارقة قوامها الأساطير ، ولقد كان من الطبيعى جدا لكتاب الوقائع ، وهم يحاونون كتابة ملحمة لاحدى الاسر ان يعرضوا تاريخ العثمانيين كأنه سلسلة من الأحداث قائمة براسها ، ولكن الشيء الذى يدعو الى الدهشة هو آن يحتفظ علم التاريخ الحديث الذى ينكر العلل المعجزة والخارقة بنقس الروايات القديمة مع صبغها صبغة أخرى ·

ومهما يكن فلن تفهم المشكلات آلتى مازالت غامضة فى التاريخ العتمانى الا اذا درس هذا التاريخ كما قلت فى مناسبات كتيرة داخل اطار التاريخ التركى العام أو بعبارة أخرى : ان هذه المشكلات لن تحل أو تبحث فى التاريخ العثمانى باعتباره هو وتاريخ الامارات الآناضوبية الاخرى امتدادا لتاريخ سلاجقة الروم · نعم ان الغموض الذى يحيط بتاريخ هؤلاء السلاجقة هو الذى يحول دون فهم هذه الحقيقة البسيطة ولكن اخراج مشكلة قيام الدولة العتمانية من الطريق المسدود الذى وضعت فيه متوقف مع هذا على أن توضع فى وضعها الصحيح كامتداد للتاريخ السلجوقى ، أو لا ، فانها باقية فى مكانها وسيترتب على هذا أن تبقى مسائل أخرى هامة من مسائل التاريخ العتمانى غير قابلة للحل ·

ولقد بينت من قبل فى أحد أبحاثى (٣١) كيف أن رامبو ويورجا وشارل ديل وكثيرا من علماء البيزنطيات قد أخذوا ببعض الأفكار الخاطئة الشبيهة بآراء جيبونز فحادوا وضل رأيهم فى مسألة العلاقات الحضارية بين بيزنطة والعثمانيين ·

والآن وقد اصطلحنا على أن يكون هذا المبدأ هو نقطة انطلاقنا ، وبعد أن فرغنا من وضع المسألة فى موضعها فقد تحددت معالم الطريق الى الحل من تلقاء نفسها ، وهى :

---

(٣١) بيزانس مؤسسة لرينك عثمانلى مؤسسة لرى او زرينه تاثيرى ، تورك حقوق واقتصاد تاريخى مجموعة سى - جلد ص ١٦٥ - ٣١٣ ·

اخضـاع الوثائق التى بين أيدينا للنقـدين الداخلى والخارجى طبقا للتكنيك المعاصر للمنهج التاريخى ٠

نزع كل صفة واقعية عن الأساطير وأشجار النسب التى اخترعهـا مدونو التاريخ لغايات معينـة وعدم استعمالهـا كمصادر ٠

قصر العناية على المسائل الرئيسية ونبذ ما تحيط به الشبهات من أخبار التاريخ السـياسى والعسـكرى وكذلك الوقائع العسكرية الصغيرة التى لم تحدث تغيرات دائمة ٠

عدم الاقتصار على كتب الوقائع وتوجيه عناية لا تقـل عن عنايتنا بهذه الكتب الى كل صنوف الوثائق التى يمكن أن تعين على حل مشكلات التاريخ الاجتماعى ٠

دراسـة التركيب الطبقى للعنـاصر التى تشـكل ذلك المجتمع وموقف كل عنصر بالتحديد وعوامل قوتهم وضعفهم واسباب ما كان يقع بينهم من تساند أو تضارب او ـ عـلى الجملة ـ دراسة التغيرات فى حياتهم الداخلية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر واعتبـار ذلك أولى من دراسـة ما كان يطرأ على حياتهم من تقلبات سـياسية وعسـكرية ، ويمكن ان نقول بعبارة أخرى ان علينا أن نصنع تاريخـا تركيبيا لأتراك الأناضول يقـوم على دراسـة مورفولوجيا مجتمعهم ودراسـة تطـور نظمـه الدينيـة والتشريعيـة والاقتصادية والفنية أكثر من قيامه عـلى دراسـة حـوادثه السياسية والعسكرية فبمثل هذا التركيب وحده وباستخدام كل ما بين أيدينا من المواد يمكن أن نصل فى مشـكلة قيام الدولة العثمانية الى أقرب الحلول من الحقيقة ، فان قيل : هل يغنى ما بين أيدينا من المصـادر كما وكيفا بمثل هـذا العمل التركيبى فان جوابنا بطبيعة الحال هو : لا ، ولكن يجب أن نلاحظ انه ـ على عدم كفايته ـ أكثر مما بين أيدى الذين يعتمدون على الآراء الأسطورية الواردة فى حوليـات التاريخ العثمانى المتأخرة ، ومع هذا فلو حاولنا ، بما بين أيدينا من المراجع ، أن نكتب على سبيل المثـال ، تقـويما

سنويا لعهد عثمان كما كان يفعل أى مدون من مدونى التاريخ القدماء لتعذر علينا الامر لاننا لا نملك اى وسيلة لتحميق المعلومات غير الجديرة بالثقة التى تمدنا بها الحوليات العثمانية ، ولاننا لن نجد عونا على ذلك فى المصادر البيزنطية أو العربية او الوثائق الرسمية او النقوش ، وسنجد اننا مضطرون الى أن نستبعد بلا تردد مثل هذه المعلومات والتفاصيل التى تحيط بها الشبهات ، ولن يبقى بعد عملية الاستبعاد هذه التى يقضى بها النقد التاريخى الا القليل جدا من الوقائع الجديرة بالثقة .

ولكن المؤرخ ليس بحاجة ككاتب الحوليات الى أن يحيط بكل الأخبار والحوادث التى ترضى فضوله ، وان فى كتب الحوليات وسائر الوثائق من الحوادث الفرعية والمكررة وغير ذات البال ما يبلغ الآلاف ولكن الجهل بها لا يحول دون ادراك التطور التاريخى لأى شعب .

وهنا يتجلى الفرق بين التاريخ القصصى والتاريخ التركيبى ، وليس معنى هذا اننا ننكر الاهمية الكبرى للجهود التى تبذل فى كتب التاريخ المتبحرة ولكنا نريد ان ننبه الى أن التركيب التاريخى مغاير تماما لركام المواد التاريخية التى لم تخضع للنقد ولم ترتب بحسب قيمتها ولم يفصل مهمها عن غير مهمها .

ان غاية المؤرخ هى أن يعلل للموقف ثقافة الجماعة فى زمان ومكان معينين وان يصورها بنشاطها تصويرا حيا أقرب ما يكون الى الحقيقة ولا فرق بين المؤرخ يفعل هذا وبين عالم الحيوانات الحفرية Paleontologiste تقع فى يده بضع قطع هامة من العظم فيعيد بفضلها بناء هيكل حيوان منقرض .

ان قصدى من تكرار هذه المتعارفات التى هى فى حكم البديهيات بالنسبة للمؤرخين المعاصرين هو أن أبين ان المواد المحدودة التى بين أيدينا يمكن أن تفيد فائدة كبيرة فى حل

مشكلة قيام الدولة العثمانية ، ولقد بينت من قبل أن كل الذين اشتغلوا فى هذه المسألة عجزوا حتى الآن عن الافادة من أهم هذه المواد ٠

وبعد أن فرغنا من الحديث فى هذه المقدمة عن النقد والميتودلوجى فسنحاول فى المحاضرتين القادمتين أن نعالج مشكلة قيام الدولة العثمانية ولو فى خطوطها العريضة مستفيدين من كل المراجع التى ذكرناها باختصار من قبل ٠

ولسنا نزعم بهذه التجربة التركيبية الجريئة التى نحاول تطبيقها فى ميدان يكاد يكون غير مطروق حتى الآن أننا حللنا مشكلة قيام الدولة العثمانية حلا نهائيا ٠٠ واذا كانت الأعمال التركيبية التى تعتمد على أوثق التفصيلات التحليلية لا تزعم هى نفسها أنها نهائية فلا شك فى أن تجربتى هذه لن تؤدى بنا الى ما يحسن السكوت عليه ، فهى الأولى فى بابها وهى لا تزال ــ فى كثير من نواحيها ــ بحاجة الى أبحاث تحليلية كثيرة ولكن الغاية الرئيسية التى قصدت اليها من هذه المحاضرات هى أن أبين بتركيز وبساطة أننا بحاجة الى أن نطبق فى تاريخ الترك والاسلام فى العصور الوسطى نفس الأصول الجديدة المتبعة منذ القرن التاسع عشر فى مباحث تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، وذلك أننا نستطيع ــ باستثناءات قليلة ــ أن نقرر أن هذا الجزء الهام والمكمل لتاريخ البشرية لم يتخلص حتى الآن رغم جهود الاستشراق الأوربى طوال القرن التاسع عشر من تقاليد كتاب الحوليات فى العصور الوسطى ٠

★★★

٣-محمد الفاتح للدكتور سالم الرشيدى:

هذا الكتاب عبارة عن رسالة دكتوراه قدمها صاحبها لكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية فى عام ١٩٤٩ وقد تناول شخصية محمد الفاتح وأعماله السياسية والحربية لاسيما فتح القسطنطينية ١٤٥٣، كما تطرق إلى نشأة الدولة العثمانية وتعرض لسلاطينها إلى أن وصل إلى السلطان محمد الفاتح ليكون البحث كما يذكر المؤلف متصل الأجزاء مطرد الخطوات.

تمهيد

من نشأة الدولة العثمانية الى ارتقاء محمد الفاتح عرش السلطنة

قبيلة عثمان في آسيا الصغرى – الإمارة ونموها – أورخان في أوروبا – مراد الأول – فتح أدرنة – موقعتا ما رتزا وقوصوه – بايزيد الأول – موقعة نيكوبولي – موقعة أنقرة – هزيمته وأسره – الحرب الأهلية – محمد الأول – مراد الثاني – فتن واضطرابات – الفتوحات في آسيا وأوروبا – حصار بلغراد – صلح سرجدين – محمد الفاتح – موقعة وارنة – تنازل مراد للمرة الثانية – ثورة الانكشارية – فرار اسكندر بك – معركة قوصوه الثانية – وفاة مراد وسلطنة محمد .

شهد العالم الاسلامي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) غزوات مريعة مدمرة ، لعلهــا كانت اشد ما نكب به المسلمون في تاريخهم ، تلك هي غزوات المغول التي انطلقت من شرقي آسيا في بداية هذا القرن على يد جنكيزخان . فاندفعت كالسيل الأتي الجارف لا يقف في سبيله شيء ، فاكتسح ممالك ودمر عواصم وازهق ارواحاً لا تحصى . وكانت دولة خوارزم شاه في ما وراء النهر، أول دولة اسلامية استهدفت لهذا السيل المغولي فلم تقوَ على صده . وبانهيار هذه الدولة سنة (٦١٧ هـ – ١٢٢٠ م) انطلق هذا السيل غربي آسيا ولم تكن هناك في ذلك الوقت

غير ممالك ضعيفة مفرقة فطواها الطوفان في احشائه ؛ وجفل الناس امام هذا الخطر الداهم وفروا يطلبون النجاة .

وكان فيمن فر سليمان بن قيالب (جد عثمان) فنزح بأهله وعشيرته من مستقرهم بخراسان التي هاجروا اليها منذ أمد بعيد من موطنهم الأول في أواسط آسيا، واتجه بهم الى الغرب وكانوا زهاء خمس مئة الف نسمة .

ومضى سليمان يجد في سيره : حتى استقرت به النوى سنة (٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م) في أرمينية على ضفاف الفرات فيما بين أرزنجان وأخلاط . ولبث سليمان وقومه في مقرهم الجديد بضع سنين اذ بلغه موت جنكيزخان، وظن أن الخطر المغولي قد زال والبلاء قد انقشع ؛ وساوره الحنين الى العودة الى موطنه السابق ، فأجمع امره واتخذ سبيله بمحـاذاة الفرات . غير انه عندما هم بعبوره في مكان وعر زلقت قدم فرسه فهوى براكبه الى النهر وابتلعه الماء (٦٢٨ هـ — ١٢٣١ م) .

وانقسم اتباعه من بعده الى طائفتين . أما الأولى — وهي الأكثر عدداً — فقد واصلت سيرها الى خراسان بقيادة سليمان سنقورتكين وكوندوغدي وهؤلاء قد طوى الدهر اخبارهم ولم يذكر التاريخ من امرهم شيئاً . أما الطائفة الأخرى ؛ وكانت نحو أربع مئة اسرة — فقد تولى امرها أرطغرل بن سليمان فأخذ يرود بعض سهول ارضروم بالقرب من منابع الفرات ثم اتجه بقومه نحو الغرب ينشد لهم المقر الأمين والعيش السهل الخفض ، وانه لفي سيره عند حدود سلطنة سلاجقة الروم اذ وقع بصره في سهل من السهول على جيشين يقتتلان دون ان يعرف من امرهما شيئاً فدفعته النخوة الى نجدة اضعفهما حتى تمت له الغلبة والنصر ، وتبين لأرطغرل بعد ذلك انه انما انتصر لجيش علاء الدين سلطان سلاجقة الروم على المغول وابتهجت لذلك نفسه ، اذ انه انتصر لقوم تربطه بهم اواصر الدم واللغة والدين ، ولا غرو فقبيلة ارطغرل والسلاجقة فرعان من فروع الدوحة الكبيرة أوغوز . وقدر علاء الدين لأرطغرل صنيعه

وحسن بلائه كما رأى فيه قوة يستطيع ان يستعين بها فيما بعد على اعدائه من الروم والمغول فأقطعه جبال قره جه وطومانيج وارمني وسهل سكود، وتقع هذه الأراضي في الناحية الغربية من الدولة السلجوقية ، وتحاذي حدود الروم الذين كانوا لا تزال لهم بعض المدن في آسيا الصغرى. وقد ابلى أرطغرل أحسن البلاء في جهاد اعداء سيده من الروم والمغول فزيد في اقطاعه ومنح ألقاب الشرف والتكريم .

عثمان : وبعد وفاة أرطغرل سنة (٦٨٠ هـ – ١٢٨١ م) خلفه ابنه عثمان فسار سيرة ابيه في الجهاد والفتح واستولى سنة (٦٨٧ هـ – ١٢٨٨ م) على « قرجه حصار » وهي قلعة عظيمة للروم تقع على نهر سقاريا . فأحبه السلطان علاء الدين الثالث وبالغ في إكرامه وأذن له بضرب السكة وذكر اسمه في خطبة الجمعة مع اسم السلطان ، وضم اليه جميع الأراضي التي فتحها .

على ان دولة سلاجقة الروم كانت قد تضعضعت وانحلت من طول ما اصابها من الغزوات الخارجية والفتن الداخلية وكان سلطانها علاء الدين الثالث اذ ذاك رجلاً ضعيفاً جباناً اخرق مكروهاً عند الناس . وحدث في سنة (٦٩٩هـ – ١٣٠٠م) أن أغار عليه المغول ، واشتعلت في الوقت نفسه نيران الفتنة داخل دولته ، وأطبق عليه الخطر من هنا وهناك وتملكه الفزع والرعب ، ففر الى القسطنطينية حيث لقي مصرعه . ولم يكن لعلاء الدين عقب يخلفه على السلطنة فاستقل الولاة بالمقاطعات التي كانوا يحكمونها ، وجعلوا منها إمارات بلغت عدتها تسعاً وهي : القرمان وكرميان وقرەسي وصاروخان وايدين وقسطموني والحميد ومنتشا وتكه . واستقل عثمان بما كان تحت يده واتخذ يني شهر « المدينة الجديدة » عاصمة له ودعا نفسه « بادشاه آل عثمان » أي (سلطان العثمانيين) وكان ذلك بداية الدولة العثمانية التي شغلت حيزاً كبيراً في تاريخ العالم .

وكانت الروح الصليبية لا تزال مشبوبة متقدة الى ذلك الحين وكانت

هي التي تهيمن على العلاقات بين الشرق والغرب ولم يمض بعد على فتح المسلمين لعكا آخر حصون الصليبيين في فلسطين غير بضع سنين. وكانت العاطفة الدينية على عنفوانها وشدتها لدى العثمانيين فكان طبيعياً أن يبدأ عثمان في غزواته وفتوحاته بجيرانه الروم في غربي آسيا الصغرى. ومما أغراه بذلك ما كان عليه هؤلاء الروم من الضعف والخور، وما كانت عليه أراضيهم من الخصوبة والثروة. واستولى منهم عثمان على اماكن عديدة منها بروسه التي كانت تعد أهم حصن في آسيا الصغرى كلها.

أورخان : وخلفه على السلطنة سنة (٧٢٦هـ — ١٣٣٦ م) ابنه أورخان وقد شب وترعرع تحت كنف أبيه في ساحات الحرب وميادين القتال وقاد الجند وفتح المدن. استولى في السنة الأولى من حكمه على أزميد «نيقوميديا» ثم استولى سنة (٧٣١ هـ — ١٣٣٠ م) على أزنيق «نيقيا» ثانية المدن الرومية بعد القسطنطينية وبذلك سيطر علي ساحل بحر مرمرة ولم يعد يفصله عن أوروبا غير هذه القناة البحرية الصغيرة. وأثار ذلك شيئاً غير قليل من الفزع والقلق في أوروبا وبدأت البابوية تشعر بالخوف من تقدم العثمانيين وخشيت أن يعبروا البحر الى أوروبا فيعظم خطرهم بعد ذلك على ايطاليا وعلى البابوية فيها [1] كما أدركت الدول التجارية وفي مقدمتها البندقية الخطر الكامن في هذه الدولة الإسلامية الجديدة إذا ما ترعرعت ونمت فانها لن تلبث حتى تنازعها سلطانها ومكانتها في الشرق وتغالبها على أملاكها ومستعمراتها فيه، وسعت البندقية الى تأليب الدول النصرانية على العثمانيين قبل ان يستفحل أمرهم ويعظم خطرهم. وعقد حلف صليبي اشترك فيه البابا وملك فرنسا والبندقية وفرسان رودس وأمبراطور القسطنطينية. وفي ١١ نوفمبر سنة ١٣٣٣ أعلن البابا يوحنا الثاني والعشرون Jean XXII أن ملك فرنسا فيليب السادس هو الذي سيقود الحملة الصليبية ولكن موت

١ Billotti et l'abbé Cottert. L'Ile de Rhodes.

البابا في ديسمبر من ذلك العام عاق تنفيذ هذه الحملة . وظلت الاستعدادات في فرنسا مع ذلك مستمرة نشطة واحتشدت في المواني سفن كثيرة تكفي لنقل عشرات الألوف من المقاتلين ، وتوافد الصليبيون من كل جانب حتى بلغت عدتهم ثلاث مئة ألف رجل ولكن جد أمر قضى على جميع هذه الاستعدادات وهو نشوب الحرب بين فرنسا وانجلترا .

كانت غزوات العثمانيين الى ذلك الحين موجهــة الى الروم . ولكن حدث في سنة (٧٣٦ هـ – ١٣٣٦ م) أن توفى أمير قره سي – وهي احدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقــة الروم واختلف ولداه من بعده وتنازعا الإمــارة . واهتبل أورخان هذه الفرصة فتدخل في النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة . وقد كان مما تهدف اليه الدولة العثمانية الناشئة ان تخلف دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه . واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه .

وانصرف أورخان بعد ذلك الى توطيد أركان دولته والى الأعمــال الإصلاحية والعمرانية فنظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبــنى المساجد وانشأ المعاهد العلمية وأمضى في كل ذلك نحو عشرين عاماً . ثم دعته الأحداث والظروف الى القيام بعمل يعتبر بداية مرحلة جديدة وتطور هام في مجرى تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ أوروبا كلها ، ذلك هو نزول العثمانيين في أوروبا وما تلاه بعد ذلك من الفتوحات الواسعة فيها .

كان على عرش بيزنطة في ذلك الوقت امبراطور صبي عهد بالوصاية عليه الى والدته أنّا Anna والى رجل يدعى يوحنا كانتاكوزين John Cantacuzene ولكن هذا الرجل الطموح لم يقنع بهذه الشركة في الوصاية وطمع في ان يكون له شيء من الملك والسلطان ، وعارضته الإمبراطورة وقاومته فاحتربا واستنصر كل منهما السلطان أورخان . ولعل كانتاكوزين كان أسخى في البذل والمكافأة فآثره أورخان بالمعونة والنصر وانتهى الأمر بأن جعل عرش القسطنطينية قسمة بين كانتاكوزين وزوجته وأنّا وابنها يوحنا الذي تزوج

ابنة كانتاكوزين توثيقاً لهذه الرابطة . وتزوج أورخـــان ابنة أخرى له تدعى تيودورا سنة (٧٤٧ هـ – ١٣٤٦ م) وعاد الجنود العثمانيون الى آسيا الصغرى .

حدث بعد ذلك امر آخر استدعى مجيء العثمانيـــين مرة اخرى الى اوروبا ، وذلك عندما زحف إمبراطور الصرب دوشان على سالونيـــك سنة (١٣٤٩) وكاد يستولي عليها فاستنجد كانتـاكوزين بالسلطـــان اورخان فبعث اليه بعشرين الف مقاتل ونجت المدينة من الغزو الصربي. ثم عـاد العثمانيون ادراجهم الى آسيا الصغرى . على أن كانتاكوزين لم يقنع طويلاً بهذه الشركة في الحكم وطمحت به نفسه الى التفرد بالسلطان وأن تخلص الإمبراطورية له وحده يتوارثها اعقابه من بعده فثار عليه ختنه يوحنا باليولوج والإمبراطورة أنّا والدته ونشبت بذلك حرب اهليـــة . وللمرة الثالثة استنجد كانتاكوزين بالسلطان أورخان فأعانه بعشرين الف جندي بقيادة ابنه سليمان على أن يسلم كانتاكوزين للعثمانيين بعد انتصاره قلعة صغيرة على الشاطىء الأوروبي من الدردنيل وهي قلعـــة تزمب Tzympe على مسافة غير بعيدة من كليبولي وكانت أول بقعة احتلها العثمانيون في اوروبا. ولم يمض وقت طويل على استقرارهم في هذه القلعة حتى حدثت زلزلة عنيفة – وهو امر غير نادر الوقوع في تلك الأنحاء– فدمرت كثيراً من المدن ودكت بعض اسوار كليبولي التي تعـــد أهم حصن على الدردنيل واعتقد الروم والاتراك على السواء انها حدث إلهي يشير الى شيء ولكنهم اختلفوا في فهمه وادراك مغزاه . أما الروم فقد اعتقدو انها غضبة إلهية حاقت بهم فخرجوا من كليبولي وولوا عنهـــا هاربين وتركوا المدينة خواء . اما الأتراك فقد استبشروا واعتقـــدوا أن الله قد اراد بهم خيراً فمهد لهم السبيل للاستيلاء على هذا الحصن ومـــا هذا الحدث الذي زلزل قلوب الروم إلا آية من آيات النصر ينزلها الله على عباده المؤمنين فتثبت قلوبهم وتزيدهم ايماناً ، وزحف سليمان بجنوده

على كليبولي ودخلها بغير حرب ولا قتال . وشرع في إصلاح أسوارها وغدت كليبولي قلعة عثمانية وقاعدة لغزوات العثمانيين وفتوحاتهم في اوروبا ، واصبحت طلائعهم على بعد اميال فقط من القسطنطينية .

وتجسم لكانتاكوزين الخطر العثماني وادرك عظم خطئه في استدعائه للعثمانيين الى اوروبا وتشكى الى اورخان وطلب منه اعادة كليبولي ، كما عرض ان يدفع له مالاً عظيماً على أن يخلي تزيمب ، ولكن اورخان لم يكترث له وبعث كانتاكوزين الى الصرب والبلغار يستحثهم على عقد حلف من نصارى البلقان لاخراج الأتراك من اوروبا ولكنه لم يلق من هؤلاء غير السخرية والشماتة. وهاج الروم في القسطنطينية على كانتاكوزين وبلغ غضبهم عليه أشده في اواخر عام ١٣٥٤ بعد أن بهظتهم الضرائب والمكوس واتهموه بأنه يريد تسليم القسطنطينية للعثمانيين وخلعوه عن العرش . وقضى كانتاكوزين بقية حياته في الرهبنة ثم خلع ابنه وعاد يوحنا باليولوج الى عرش بيزنطة وتفرد به . غير أنه كان اضعف من أن ينازل العثمانيين بعد أن ثبتوا اقدامهم في المناطق التي احتلوها واخذوا بعد ذلك يتوغلون في تراقيا حيث استولوا على مدن اخرى ، واضطر يوحنا باليولوج آخر الأمر أن يعترف بهذه الفتوحات العثمانية واصبح بمنزلة التابع . ومات سليمان سنة (٧٥٩ هـ ــ ١٣٥٨ م) اذ سقط عن ظهر جواده في أثناء رحلة للصيد . وحزن أورخان لذلك اشد الحزن ولحق به في السنة التالية بعد أن قضى على شوكة الروم في آسيا الصغرى وفتح أبواب اوروبا لمن بعده .

مراد الأول : ترك أورخان لابنه مراد الأول جيشاً قوياً تمكن به من مد فتوحاته في أوروبا وآسيا معاً .

وكانت رقعة الدولة العثمانية في ذلك الوقت ضيقة النطاق تنحصر في شاطىء الدردنيل الأسيوي والاوروبي والشاطىء الأسيوي من البوسفور . وقد زاد مراد سعة هذه الدولة بخمسة اضعافها . استولى سنة (٧٦٣ هـ ــ

١٣٦١ م) على أدرنه دون أن يلقى مقاومة تذكر من حاميتها وهي أهم مدينة بعد القسطنطينة ، وقد أدرك مراد اهمية موقعها وخطورة مركزهـا فاتخذها عاصمة ملكه . واستولى بعد ذلك على فليبوبولي Philippopolis واصبح العثمانيون بذلك يتوسطون البيزنطيين والصرب والبلغار . ولم يجـد امبراطور القسطنطينية بداً من الإذعان للأمر الواقع فاعترف بفتوحـات العثمانيين وتعهد فوق ذلك بأن لا يعاون الصرب والبلغار بل يساعد السلطان مراد في حروبه ضد امراء آسيا .[١]

كانت انتصارات العثمانيين الى ذلك الحين تقع على الروم وهم قوم ضعاف رعاديد ولكنهم بعد توغلهم في البلقان وجدوا انفسهم تجاه شعوب أخر اشد بأساً وشكيمة وأكثر مراساً ودراية بالحرب والقتـال كالصرب والبلغار والمجر الذين هالهم تقدم العثمانيين .

وكانت البابوية الى ذلك الحين لا تكترث كثيراً لما كان ينزل عـلى الروم من الهزائم والنكبات فقد كانوا في نظرها زنادقة انجاساً ولم تبال باستغاثاتهم بها . اما الآن وقد استهدفت ممالك نصرانية كاثوليكية كالمجر للخطر الاسلامي فقد دعا البابا أوربان الخامس Urbain V الى حملة صليبية على العثمانيين ، واهاب بالمجر والصرب والأفلاق أن يتحـدوا ويكونوا إلباً واحداً عليهم ويخرجوهم من اوروبا . واحتشد من جميع هؤلاء جيش عرمرم التقى بهم العثمانيون على ضفاف نهر مارتزا وهزموهم هزيمة ساحقة سنة (٧٦٥ هـ – ١٣٦٣ م) وضم مراد الى ملكه المناطـق الواقعة في جنوبي جبال البلقان . أما البابا فقد انتابه غم شديـد من جراء هذه الهزيمة وغلبه البكاء والنحيب وايقن ان الأتراك لن يقـف في سبيل تقدمهم شيء[١] .

والحق أن معركة مارتزا تعد من المعارك الفاصلة في تاريخ الـدولة

---

١ Miller. The Balkans

العثمانية بل في تاريخ الإسلام ، فلو أن النصارى انتظروا في هذه الموقعة وأخرجوا الأتراك من أوروبا لواصلوا زحفهم الى آسيا الصغرى حتى بيت المقدس وربما تكررت مأساة الحملة الصليبية الأولى فإن فكرة تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين كانت لا تزال حية حاضرة في أذهان النصارى في ذلك الحين والى ما بعد ذلك الحين . وتقدمت جمهورية راجوزا من تلقاء نفسها الى السلطان مراد لما رأت شدة بأسه وعدالة حكمه وعقدت معه في سنة (٧٦٧ هـ - ١٣٦٥ م) معاهدة تجارية منح بها مراد أهل راجوزا الامتياز بالاتجار في املاكه على أن تدفع له الجمهورية جزية سنوية قدرها خمس مئة دوقة ذهباً وهي أول معاهدة عقدها العثمانيون مع دولة نصرانية . وذهب امبراطور القسطنطينية الى مدى أبعد في الخضوع للعثمانيين فقبل ان يدفع جزية سنوية للسلطان وأن يقدم اليه جنوداً في حروبه المقبلة . وما لبث الأمبراطور أن ضاق ذرعاً بما وصل اليه حاله من الضعف والذلة والهوان فرحل عام ١٣٦٩ الى رومة على أمل ان ينجح في حمل البابا على دعوة الدول النصرانية الى شن حملة صليبية جديدة على العثمانيين وقام الأمبراطور في سبيل ذلك بطقوس المذهب الكاثوليكي وركع أمام البابا وقبل يديه ورجليه ولكنه برغم ذلك لم يصل الى شيء مما كان يريد وعاد ادراجه الى القسطنطينية وقد جلب على نفسه سخط الروم وغضب السلطان . ولم يجد بداً من الأذعان للأمر الواقع على مرارته ، وعقد مع السلطان مراد معاهدة اعترف فيها بالتبعية الصريحة له وتعهد بأن يخدم بنفسه في الجيش العثماني وقدم ابنه مانويل ليكون رهينة في يد السلطان .

واصل مراد وقواده فتوحاتهم في أوروبا واستولوا على كثير من المدن أهمها ساماكوف وصوفيا وموناستر ونيس وسربس وسالونيك واصبح ملكا بلغاريا وصربية يدفعان الجزية للدولة العثمانية . كذلك وسّع السلطان مراد حدود دولته في آسيا الصغرى فيما بين سنتي (٧٧٨-٧٨٢هـ=١٣٧٦-١٣٨٠م)

فقد زوج بايزيد بنه بابنة أمير كرميان على أن يسلم للسلطان قلعة كوتاهية وعدة مدن أخرى من إمارته . أرغم السلطان مراد أمير الحميد على ان يبيع له جزءاً من إمارته . كذلك استولى على جزء من إمارة تكة . وكان أشد هذه الإمارات بأساً وأعظمها شوكة إمارة القرمان . وقد ظلت تصاول العثمانيين وتراوغهم حتى أيام الفاتح . وقد انتهز علاء الدين أمير هذه الإمارة انهماك السلطان مراد في الحروب هنا وهناك فزحف على حدود دولته غير أن السلطان مراد عاجله وهزمه في سهل أنقره سنة (٧٧٩ هـ – ١٣٧٧) ووقف عند ذلك ولم يأخذ شيئاً من إمارته .

ولم تكد تنتهي الحرب في آسيا حتى اندلعت حرب اخرى في أوروبا كانت كلمة الفصل بين العثمانيين ونصارى البلقان ، فقد تحالف سسمان ملك صربية على قتال العثمانيين واستطاع مراد أن يهزم سسمان على چدة واخضع معظم بلغاريا .

أما لازار فقد نضم إليه أمراء البوسنة والافلاق وألبانيا والهرسك وجاءته جنود من المجر وبولندة واجتمع من جميع هؤلاء جيش لهام يكثر جيش المسلمين أضعافاً مضاعفة وكانوا على ثقة ويقين من النصر وقد وطدوا عزمهم على استئصال شأفة العثمانيين من أوروبا قبل ان ترسخ أقدامهم فيها واتجهوا الى قوصوه وعسكروا بها . ونهد إليهم السلطان مراد برغم كبر سنه وكان وزيره يحمل معه مصحفاً ففتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » (سورة الأنفال الآية ٦٥) . فاستبشر بالنصر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمي وطيسه واستعرت الملحمة واستماتوا في القتال . ولا غرو فكلاهما كان يعلم أنها المعركة التي تحسم النزاع وتقرر المصير . وانجلت الحرب آخر الأمر عن انتصار المسلمين انتصاراً باهراً حاسماً . وقد اغتيل السلطان مراد

قبيل نهاية المعركة على يد رجل صربي ؛ وكان ذلك في سنة (٧٩١هـ — ١٣٨٩ م) .

بايزيد : وخلفه على السلطنة ابنه بايزيد فبدأ بقتل أخيه يعقوب خشية أن ينازعه الملك فتقوم الفتنة إذ لم يكن هناك نظـام ثابت واضح لوارثة العرش وهو مقبل على اعمال خطيرة تستدعي الأمن والطمأنينة في الداخل.

واصل بايزيد فتوحات والده في أوروبا وآسيا وكان أشد منه اندفاعاً واقتحاماً وقد صرح لوفد قدم إليه من إيطاليا لبعض الشؤون التجاريـة أنه بعد أن يفتح المجر سيزحف الى رومـة ويطعم حصـانه العشب في مذبح القديس بطرس[1] . واعترف استفان ملك صربية بالسيادة العثمانيـة وأخذ على نفسه أن يدفع جزية سنوية للسلطان ويقدم إليه فرقة من الجند، وقد وفى استفان بعهده فقاتل جنـوده الصرب مع بايزيد في معركـتي نيكوبولي وأنقرة بشجاعـة وإخلاص ونزلت بيزنطـة دركة أخرى في الخضوع للدولة العثمانية ، فأنه لما أبى قائد الآشهر « فلادلفيـا » وهي آخر قلعة لبيزنطية في آسيا الصغرى — تسليمها للسلطان بايزيد زحف عليها الإمبراطور يوحنا وابنه مانويل بأمر السلطان وسلماها له ! واستولى بايزيد أيضاً في آسيا الصغرى على إمارات ايدين وصاروخان ومنتشا وفر أمراؤها ولجؤوا الى إمارة قسطموني في الشمال . وضم البقية الباقية من إمارتي تكة وكرميان ثم فتح إمارة القرمان سنة ١٣٩٢ . وفتح فيما بين سنتي (٧٩٥—٧٩٦هـ= ١٣٩٣ — ١٣٩٤ م) مدن سامسون وقيساريه وسيواس وتوقات واستولى أخيرا على قسطموني وبذلك قضى على آخر إمـارة من الآمارات التسع التي قامت على انقاض دولة سلاجقة الروم وفر أميرها مع من لجأ إليه من الأمراء الآخرين الى تيمورلنك . وخلصت آسيا الصغرى برمتهـا

---

١ Lord Eversly, The Turkisk Empire. Daru, Histoire de la République de Venise.

لسلطان بايزيد لم يبق عنه منها غير أمبراطورية طرابزون في الشمال وأزمير في الجنوب الغربي ، فقد كانت هذه في يد فرسان رودس[1] .

وفي اوروبا ضم بايزيد الى الدولة العثمانية الجزء الشمالي من بلغاريا كما استولى على نيكوبولي وويدين وسلستريا ثم عبر نهر الطونه وأرغم أمير الأفلاق على الخضوع ودفع الجزية واقترب بايزيد بذلك من حدود المجر وذعر ملكها سجسمون فبعث الى اوروبا يستغيث ويستصرخ (١٣٩٥) وسارع البابا بونيفاس التاسع Boniface IX الى تلبية استغاثته ودعا جميع النصارى الى حملة صليبية قوية على العثمانيين ووعد بالغفران التام كل من يشترك في هذه الحملة[2]. وتوافد الجنود والفرسان الى المجر وتهاطلوا من جميع انحاء اوروبا : من فرنسا وانجلترا وسكوتلاندة والمانيا والفلاندر ولومبارديا وسافوي وجنوا وترانسلفانيا ومولدافيا والبوسنه ورودس والافلاق التي رفض اميرها دفع الجزية للسلطان وجهزت البندقية وبعض جزر الأرخبيل اسطولاً كبيراً لهذه الحملة . وكانت الخطة المرسومة أن يقوم هذا الأسطول بالهجوم على العثمانيين من ناحية البحر في الوقت الذي يهجم فيه الجيش البري المحالف عليهم من ناحية البر ويقع المسلمون بذلك بين شقي الرحى فيطحنون طحناً لا ينجو منهم احد ، واحتشد هذا الجيش العرمرم الكبير في بودا بالمجر سنة ١٣٩٦ ثم انحدروا مع نهر الطونه وعسكروا امام نيكوبولي وكانوا على اعظم ثقة بالنصر ينظرون الى هذه الحملة على انها نزهة عسكرية ووطدوا عزمهم بعد هزيمة بايزيد أن يواصلوا الزحف الى القسطنطينية فآسيا فالشام ففلسطين وينقذوا بيت المقدس من أيدي (الكفار)[3] وخرج السلطان بايزيد في جيشه والتحم بهؤلاء

---

1 Flandin. Historie des Chevaliers de Rhodes.

2 Sir Edward Creasy. History of the Ottoman Turks.

3 Gibbon, The History of thl Decline and Fall of the Roman Empire. Sir Edward Creasy, op. cit. Sir James Porter. Turkey, its history and progress.

الصليبين في نيكوبولي في قتال مرير عنيف انتهى بانتصار المسلمين انتصاراً باهراً كاملاً ووقع في اسرهم كثير من عظماء جيش النصارى (ذو الحجة ٧٩٨ هـ – سبتمبر ١٣٩٦ م) . وفي نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد في زهو وكبرياء انه سيفتح ايطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما [١] . أما سجسموند ملك المجر الذي كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال : لو انقضت السماء من عليائها لأمسكناها بحرابنا – فقد ولى هارباً ومعه رئيس فرسان رودس. ولما بلغا في فرارهما شاطىء البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصراني فوثبا على احدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء . وتضاءلت مكانة المجر في عيون الناس بعد موقعة نيكوبولي وذهب ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة .

عاد بايزيد الى ادرنة وكان قد ترك كتيبة من جنده تحاصر القسطنطينية فقد كان يرى أن لا مندوحة له عن الاستيلاء عليها لتأمين كيان دولته وطلب من الأمبراطور أن يسلمها له ووعده بالأمان لنفسه ولجميع اهل المدينة قبل ان يفتحها عنوة وتزهق الأرواح وتراق الدماء . ولكن الأمبراطور على ضعفه كان يدرك اهمية القسطنطينية وخطورة مكانتها وموقعها وكان على يقين بأن الدول النصرانية لن تدعها تقع في يد العثمانيين بل ستسرع الى نجدته ومناصرته فبعث الى السلطان بايزيد يأبى عليه ما طلب وليفعل ما شاء . وتأهب بايزيد وهمّ بالهجوم على القسطنطينية ولكن حدثاً هاماً صرفه عن المضي في امره وحمله على رفع الحصار عن المدينة واسرع بجيشه الى آسيا الصغرى . ذلك أن الفاتح التتري تيمورلنك كان قد وصل في زحفه من الشرق الى حدود الدولة العثمانية وشرع يتوغل فيها .

---

١ Gibbon, op. cit. Allen, The Turks in Europe.

وكانت الدولة العثمانية كما قد رأينا تزداد كل يوم قوة وأيداً وتزداد كل يوم امتداداً واتساعاً. واستحوذ الرعب والفزع على قلوب اهل اوروبا فلما تسامعوا بالفاتح التتري بعثوا اليه يحرضونه على قتال العثمانيين ويغرونه بهم وكتب اليه ملك فرنسا شارل السادس الرسالة تلو الرسالة يستعجله ويستحثه على هذا الأمر .

وكان تيمورلنك من جهته قد اتسع ملكه وقويت شوكته وعظمت مهابته وتشوفت نفسه الى الخلافة ونظر فلم يجد نداً يكافئه وينافسه غير سلطان العثمانيين . فكان طبيعياً أن يسارع الى تلبية دعوة اهل اوروبا له اذ كان يعلم انه مقبل على منازلة رجل شديد البأس قوي الشكيمة مسعر حرب فلم يكن احب الى نفسه من ان يجد حلفاء يعينونه على قتاله وطلب من دول اوروبا البحرية وفي مقدمتها جنوا والبندقية أن تأتي بسفنها لمقاتلة العثمانيين من البحر بينما يقوم هو بقتالهم في البر وتستطيع هذه السفن فوق ذلك أن تسد الطريق على الجنود العثمانية ، القادمة من اوروبا الى آسيا .

وهكذا اصبح السلطان بايزيد بين فاتح طموح في الشرق يسعى الى إزالته والقضاء عليه ليتفرد بالخلافة والأمر بين المسلمين وبين عدو مكلوم موتور في الغرب يريد هلاكه وموته .

وكان بعض الامراء الذين قهرهم تيمورلنك قد لجأوا الى بايزيد وأخذوا يحرضونه على قتال ملك التتار أملاً في استعادة املاكهم . كما أن بعض الامراء الذين غلبهم بايزيد في آسيا الصغرى قد لجأوا الى تيمورلنك واخذوا يحرضونه على قتال السلطان العثماني طمعاً في استعادة املاكهم ايضاً . وكان ذلك كافياً لاشعال نار الحرب بين رجلين كان كل منهما عظيم الكبرياء شديد الاعتداد بنفسه فكتب كل منهما الى الآخر — في لهجة عنيفة شديدة — يتهمه بمالأة اعدائه والخارجين عليه . وخرج بايزيد وهو يتوقد غيظاً وحنقاً لملاقاة تيمورلنك وقد دفعه هذا الغضب الجامح الى التهور والاندفاع وأعجله عن التبصر والحذر فلم يحسن اختيار المكان

الذي نزل فيه بجيشه الذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين الف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثماني مئة الف .

ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء وكان الوقت صيفاً شديد القيظ . ولم يكد يلتقي الجيشان في انقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا في جيش بايزيد وجنود الامارات الاسيوية التي فتحها منذ عهد قريب وانضموا جميعاً الى جيش تيمورلنك ولم يجد السلطان العثماني بعد ذلك ما اظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة والاستماتة في القتال ، فقد احدق بهم التتار من كل جانب . وتكاثروا عليهم بجموعهم الزاخرة وهزموهم هزيمة ساحقة ووقع بايزيد وابنه موسى وبعض كبار رجال جيشه في اسر التتار (٨٠٤هـ — ١٤٠٢م) . ولم يصادف تيمورلنك بعد ذلك أية مقاومة تعترض سبيله فاستولى على ازنيق وبروسة وغيرهما من المدن والحصون ثم دك اسوار ازمير واستولى عليها من يد فرسان رودس وأعاد تيمورلنك كثيراً من الامارات الاسيوية الى أمرائها السابقين ودانوا له بالطاعة والولاء . وفي اوروبا استعادت الأمبراطورية البيزنطية كثيراً من ملاكها السابقة كما استعادت الدول المغلوبة كبلغاريا وصربية والأفلاق والمورة سيادتها واستقلالها .

وزاد الطين بلة الحرب الاهلية الطاحنة التي اعقبت هذه النكبة الفاجعة ودامت عشر سنين ، فقد كان لبايزيد خمسة ابناء اشتركوا معه في القتال ، أما مصطفى فقد ظن انه قتل في المعركة ، أما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الاخرون في الفرار . أما اكبرهم سليمان فقد ذهب الى أدرنة واعلن نفسه سلطاناً هناك . وذهب اخوه عيسى الى بروسة وأعلن للناس انه خليفة أبيه . أما محمد وهو اصغرهم فقد انسحب مع بعض الجند الى اماسيا في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى . ونشبت الحرب بين هؤلاء الإخوة الثلاثة يتنازعون بينهم اشلاء الدولة الممزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب . ثم اطلق تيمورلنك الأمير

الأسير موسى ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراماً وشدة واخذ يحرضهم على القتال ؛ ويغري بعضهم ببعض . وبعد عام ارتحل تيمور لنك بجيشه العرمرم عن آسيا الصغرى كما يرتحل الجراد المنتشر بعد ان يقضي على الأخضر واليبس وترك وراءه البلاد على اسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى .

أما الدول النصرانية في الغرب فقد هزها الفرح والطرب لمصرع بايزيد وما آلت اليه دولته من التفكك والانحلال . وبعث ملوك انجلترا وفرنسا وقشتالة وامبراطور القسطنطينية الى تيمورلنك يهنئونه على ما احرزه من النصر العظيم والظفر المجيد – واعتقدت اوروبا انها قد تخلصت الى الأبد من الخطر العثماني الذي طالما روعها وهددها . ولكن الدولة العثمانية اظهرت في هذه المحنة القاسية مناعة عجيبة وحيوية فذة اثارت دهشة كثير من مؤرخي الغرب [1]. نعم كان انتصار تيمور انتصاراً

---

١ Voltaire, Les Mœurs des Nations, Finlay, A History of Greece. Lane Poole, Turkey. Lord Eversly, The Turkish Empire. Jarman, Turkey.

ترجع هذه حيوية في جوهرها إلى القواعد المحكمة الراسخة التي قامت عليها الدولة العثمانية والتي تتركز في حسن الإدارة المدنية والسياسية والعسكرية والتفوق الأدبي والخلقي للعثمانيين على سائر المجتمعات الأخرى القائمة آنذاك والتي نخر فيها الفساد والانحلال ؛ ثم الحرص الشديد على إجراء العدالة الصارمة بين الناس لا فرق في ذلك بين مسلم ونصراني وقد ذكر لنا التاريخ لذلك أمثلة رائعة فذة ؛ وقد وجد الروم وغيرهم من الشعوب التي استظلت بالحكم العثماني من السماحة والحرية الدينية وحسن المعاملة ما لم يجدوا مثلها تحت أي حكم آخر . ويبدي المؤرخ الانجليزي الكبير جورج فنلي أعظم تقدير وإعجاب بالسلطان أورخان أول من وضع – بمعونة أخيه ووزيره علاء الدين – للدولة العثمانية النظم الإدارية والعسكرية ويعده أعظم مشترع في العصور الحديثة .

لقد قامت إلى جانب إمارة عثمان بعد انهيار الدولة السلجوقية تسع إمارات أخرى فكيف تيسر لإمارة عثمان من النمو والتقدم والازدهار ما لم يتيسر لغيرها من الإمارات الأخرى وقد كان بعضها كإمارة قرمان أوسع وأقوى منها؟ إنها لمعجزة من أروع وأندر المعجزات التي تفتقت=

عظيماً ولكنه على عظمه كان تافه الاثر في مصير المغلوبين . لقد قضى تيمور على القوة العسكرية للدولة العثمانية ولكنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها ، فما لبثت هذه الدولة أن انبعثت من بين الانقاض والأطلال وانتعشت وسرى في عروقها ماء الحياة والفتوة واستأنفت سيرها الى الأمام في ثبات وقوة كعهدها من قبل ! .

محمد الأول : دامت الحرب الأهلية بين ابناء بايزيد عشر سنين وقد استطاع محمد وهو أصغر الأربعة بما اوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر أن يتغلب على إخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد اركانها فسالم امبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد اليه بعض المدن على شاطىء البحر الأسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة اسطوله أمام كليبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا واوروبا واخضع بعض الإمارات الأسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالولاء والطاعة .

وظهر بعد ذلك رجل زعم أنه مصطفى بن بايزيد ، وطالب بالملك لنفسه زاعماً أنه أولى به من أخيه الأصغر محمد فقاتله السلطان بالقرب من سالونيك ففر الى امبراطور القسطنطينية ولاذ به وأبى هذا أن يسلمه واحتبسه عنده . وتوفي السلطان محمد سنة (٨٢٤ هـ – ١٤٢١ م) بعد أن ثبت قواعد الدولة العثمانية واسترجع بعض املاكها المفقودة وأعاد إليها كثيراً مما كان لها من الهيبة والسطوة .

مراد الثاني : وخلفه على السلطنة ابنه مراد وسنفصل القول بعض الشيء في الحوادث التي وقعت في عهده فقد شهد ابنه محمد (الفاتح)

= عنها العبقرية البشرية إذ استطاع عدة مئات من قبيلة نازحة أن يؤسسوا في وقت قصير امبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التي شهدها العالم . ولم يكن لقوة السلاح في ذلك من أثر ما كان للقوانين والنظم المحكمة القوية .

راجع : Finlay, Ibid Lane Poole. Ibid. :

طرفاً من هذه الحوادث واشترك في بعضها ، وكان لذلك أثره الكبير في نفسه وفي السياسة التي انتهجها فيما بعد .

كان مراد في الثامنة عشرة من عمره حينما ولي السلطنة سنة (٨٢٤ هـ ١٤٢١ م) وواصل سياسة والده السلمية فعقد الصلح مع أمير القرمان وعقد هدنة لخمس سنوات مع ملك المجر .

غير ان هذه السياسة السامية قد أغرت امبراطور القسطنطينية وكان كغيره من الروم شديد الغرور كبير الاعتداد بنفسه وبتفوقه على العثمانيين في الشطارة والمهارة السياسية ومعرفة خططها وأساليبها . وزاده غروراً واستكباراً صغر سن السلطان مراد فاستخف به واستضعفه واستصغر شأنه وبعث اليه يطلب منه أن يسلم اليه أخويه الصغيرين لتنشئتهما وتربيتهما في قصره؛ وابى السلطان ذلك عليه بطبيعة الحال لأن دينه يأباه . فما كان من الامبراطور إلا أن أطلق سراح مصطفى الأسير عنده بعد ان كتب على نفسه ان يرد الى الامبراطورية البيزنطية جميع ما كان لها من المدن التي استولى عليها العثمانيون إذا ما نجحت ثورته . واعانه الأمبراطور مانويل ببعض الجند والسفن . واشتدت شوكة هذا الخارج الدعي واستفحل أمره وكثر أتباعه وهزم جنود السلطان مراد في أوروبا . وبعد أن تمت لمصطفى الغلبة والسيطرة على المناطق الأوروبية عبر الدردنيل ليقاتل السلطان مراد نفسه في آسيا غير أن هذا السلطان استطاع بدهائه ان يخذل عنه جنوده ثم انقض عليه فهزمه وفر مصطفى الى أوروبا وطورد من مكان الى مكان حتى قبض عليه وقتل . وادرك امبراطور القسطنطينية سوء عمله والخطر الذي يهدده واراد ان يخفف من غضب السلطان مراد فبعث اليه يهنئه بانتصاره ويعتذر له عما فرط منه ؛ ولكن السلطان مراد لم يكترث له وزحف تواً في عشرين ألف مقاتل الى القسطنطينية وحاصرها . غير أن ثورة جديدة في آسيا الصغرى اضطرته الى رفع الحصار فقد نجح امبراطور القسطنطينية في إغراء أخ أصغر لمراد يدعى مصطفى أيضاً وحمله على

الخروج على أخيه ليخفف بذلك عن نفسه وطـأة الحصار المضروب على مدينته . ولقي مصطفى عوناً وعضداً من بعض أهل القرمان وكرمان وقويت بذلك شوكته وهزم جيشاً للسلطان مراد في آسيا الصغرى . فلم يجد السلطان بداً من رفع الحصار عن القسطنطينية والإسراع بجيشه الى آسيا الصغرى حيث قمع الثورة وقضى على الثائر . وأتبع السلطان مراد ذلك بفتوحات أخرى في آسيا الصغرى ففتح إمارات ايدين ومنتشا وتكه وجزءاً عظيماً من إمارة قسطموني . وجاءه أمير كرميان فأوصى له بإمارتـه وقد ورثها عنه السلطان مراد في السنة التالية : وبذلك قضى على الإمارات التي بعثهـا تيمورلنك بعد موقعة أنقرة ولم يبق في آسيا الصغرى الى جانب امبراطورية طرابزون غير إمارتي القرمان وقسطموني بعد أن تقلصت رقعتها كثيراً وصغر حجمها .

وتفرغ السلطان مراد بعد ذلك لشؤون أوروبـا ؛ وكان امبراطور القسطنطينية مانويل ، الذي أثار عليه الفتن والثورات ، وقد مات خلفه على العرش يوحنا باليولوج فعقد معه السلطان مراد معاهدة فرض عليه فيهـا جزية ثقيلة واستولى على اكثر املاكه الواقعـة خارج القسطنطينية وتركه محصوراً بين اسوار هذه المدينة . واستولى السلطان مراد بعد ذلك على سالونيك وكانت قد فتحها السلطان مراد الأول سنة ١٣٨٦ واستردهـا الروم ففتحها السلطان بايزيد سنة ١٣٩٤ واستردها الروم كذلك ثم فتحها السلطان محمد الأول سنة ١٤١٣ فما كان من امبراطور الروم إلا أن باعها للبنادقة ولكن السلطان مراد لم يعترف بهذا البيع وفي سنة (٨٣٣هـ – ١٤٣٠م) هجم عليها بجيشه واستولى عليها برغم مقاومة البنادقة العنيفة وأصبحت جزءاً من الدولة العثمانية .

وتوجه السلطان مراد بجيشه بعد ذلك الى ألبانيا وكانت منقسمة الى قسمين : جنوبي وشمالي . أما الأول فكان يحكمه رجل فلورنسي وقد تنـازع أولاده الإمارة بعد وفاته فلما دخل الجيش العثماني سهل عليه إخضاع يانينا

وغيرها من الأماكن والقلاع فيهـا . أما القسم الثاني فكان يحكمه جان كاستريوتا Jean Castriota الألباني وقد استسلم ايضاً للجيش العثماني ورضي بدفع جزية سنوية للسلطان مراد وسلم اليه أبناءه الأربعة ليكونوا رهائن لديه . وسار السلطان مراد الى الأفلاق وكان عرش هذه البلدة قد اغتصبه رجل يدعى ولاد دراكول Wlad Drakul ، وطمعاً في الاحتفاظ بهذا العرش المغتصب رضي أن يدفع للسلطان مراد جزية سنوية ويقدم له جنوداً يحاربون معه تحت لوائه .

لقد علا شأن الدولة العثمانية مرة اخرى وعظم امرها وأصبحت مصدر فزع ورعب لأوروبا فأخذت الدسائس والمؤامرات والمحالفات تحاك من جديد ضد هذه الدولة . وأوعز سجسموند ملك المجر الى أمير القرمان بمحاربة الدولة العثمانية. ولم يكد السلطان مراد يلوي عنان فرسه الى آسيا حتى ثار عليه من خلفه أمير الأفلاق وأمير صربية فما أن انتهى السلطان مراد من اخضاع أمير القرمان حتى عجل في العودة الى اوروبا فأخضع دراكول أمير الافلاق . أما أمير صربية جورج برنكوفيتش فقد استسلم من تلقاء نفسه ، واظهاراً لخضوعه قدم ابنته الى السلطان لتكون زوجة له، وانتقاماً من ملك المجر أمر السلطان مراد جنوده بغزو بلاده وعادوا منها بسبعين ألف أسير (٨٤٢ هـ – ١٤٣٨ م) . ولم يكد السلطان مراد يبتعد بجيشه حتى عاد جورج برنكوفيتش الى الثورة فعاد السلطان مراد واستولى على سمندره بعد حصار ثلاثة اشهر ؛ وفر برنكوفيتش ولجأ الى ملك المجر ألبر الذي خلف سجسموند وقد أراد إنجاد الصرب ونصرتهم ، غير أن جنوده لم تكد تقع ابصارهم على العثمانيين حتى ولوا هاربين .

وحاصر السلطان مراد بعد ذلك بلغراد وامضى ستة أشهر في حصارها ولكنه عجز عن فتحها فرحل عنها سنة (٨٤٣ هـ – ١٤٣٩ م). لقد حالف التوفيق والنصر السلطان مراد في جميع اعماله وحروبه في آسيـا واوروبا منذ بداية حكمه ولكنه بعد ارتداده عن بلغراد توالت عليهم الهزائم والمحن

وتلقاها بصبر وثبات عجيب . فقد ظهر في ذلك الوقت القائد المجري المشهور جان هونياد Jean Hunyade فهزم جيشاً عثمانياً كبيراً في هرمنستاد Hermanstade وجيشاً كبيراً آخر في وساج Vassag سنة ٨٤٦ هـ وكان البابا أوجين الرابع Eugene IV قد دعا عقب مجمع فلورنسة الذي عقد سنة ١٤٣٩ الى حملة صليبية لقذف الاتراك من اوروبا . وقد أثارت انتصارات هونياد حماساً كبيراً بين الاوروبيين وقوت العزم على القيام بهذه الحملة . ونشط البابا في ذلك نشاطاً عظيماً فأرسل جيشاً بقيادة الكاردينال جوليان سيزاريني Julian Cesarini كما بعث رجاله ومندوبيه الى جميع انحاء اوروبا لبيع صكوك الغفران Indulgences [1] وجمع من ذلك مالاً عظيماً وكانت حملة صليبية شنتها النصرانية على الاسلام [2] .

واشتركت في هذه الحملة الصليبية الكبيرة المجر وبولندا وفرنسا والمانيا والبندقية وجنوا والافلاق والبوسنه وصربيه . وكان على رأسها قواد ثلاثة : الفارس المجري هونياد وملك المجر لادسلاس ومندوب البابا الكاردينال سيزاريني .

وكان السلطان مراد اذ ذاك في آسيا الصغرى يقاتل امير القرمان الذي توطأ مع الفرنج وشن على الدولة العثمانية حرباً شديدة مستعرة . واراد الصليبيون أن يقطعوا على السلطان مراد خط الرجعة الى اوروبا ، وذلك بالسيطرة على الدردنيل بسفنهم والحيلولة بينه وبين عبوره ، ولم تكن للدولة العثمانية في ذلك الحين قوة بحرية تستطيع منازلة السفن النصرانية الكثيرة القوية . غير أن السلطان مراد عجل في العودة الى اوروبا وتفادى من هذا الحصار البحري والتقى بالصليبيين في نيش فهزمه هونياد (رجب ٤٧٨ هـ — نوفمبر ١٤٤٣) واستولى على صوفية وواصل زحفه فعبر

---

١ Gibbon, op. cit.

٢ Lord Eversly, op. cit.

جبال البلقان برغم الشتاء القارس وهزم العثمانيين مرة اخرى في يالوفــاز Yalovaz . وكان المنتظر أن يزحف هونياد بعد ذلك الى أدرنة عاصمة الدولة العثمانية ويقذف بالبقية الباقية من المسلمين الى البحر ولكنه لم يفعل وتوقف عن الزحف كأن قوة خفية قد أمسكت به عن السير أو لعــله كان يخشى أن المسلمين قد كمنوا له في موضع وتربصوا به . ومهما يكن الأمر في ذلك فان هونياد قد توقف عن الزحف بل عاد ادراجه بجيشه يغذ في السير كأنما كان يفر من شيء .

وفرح المسلمون لذهاب الخطر وانكشاف الغمة عنهم . ولم ير السلطان مراد أن يطارد هونياد في رجوعه، وهو نفسه احوج ما يكون الى الاستجمام واستجماع القوى، فعرض الصلح على هونياد فقبله واتفق على أن يعيــد السلطان مراد صربية بجميع مدنها وقلاعها الى جورج برنكوفيتش ويعيد الافلاق الى دراكول على ان تكون هذه تحت سيادة المجر ويتهــادن الفريقان عشر سنين، وتوكيداً لهذا الاتفاق عقد في سزجدين Szœgeddin في (ربيع الثاني ٨٤٨ هـ - يوليو ١٤٤٤ م) معاهدة اقسم عليها لادسلاس ملك المجر بالانجيل والسلطان مراد بالقرآن .

ولم يكد السلطان مراد يمضي هذه المعاهدة حتى فجع في ابنه علاء الدين واشتد حزنه عليه وزهد في الدنيا والملك ونزل عن السلطنــة لابنه محمد وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره ؛ ولصغر سنه أحــاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته ثم ذهب الى مغنيسيا في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة ويتفرغ في هذه الخلوة الى عبادة الله والتأمل في ملكوته بعد أن اطمأن الى استتباب الأمن والســلام في أرجاء دولته . وقــد كان السلطان مراد الى جانب كونه من رجال الحرب والسياسة يعد أيضاً من أهــل الحكمة والفلسفة[1] ولكنه لم يستمتع

[1] Voltaire op. cit.

طويلاً بهذه الخلوة والعبادة فقد خطرت لل الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه فكرة جهنمية ولوح لهم الشيطان أن الفرصة قد سنحت لطرد الأتراك من أوروبا فإن السلطان مراد قد اطمأن الى خلوته وعزلته في مغنيسيا وترك الدنيا وراء ظهره وليس على عرش السلطنة غير فتى غر لاخبرة له ولا خطر والناس قد اطمأنت نفوسهم الى السلام والموادعة فلماذا لا نكر عليهم على غرة كرة قوية نقذف بهم الى البحر ؟

ولقيت هذه الفكرة استحساناً وتشجيعاً لدى البابا أوجين الرابع فأشار الكاردينال سيزاريني على الملك لادسلاس أن يبادر الى تنفيذها قبل فوات الأوان ، لا سيا وقد بلغهم نشوب حرب جديدة في القرمان . ولكن لادسلاس ثقل على نفسه أن ينقض عهداً أقسم عليه بالإنجيل ولم يجف بعدُ المداد الذي كتب به هذا العهد . فهون عليه الكاردينال سيزاريني الأمر وأقسم له بالثالوث المقدس أن لا حرج في نقض عهد الكفار (المسلمين) بل هو « قربى الى الله»[1] وكتب البابا نفسه الى لادسلاس يأمره بنقض هذا العهد ولا إثم عليه في ذلك ولا تثريب لأن العهد عقد بغير علمه[2] . ومـا زال البابا والكاردينال يلحان على الملك لادسلاس حتى أصاخ لهما وأطاع . كذلك عارض هونـياد في أول الأمر هذا النقض الآثم والغدر الفاضح ولكنه لما وعد بملك بلغاريـا هان عليه الغدر والإثم وأشـار عليهم أن يتريثوا قليلا حتى يخلي الأتراك القلاع التي في صربية ويجلو عنهـا كما اتفق على ذلك المعاهدة .

وانضم أمير صربية أيضا الى المتآمرين بعد ان وعد بأن يزاد في ملكه وكان الكاردينال سيزاريني عظيم النشاط دائم الحركة لايكل عن العمل ، يجد ويسعى لإنجاح خطته وكان لا يشغل باله بالليـل والنهار غير شيء

١ L'abbé Mignot cité par Lamartine, Histoire de la Turquie.

٢ Voltaire. op. cit.

واحد هو القضاء على الأتراك[1] . وذهب سيزاريني الى دار ندوة المجر (الدييت) وخطب في المجتمعين فحرضهم على القتال واهاب بهم ان يغتنموا هذه الفرصة الغالية قبل ان تفوت وأن المعاهدة التي عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض وأنه باسم البابا يبرىء ذمتهم من نكثها ويبارك جنودهم وأسلحتهم ؛ وعليهم أن يتبعوا طريقه فانه طريق المجد والخلاص ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشي الاثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه[2] .

وكتب أمبراطور القسطنطينية يوحنا باليولوج والكاردينال فرنشسكو جونلدميري Francesco Gonloldmieri قائد الأسطول البابوي الى الملك لادسلاس يستحثانه ويحرضانه أيضاً على انتهاز هذه الفرصة للقضاء على العثمانيين في أوروبا .

ولم يلبث أن اتسع نطاق هذه المؤامرة الصليبية فدخلت فيها انجلترا وفرنسا وبورغنديا وميلان وفلورنسة والبندقية وجنوا[3] ووعدت هذه الدول أن تشترك في الحملة الصليبية التي ستشن على العثمانيين . وكانت الخطة المرسومة هي أن تدلف سفن البابا والبندقية وجنوا وتدخل سراً الى الدردنيل لتحول بين السلطان مراد وبين العبور الى أوروبا يعاونها في ذلك أمبراطور القسطنطينية ويقوم أمير القرمان عند بدء الزحف الصليبي في أوروبا فيشن حرباً مباغتة عنيفة على السلطان مراد ليشغله ويشل حركته. وبعد أن حشد الصليبيون كل ما استطاعوا من جند وأعدوا كل ما استطاعوا من عدة بدأوا زحفهم الى الشرق ولم يخالجهم أي شك في أنهم سيأخذون الأتراك على غرة ويقضون عليهم . وانضم إليهم بعد ذلك أمير الأفلاق وأفواج كثيرة من أمم شتى بين متحمس للدين يبتغي الثواب

---

١ Seton-Waston. A. History of the Roumanians.

٢ Gibbon op. cit. Eversly op. cit.

٣ Lamouche. Histoire de la Turquie.

والأجر ومرتزق مغامر يطمع في السلب والغنيمة . ولم يجد أحد منهم حرجاً في النفس أو وخزاً في الضمير على ما هم مقبلون عليه من عمل ، وكأن الطبيعة نفسها قد استنكرت هذا الغدر الشائن والنقض الآثم لعهد عقد على اسم الله فاهتزت أرض المجر وزلزلت كأنما تحاول أن توقظ الضمائر الهامدة التي ران عليها الهوى والجشع .

اجتاز الصليبيون سهول البلغار فأمعنوا في القتل والسلب والنهب واعتدوا على الكنائس الرومية والبلغارية وأحرقوا مدن المسلمين وقراهم وأخذوا يقذفون بالأسرى من أعالي الجبال الى المهاوي السحيقة . وقد كان قائدهم هونياد سفاكاً غليظ القلب. وكان يلذه أن يقتل الأسرى بين يديه ، وهو يتناول طعامه فيطرب لسماع حشرجتهم وأنينهم . وفي ٩ نوفمبر وصلوا وارنه وأقاموا معسكرهم هناك وكان هونياد يؤمل أن يواصل سيره بعد ذلك الى أدرنه عاصمة العثمانيين فيمحوها من أوروبا ويكتسح الأتراك من كليبولي وسالونيك وابيروس ثم يعود الى بلغاريا فيتوج ملكاً عليها . وكان الصليبيون يعتقدون أن السلطان مراد لا يزال في آسيا الصغرى بين الفتن والاضطرابات والحروب . وسمع المسلمون في أدرنه بحركة الصليبيين وزحفهم نحوهم فانتابهم الفزع والرعب وبعث رجال الدولة الى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر . واستطاع السلطان مراد أن يرشو الجنويين — وهم أهل تجارة وتكسب قبل كل شيء — فنقلوا أربعين ألفاً من الجيش العثماني من آسيا الى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره في مقابل دينار لكل جندي .

وأسرع السلطان مراد في السير فوصل وارنه في نفس اليوم الذي وصلها فيه الصليبيون . وفي اليوم التالي نشبت بين الفريقين معركة عنيفة حامية وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها اعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده . وهجم هونياد على المسلمين هجمة عنيفة كادت تزلزل اقدامهم .

وكاد السلطان مراد نفسه يرتد على عقبه لولا أن امسك به بعض رجاله واستعاد رباطة جأشه. واندفع الملك لادسلاس يريد السلطان ليقتله بيده ويحوز بذلك فخراً ابدياً خالداً لا يمحى. ولكن السلطان عاجله بضربة قوية من رمحه اسقطته من ظهر جواده فأسرع اليه أحد الانكشارية وجز رأسه ورفعه على رمح وصاح في العدو «أيها الكفار هذا رأس ملككم!».

وشده الصليبيون لرؤية رأس ملكهم والدم يتقاطر منه واستحوذ عليهم الفزع والهلع فحمل المسلمون عليهم حملة قوية وهزموهم شر هزيمة وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم بعضاً وقد نجا هونياد فيمن نجا من الفارين. أما الكاردينال سيزاريني مشعل هذه الحرب الغادرة فقد ركب سفينة ليعبر بها نهر الطونه ولكن ربانها الافلاقي غافله وقتله واستولى على ما كان معه من الذهب. على أن السلطان مراد لم يطارد عدوه ووقف من النصر عند هذا الحد وانه لنصر عظيم. وكتب الى ملوك المسلمين يبشرهم بما آتاه الله من فضله والنصر المبين على المشركين. وأما إمبراطور القسطنطينية يوحنا فانه عندما سمع بنهاية معركة وارنه بعث الى السلطان مراد وفداً يهنئه بانتصاره ويطلب اليه تجديد التحالف. وقد اجابه السلطان الى طلبه وقضى الأمبراطور بقية عمره في سلام حتى توفي سنة ١٤٤٨؛ ولم تفارق السلطان مراد زهادته في الدنيا والملك فتنزل عن العرش مرة اخرى لابنه محمد وعاد الى عزلته في مغنيسيا كما يعود الليث الظافر الى عرينه.

ولقد ذكر لنا التاريخ كثيراً من الملوك الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الدولة الى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا الى العرش ولكن لم يذكر لنا أحداً منهم نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد فانه لم يكد يذهب الى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية في أدرنه وشغبوا وهاجوا فان هؤلاء الجنود العتاة لا يخضعون ولا يسلس لهم قياد إلا لرجل قوي صارم والسلطان محمد كان لا يزال فتى يافعاً حديث السن وخشي بعض رجال الدولة أن يستفحل الشر ويعظم الخطر وتسوء

العاقبة فبعثوا الى السلطان مراد يستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه . على أنه لم يكن من السهل إنزال السلطان الشاب محمد عن عرش السلطنة فقد كان على صغر سنه شموساً صعب المراس فاحتالوا عليه بأن خرج به الوزير خليل باشا الى رحلة للصيد – وهو أحب رياضة اليه – استغرقت عدة ايام جاء في خلالها السلطان مراد الى ادرنه وقبض على زمام الأمر وخضع له الانكشارية . ولما عاد محمد من رحلته أدرك ما دبر له ولم يجد بداً من الاذعان للأمر الواقع وارسله والده ليكون حاكماً على مغنيسيا وبقي مراد على عرش السلطنة الى آخر حياته وقد قضاها في الغزو والفتح .

بدأ مراد ببلاد اليونان وقد كانت أثينا يحكمها دوق فلورنسي يدعى نيريو اكسيفولي Nerio Acciaivoli . وكان يدفع الجزية للدولة العثمانية . فلما شغل السلطان مراد بحروبه مع الصليبيين انتهز قسطنطين حاكم المورة وأخو أمبراطور القسطنطينية هذه الفرصة فعدا على هذا الدوق وطرده من إمارته وشيد سوراً على برزخ كورنثه بمعونة اخيه توماس ثم استقر في الموره .

جدد السلطان مراد علاقته مع دوق أثينا المخلوع ثم زحف الى الجنوب وحاصر السور الذي أقامه قسطنطين فاستولى عليه وخضعت له المورة ، وقبل قسطنطين أن يدفع جزية سنوية للسلطان (سنة ٨٥٠ – ١٤٤٦ م).

وجه السلطان مراد جهوده بعد ذلك الى ألبانيا حيث لقي عدواً لدوداً قوي الشكيمة صلب القناة وهو اسكندر باك . وقد ذكرنا من قبل أن السلطان مراد عند دخوله ألبانيا الشمالية خضع له اميرها كستريوتا وسلم اليه ابناءه الأربعة ليكونوا رهائن عنده وقد مات ثلاثة من هؤلاء الأطفال وبقي اصغرهم وهو جورج كاستريوتا George Castriota وقد أحبه السلطان مراد حباً عظيماً لقوة بدنه وحدة ذكائه ووسامة طلعته وكان حنو عليه حنو الأب الشفيق على فلذة كبده ونشأ جورج كاستريوتا في القصر العثماني نشأة اسلامية وعني مراد بتربيته عقلياً وجسمياً حتى بلغ

درجة كبيرة من الثقافة ومهر في ركوب الخيل واجاد الضرب بالسيف وأساليب القتال وأظهر في الحروب بسالة نادرة ومقدرة عظيمة فزاد تقدير السلطان مراد له وعهد اليه بولاية من ولايات الدولة العثمانية ولقبه « اسكندر بك » أي الأمير اسكندر وغلب عليه هذا اللقب واشتهر به وتنوسي اسمه النصراني القديم [1].

وكان اسكندر بك يؤمل أن يخلف أباه على إمارته بعد وفاته فقد كان ابنه الوحيد الذي يرثه غير أن السلطان مراد آثر أن يبقيه قريباً منه يعينه في حروبه فعهد بهذه الامارة الى رجل آخر ، فغضب اسكندر بك لذلك وأسرها في نفسه ولبث يتربص ويترقب الفرصة المواتية للفرار . فلما انهزم العثمانيون في نيش سنة (٨٤٧ هـ — ١٤٤٣ م) واضطرب امرهم اهتبل اسكندر بك الفرصة فانفلت من معسكر السلطان وذهب الى الريس افندي حامل الختم السلطاني ومعه مرسوم مزور بتعيينه حاكماً على كرويا بألبانيا فطلب اليه أن يختمه . ولم يكد الريس يختم المرسوم حتى عاجله اسكندر بك بطعنة قاتلة في صدره وأسرع في الفرار واتبعه ثلثمائة من مواطنيه الألبانيين الذين شايعوه على امره وفي مقدمتهم ابن اخته حمزة .

---

[1] ينكر السير توماس ارنولد إنكاراً شديداً أن اسكندر بك قد قضى طفولته في قصر السلطان مراد وأنه نشأ فيه نشأة إسلامية ، فيقول : « وقد أثبتت الأبحاث الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التي نسجت حول قصة أيامه الأولى — كيف سلم في صباه رهينة إلى الأتراك وشب بينهم على الإسلام وحظي بعطف السلطان والحقيقة أنه قضى أيام شبابه في بلاده الجبلية وبدأ نضاله مع الاتراك منذ اليوم الذي أحرز فيه النصر عليهم في سنة ١٤٤٤ وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم قواتهم الغازية مقاومة عنيفة » . الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٥٦ .

والواقع أن مسألة تسليم اسكندر بك — واسمه الأصلي النصراني جورج كاستريوتا — في طفولته إلى السلطان مراد الثاني ونشأته في قصره نشأة إسلامية تكاد تكون أمراً مجمعاً عليه من المؤرخين المحدثين الغربيين والشرقيين على السواء . والعجيب أن الأستاذ أرنولد نفسه قد اعترف بأن جورج كاستريوتا قد اشتهر باسمه الإسلامي إسكندر بك أو سكندر بك » ، (الكتاب السابق ، ص ١٥٦) فمن أين جاء له هذا الاسم الإسلامي إلا من نشأته الإسلامية في قصر السلطان العثماني ؟

«وصل اسكندر بك كرويا فرحب به الناس على انه الوالي الجديد من قبل السلطان وسلم اليه الوالي السابق مقاليد الحكم ومفاتيح المدينة دون أن يخالجه شك في أمره . ولما جن الليل انقض اسكندر على هـذا الوالي العثماني ورجال حاميته واغتالهم جميعاً وهم نيام . ودهم العثمانيين الذين في المدن والقرى المجاورة وابادهم ثم دعا الشعب الألباني وزعماءه الى حمل السلاح للدفاع عن حرية وطنهم فلبوا نداءه واجمعوا على اختياره زعيماً وقائداً لهم ، وانضم الى اسكندر بك أمير الجبل الأسود والحكام البنادقة في السيو وشقودرة ودرازو فقد كانت للبندقية في ذلك الوقت املاك كثيرة في ألبانيا لا سيما على الشاطىء . واصبح اسكندر بك السيد المطاع في ألبانيا . وارتد هو وحمزة عن الاسلام الى النصرانية « وأعلن حرباً صليبية جديدة على الأتراك »[1] .

ولم يعجل السلطان مراد في القضاء على اسكندر بك قبل أن يستفحل أمره وتعظم قوته ، أهمله وتوانى في قتاله فأتاح له بذلك مجالاً واسعـاً لاتخاذ أسباب القوة والحيطة وتجنيد الجنود وتخير الأمكنة والمواقع الـتي تلائمه وتعينه في القتال والكر والفر ، وبلغ جيش اسكندر بك اثنـين وعشرين ألف رجل . واتخذ كرويا قاعدة لأعماله الحربية وهي مدينة قد حبتها الطبيعة موقعاً جغرافياً منيعاً اذ تقع على ارض مرتفعة تحيط بهـا الجبال والوديان من كل جانب فلما سير إليه السلطان مراد جيشه بعـد ذلك بقيادة علي باشا هزمه اسكندر بك شر هزيمة . وحاول السلطان بعـد انتصاره في وارنه أن يستميل اسكندر بك بالحسنى فكتب اليه يدعوه الى الطاعة ويعـده بالعفو فلم يزده ذلك إلا تمنعاً واستكباراً واصراراً علي النصرانية والصليبية وكتب الى مراد يرد دعوته ولقب نفسه « جنـدي المسيح وامير الألبانيين والابيروسيين »[2] .

---

١ Cambridge Medieval History.

٢ Ghica. L'Albanie.

محمد الفاتح — ٤

وأرسل السلطان مراد بعد ذلك ثلاثة جيوش الى ألبانيا لقتال اسكندر بك ولكنه هزمها جميعها . ووقع نزاع بين اسكندر بك والبنادقة ونشبت بينهما الحرب ، ولكنها لم تدم طويلاً فان العداوة المشتركة ضد العثمانيين ما لبثت أن اصلحت بينهما ووحدت جهودهما لقتال العدو المشترك . وارتفعت شهرة اسكندر بك في العالم النصراني بانتصاراته الباهرة على العثمانيين وطار صيته كل مطار . على أن هذه الانتصارات الضخمة التي أحرزها لم تكن بغير ثمن ، بل إنها استنزفت قدراً كبيراً من قوته . وقد لمس ذلك اسكندر بك نفسه . وكان يعلم انه يقاتل دولة كبيرة واسعة الموارد في المال والرجال وانها لن تكف عن قتاله حتى تقهره ، فبعث الى البابا والدول النصرانية يطلب المدد والمعونة لمواصلة قتال العثمانيين . وقد لقيت دعوته هذه استجابة حسنة لا سيا بين اهل الحرب عشاق المغامرة والبطولة فتوافدوا اليه من المانيا وفرنسا واسبانيا وغيرها وقاتلوا تحت لوائه.

وفي سنة (٨٥١ هـ – ١٤٤٧ م) خرج السلطان مراد بنفسه الى ألبانيا وأمضى فيها نحو ثمانية عشر شهراً واستطاع برغم ما اظهره اسكندر بك ورجاله من البسالة والاستماتة في القتال أن يستولي على سفيتجراد Sfetigrad ودبرا Dibra .

وكان هونياد المجري منذ هزيمته في وارنه لا يني عن التأهب والاستعداد لينتقم لنفسه من تلك الهزيمة ، وليثأر لابن الملك المقتول لادسلاس ، وكان الملك الجديد – ويدعى لادسلاس ايضاً – لا يزال غلاماً صغير السن ، فاختار أهل المجر القائد هونياد ليكون وصيه ووليه والآخذ بثأره ! وانتهز هونياد المتاعب والمصاعب التي يلاقيها السلطان مراد في حربه مع اسكندر بك . ووجدها فرصة مواتيه لانفاذ عزمه فحشد جيشاً عظيماً لقتاله . فلما بلغ ذلك السلطان مراد غادر ألبانيا من فوره وأسرع للقائه وتلاقيا في سهل قوصوه وقبل أن ينشب القتال بين الجيشين بعث اليه السلطان مراد وفداً ليفاوضه ويقنعه بالعدول عن الحرب وسفك الدماء،

ولكن هونياد أخذته العزة والصلف وظن أن ما بعث السلطان على المسالمة والمهادنة إلا الضعف والعجز . ولج في العتو والاستكبار ، فأبى مقابلة رسله وأمر بصرفهم عنه . وعظم أمله وثقته في النصر فلم يشأ أن ينتظر حتى تأتيه المعونة التي كان اسكندر بك قد وعده بها . ولعله استنكف من تلقي المعونة من رجل كان ينافسه ويغالبه على الشهرة في قتال العثمانيين . وانسحب جنود الأفلاق من جيش هونياد وتخلوا عنه فقد تخوفوا من عاقبة هذا التهور الذي يندفع فيه القائد المجري وما لبث أن نشبت المعركة بين الجيشين المجري والعثماني فكانت حامية دامية تلظى وطيسها طيلة ثلاثة أيام كاملة . (شعبان ٨٥٢هـ – اكتوبر ١٤٤٨) وللمرة الثانية شهد سهل قوصوه انتصاراً عظيماً ساحقاً للعثمانيين وكانت المرة الأولى في عهد السلطان مراد الأول (سنة ٧٩١ هـ – سنة ١٣٨٩ م) أما هونياد فانه عندما لمح بوادر الهزيمة على جيشه انفلت من بين عساكره ولاذ بالفرار وهام على وجهه اياماً عدة وهو كسير ذليل ؛ وقد خبا ذلك الضياء اللامع الذي كان يجلل هامته ويقترن باسمه عقب انتصاراته الكبيرة السابقة على العثمانيين . وقدم اسكندر بك في جيشه بعد انتهاء المعركة بقليل فلما أشرف على سهل قوصوه وقد امتلأ بجثث المجر وجرى النهر قانياً بدمائهم عاد أدراجه الى جباله بألبانيا وربض هناك يترقب ويتربص . وقد اشترك محمد الفاتح مع والده مراد في وقعة قوصوه وكانت أول معركة شهدها بنفسه وعاد الى أدرنة وهو مغتبط جذلان بأول نصر في أول معركة .

وفي أواخر السنة التالية (٨٥٣هـ – ١٤٤٩م) قصد السلطان مراد البانيا وحاصر كرويا وقد صحبه في هذه الحملة ابنه محمد فأظهر من الهمة والنشاط والجلد ما أكسبه إعجاب الجند . وكان دائب الحركة ينتقل من موضع الى موضع ، فتارة الى جانب والده يرقب معه سير القتال ، وتارة يدخل صفوف الجنود يلهب حماسهم بخطبه ويتفقد مواقع الهجوم

ويضرب لهم المثل بنفسه في الشجاعة والإقدام . على أنه برغم ذلك كله ورغم الجهود العظيمـــة الجبارة التي بذلها مراد فقد امتنعت عليه مدينة كرويا . وأخذ اسكندر بك كلما جن الليـل يرهق الجيش العثماني بهجمات عنيفـة متواصلة . فعرض عليه السلطان مراد أن ينصبه حاكماً على البلاد على أن يعترف بالسيادة العثمانية ، ولكن اسكندر بك أبى واضطر السلطـان مراد آخر الأمر ان ينسحب بجنوده بعد أن فقد منهم عدداً غير قليل . وبعث اسكندر الى البابا نيقـولا الخامس والى ملك المجر وملك نابـولي ودوق برغنديا يبشرهم بانتصاراته على العثمانيين . ونظرت النصرانيـة في دهشة وإعجاب الى هذا الزعيم الألباني الذي عجزت الجيوش العثمانية عن قهره والنيل منه ، وصد عن كرويا السلطان مراد بطل وارنه وقوصوه . وكتب اليه البابـا وهؤلاء الملوك يهنئونه ويثنون على شجـاعته وبطولته ويستحثونه على المضي في القتال والدفاع عن النصرانية وأمدوه بالمال والعتاد.

أما السلطان مراد فانه بعد وصوله الى أدرنه احتفل بزواج ابنه محمد الفاتح بابنة سليمان بك أمير ذي القدر وكان احتفالاً كله الروعة والأبهة والبهاء وكان ذلك في أواخر سنة (٨٥٤هـ ـ ١٤٥٠م) ثم ذهب محمد الفاتح مع عروسه الى مغنيسيا بآسيا الصغرى ولم يطل به المقام هناك فقد وصله بعد قليل نعي والده (٣ محرم ٨٥٥هـ ـ ٥ فبراير ١٤٥١) فصـاح في أصحابه : « من كان يحبني فليتبعني » ووثب على ظهر جـواد عربي واخذ يعـدو به عدواً لا يلوي على شيء فوصل كليبولي بعد يومـين ولبث هناك يومين آخرين ينتظر من تأخر من رجاله وليؤذن أهل أدرنه بمقدمه . واستقبله كبار رجال الدولة والعلماء فعزوه في وفاة والده كما قدموا اليه تهانئهم بالسلطنة ، ثم توجه الركب الى السراي بأدرنه . وفي اليـوم (السادس عشر مـن محرم ٨٥٥هـ ـ ١٨ فبراير ١٤٥١م) تولى محمد الفاتح عرش آبائه وهو في الثانية والعشرين من عمره .

٤-تاريخ سلاطين آل عثمان ليوسف بك أصاف:

يعد هذا الكتاب من المؤلفات الأساسية التى توضح تراجم السلاطين العثمانيين وأهم أعمالهم، والأحداث التاريخية التى حدثت فى استانبول.

ومؤلف الكتاب لبنانى الأصل، استقر بمصر وعمل مترجما ثم اشترى مطبعة المحروسة وجريدتها فى عام ١٨٧٦ وأنشأ الطبعة العمومية بالقاهرة عام ١٨٨٨. وفى عام ١٨٩٠ عمل محاميا فى المحاكم الأهلية، وأنشأ جريدة المحاكم.

وللمؤلف مؤلفات مشهورة منها تاريخ العائلة المحمدية، وروضة الانشاء واستقلال لبنان فى التاريخ ومركز لبنان السياسى، وشرح القانون المدنى المصرى، وشرح قانون العقوبات الأهلى، ومجلة المرأة.

فذلكة في تاريخ القسطنطينية
عاصمة الخلافة الكبرى

من هي القسطنطينية

القسطنطينية ـ هي المدينة الكبرى عاصمة المملكة العثمانية وتخت الخلافة العظمى أسسها بيزنس رئيس الماغريين قبل التاريخ المسيحي بألف ومائتي سنة ، ودعيت بزنتية نسبة إليه وكانت في ماغبر القرية الأولي بين تعداد قرى طراشيا التي هي الآن قسم من بلاد الروم ايلي وقد ملكها داريوس الأول أحد ملوك الفرس عام ٥٢١ قبل المسيح وجعلها نزهة للعين في حسن الرونق والإنتظام وعقيب وفاته التي وقعت سنة ٤٨٥ ق . م . إستولى عليها أهل يونياس من شعب هالان ، وهو جنس يوناني قديم العهد يسبق ظهور المسيح بخمسة عشر جيلاً ، وبعد ذلك إغتنمها الملك أكسرخوس الأول وهو الخامس من ملوك الفرس قبل المسيح من ٤٧٢ إلى ٤٨٥ ، ثم خلفه في إمتلاكها أهالي مدينة سبارط من بلاد الموره . وهي قاعدة بلاد لاكونيا ولم يطل زمن إمتلاكهم لها حتي إنتزعها من إيديهم أهالي مدينة أثينا التي أسسها شيكروب المصري عام ١٦٤٣ قبل المسيح . وبعد ذلك بمدة طويلة إستقلت القسطنطينية وعظمت قواها البحرية حتى صارت من أعظم المدن منعة وإقتداراً فتطاولت إليها أطماع الملوك وحصرها فيليب ملك مكدونيا ، وهو والد إسكندر الكبير المدعو الملك فيليب الثاني الكبير ابن امنيتاس ثامن ملوك مكدونيا فلم يستطع إمتلاكها ، ولما أنتشبت الحرب بين الرومان وملك

البنطس ساعدهم أهالي القسطنطينية في ميادين المعركة إلى أن فازوا بالنصر ، وفي سنة ١٩٣ ب . م . دخلت القسطنطينية تحت أمرة القائد الروماني المدعو بسنيوس فيجار ، وفي عهده حاصرها نحو ٣ سنين الملك سبتيم سافار أحد ملوك الرومانين ، فدخلها بعد حرب عنيفة وعاجلها بالدمار ، ولم يتجدد بناؤها إلا على عهد الملك كركللا ابن الملك سبتيم الذي إقيم ملكا عليها سنة ٢١١ ب م . غير أن رونقها البهيج لم يعاودها إلا في زمن قسطنطين ملك الرومانين الذي أكمل ترميمها في الجيل الرابع سنة ٣٣٠ ب م . وسميت القسطنطينية باسمه وهو قسطنطين الأول الملقب بالكبير ابن الملك قسطنطين من زوجته الملكة هيلانة ولد عام ٢٧٤ ب م . وتوفى عام ٣٣٧ عن ثلاثه أولاد وهم قسطنطين وقسطنسوس وقسطان ولقبها فروق لأن فيها تفرقت القياصرة غرباً وشرقاً ، وأقام بها وتملك على الرومانيين في الشرق ثم جعلها تخت قيصاريته ، فصارت كرسيا لملوك الشرق وما لبثت أن فاقت على رومية التى كانت وقتئذ في مقدمة المدن بعظيم بنائها ووفرة شعبها وكثرة ثروتها وإتساع تجارتها .

وفي عام ٤١٣ ب م . مادت بها الأرض في الطول والعرض وحدثت فيها زلزلة هائلة فدكتها وصيرتها قاعاً صفصفاً فجدد بناءها الملك تاودوسيوس الثاني ، وفي عام ٨٥٧ حدثت فيها أيضاً زلزلة فدمرتها ثانية فجدد بناءها عام ٨٥٨ قبيلة يونانية من مدينة اركوس ثم تواترت عليها دهمات الملوك وعاودتها الحروب وأغارت عليها الدول من التتار والأعجام وأهل البلغار والصليبية وغيرهم حتى حل بها الخراب المرة بعد الأخرى . ففي سنة ٥٩٣ حاصرتها القبائل الغير المتحدة من التتار ، فلم يتمكنوا من الإستيلاء عليها ، وفي عام ٦٢٥ حاصرها الفرس ومن سنة ٦٧١ إلى سنة ٦٧٨ حاصرها العرب الذين أغاروا على إسبانيا ، وفي عام ٧٥٥ حاصرها البلغار ، وفي عام ٨٦٦ حاصرها شعب يدعى فاريك وهو نورماندي جاء من بلاد نارو ج ثم عقبه الصليبيون وإستولوا عليها سنة ١٢٠٣ ، وأقاموا عليها ملكا هو الكسيس الرابع ابن إسحق الملقب بالكسيس الصغير وكان عمه الكسيس الملك قد طرد أباه اسحق وأودعه السجن سنة ١١٩٥ فانجاه منه ولده

الكسيس الرابع وجعل له حظاً في الملك ، ولما علم بذلك الكسيس الملك تعاصى على أخيه اسحق وإنتزع من يده الملك عام ١١٩٥ وما فات من مدة ملكه زمن طويل حتى جاهر بعدوانه ابن أخيه الكسيس الصغير وخلعه من الملك عام ١٢٠٣ وتربع مكانه مدة ستة أشهر ثم خلعه دبكاي مرتزقل المدعو الكسيس الخامس بعد أن أماته خنقاً ، وفي أيامه عاد الصليبيون ثانية إلى القسطنطينية وأسسوا فيها المملكة اللاتينية ثم قلبوا دبكاي عن منصة الحكم وولوا مكانه بدوان «أمير مقاطعة قديمة في فرنسا تدعي فلاندر» . وهذا الأمير كان قائداً لجيش الصليبيين . وفي عام ١٢٦١ حضر الملك ميخائيل بالولوغوس الثامن ملك مدينة نيس واستولى على القسطنطينية بغتة ، وهذا الملك هو من أوجه العائلات في الشرق تولى الملك في مدينة نيسا من أعمال الأناضول ، وتوفى عام ١٢٨٢ بينما كان يجهز جيوشاً ليسوقها إلى فتح طراشياً ثم هجم على إسلامبول مراراً عديدة السلطان أورخان سنة ١٣٣٧ والسلطان بايزيد والسلطان مراد الأول . أما السلطان أورخان فقد أخذ عدة مدن عنوة ، من جملتها مدينة نيسا وذلك عام ١٣٢٣ ، وسلب ما في ضواحي الأستانة عام ١٣٣٧ وسّن شرايع المملكة ورتب القوانين . أما السلطان مراد الأول فقد أتم تحصين المملكة عام ١٣٦٠ واحدث طريقة الإنكشارية وقد إستولت على الأستانة دولتنا العلية وإنتزعتها من الدولة الرومانية في التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٤٥٣ الموافق لليوم العشرين من جمادي الأول سنة ٨٥٧ هـ . تحت رأية السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح ،

ويدعوها الأتراك بـ «اسلامبول» ، وهي من أحسن مدن العالم موقعاً وأجملها مركزاً كائنة على خليج البحر الأسود ومشادة على سبع تلال من أطراف أوربا يفصلها عن آسيا مضيق من البحر عرضه نحو ميل وهو معروف بالبوغاز وتبعد عن باريس عاصمة الفرنسيس ٦٦٠ ميلا وعن ويانه عاصمة النمسا ٢٧٥ ميلا وعن سان بطرسبورج عاصمة بلاد الروس ٤٧٥ ميلا . يحيطها من جهة الشمال ثلاثة أسوار قديمة ومن بقية الجهات البحر . عدد سكانها قد جاوز المليون ونصف ، الثلثاي منهم اسلام والباقي نصاري ويهود . وتتقسم باعتبار وضعها إلى أربعة أقسام : الأول . هو المدينة

الكبيرة القديمة والثاني غلطة والثالث البوغاز والرابع اسكودار . أما المدينة الكبيرة فهي ذات الأبنية العظيمة والقصور الشاهقة والقشال الواسعة ، وفيها الجوامع العظيمة التي تنطح السماك ذات المنارات البديعة المصفحة من النحاس المذهب ، وأشهر هذه الجوامع جامع اجيا صوفيا الذي كان كنيسة عظيمة أيام النصارى بناها المعلم أنتيموس إلى الملك قسطنطين في بحر ثمان سنوات ، وهي من أحسن الأبنية القديمة وقد كان لها قبة عظيمة أخربتها الزلزلة ، ثم صار تجديدها فلم تأت كما كانت من حيث إرتفاعها وحسن إستدارتها وإستوائها . ولأجل زيادة تمكينها وضع تحتها بين العضايد الكبيرة عدة من أعمدة الصب القديمة المصرية ، وعقدت عليها قناطر تعتمد عليها القبة ، وفي هذه القبة ٢٤ شباكا ينفذ منها الضوء إلى الداخل ، ويليها قبتان لطيفتان وست قبب صغار .

واسلامبول بعيدة عن الوصف كساها مركزها الطبيعي الهيبة والوقار ، وأكسبها البهجه وحسن الرونق ، فأنها واقعه على خليج البحر الأسود وبين بحر مرمرا وكائنة بين أوربا وآسيا على البوغاز الذي يصل بحر مرمرا بالبحر الأسود ، إما بحر مرمرا فيصله بوغاز الدردانيل ببحر جزاير الروم والبحر المتوسط ويفصل المدينة عن آسيا مضيق من البحر عرضه نحو ميل له منظر يشرح الصدر ويبهج الناظر ، وهي ممتدة على لسان في البحر مثلث الزوايا موقعه على الشاطىء الغربي من مدخل البوغاز الجنوبي المعروف بالبوسفور وفي الجانب الشمالي من المدينة فرع من البوغاز يدعى القرن الذهبي وهو المعروف بالميناء التي عند آخرها محل يقصده الناس للترويض يدعى كاغد خانة كائن بالقرب من الترسخانة في بقعة خضراء طولها نصف ميل تجري إليها المياه العذبة في قناة تكتنفها أشجار الحور والسرو والزيزفون وغير ذلك ، وفي هذه الروضة قصر للانشراح تحيط به حديقة غناء مطرزة بأشكال الزهور والرياحين ، بناها الطيب الذكر السلطان أحمد الثالث عام ١٧٢٤ ، وفي تلك القناة يتدفق الماء زلالا وفي وسطها حاجز تنفجر المياه بالقرب منه وتصب في ثلاثة مجار مرصوفة بالصدف حتى تنتهى إلى بركة عليها حوض من النحاس الأصفر وعليه ثلاث حنفيات تجري المياه من أفواهها وعلى ذاك

الحاجز ثلاثة كشوك من الرخام الأبيض مغشاة بالنحاس المموه بالذهب ، ومن هناك تأخذ القناة في الضيق بالتتابع إلى أن تختلط مع ماء آخر وهذا ما يدعى القرن الذهبي حيث تسير الزوارق حاملة رجالاً ونساء بقصد التنزه والانشراح في ذلك الوداي ولا سيما يوم الجمعة . ثم أن مرسى الميناء لفي غاية الطمانينة والسعة ويفصلها مضيق من البحر طوله نحو ميلين وعرضه نحو نصف ميل ، وفيها ترسي السفن وهي من أحسن مراسي الدنيا موقعاً وأمناً وعلى جانبها المحلات الخارجة عن المدينة وهي المعروفة بالصوائح الخارجة الكبيرة وهي بيريه وغلطه ومحلة الطوبخانة وقاسم باشا والفنار محلة الأروام ، أما بيريه المشهورة باسم بك أوغلى هي محلة الإفرنج واقعة في الجهة الشمالية وبها مركز التجارة ولا يقطنها إلا الوجوه من الغرباء كقناصل الدول ونحوهم وبها كنائس الإفرنج والأرمن والمطابع ومستشفيات الإفرنج والمدارس والمراسح والفنادق ، وفي وسط هذه المحلة غلطه سراي وهي مدرسة الطب التي إحترقت عام ١٨٤٨ ب . م . وأمامها محل تياترو واسع الأرجاء متقن البناية يقصده مشخصو الإفرنج من عواصم أوربا .

وفي الإستانة عدة مدارس لنشر العلوم والفنون منها طبية وأخرى حربية ومكاتب للملاحين وما ينوف عن خمسمائة وثلاثين مدرسة تحوى نيفاً وأربعين مكتبة فيها مؤلفات شتى أكثرها بخط اليد وفيها عدة مطابع وجملة معامل لصنع الطرابيش والجوخ وخلاف ذلك . أما غلطه فقد شادها أهالى جينوا وما برحت إلى اليوم محاطة بالسور المنسوب إليهم ومحيطه مقدار ٨٠٠٠ قدم وموقعها في القسم المجاور للبحر على الجهة الجنوبية من بيريه وسكانها أغلبهم من الأروام واليهود وفيها محل للجمرك ومخازن لشحن الوابورات وبها الجوامع الكثيرة وترسخانة الطوبخانة ومعامل لسبك المدافع ومعدات الحرب والدمار وفيها برج يدعى برج المسيح أو برج الحرس علوه ١٤٠ قدماً بناه أهالي جينوا عام ١٤٤٦ بعد المسيح والغرض من بنائه كان التنبيه على أهالي القسطنطينية عند حدوث الحريق بما يتفقون عليه من العلامات أشارة إلى أن الحريق في موضع كذا . وفي محلة قاسم باشا توجد الترسخانة الكبيرة والترسخانة البحرية وحوش البحرية والمسافر عند دنوه من المدينة

بحراً ينظرها ذات منظر بهج ورائق إذ يشاهد رؤوس المآذن المذهبة وقبب الجوامع المسنمة وشوامخ الأبنية الجميلة والأبراج المزخرفة والمنابر العالية وفي معاليها أكاليل من ورق السرو الاثيث وما شاكل ذلك من الأشجار التي تظلل المدافن العظيمة المحتفرة في جوانب الأسوار غير أن المسافر عندما يدخلها ويتوغل فيها يتعذر عليه أن يعرف من أين دخل وكيف يخرج .

أما أبنيتها فأكثرها من الأخشاب والقرميد واللبن ثم أن البوغاز المعروف بالبوسفور يفصل بين آسيا وأوروبا ويصل البحر الأسود بالبحر الأبيض وهو ممتد على مسافة ٢٠ ميلا بالطول وبالعرض من ميل إلى ميل ونصف ينحدر فيه الماء بشدة منصباً في بحر مرمرا المتصل بالبحر الأبيض وعلى ساحله من كلتا الجهتين قرى شهيرة كل قرية منها تضاهي مدينة صغيرة وفيها من السرايات الأنيقة والمنازل الفاخرة والأسواق الرحبة والحدائق البديعة والمنتزهات الجميلة ما يقر النواظر ويشرح الخواطر وفيها سفارات الدول الأجنبية خلا سفارة دولة إيران فأنها بالقرب من الباب العالي . ومجمل القول أن هذا البوغاز على جانب عظيم من حسن الموقع ووفرة الإنتظام يقصر المقام عن سرده فأن بناياته وافرة الاتفاق تعلوها الروابي النضرة القائمة فوقها الأشجار الوارفة الظلال والحدائق الأنيقة التي تجلي عن القلوب صدى الكروب .

وقد يقصده السواح من أقطار الأرض ليشاهدوا غريب موقعه ويتمتعوا بجودة هوائه وفي الجهة اليمني منه يوجد حوض ماء ضمن قبوة يدعى حوض القديسة صوفيا يزوره قوم كثيرون من النصارى والمسلمين قصد التبرك ، وفي الجهة الشمالية يوجد قصر مبني على الشاطىء وحوله حديقة لاحقة باملاك الحكومة المصرية هناك كان القصد من بنائه ايواء المسافرين من المصريين وفيه ترسي البارجة العظيمة (المحمودية) ذات المابة والعشرين مدفعاً .

أما القسطنطينية فهي محاطة بالأسوار الكبيرة المربعة وسور عال جداً وبابراج كبيرة مربعة يبلغ عددها نحو ٢٠ برجاً كان قد شادها ملوك اليونان منذ الجيل الخامس عشر ولم يزل بعضها إلى اليوم متيناً . أما قلعة السبعة ابراج

المتصلة بالأسوار فهي معدة اليوم حبساً عمومياً للحكومة على حين كانت قديماً من جملة أبواب المدينة . ويقول المؤرخون أن القسطنطينية كان لها ثلاثة وأربعون بوابة ثم صارت إلى اثنين وعشرين بقى منها إلى الآن سبع بوابات ، وقال مؤرخو الانكليز أن فيها أربعماية وخمسة وثمانين جامعاً وفيها مآذن كثيرة شاهقة في الجو وبها ما ينوف عن الالفي حمام وأشهر هذه الجوامع جامع اجيا صوفيا المتقدم الذكر ولأجل زيادة الإيضاح نقول أن الذي بناه هو الملك جوستينيان الأول أحد ملوك الشرق سنة ٥٣١ ب م وتم في سنة ٥٣٨ وقد إشتغل فيه مدة سبع سنوات ونصف ماية مهندس مع ماية قلفا وعشرة آلاف فاعل وطوله ٢٧٠ قدماً وعرضه ٢٤٣ وهذا الجامع كما تقدم القول كان كنيسة عظمى في أيام النصارى من أحسن كنائس الدنيا ويوجد خلافه سبعة جوامع ملكية كلها مزينة من الداخل بالرخام ومن الخارج بالمناهل ولاكثرها مستشفيات ومكاتب لاغاثة الفقراء ثم أنه يوجد في الاستانة ما ينيف عن مايتي مستشفي للمرضى وتسع مارستانات للمجانين . وخارج جامع أجياصوفيا توجد ساحة مربعة فيها أربع مآذن وفي وسطه قبة عظيمة وسطها يعلو الارض ١٨٠ قدماً وقطرها ١١٥ وأسفلها محاط برواقين محمولين بين إثنين وستين عاموداً وقد خربتها الزلازل التي دمرت المدينة في اوقات مختلفة فتجددت ثانية وأبواب هذا الجامع من النحاس الأصفر منقوش عليها تماثيل قديمة من عهد بانيه ولم يزل على سقفه اثارمن الصور منها صورة سيدنا عيسي عليه السلام وصورة الملك قسطنطين ، ويوجد في داخله ١٧٠ عموداً جميلاً من الحجر السماقي والرخام وعلى كل منها تاج قد زاغ عن أصله الهندسي بالنظر لما حصل فيه من التغيير والتبديل ويظن أن هيكلاً عظيماً كان هناك فهدم وعلى دائره ممشى يصعد عليه بسلم حلزونية عجيبة وفوق المنبر يخفق سنجق السلطان محمد الفاتح . أما الآن فقد تبدلت الهيئة القديمة ولم يبق منها الا الأثر بعد العين وقد كانت جدران هذا الجامع مزدانة بالنقوش المذهبة التي لما نظرها الطيب الذكر السلطان محمد الفاتح أمر بأن تغشى بالآجّر كي لا ترى ، وفي عهد السلطان عبد المجيد خان نزع عنها الكلس وترمم مافقد من الجامع المذكور حتي عاد الي رونقه الأول ثم أن كثيراً من الماية والسبعين عاموداً المذكورة قد جلب من هيكل الشمس في

بعلبك ومن هيكلي الشمس والقمر في هاليبولي من مصر ومن جامع ديانه المشهور في أفسس ومن آثينا ومن جزائر بحر الروم .

أما جامع السلطان سليمان العظيم الملقب بالسليمانية فهوأجمل ما يكون في القسطنطينية بني في اواسط الجيل السادس عشر وكمل عام ١٥٥٦ ب م أما الجوامع المشيدة وتحسب من الطرز الثاني بالنظر الي كبرها فهي جامع السلطان أحمد ومحمد الثاني .

وفي القسطنطينية ساحة عظيمة تدعي ساحة آت ميدان كانت معدة لسباق الخيل طولها ٩٠٠ وعرضها ٤٥٠ قدماً وفيها مسلة من حجر الصوان بقطعة واحدة جيء بها قديماً من مدينة سيبس قاعدة مملكة الفراعنة ملوك مصر وهذه المسلة قد بناها ثاوادسيوس الكبير أحد ملوك الرومانيين وفي الساحة الكبيرة يوجد العامود المتعطل لقسطنطين الملك معرى ومنزوعاً عنه تمثاله النحاسي المصبوب صب رمل من عمل الاتراك في أول ما اغتنموا المدينة وبين المسلة وعمود قسطنطين عامود آخر من نحاس أصفر على شكل حبل ملفوف ويسمى عامود الحية لان عليه ثلاث حيات عظيمة متشابكة مع بعضها البعض أقامه اليونانيون رصداً لتنفير ألافاعي كما جرت العادة عندهم في بعض الخرافات وكانت الحيات حاملة الكرسي المصنوع من ذهب في هيكل مدينة دلفي على ثلاثة قوائم كان يجلس عليها في الأزمنة القديمة الكاهن وأحد العرافين لاخذ الوحي من الوثن جواباً على ما يسأل من أمر مهم يختص بمعرفة المستقبل وكان يجلس على هذه الكراسي عدد معلوم من النساء وقال بعض المؤرخين أنهن عشرة كن يخبرن بروح النبوة ويسكن في عدة أقسام مختلفة من بلاد العجم واليونان وايطاليا .

وفي قسم آت ميدان من الجهة الشرقية يوجد الباب العالي حيث يجلس الصدر الأعظم ورجال الدولة الفخام وبالقرب منه السرايا المعروفة بطوب قبو سراي وهي السراي التي جددها السلطان محمد الفاتح المنفصلة عن المدينة بسور متين ولها ثمانية أبواب بعضها من جهة المدينة وبعضها من جهة البحر وطول هذه السراي نحو ستة آلاف ذراع ومبنية على مركز وقاعدة البزنتيوم وتعد من السرايات الشهيرة العظيمة تحيطها جنينة فسيحة تشب فيها الأشجار

الشامخة في الجو وعلى أطرافها الباب الهمايوني وهو مدخل للسراي الخارجة المباح للجميع أن يدخلو اليها وهو عظيم الأرتفاع على شكل دائرة تغشاها الكتابات العربية وقائم عليه خمسون بواباً خفراء ، وعلى أحد طرفي الباب كان هرم يدعي هرم الجماجم كانت تعلق عليه رؤوس المجرمين مكتوباً عليها ما يدل على ماهية الذنب الذي بسببه حكم على صاحبها بالقتل وعند أطراف تلك السراي فسحة رحبة يقوم عليها بناء يشتمل على قبة قديمة شادها الملك قسطنطين الكبير ، وهناك دار الأسلحة يوجد فيها جميع أنواع الأسلحة القديمة العهد معلقة على الترتيب وهي مؤلفة من دروع وزرديات وسيوف ورماح وآلات أطلاق البارود وما شاكل ذلك من أدوات الحرب وهناك أيضاً أربعة أشخاص من الخشب عليها ملابس حديدية التي كانوا يلبسونها قديماً أحدها مرتدي بزي الشراكسة ، والثاني بزي أهل الفلاح . والثالث بزي الأنكشارية ، والرابع بزي العسكر العثماني ثم وبالقرب من تلك الفسحة توجد بقعة أخرى فيها الديوان الكبير وامامه سماط من شجر السرو على صفين ينتهي الي قاعة الديوان المشيدة من الرخام المزدان بالنقوش الذهبية وفي ما يليها توجد دار عظيمة فيها كرسي الحضرة الفخيمة الشاهانية تحت قبة عالية مصنوعة من حجر الرخام وعلى جانبها سراي الحرم المصون وهناك حمام السلطان سليم الثاني وفيه ٣٢ حجرة ، ومن هناك تنظر الخزينة الملكية والضربخانة ودار الكتب وباب المالية والأوقاف أما الحدائق المحاطة بالسراي فحدث عنها ولا حرج فاغصان أشجارها تتدلى على مماشيها بنوع يبهج الناظر وينابيع المياه المنبجسة من أعمدة الرخام القائمة فيها ، تتدفق كأنهار تجري في جنة غناء أما زخرفة السراي العثمانية فلا شيء يفضلها في الجمال لاسيما ما يختص بالذات الشاهانية فأن حجرة عظمتها فيها منتهى التأنق والتحسين وهي مغشات بالقماش الصيني الفاخر وأرضها مفروشة بالطنافس الثمينة والتخت من فضة الكانوبا والوسادات والأفرشة السفلى وملاآت اللحاف كلها وثائر منسوجة من قماش ذهبي .

وبالقرب من آت ميدان يوجد نفق تحت الأرض يدعى بينك برديراده أي ألف عامود وعامود كان قيسارية قديمة معروفة بقيسارية ألف عامود وعامود وهي طبقتان مركبة على أعمدة غليظة من الحجر وأكثر أعمدتها

مطمورة بالتراب وبالقرب منها يوجد العمود المحروق وهو غليظ وطويل ومن الحجر الرملي عليه تماثيل أشخاص وكتابات قديمة ، ويقال أن قوماً من اليهود أشتروه من أحد الملوك العثمانيين لظنهم أنه مصنوع من معادن ذهبية توهماً منهم بكثرة لمعانه ثم أحرقوه ليستخرجوا ما فيه من الذهب ولذلك دعي بالعمود المحروق وقد شاده الملك قسطنطين الكبير وكان علوه أولا ١٣٠ قدماً وفوقه تمثال أبولون من نحاس وهو بمثابة رجل عظيم البنية مثل الجبار ويقال بأن صانعه كان فيدياس النقاش الشهير . ولما حدثت الزلزلة في أسلامبول عام ١١٥٠ تعطل ذلك العامود وسقط ولم يبق من علوه ألا ٩٠ قدماً ، وأبولون هو آله اليونانيين والرومانيين القدماء كانوا يعبدونه ويعتقدون أنه الشمس مصدر الحرارة والضياء وأنه المتولي صنعة الرمى بالقوس وأمر النبوة وصناعة الطب وفن الموسيقى .

ومما يستحق الذكر أيضاً في القسطنطينية الخانات المشاعة التي شادتها الحكومة لينزل فيها المسافرون من التجار ويقيمون بها مجاناً ترغيباً لهم في جلب السلع والبضايع توسيعاً لنطاق التجارة . أما أسواق المدينة فهي فسيحة جداً وأشهرها سوق البازستان وهي مبنية بالحجارة ولها أبواب لا تفتح ألا في أوقات معلومة من النهار وفيها أقدم تجار المسلمين وأغناهم وبها تباع الأسلحة الثمينة والملابس الفاخرة والتحف النفيسة، ويلاصق هذه السوق عدة أسواق شهيرة مثل قلبجي جارشوسى واذروجارشو .

أما أهالي هذه المدينة فهم على جانب عظيم من الرقة والدعة يؤانسون الغريب ويكرمون مثوى الضيف مشهورون في الفنون والصنايع ولهم حسن محاضرة ومذاكرة أمتازوا بصون اللسان عن عن سفاسف الكلام والمدينة اليوم هي مطمح الأنظار ومحط رحال السياسة آدام الله مولانا أمير المؤمنين نوراً لبهجتها وقمراً يسطع عليها ما كرت الأيام وتوالت الأعوام .

في أصل بني عثمان

لقد اختلف أكثر المؤرخين في أصل سلالة آل عثمان فالبعض ينسبون هذه العائلة الشريفة إلى سلالة عيسى بن أسحق وبعضهم يذهب أنها من طائفة بني قطورة جاءت من الحجاز بسبب القحط ونزلت في بلاد القرمان ، وكل فريق من المؤرخين يسرد الدلايل التي تؤيد مذهبه وتقوي حجته لكنهم قد أجمعوا أنها أشرف سلالة من العشائر الإسلامية وأن جد آل عثمان هو سليمان شاه أتى بجماعته عام ١٢٠٠ ميلادية الموافق لسنة ٦٢١ هجرية ونزل في صحاري بلاد أرمينية الكبرى حيث مكث نحو سبع سنوات أشتعلت أثناءها نار الحرب بين الخوارزمي وعلاء الدين سلطان قونية وكبير السلاجقة فتحزب سليمان شاه ألي السلطان علاء الدين ونزل مع جيوشه الي ميادين ألوغى ولبث يكافح معه حتى انتصر على أعدائه بواسطته .

وفي عام ٦٢٨ هـ . لما أراد سليمان شاه المحكي عنه مغادرة تلك الأصقاع قاصداً عربستان مر بجماعته على نهر الفرات وبينما كان يعبره مات فيه غريقاً ودفن عنده في مكان يعرف إلى الآن بمزار الأتراك وترك أربعة أولاد هم سنقورتكين وكون طوغدي وارطغرل ودوندر . فرجع سنقورتكين وكون طوغدي إلى ناحية الشرق وبقى أرطغرل ودوندر عند السلطان علاء الدين وحضر معه جملة حروب فاظهر فيها أرطغرل البسالة والأقدام ثم وقعت حرب شديد بين السلطان علاء الدين على أعداءه فشتت شملهم وأباد أثرهم فكافأه علاء الدين بان أعطاه بلاد سكود واسكي شهر .

عاش أرطغرل ٩٠ عاماً وتوفى عام ٦٨٠ ودفن بمدينة سكود تاركاً ثلاثة أولاد وهم عثمان بك وساوجي بك وكندوز بك وقد تقلد منهم قيادة الجيش عثمام بك بالنظر لشجاعته وبسالته فأسس بناء الدولة والملك ، ومن المحقق أن نسل آل عثمان الأثيل يتصل بيافث بن نوح وهاك سلسلتهم الطاهرة .

السلطان عثمان أبن أرطغرل . أبن سليمان شاه . بن قيالب قزل بوغا بن تيمور . بن قونلوغ . بن تقاد . بن قينون . بن سافور . بن بولغاى بن بايسنقور . بن توقتمور . بن باسوق . بن جندور . بن باقي . بن كوك الب بن ارغو . بن قره خان . بن قونلق . بن توترق . بن قره خان . بن بايسوق . بن بولواج . بن تغار . بن سونج . بن جاربوغا . بن قورتلمش . بن قره خان . بن عمود . بن سليمان شاه . بن قره خول . بن قولفاى . بن باتيمور . بن طوسي . بن بابلق . بن طورغا . بن طوغمش . بن كوجك بك . بن أونوق . بن قوتاق . بن جك جكتمور . بن طورج . بن قزل . بن يماق . بن باشبوغا . بن قورتلمش . بن فورجه . بن بالجق . بن قوماي . بن قره أوغلال . بن سليمان شاه . بن قولو . بن بولغار . بن باتيمور . بن طورمش . بن كوكب الب . بن أوغوز . بن قره خان . بن قاني خان . بن بولجاي . بن ماجيه . بن أبي الحارث . بن يافث . بن نوح .

وقد تولى من آل عثمان حتى الآن تخت السلطنة السنية خمسة وثلاثون سلطاناً عظمت بهم شوكتها وامتدت سطوتها وعظم شأنها وبذخ مقامها وبما أن الوقوف على ترجمة حياتهم السعيدة من الأمور التي تكسبنا العز والفخار وتمنحنا البهجة والوقار لما أتوه من الفعال التي لا تذكر معها أعمال الأكاسرة وانتصارات القياصرة كيف أنهم فتحوا المدن العظيمة ودمروا الحصون المنيعة وقهروا الجبابرة وأمتلكوا معظم الدنيا براً وبحراً وكيف كانت الدول الإفرنجية ترتعد من سطوتهم وتقدم لهم الطاعة والخضوع وتتزلف اليهم في سائر الأمور حتى إلى يومنا هذا . اردت أن أغبط تفسي وأسعدها بتدوين قليل ودون القليل من ترجمة كل طيب الذكر من السلاطين الفخام آل عثمان الكرام خلد الله ذكرهم وأعز شأنهم على الأنام طراً .

السلطان الأول

السلطان عثمان الغازي ابن أرطغرل



ولد الطيب الذكر السلطان الأول السلطان عثمان الغازي بن أرطغرل عام ٦٥٦ هجرية وشب على البسالة والأقدام والشجاعة والكرم . ولما بلغ الحلم إنتقل والده إلى جنة ربه فخلفه في قيادة جيش عشيرته ولبث مصافيا للسلطان علاء الدين ويساعده في أفتتاح جملة مدن منيعة وعدة قلاع حصينة فاتحفه مكافأة له بالطبل والعلم وبسكة ضرب المعاملة وأمر بأن تخطب صلوة الجمعة بأسمه العزيز . وفي عام ٦٩٩ زحف جيش جرار من جماعة التتر على

سلطنة علاء الدين وفزعوا عليه بالحرب العوان وبعد أن ناهضهم طويلاً ولم ينله الله الفوز عليهم شق رعاياه عليه عصا الطاعة وجاهروا بعدوانه فاضطروا إلى المهاجرة لبلاد الروم وهناك توفي . وحينئذ انقرضت الدولة السلجوقية فقام الأهلون على قدم وساق ونادوا باجتماع الكلمة باسم عثمان الغازي بن أرطغرل سلطاناً عليهم فجلس على مهد السلطنه عام ٦٩٩ للهجرة وتمركز في مدينة قره حصار ودعاها بادشاه ثم حصن مدينة يكي شهر وجعلها مركزاً له وأخذ يحكم بالقسط والعدل وينصف المظلوم من الظالم ويعطي لكل ذي حق حقه حتى رتع سكان سلطنته في بحبوحة الرغد والسعادة وبعد أن نظم أحوال داخلية البلاد شرع في توسيع نطاق ملكه فحاصر مدينة أذنك وشاد أمامها قلعة حصينة دعاها «نزغان» باسم قائد الجيش .

وفي عام ٧٠٧ هـ . داخل والي بروسه الخوف من طموح السلطان عثمان إلى بلاده فاثار عليه سراً ولاة البلاد المجاورة ليقاوموه ولكن لما أتصل به الخبر شن عليهم الغارة عاملاً بهم السيف حتى مزق شملهم وقتل صاحب قلعة كستل وبعث بابنه أورخان خان يقود جيشاً كثيفاً إلى مدينة بورصه وبعد أن حاصرها مدة دخلها عنوة وأذن لاهلها أن ينصرفوا منها بدون أن يهرق منهم قطرة دم وكان ذلك عام ٧٢٦ هـ ثم شرع في تنظيم أحكامها وتحصين قلاعها . وفي أثناء ذلك جاء رسول من قبل والده يستدعيه إليه فأطاع وراح مسرعاً ولما أن دخل على أبيه ألفاه يتقلب على فراش الموت فاغرورقت عيناه بالدموع وخاطبه بقوله : يا أعظم سلاطين البر والبحر كم قهرت أبطال وافتتحت بلداناً مالي أراك في هذه الحالة . فاجابه والده . لا تجزع يابني هذا مصير الاولين والاخرين وانني الآن أموت فرحاً مسروراً لكونك تخلفني وتقوم مقامي بادارة هذا الملك السامي . ولم يتم كلامه حتى أنتقلت روحه إلى جنة السعادة ونقلت جثته إلى زاوية قلعة بروسه حيث دفن بكل اكرام واجلال وكان ذلك عام ٧٢٦ هـ بعد أن عاش سبعين سنة قضى منها ٢٧ عاماً على تخت السلطنة . وكان رحمه الله شجاعاً باسلاً شديد البأس سديد الرأي عالي الهمة كريم الخلق أبي النفس كريماً يحب الاحسان لبني الإنسان ومن وفرة كرمه لم يترك شيئاً لخليفته سوى حلة مطرزة وعمامة مضرجة وبعض مناطق من القطن سجت على هيئة بسيطة رحمه الله وجعل الجنه مأواه .

٥-**الامبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية فى ثلاثينات وأربعينيات القرن التاسع عشر** للمؤرخ الروسى أنيتل ألكسندو فنادولينا- ترجمة أنور إبراهيم وقد عرض هذا الكتاب لاستغلال الدبلوماسية الغربية للمشاكل التى تعرضت لها الدولة العثمانية وتأزم الأوضاع الداخلية فيها، وعدم مسايرتها لتطور النظام الرأسمالى فقامت بتشجيع الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية خاصة فى أوربا، وتطرق المؤلف إلى زيادة حدة الصراع بين الدول الأوربية من أجل اخضاع الدولة العثمانية مما أبرز المسألة الشرقية على الساحة خاصة خلال أحداث اليونان والنزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على كما قام بدراسة الدبلوماسية العثمانية خلال هذه الفترة ومهام الدولة العثمانية للتفاعل مع هذه المواقف.

الفصل الأول

الإمبراطورية العثمانية

فى العشرينيات ومطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر

وعلاقاتها بالدول الأوروبية

ارتبط ظهور البواكير الأولى للعلاقات الرأسمالية فى الإمبراطورية العثمانية ، وخاصة فى الأقاليم الغربية منها ، بالسوق الأوروبية ، وقد أسهمت هذه العلاقات فى تشكل ونمو الوعى القومى فى هذه الأقاليم . ونتيجة للتطور الإجتماعى والإقتصادى غير المتوازن فى مختلف أقاليم الإمبراطورية ، فقد نضجت هذه العمليات فى أوقات متباينة وأصبح من الجلى أن الأتراك أنفسهم قد تخلفوا عن عدد من الشعوب الخاضعة لسلطانهم . وقد أدت هذه الظروف إلى خلق تناقضات داخلية راحت تهدد وجود الإمبراطورية العثمانية ذاتها باعتبارها دولة واحدة .

لقد استغلت الدبلوماسية الأوروبية على نحو فعَّال المشكلات الداخلية للإمبراطورية العثمانية فى تحقيق أهدافها . وما لبثت حدة التناقضات بين الدول الأوروبية وتركيا أن اشتدت فى عشرينيات القرن التاسع عشر أى فى فترة الكفاح القومى التحررى للشعب اليونانى من أجل حصوله على الاستقلال .

لقد تمخض ضعف الإمبراطورية العثمانية والذى تمثل فى تخلفها الإقتصادى عن الدول الأوروبية وتأزم الأوضاع الداخلية فيها عن عدد من الأحداث . ففى عام ١٨٣٠ توج الشعب اليونانى نجاحه ضد النير العثمانى (١٨٢١ – ١٨٢٧) بإعلان الاستقلال. وفى العام نفسه أحتلت فرنسا الجزائر، وفى عام ١٨٣١ خرج والى مصر محمد على عن طوع السلطان، واستولى على سوريا وأخذ يطالب بالاعتراف بالسلطة الموروثة فى مصر وسوريا، ثم بعد ذلك بالاستقلال . وفى عام ١٨٣١ حصلت صربيا بمساعدة روسيا على استقلالها الذاتى ، وبناء على صلح أدرنة ساهمت روسيا فى إدخال تغيرات جذرية فى بنية ممالك الدون تبعاً لما كان يعرف بالترتيبات العضوية أنظر ٦٩، ص ٢٦٣ – ٣٢٢) وهو ما زاد من حقوق هذه الممالك فى الاستقلال الذاتى . وفى الثلاثينيات أيضاً بدأت فرنسا صراعها ضد الباب العالى من أجل السيطرة على تونس .

لقد أدت كل هذه الأحداث إلى أن الحكومة السلطانية أصبحت تدرك ضرورة إجراء تغيرات فى نظام إدارة الدولة . وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت السياستان الداخلية والخارجية للباب العالى موجهتان لتحقيق هدف واحد: تقوية الدولة والحفاظ على وحدتها ، فمن أجل تقوية الوضع الداخلى والقضاء على تذمر الشعوب الخاضعة اتخذت الإجراءات الإصلاحية ، بينما تركز هدف السياسة الخارجية والدبلوماسية فى الحفاظ على وحدة الدولة . وقد تنامى دور الأخيرة بشكل خاص بعد عام ١٨٤٢ عندما أقيمت علاقات دبلوماسية دائمة مع الدول الأوروبية .

ومن المعروف أن اليونانيين ، شأنهم فى ذلك شأن الشعوب السلافية فى شبه جزيرة البلقان ، كانوا يعلقون آمالهم منذ أمد بعيد على تلقى المساعدة من روسيا فى تحريرهم من الهيمنة التركية . وقد أشار كل من ماركس وإنجلز مراراً إلى أن اليونانيين والسلاف كانوا يرون فى روسيا نصيرهم الطبيعى (انظر على سبيل المثال ١٢ ، ص ٢٢) .

غير أن سياسة روسيا تجاه حركات التحرر القومى فى ذلك الوقت اتسمت وبشكل واضح بالازدواجية . فمن ناحية ، سعت روسيا لاستغلال هذه الحركات للحصول على مكاسب شخصية تحت ستار أهداف نبيلة مثل مساعدة أخوة الدين المضطهدين . ومن ناحية أخرى أدت السياسة العامة للحلف المقدس والذى كان من أهدافه مقاومة الحركات الثورية وحركات التحرر القومى وسعت دول الحلف للتعاون الناجح مع الحكومة المركزية للإمبراطورية العثمانية إلى تذبذب السياسة الروسية وعدم الثبات على مواقفها .

وبعد إعلان استقلال اليونان عملت إنجلترا وفرنسا على تصعيد الصراع ضد التأثير الروسى فى اليونان . لقد كانت دول أوروبا الغربية تخشى أن تصبح الدولة اليونانية القوية نصيراً للسياسة الروسية . كما لم ترغب هذه الدول أيضاً فى إضعاف الإمبراطورية العثمانية ، إذ كانت ترى فيها حاجزاً ضد روسيا (١٤٨ ، ص ٤٣ – ٦١، ١٤٩ ، ص ٦١) . ولهذا فإن إنجلترا وروسيا وفرنسا هى التى قامت برسم حدود اليونان ، فأدخلت فيها المناطق الخالية من احتياطيات المواد الخام والأراضى الأقل خصوبة . كما ظلت كريت وجزر أيونيا بسكانها اليونانيين والتى احتلتها إنجلترا منذ ١٨٠٩ إلى جانب عدد من جزر بحر إيجه[1] خارج الحدود اليونانية .

بعد عام ١٨٣٠ انفجرت الخلافات التركية اليونانية وعلى الأخص الخلافات الإقليمية ، وهذه أشتدت حدتها فى العقود التى تلت ذلك .

سعت الدول الكبرى للحفاظ على الوضع الراهن فيما يتعلق بالعلاقات اليونانية التركية والحيلولة دون وقوع أى صدام عسكرى بينهما ، إذ أن مثل هذا الصدام كان من الممكن أن يكون سبباً لنشوب حرب بين الدول الكبرى ذاتها .

ظلت اليونان لسنوات طويلة بعد حصولها على الاستقلال عاجزة عن بلوغ الاستقرار سواء داخل الدولة ، وذلك بسبب الصراعات داخل الأحزاب أو الصراعات الطبقية ، أو خارجها ، أى فى علاقاتها من الإمبراطورية العثمانية ، وبطبيعة الحال فإن كل محاولات اليونان التى بذلت فى هذه الظروف من أجل استعادة وحدتها باءت بالفشل . على أن الدول الأوروبية استغلت الطموحات القومية لليونانيين باعتبارها وسيلة لتقوية تأثيرها فى اليونان . كانت الأحزاب اليونانية تناصر إما التوجه الإنجليزى أو الفرنسى أو الروسى . وقد دفع ذلك الباب العالى لأن يتخوف من أن تؤدى حماية الدول الأوروبية إلى مساعدة اليونان فى توسيع حدودها (٢٠٢ ، ص ١٤). وقد أعطت كل من فرنسا والنمسا وروسيا المبررات المرة تلو الأخرى لمثل هذه المخاوف (١٣٢ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩٤ – ٣٩٥ ، ٤٧٣ ، ٦١٤ ، ١٢٤ ، جـ ٢ ، ص ١١٥ ، ١١٨ – ١٢٠) .

أما المشكلة الثانية والهامة التى واجهت الباب العالى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فكانت انتفاضة محمد على باشا والى مصر الذى عينه الباب العالى فى هذا المنصب عام ١٨٠٥ .

أصبح محمد على الحاكم المطلق السلطة لمصر بعد أن تخلص فى عام ١٨١١ من المماليك (مع استحسان صامت من جانب الباب العالى) . وارتبطت به كلية الصفوة التى دفعها للأمام بعد أن أنعم عليها بالأراضى . كان محمد على ينظر إلى مصر كضيعة يمتلكها وتمثل له مصدراً للثراء . إن التبعية الهشة بالسلطة المركزية (وهو ما كان يميز إلى حد كبير علاقة الحكام بالأقاليم الأخرى بفضل النظام الإدارى الذى كان قائماً فى الإمبراطورية العثمانية) والسلطة غير المحدودة فى البلاد سمحت لمحمد على بإقامة احتكارات حكومية تقدر بـ ٩٥٪ من البضائع المصدرة للخارج (٤٨ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، انظر أيضاً ٢٧ ، ص ٢٤٤ ، ٥٦ ، ص ١٤ – ١٩ ، ٢٥ ، ٨٢ ، ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ١٢٠ ، ص ١٧٨ ، ٢٤ ، ص ٢٤) . إن هذا المدخل الجديد لم يكن بمقدور أى حاكم آخر أن يسمح به لنفسه . لقد ساعد قرب محمد على من الأسواق

الأوروبية ودعم فرنسا له إلى جانب العائدات الضخمة التى حصل عليها أن يقيم جيشاً جديداً منظماً وأسطولاً جباراً . قام محمد على ، بموافقة الباب العالى ، بإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية وثقافية باسمه مع الدول الأوروبية كان أغلبها مع فرنسا . وكان جيشه مدرباً على الطريقة الأوروبية ، مزوداً بضباط فرنسيين . وقد تأسست فى مصر معاهد تعليمية عمل بها مدرسون أوروبيون . كما تجاوز نجاح الإصلاحات وتحديث الجيش والتعليم فيها قدراً أكبر بكثير من إصلاحات السلطان التركى سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) حيث لم يعد فى مصر بعد القضاء على المماليك أى معارضة داخلية قوية .

بدأ تمرد محمد على بالنسبة للإمبراطورية العثمانية تقليدياً وبدا وكأنه لا يمثل تهديداً لوحدة الدولة . لم يكن تمرد حكام الإقاليم ضد السلطة المركزية فى الإمبراطورية العثمانية يحمل فى أغلب الأحوال طابع الوقوف فى وجه السلطان ، ولم يكن يستهدف الانفصال عن الإمبراطورية . وعلى العكس من ذلك كان الإقطاعيون المتمردون يرون أنفسهم أكثر خدم السلطان إخلاصاً . عن مثل هذه المواقف كتب بازيلى قائلاً: " كان هذا الشكل الخاص من التمرد معروفاً منذ القدم وممكنا فى الشرق فقط ، لم يكن الباشوات يعلنون تمردهم على السلطان ، الذى ظلت حقوقه الروحية والسياسية مصونة بصفته خليفة رسول الله ، وإنما كان التمرد موجها ضد الحكومة التى عينها هذا السلطان ، وحيث إن التناقضات كثيراً ما تتجاور وتتشابه ، فإن الاستبداد الشرقى يقف هنا جنباً إلى جنب مع راديكالية الغرب " (٢٧ ، ص ١٠٤) .

كانت الحكومة المركزية تلجأ أحياناً لاستغلال التمردات لإقصاء الموظفين الذين لم تعد لهم حاجة إليهم وذلك على أيدى أعداءها من المتمردين (٢٧ ، ص ١٠٠) وقد طبق هذه الوسيلة نفسها الباشوات (الولاة) على من يتبعونهم من إقطاعيين . كتب الدبلوماسى البروسى والمراقب الحصيف للأحداث ج. روزين يقول إن ولاة الأقاليم كانوا " تارة ما يستغلون النزاعات القديمة بين القبائل ، وتارة ما يغرون بالوعود إقطاعياً ضد إقطاعى بالرضاء الدائم للديوان عليه ، وتارة ما يضربون الأضعف بالأقوى ، وعندما يطالب المنتصر الذى أنفق على الصراع أفضل جزء من أملاكه وضياعه أملاً فى مكافأة تعوضه عما قدمه من خدمات للباشا كان الولاة يتعاملون معه بلا رحمة باعتباره متمرداً أو – فى نهاية الأمر – يعزلونه على نحو غادر " (١٢٤ ، جـ ١ ، ص ١٣٨) .

١- تم رسم الحدود بين الإمبراطورية العثمانية واليونان فى عام ١٨٣٢ . وقد مرت الحدود عبر خط خليجى أرتا وفولوس . وحول مباحثات الدول الكبرى والدولة العثمانية بشأن تقسيم الحدود فى الفترة من عام ١٨٢٨ وحتى عام ١٨٣٩ (انظر ١٤٧ ، ص ٧٥ – ٧٧ ، ٨٣ – ٨٥ ، ١٠٠ وغيرها) .

أخذت الخلافات بين محمد على والسلطان فى التراكم بالتدريج . كان السلطان قد وعد محمد على بتوليته كريت وسوريا جزاء ما قدمه من عون فى قمع الإنتفاضة فى اليونان . ولكن بعد تحطيم الأسطول المصرى على يد الأسطول الأوربى الموحد فى نافارين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ ، غادر الجيش المصرى المورة دون إذن السلطان . كما لم تقدم مصر للسلطان أى مساعدة أثناء الحرب الروسية التركية عامى ١٨٢٨ و١٨٢٩ حيث لم يستجب محمود الثانى لرغبات محمد على فى تعيين قائداً للجيوش فى الأناضول وتعيين ابنه إبراهيم قائداً لرومليه . وبعد توقيع صلح أدرنة عام ١٨٢٩ بين روسيا والإمبراطورية العثمانية حدد محمد على طلبه بالحصول على الاقاليم التى وعد بها من قبل (كريت وسوريا) . لكن محموداً اكتفى بإعطائه كريت فقط جزاء ما أظهره محمد على من عصيان .

لم يمض وقت طويل إلا وقد قررت الحكومة السلطانية معاقبة محمد على ، وهو ما علم به من جواسيسه المندسين فى بلاط السلطان . وقد اتخذ محمد على من هذا الأمر ذريعة للقيام بمحاولة مستقلة للاستيلاء على سوريا . ففى ديسمبر عام ١٨٣١ استغل محمد على الخلافات التى تفجرت بينه وبين عبدالله باشا والى عكا فوجه إليه جيشاً قوامه ٢٤ ألف رجل . وطبقاً لمرسوم السلطان أعتبر محمد على بفتوى أصدرها شيخ الإسلام فى ٢٣ أبريل ١٨٣٢ عاصياً (٢٠٨ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، انظر أيضاً ٧٤ ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٩٧ ، ص ٩٢) .

بعد أن استولى محمد على على سوريا أمر جيشه بالتحرك تجاه الأناضول ليرغم السلطان على الاعتراف بحقوقه فى الأراضى التى احتلها . وقد هددت هزيمة قوات السلطان عند قونية عام ١٨٣٢ وتقدم جيوش الباشا المصرى نحو أسطنبول وجود الأسرة الحاكمة .

فى نهاية عام ١٨٣٢ أرسل السلطان محمود الثانى السفير نامق باشا[1] إلى العواصم الأوروبية بهدف استيضاح موقف هذه الدول من تمرد محمد على ومن السلطان نفسه وأوصاه ، فى حالة توصله إلى نتيجة إيجابية ، أن يطلب من إنجلترا المساعدة . من نوفمبر عام ١٨٣٢ وحتى مارس ١٨٣٣ زار نامق باشا كل من فينا

١- نامق باشا (١٨٠٤ - ١٨٩٥): تلقى تعليمه فى الإدارة السلطانية (Dirani Hümayun Kalemi) كان على معرفة باللغة الفرنسية وعمل مترجماً لدى الباب العالى ، شارك فى الحرب التركية الروسية عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ . زار بطرسبورج بصحبة خليل باشا بعد توقيع صلح أدرنة . عمل فى الفترة من عام ١٨٣٢ وحتى ١٨٣٣ سفيراً خاصاً لدى العواصم الأوروبية ، ومن سبتمبر عام ١٨٣٤حتى مارس ١٨٣٥ سفيراً دائماً لدى لندن .وفى عام ١٨٣٥ شغل منصب نائب القبودان دار . شارك فى عام ١٨٣٦ فى حرب طرابلس ، شغل بعدها مناصب الوالى والسرعسكر ووزير التجارة ووزير البحرية وغيرها من المناصب .

وباريس ولندن وبرلين وبطرسبورج . وعلى الرغم من استقباله فى لندن بحفاوة كبيرة وإهدائه عدداً من المدافع ، إلا أنه لم يتلق وعداً بالمساعدة العسكرية (لمعرفة الأسباب انظـــر: ١٩٨ ، ص ٨٢ ، ٩٥ ، ١٩٩ ، ص ٢٤٠ - ٢٥١ ، ١٨٢ ، ص ١٤ ، ١٢٤ ، جـ١ ، ص ٢٥٣) .

ربما لم تكن إنجلترا - فى الفترة الأخيرة التى عمل فيها نامق باشا سفيراً لبلاده - ترى فى ثورة محمد على اعتداء على وحدة الإمبراطورية العثمانية ، ومن ثم فإنها تعاملت مع هذه الثورة باعتبارها تمرداً عادياً (٢٠٨ ، ص ١٣٣ ، ١٥١ ، ١٣٥ ، ١٩٨ ، ص ٢٤٦) . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت إنجلترا فى النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر عاقدة العزم على إقامة علاقات ودية مع باشا مصر وفتح طريق أكثر قرباً إلى الهند عبر أراضى ما بين النهرين ومصر .

على أية حال فإنجلترا لم تخمن أن محمود الثانى الذى اضطرته الظروف لقبول مساعدة عسكرية من روسيا سوف يعقد معها وبعد عدة أشهر (فى يونيو ١٨٣٣) معاهدة أونكيار إيسكيليسى للدفاع المشترك ، وهى المعاهدة التى استقبلتها إنجلترا باعتبارها انتصاراً دبلوماسياً كبيراً لروسيا .

فى فبراير ١٨٣٣ وصلت قوات محمد على إلى مدينة كوتاهية فى آسيا الصغرى . وقد أثار ذلك اضطراباً شديداً فى إسطنبول . قدرت الحكومة القيصرية خطورة الموقف وهى تشاهد إمكانية الإنهيار السريع للإمبراطورية العثمانية ، وهى المعنية بالاحتفاظ " بجار ضعيف " هو سلطان تركيا ، لا جار قوى ممثلاً فى شخص محمد على (٢٣٤ ، مجلد ٤ ، ص ٤٣٨ ، أنظر ١٤٢ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩) ، وعلى الفور تقدمت باقتراح لمساعدة السلطان فأرسلت الجنرال ن. ن. مورافيوف إلى إسطنبول ومعه هذا الاقتراح وذلك فى مطلع شهر ديسمبر عام ١٨٣٢ (٦٣ ، جـ٢ ، ص ٢٠٧) وفى الثانى من ديسمبر عرض ممثل روسيا فى إسطنبول بصورة رسمية تقديم مساعدة عسكرية إلى الباب العالى . ولما كان محمود الثانى فى مأزق فقد وافق على الإقتراح على الفور .

وصل الأسطول الروسى الأول إلى البوسفور يوم ٢٠ فبراير ١٨٣٣ ، أما أول إنزال (ما يزيد على خمسة آلاف جندى روسى) فقد قام به الأسطول الروسى الثانى على الشاطئ الآسيوى للبوسفور فى وادى أونكيار إيسكيليسى فى ٤ أبريل . وفى الثالث والعشرين من أبريل وصل الأسطول الثالث وكان مكونا من ٤٠٠٠ جندى آخر تقريبا (١٣٢ ، ص ٣٦٧) .

استقبلت دول أوروبا الغربية وجود الأسطول الحربى الروسى فى البوسفور بانزعاج بالغ ، عندئذ راحت تلح فى النصح على محمود الثانى بأن يسارع بالتصالح مع هذا التابع العنيد وأثارت لديه المخاوف من جراء النيات العدوانية لروسيا ، نتيجة

لذلك أصدر محمود الثانى فرماناً يؤكد فيه حق محمد على فى إدارة سوريا وكريت وجدة (فى الجزيرة العربية) . وعلاوة على ذلك فقد أنعم عليه محمود الثانى بالآيالات والصناجق فى سوريا وفلسطين: صيدا ، طرابلس ، القدس ، نابلس .

فى يناير عام ١٨٣٣ يتوجه إلى مصر المشير[1] خليل رفعت باشا قائد الأسطول[2] ومعه رئيس إدارة الشئون الخارجية مصطفى رشيد بك وذلك بناء على خطى همايونى (٤٨ ، ص ٥١ – ٥٢) .

وعندما أحس محمد على بما آلت إليه السلطة المركزية من ضعف لم يكتف بما قدمه له السلطان من تنازلات فراح يطالب بأراض إضافية: أيالات الشام (دمشق) وحلب فى سوريا ، وصناجق إيتشل وألآيى فى آسيا الصغرى الواقعة على سواحل البحر الأسود . وقد هدد محمد على بإرسال حملة إلى إسطنبول إذا لم يجاب إلى طلبه . وهنا صرح له السفيران أنهما لا يملكان الشجاعة على إبلاغ السلطان بهذه الشروط ، على أن محمداً علياً أصر على أن يكتبا إلى السلطان برغباته أو يقوم هو بنفسه بإبلاغه .

وفى إحدى المباحثات التى دارت مع خليل رفعت باشا وشارك فيها مصطفى رشيد بك تناول محمد على السلطان بكلمات مقذعة . كان هذا الأمر مفاجئاً لموظف السلطان كما جعله يدرك أن الباشا المصرى ليس خادماً مخلصاً للسلطان وأن تمرده يهدد وحدة الإمبراطورية العثمانية بأسرها .

لم تحقق المباحثات التى دارت بين ممثلى تركيا ومحمد على فى يناير ١٨٣٣ نجاحا يذكر . واضطر السفيران أن يبعثا بمذكرة تفسيرية للباب العالى ، الذى رد بضرورة بقاء خليل رفعت باشا فى الأسكندرية وعودة مصطفى رشيد بك إلى إسطنبول

١– المشير هى الرتبة الأولى بين الموظفين المدنيين ... حتى أن نائب الملك فى مصر لم يكن أعلى مرتبة من المشير ... وهناك رتبة المشير أيضاً بين الرتب العسكرية ، ولكن من يحملونها هم أدنى منزلة من أقرانهم المدنيين ، ذلك أن أصحابها من العسكريين أكثر عدداً من المدنيين ، ولهذا أيضاً يتقاضون رواتب أقل كثيراً منهم " (٣٠ ، ص ٣١٢ / أنظر أيضاً ٢٠٨ ، ص ٤٠١) .

٢– خليل رفعت باشا: من أصل قوقازى ، كان فى طفولته عبداً لدى خسرو باشا وابناً له بالتبنى . عمل ضابطاً بالجيش النظامى وشارك فى إخماد الإنتفاضة اليونانية . بعد حرب ١٨٣٨ – ١٨٢٩ منح لقب باشا نظير ما أبداه من شجاعة وبفضل راعيه خسرو باشا (الذى كان يشغل آنذاك منصب السرعسكر) . وعلى مدى ستة أشهر عمل سفيراً لدى روسيا وفور عودته منها أصبح سميراً للسلطان محمود الثانى ، ثم عين فى منصب القبودان باشا (قائد الأسطول) ، وفى عام ١٨٣٦ عين فى منصب السرعسكر . وهو آخر منصب شغله وحتى إبان حكم السلطان عبدالمجيد الثانى . وفى عام ١٨٤٠ عين عضواً فى مجلس وزارة العدل ، ومن عام ١٨٤٤ وحتى عام ١٨٤٤ قام على تنظيم أمور الحكم فى لبنان .

وصل خليل رفعت باشا إلى العاصمة فى ٢١ مارس ١٨٣٢ على متن سفينة فرنسية كانت فى طريقها إليها . (١٩٨ ، ص ١١١) وسرعان ما بعث به الباب العالى إلى كوتاهية لإجراء مباحثات مع إبراهيم باشا قائد الجيش المصرى وابن محمد على .

أدار المباحثات مع إبراهيم باشا الدبلوماسى الفرنسى فارين ممثلاً للباب العالى ، وقد بذل فارين جل جهوده لمنع الدبلوماسية الروسية من استغلال الموقف المتردى للسلطان وزيادة تأثير روسيا على الإمبراطورية العثمانية . ولما كان السلطان يرغب كذلك فى تجنب مشاركة القوات الروسية مباشرة فى المعارك ضد محمد على وعدم السماح لها بدخول الأناضول فقد وافق على الوساطة الفرنسية . أتاح الباب العالى لفارين بعضاً من حرية الحركة وخاصة فيما يتعلق بالتنازل لمحمد على عن بعض الأقاليم (١٢٤ ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، ١٩١) . كان على مصطفى رشيد ، الذى صاحب فارين ممثل الباب العالى ، أن يبلغ إبراهيم أن السلطان سوف يمنح أباه ، إضافة إلى ما أنعم به عليه من قبل ، أيالات الشام (دمشق) . أما محمد على فقد طالب ، كما ذكرنا من قبل ، بأيالات الشام (دمشق) وحلب وصناجق إيتشل وألايى . وعلاوة على هذا الطلب أضيفت – كما علمنا من تقرير مصطفى رشيد – كل من أوفا والرقة وأدنة (٤٨ ، ص ٥٦ ، ١٢٤ ، جـ١ ، ص ١٩٢) .

فى الثلاثين من مارس عام ١٨٣٣ غادر إسطنبول ممثلو تركيا: مصطفى رشيد وشكيب أفندى والقائم بالأعمال الفرنسى فارين (١٩٨ ، ص ١١١) .

ويتضح لنا من تقارير مصطفى رشيد أن الباب العالى كان يدرك الدور النشط الذى اضطلع به القائم بالأعمال الفرنسى فى المباحثات وكيف أنه سعى للمصالحة بين المتنافسين بعد أن أرغمهما على السير فى طريق التنازلات المتبادلة . ومن المحتمل أن يكون قد اقترح على إبراهيم أن يتخلى عن صناجق إيتشل وألايى وأن يكتفى بالتنازل عن أدنة وأن يحصل من الصناجق المذكورة على أخشاب البناء بعد موافقة السلطان . نصح فارين إبراهيم أن يقرر هذا الأمر بنفسه دون أن ينتظر موافقة محمد على . وقد أبلغ مصطفى رشيد الباب العالى بأن فارين كان يتصرف إبان إجراء المباحثات باعتباره " موظفا مخلصاً لدى السلطان التركى " (٤٨ ، ص ٥٥) .

أظهرت الجولة الأولى من المباحثات مع إبراهيم فى كوتاهية لمصطفى رشيد أن الابن عنيد مثل أبيه . لقد رفض إبراهيم الإكتفاء بدمشق وكرر مطالب محمد على وهدد بالزحف نحو إسطنبول فى حالة رفض هذه المطالب . باءت محاولات مصطفى رشيد

مداعبة المشاعر الوطنية لإبراهيم ولم تترك مسألة تذكيره بأن أوروبا باتت تعرف بأمر إنزال القوات الروسية وأن هذا أمر " غير لائق وغير مقبول " أى انطباع لديه . لم يخش إبراهيم أى شئ ، حتى التهديد بحتمية القبض عليه فى حالة إنزال قوات روسية حددها مصطفى رشيد بحوالى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف جندى (٤٨ ، ص ٤٤) .

يلاحظ من تقارير رشيد بك أنه كان يقف إلى جانب تسوية الصراع عن طريق التفاوض المباشر مع إبراهيم وأنه لم يكن معارضاً لتنازلات إقليمية . على أن الباب العالى لم يوافق على إعطاء أدنة لمحمد على وأصدر أمراً إلى رشيد بك بأن ينتظر توجيهاته التالية .

فى الرابع عشر من أبريل عام ١٨٣٣ قدم فارين شروط الصلح إلى الباب العالى الذى أسرع بالإعلان عن النهاية السلمية للصراع ، على أن أدنة لم تكن ضمن الأقاليم التى أعطيت لمحمد على . ورداً على ذلك لم تغادر القوات المصرية كوتاهية واتهمت السفارة الفرنسية الباب العالى بالخيانة .

وقع محمود الثانى فى حيرة من أمره ولم يعد يعرف أى المصيبتين أكبر: أن يستجيب لمطالب محمد على كلها وأن يطاطئ رأسه إذلالاً للباشا المتمرد ، أم يسمح للقوات الروسية بالدخول إلى أراضى آسيا الصغرى . لقد أخافت الدبلوماسية الأوروبية الباب العالى من عزم الروس الاستيلاء على إسطنبول (١٢٤ ، جـ١ ، ص ١٨٩) . كانت غالبية أعضاء الحكومة التركية تقف ضد قبول المساعدة الروسية ، إذ كانوا يدركون أنه ما إن يقبل الباب العالى هذه المساعدة حتى يقوم الروس بعزله عن بقية الدول الأوروبية (١٢٤ ، جـ١ ، ص ١٨٠) .

ونتيجة لعناد محمد على وإلحاح السفارتين الفرنسية والإنجليزية ، إلى جانب المخاوف المرتبطة بوجود قوات روسية فوق أراضى الإمبراطورية العثمانية قرر محمود الثانى التضحية بأدنة وإعطائها للباشا المصرى . فى الخامس من مايو ١٨٣٣ أصدر السلطان فرماناً بتعيين محمد على حاكماً على سوريا وكيليكيا . وفى الرابع عشر من مايو تم الاتفاق فى كوتاهية[1] على وقف العمليات العسكرية بين قوات السلطان ومحمد على ، وفى نفس اليوم يبدأ انسحاب القوات المصرية من طوروس . وفى الرابع والعشرين غادرت كوتاهية آخر فصيلة مصرية (١٢٤ ، جـ١ ، ص ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٩٠ - ١٩٦) .

١- لم يكن الفرمان معاهدة دولية وإنما كان وثيقة من جانب واحد هو السلطان . وعلى هذا لا تعد " معاهدة كوتاهية " معاهدة بمعنى الكلمة . وقد استخدمنا بعد ذلك اصطلاح " اتفاق كوتاهية " .

بعدما زال التهديد المباشر للعرش ، قام السلطان بعقد إتفاقية دفاع مشترك مع روسيا لمدة ثمانية أعوام جرى توقيعها فى الثامن من يوليو ١٨٣٣ فى إسطنبول [١]. وقد عرفت هذه الإتفاقية باسم إتفاقية أونكيار إيسكيليسى نسبة إلى الوادى الذى نزلت به القوات الروسية (غادرت القوات الروسية الشواطئ التركية بعد يومين من توقيع الإتفاقية) . نصت الإتفاقية على التزام روسيا بتقديم المساعدة العسكرية بناء على طلب السلطان وذلك فى حالة قيام محمد على بأى هجوم جديد ، بينما تلتزم تركيا بإغلاق مضيق الدردنيل أمام السفن الحربية لجميع الدول [٢](انظر ٣٤ ، جـ ١٢ ، ص ٥٠)

اعتبر السلطان أن إتفاقية أونكيار إيسكيليسى تحميه من أى تمرد جديد من قبل والى مصر . كما عقد آماله أيضاً على مساعدة روسيا له فى المستقبل على قمع محمد على وإعادة ولو حتى سوريا على الأقل .

عملت المساعدة التى قدمتها روسيا إلى السلطان آنذاك إلى جانب إتفاقية أونكيار إيسكيليسى، التى رأى فيها محمود الثانى عاملاً هاماً فى قمع الباشا المصرى وربما أيضاً إلى دحره إلى الأبد ، على تقوية النفوذ الروسى . لم يكن من الممكن أن تقف دول أوروبا الغربية مكتوفة الأيدى أمام هذا النجاح السياسى الذى أحرزته روسيا والذى جاء مفاجئاً لهذه الدول جميعاً .

لقد أوجست الدول الأوروبية خيفة من شروط هذه الإتفاقية تحسباً لإندلاع حدة الصراع التركى المصرى وقيام روسيا عندئذ بدفع قواتها بحيث لا تغادر بعدها أبداً لا إسطنبول ولا المضايق .

منذ ذلك الوقت اتخذ الصراع الدبلوماسى للدول الأوروبية فى الإمبراطورية العثمانية طابعاً خاصاً حاداً . وعلى مدى سنوات طويلة بذلت الدول الغربية جهوداً كبيرة لتجعل من إتفاقية أونكيار إيسكيليسى حبراً على ورق ، ومن أجل هذا راحت

١- حول عقد معاهدة أونكيار إيسكيليسى بمبادرة من الباب العالى انظر: ١٨ / ٩٠ ، ص ١٧٥ – ١٧٦ ، ١٨٣ – ١٨٤ / ٦٤ ، ص ١٤١ / ١٩٨ . ص ١٥٠ / ٢٠٨ ، ص ١٣٦ . انظر نص المعاهدة فى المرجع ٣٩ ، ص ٨٩ – ٩٢ .

٢- كان هناك ثمة بند سرى فى معاهدة أونكيار إيسكيليسى يلزم الباب العالى بإغلاق مضيق الدردنيل فى حالة تعرض الممتلكات الروسية فى البحر الأسود للتهديد بالتدخل من جانب الأساطيل المعادية فى المضايق ، أى فى حالة دخول روسيا الحرب مع الدول الغربية . كان إغلاق الدردنيل يشترط فتح المرور أمام السفن الروسية الحربية وحليفتها تركيا عبر البحر الأسود ... وعلى الرغم من الفائدة الكبيرة التى بدا أن روسيا قد حصلت عليها من هذا البند السرى ... فإن هذا البند قد فقد فعاليته بسبب ما أحاطه من غموض (٦٥ ، ص ٣٤) .

تسعى للحصول على موافقة الباب العالى على عقد إتفاقية مماثلة مع جميع الدول الكبرى . ذلك أن مثل هذه الإتفاقية قد عقدت لفقدت روسيا حرية الحركة فى حالة تجدد الصدامات العسكرية بين السلطان ومحمد على (٨: ، ص ٥٥٩ ، ٩١ ، ص ٣٠ ، ٤٩ ، ٧٤ ، ص ٨٤٧ ، ١٣٢ ، ص ٤٢٨) .

لقد وقع الصدام العسكرى الثانى بين جيشى الباشا المصرى والسلطان فى يونيو ١٨٣٩ فلم تكن الفترة ما بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ فى الواقع سوى فترة سلام شكلى ، إذ واصل الجانبان خلالها سعيهما لتحقيق أغراضهما: فمحمد على يسعى للحصول على استقلال رسمى (كان محمد على يمتلك استقلالاً واقعياً لكنه استقلال غير راسخ)، أما السلطان فكان يهدف ، استناداً إلى سلطته العليا ، إلى قمع الوالى المتمرد وإعادة مصر إلى حكمه ، فإن لم يتيسر له ذلك فسوريا على الأقل .

تميز تمرد محمد على عن بقية الصراعات المعتادة باستمراريته ، إلى جانب تدخل الدول الأوروبية فيه بفضل الضعف النسبى لسلطان تركيا الذى أرغم فى النهاية على التوجه إلى الدول الأوروبية طلباً للعون .

شاركت كل من روسيا وإنجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا ، فضلاً عن تركيا ومصر ، فى النزاع الدبلوماسى الطويل (١٨٣٣ - ١٨٤١) بسبب الصراع التركى المصرى .

لقد بدا أن الصراع الدبلوماسى فى تلك الفترة كما لو كان قد اتخذ له مسارين . فالدول الأوروبية جميعها كانت تحارب ، أولاً وقبل كل شئ ، ضد الزيادة المحتملة لقوة منافسيها على حساب الإمبراطورية العثمانية وخاصة فى منطقة المضايق، على الرغم من أنها كانت تؤكد للباب العالى أن كلاً منها لا تسعى إلا للدفاع عن مصالحها . وفى خضم صراع الدول الأوروبية على المضايق (وخاصة صراع الدول الأوروبية ضد روسيا) اكتفت الدبلوماسية التركية بدور ثانوى . فالحقيقة أن الإمبراطورية العثمانية فى هذه الفترة أصبحت هدفاً للمصالح الأخرى . على الرغم من أن مبادرتها فى هذا الصدد اتضحت بشكل ملحوظ . وهذه المبادرة من جانب الباب العالى والدبلوماسية التركية جاءت فى سياق الصراع من أجل الحفاظ على مصر ضمن كيان الإمبراطورية العثمانية . كان سعى السلطان لقمع محمد على صادراً عن إحساسه بما تمليه عليه سلطته العليا . بينما ظل اهتمام جميع الدول الأوروبية فى النصف الأول من ثلاثينيات القرن التاسع عشر بخصوص إعادة الأقاليم المغتصبة اهتماماً محدوداً فى واقع الأمر . فقد أظهرت هذه الدول ولسنوات طويلة لا مبالاتها نحو مسألة التسوية الإقليمية بين السلطان ومحمد على ، ساعية فى الوقت نفسه لبقاء

الأوضاع الإقليمية والقانونية بينهما على ما هى عليه (٦٣ ، ص ٥٤) . وقد لوحظت هذه اللامبالاة من جانب روسيا طوال فترة الصراع بعد عام ١٨٣٣ (٢٣ / ٣٦ ، جـ٢، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ / ٢٥ ، ص ٦٢ / ٦٥ ، ص ٤٤ ، ٥٥ - ٥٦ / ١٢٤ ، جـ١ ، ص ٢٥١ / ١٣٢ ، ص ٥١٠ / ١٩٨ ، ص ٩٩) ومن جانب إنجلترا فى النصف الأول من الثلاثينيات . وظلت فرنسا حتى عام ١٨٣٩ تؤيد بقاء الوضع على ما هو عليه (٦٣، ص ٧٣ - ٧٤) . ولهذا فإن مهمة الدبلوماسية السلطانية تلخصت فى الحصول على موافقة الدول الأوروبية وإدخال تعديلات على شروط معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣ . وحيث إن دول أوروبا الغربية كانت تخشى أن يؤدى التجدد المحتمل للعمليات العسكرية بين محمد على والسلطان ، وفقاً لشروط إتفاقية أونكيار إيسكيليسى ، إلى تدخل عسكرى جديد من جانب روسيا ، فقد راحت هذه الدول تضع العراقيل أمام عزم السلطان تجدد الصراع العسكرى بهدف إستعادة سوريا ، ومن ناحية أخرى حاولت منع محمد على من إعلان استقلاله بمصر ، إذ أن محاولة هذا أو ذاك تحقيق رغبته كان سيؤدى حتماً إلى اشتعال الحرب بين الجهات المتنازعة .

وعلى الرغم من أن التعاون بين إنجلترا وفرنسا فيما يتعلق بالسياسة الشرقية فى فترة الصراع التركى المصرى كان يعانى من تناقضات داخلية ومن التضارب بين مصالحهما المشتركة فى منطقة البحر المتوسط (بما فيها الجزائر ومصر) فإنهما تراجعتا إلى خلفية الصورة فى اللحظة التى ظهر فيها شبح الطموحات الروسية فى الإمبراطورية العثمانية يخيم على الموقف .

وحول عدوانية السياسة الشرقية لروسيا تكررت تصريحات رجال الدولة فى إنجلترا وفى فرنسا . وفى الوقت نفسه راح بالمرستون يستغل درجة المبالغة فى هذه التأكيدات لأغراضه السياسية . وفى السادس والعشرين من فبراير عام ١٨٣٥ كتب بالمرستون خطاباً إلى السير وليم تمبل جاء فيه: " ليست روسيا سوى وهم كبير ، ولو أرادت إنجلترا أن تتخلص منها حقيقة ، لتخلصت منها فى حملة واحدة منذ نصف قرن مضى " (الإقتباس من المرجع ١٣٢ ، ص ٣٩٩) .

لاحظ المؤرخ الأمريكى ف. س. روكى أنه حتى فى عام ١٨٣٦ ، أى بعد حادثة السفينة " ويكسن "[١]، المرتبطة بازدياد حدة المسألة الشرقية ، عندما بدا أن الحرب بين روسيا وإنجلترا آنذاك أمر حتمى ، أن بالمرستون كان على قناعة تامة بأن روسيا لم تكن لديها أى نوايا عدوانية . هذا ما ذكره (بالمرستون) فى اجتماع دورة البرلمان الإنجليزى (١٨٢ ، ص ٥٦) .

١- استولت القوات الروسية على السفينة الإنجليزية " ويكسن " ، التى أرسلت محملة بالسلاح إلى الجبليين عند سواحل القوقاز عام ١٨٣٦ .

يؤكد المؤرخ السوفيتي ى. ف. تارلى ، فى معرض حديثه عن أسباب التوجه العام للسياسة الشرقية لنيكولاى الأول أن القيصر بالغ فى تقديره لضعف الإمبراطورية العثمانية وكان على ثقة تامة من انهيارها الحتمى السريع ، ولهذا فإنه لم يشأ أن يفرط فى نصيبه فى " التركة العثمانية " ومن ثم راح يبحث عن حلفاء وهو يدرك أن روسيا بمفردها ليست فى حالة تسمح لها بمواجهة أطماع بقية أوروبا إذا ما حانت لحظة وفاة " الرجل المريض " - الإمبراطورية العثمانية (انظر ٨: ، ص ٦١: - ٦٤:) .

على أن إنجلترا استغلت بذكاء مخاوف فرنسا من جراء السياسة الشرقية لروسيا، التى دعمت موقفها فى الإمبراطورية العثمانية بعقدها إتفاقية أونكيار إيسكيليسى. وكانت إنجلترا على حق عندما اعتمدت على أن فرنسا لن تجرؤ على قطع " الإتفاق الودى " الإنجليزى الفرنسى بحثاً عن حل للخلاف التركى المصرى . فهذا الإتفاق ما يزال يغل يدها ولن يسمح لها أن تتحمس لدعم مطامع محمد على . وقد ظلت إنجلترا طوال فترة الصراع التركى المصرى تؤكد للباب العالى أن التعاون الفرنسى الإنجليزى بخصوص المسألة المصرية هو تعاون لا ينقض ، وأن فرنسا سوف تسلك نفس النهج الذى تسلكه إنجلترا ، إذ أن سياستيهما موجهة بالدرجة الأولى ضد روسيا . يصف المؤرخ الفرنسى أ. ديبيدور الموقف الصعب لفرنسا تجاه الصراع التركى المصرى بقوله " كان مجلس الوزراء منعقداً فى قصر التويلرى وقد تملكته الحيرة ... كان عليه أن يختار حلاً من ثلاثة: إما أن تعقد فرنسا إتفاقاً وثيقاً مع القيصر على غرار إتفاق كارل العاشر ، أو أن تخاطر بالدفاع عن قضية محمود الثانى، أو أن تقف صراحة فى صف محمد على . كان الخيار الأول يعنى قطع العلاقات مع إنجلترا وهو ما كان يرفضه مجلس الوزراء ، كما كان الخيار الأخير يعنى أن تكتسب لها عدواً هو إنجلترا ، التى كانت تحافظ بكل غيرة على تأثيرها فى الشرق ومن ثم تغامر بدخول الحرب ضد روسيا . لم يتبق إذاً سوى قبول الخيار الثانى: دعم السلطان لصالح البلاط الإنجليزى فى لندن وبهذا تفوت عليه فرصة بقاء السلطان تحت حماية القيصر . على أنه ، من ناحية أخرى ، لم يكن البلاط فى قصر التويلرى يرغب إطلاقاً فى أن يفقد محمد على كل ثمار انتصاراته . كان لدى الباشا المصرى الكثير من الفرنسيين الذين يعملون منذ زمن بعيد فى الإدارة وفى الجيش . وكانت فرنسا تعتبره موجوداً تحت حمايتها ، فضلاً عن أنه كان يتمتع بشعبية كبيرة فى باريس . ولو أن فرنسا لم تقدم العون للباشا لما غفر البرلمان ولا الصحافة ولا المجتمع لحكومتها هذا الموقف . من ذلك يتضح لنا أى وضع عسير كانت تواجهه حكومة ١١ أكتوبر ١٨٣٢ . ليس من المستغرب إذن أنها لم توفق فى الخروج من هذا المأزق دون أن يمس شرفها " (٧١ ، المجلد ١ ، ص ٣٤٠)

ظهر اهتمام إنجلترا باستغلال أراضى الإمبراطورية العثمانية باعتبارها طريقاً للعبور إلى الهند عبر البحر المتوسط أو الخليج الفارسى منذ نهاية القرن الثامن عشر . كانت إنجلترا تولى الإمبراطورية العثمانية أهمية كبرى من الناحية التجارية ، فضلاً عن أهميتها الإستراتيجية ، وقد سعت إنجلترا لاستغلالها ضد السياسات الروسية والفرنسية فى الشرق (٧٤ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٥ ، ص ١٧٣ - ١٧٤) . وكانت فرنسا قد وضعت نصب أعينها ومنذ نهاية القرن الثامن عشر تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة داخلية خاصة بها " (١٦١ ، ص ١٤٧) .

عندما اشتد أوار الصراع التركى المصرى ، أخذ نيكولاى الأول عن طيب خاطر جانب السلطان حتى يجعل منه تابعاً لروسيا ولا يعطى لمحمد على الأكثر قوة من السلطان فرصة الإستيلاء على عرش آل عثمان . وقد أدى تدخل نيكولاى الأول إلى جانب تركيا إلى إعاقة انتشار تأثير فرنسا المؤيدة لمحمد على والتى كان القيصر بعد عام ١٨٣٠ يعتبرها مصدراً للثورة .

يقول المؤرخ السوفيتى م. ن. بوكروفسكى: " كان التحالف مع النمسا من الأمور التقليدية بالنسبة للدبلوماسية الروسية حتى منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر . وكان للإمبراطوريتين عدو مشترك يقف لهما بالمرصاد على نهر الدون ، وفى الوقت نفسه كانا يتنافسان فيما بينهما على شبه جزيرة البلقان ، آنذاك لم تكن إحداهما لتخطو خطوة واحدة دون أن تبلغ بها الأخرى . كلتا الإمبراطوريتين سعتا للسير جنباً إلى جنب ، لا ليؤازرا بعضهما البعض وإنما لتقتفى كل منهما أثر الأخرى . كان تعاظم قوة روسيا يعنى ضعف النمسا والعكس كانت الحليفتان تخشيان لو أن إحداهما نجحت فى استغلال الأخرى لتحقيق مطامعها من جانب واحد " (١٢٢ ، ص ٦ ، انظر أيضاً ٨٥ ، ص ٥٥٧) .

وبعد توقيع معاهدة أونكيار إيسكيليسى قرر نيكولاى الأول أن يدعم علاقاته بالنمسا حتى يتمكن من مواجهة الائتلاف الإنجليزى الفرنسى ، معتمداً فى سياسته الشرقية على تحالفه معها . وفى اللقاء الذى جمع عواهل الدول الثلاث (روسيا والنمسا وبروسيا) فى سبتمبر عام ١٨٣٣ فى ميونخينجريتس (حاليا منيخوفو جراديشت) أكد قيصر روسيا للنمسا أنه لو حدث وسارت الأمور فى الإمبراطورية العثمانية على نحو يتطلب تدخل روسيا فإنه لن يتخذ أى خطوة دون أن يشرك فيها النمسا وصرح بأنه ليس لديه أى نية للتوسع فى أراضيه على حساب تركيا (٣٤ ، المجلد ٤ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٨ ، ٠٩ ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ ، ١٣٢ ، ص ٣٩٦ ، ١٣٣ ، ص ٣٣) وقد طمأنت تأكيدات القيصر الحكومة النمساوية .

في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر جرى دعم " توازن القوى " في أوروبا عن طريق مجموعتين: إنجلترا وفرنسا في جانب ، وروسيا والنمسا وبروسيا في الجانب الآخر . على أن هاتين المجموعتين لم تصمدا طويلاً نتيجة للتناقضات التي كانت قائمة بداخلهما .

وفوق هذا وذاك جاء احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ ليضيف إلى مشكلات السياسة الخارجية التي أرقت الباب العالي ولتظهر على السطح التناقضات بين الدول الأوروبية على أن الحكومة السلطانية في الثلاثينيات والأربعينيات لم تفقد الأمل في أن يتسنى لها إعادة الجزائر إلى كيان الإمبراطورية العثمانية عن طريق استغلال هذه التناقضات .

جاء فقد الأتراك للجزائر نتيجة خطأ في التقديرات الدبلوماسية للحكومة السلطانية التي أعطت لفرنسا مبرراً مناسباً لاحتلالها . ووفقاً للتقاليد التي ترسخت بدءاً من زمن خير الدين باربروسا ، عندما راح دايات الجزائر يشجعون نشاط القرصنة ، فقد وجدت حكومات دول البحر المتوسط نفسها مضطرة لعقد إتفاقات مع الداي تكفل لهم أمن تجارتهم البحرية . الأمر الذي عاد على الجزائر بأرباح طائلة (٩٨ ، ص ٦٧ - ٩٣) . بيد أن الدول الأوروبية المتفوقة على بلدان الشرق عسكرياً وإقتصادياً قررت أن تضع حداً لأعمال النهب البحري . ففي عام ١٨١٦ قام الأسطول الإنجليزي بضرب الجزائر وأغرق أسطول الداي . استغلت فرنسا ما آلت إليه الجزائر من ضعف وانشغال الباب العالي في الحرب الروسية (١٨٢٨ - ١٨٢٩) لتحقق طموحها - الذي بدأ منذ نابليون - في فرض سيطرتها على البحر المتوسط . وكانت الحجة التي استندت إليها فرنسا في غزو الجزائر هي الإهانة التي وجهها والي الجزائر إزميرلي حسن باشا إلى قنصل فرنسا بأن قذفه على وجهه بمروحة كانت في يده وهو يطالبه بأن تعيد الحكومة الفرنسية ديناً كانت أخذته من شخص ما . وكان الوالي قبل هذه الواقعة قد استولى على بعض سفن فرنسية متعللاً بعدم سداد فرنسا للدين المذكور .

أرسل الفرنسيون إلى الجزائر مائة سفينة حربية وخمسمائة سفينة نقل . وفي الرابع عشر من يونيو عام ١٨٣٠ نزل إلى السواحل الجزائرية ٣٧ ألف جندي فرنسي . وبعد معركة قصيرة تم أسر الداي . وكانت الإمبراطورية العثمانية قد خرجت آنذاك لتوها من حربها ضد روسيا ولم ترد على احتلال الجزائر سوى بمذكرة احتجاج (٢١٦ ، ص ٥٢ - ٦٢) .

يذكر الباحث الفرنسي ر. مانتران أنه على الرغم من أن السيطرة العثمانية على الجزائرة وتونس وطرابلس (منذ نهاية القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن الثامن

عشر) كانت سيطرة اسمية ، إلا أنها خلقت وضعاً سياسياً ظلت الدول الأوروبية تناضل من أجل تغييره على مدى قرون ثلاثة . وقد تمثل الوجود العثماني في هذه الولايات عملياً في النمط التركي للإدارة: ولاة ، جيش ، موظفون كبار من أصل تركي ، مراسيم رسمية كتبت باللغة التركية إضافة إلى الألقاب التركية السائدة . وحتى عندما كانت هذه الولايات تتعرض للتهديد من جانب الأوروبيين فإنها لم تكن تتوانى عن طلب العون من السلطان . كما أنها كانت في الغالب تقدم لتركيا المساعدةالعسكرية بناء على طلب السلطان . خذ مثلاً ما أرسله دايات تونس إلى السلطان من عون عسكري إبان الحملة إلى طرابلس عام ١٧٩٥ ، وإلى كريت عام ١٨١٠ وإلى اليونان من عام ١٨٢٢ وحتى عام ١٨٢٧ . وقد غرق الأسطول التونسي الذي كان جزءاً من الأسطول العثماني في معركة نافارين (عام ١٨٢٧) .

ارتبط ضعف الروابط بين إسطنبول والولايات الغربية بسقوط قوة آل عثمان وانعدام المصالح الاقتصادية للدولة المستعمرة (المتروبول) في هذه الولايات البعيدة ذات العوائد المحدودة . كانت الجزائر وتونس تتمتعان باستقلال إقتصادي ذو توجه غربي أكثر من جميع الولايات العثمانية الأخرى (١٧٦ ، ص ٢٠٥ ، ٢١٤ - ٢١٥) . وتؤكد التعليمات (الموجهة لروح الدين أفندي ، القائم بالأعمال التركي في فرنسا عام ١٨٣٤) الإهتمام الإقتصادي المتدني للإمبراطورية العثمانية في الجزائر ؛ إذ وصفت هذه التعليمات الجزائر بأنها " مكان لا قيمة له " (٤٨ ، ص ٧٨) .

وعن المفاوضات الدبلوماسية التركية الفرنسية بشأن الجزائر والتي سبقت الإحتلال يكتب ج. روزين قائلاً أن فرنسا حاولت مراراً وتكراراً أن تنحي خلافاتها مع داي الجزائر جانباً من خلال وساطة الديوان .

لقد اعتبر الباب العالي هذه الولاية ولاية مستقلة إلى حد أنه كان يرفض التدخل في شئونها وكأنها لا تعنيه . وفي السادس عشر من مارس عام ١٨٣٠ أبلغت فرنسا الباب العالي أنها سترسل جيشها إلى الجزائر مادام الديوان لم يتعاون في إزالة الخلافات القائمة بينها وبين داي الجزائر وقامت في الوقت نفسه بإحاطة الدول الأوروبية علماً بذلك عن طريق مذكرات أرسلتها إليها . ورغم كل ذلك لم يقم الباب العالي بتوجيه أسطوله أو جيشه إلى الجزائر (٢١٥ ، ص ٢٥ - ٢٦) . " بعدما وصل الأمر إلى استيلاء فرنسا على " وصاية العرش "[1]، هنا فقط أدرك رجال الدولة في تركيا انهم ارتكبوا خطأً فادحاً بتخليهم عن حقهم السياسي دون مقابل ، راحوا بعدما

١- يستخدم المؤلف الأوروبي هنا اصطلاح " وصاية العرش " بهدف التأكيد على الطابع المستقل لحكم الولاية في شخص الدايات .

يرسلون المذكرات والسفراء إلى مجلس الوزراء فى التويلرى لتصحيح الخطأ . لقد أكد وزير الباب العالى أن السلطان له الحق فى الجزائر ، وأن الباب العالى يرغب فى وقف القرصنة البحرية وأن تقوم قواته النظامية باحتلال مدينة الجزائر ، ولكن للأسف أن هذا لم يحدث من قبل " (١٢٤ ، جـ١ ، ص ١٤٠)(١).

إن عدم إدراك الباب العالى للأهداف العدوانية للسياسة الخارجية لفرنسا فى البحر المتوسط فى السنوات من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ يعتبر ، من وجهة نظرنا ، هو السبب الرئيسى لإصرار الباب العالى على عدم التدخل فى النزاع الفرنسى الجزائرى(٢). إن سوء التقدير هذا هو الذى استغلته فرنسا تحديداً .

كانت إنجلترا غاضبة تماماً من غزو الجزائر ، وهو ما أعلنته رسمياً ، إذ رأت فى هذا العمل محاولة من جانب فرنسا لإزاحتها عن البحر المتوسط .

وقد سعت فرنسا بعد غزوها للجزائر لإضعاف علاقة تونس بالإمبراطورية العثمانية وإخضاعها لتأثيرها . كما حاولت الحكومة الفرنسية القضاء على محاولات الباب العالى تقديم مساعدات عسكرية إلى الجزائر فى نضالها وذلك من الأراضى التونسية ، وقد أدى هذا إلى زيادة حدة التنافس بين تركيا وفرنسا فى تونس . وقد ظهر هذا التنافس فى أشكال متعددة .

وفى أربعينيات القرن التاسع عشر أضيفت إلى المشكلات السابقة مشكلة أخرى وهى تدخل الدول الأوروبية فى تسوية نظام الإدارة فى سوريا نظراً لانتفاضات السكان المحليين التى لم تنقطع وكذلك للصدامات العسكرية التى كانت تقع بين الدروز والمارونيين .

وهكذا وجدت الحكومة السلطانية نفسها فى مطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أمام عدد من المشكلات وثيقة الصلة بمصالح السياسة الخارجية للدول الأوروبية فى الإمبراطورية العثمانية ، وفى التنافس بينها ، وفى تعاظم حدة المسألة الشرقية .

١- لمزيد من المعلومات حول احتلال فرنسا للجزائر انظر كذلك: ٢١٥ ، ص ١٤ - ٢٥ / ١٠٠ ، ص ٤٠ / ١٠٩ ، ص ١٨٠ .

٢- نلاحظ هنا - للمقارنة - أنه فى عام ١٨٣٥ ، أى بعد مرور خمس سنوات ، عندما دخل اثنان من الولاة فى طرابلس فى جدل حول أيهما أحق بالجلوس على العرش . لم يكن الباب العالى قد اندفع بعد فى علاقاته مع الدول الأوروبية . كان الباب العالى قد نجح فى أن يمنع فرنسا وانجلترا من التدخل فى طرابلس . لم تقبل حكومة السلطان الاقتراح بالوساطة فى الجدل القائم بين الواليين فقط ، وإنما سارعت بإرسال قواتها (أنزلت أسطولاً) إلى طرابلس ، الأمر الذى كان من نتيجته تحويل الوصاية على العرش إلى باشالكة (١٢٤ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥) .

أدى تفاقم مشكلات السياسة الخارجية بحكومة السلطان إلى التفكير فى ضرورة إجراء إصلاحات فى مجال الدبلوماسية .

لقد أدرك رجال الدولة الأتراك أن باستطاعتهم استغلال التنافس القائم بين الدول العظمى لتحقيق أهداف سياسية بالطرق الدبلوماسية ، وهى الأهداف التى أصبح تحقيقها بالجهود العسكرية أمراً صعباً بسبب ما آلت إليه الإمبراطورية العثمانية من ضعف ووهن .

تعرضت الدول الأوروبية منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر لعدد من الهزات الثورية . ومن بينها الثورة الفرنسية العظمى (١٧٨٩ - ١٧٩٤) ، ثورات العشرينيات من القرن التاسع عشر فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا ، ثورة التحرر القومى فى عام ١٨٢١ فى اليونان ثم فى بولندا فى عام ١٨٣٠ ، وثورات الثلاثينيات فى فرنسا وبلجيكا .

بحلول القرن التاسع عشر بدأت حروب نابليون التى انتهت بقيام عائلة بوربون فى عام ١٨١٤ . وقد أبدت الحكومات الأوروبية تخوفها من الصدامات العسكرية الجديدة بشبب الإمبراطورية العثمانية . وهذه الصدامات كانت من الممكن أن تساعد بدورها على ظهور أوضاع ثورية فى أوروبا . وقد أشار كارل ماركس إلى أنه " بدءاً من عام ١٨١٥ كان أكثر ما تخشاه الدول العظمى فى هذا العالم هو تغيير الوضع الراهن Status-quo " (٢ ، ص ١٦٨) . ولهذا فقد ساعد الوضع الدولى آنذاك على زيادة دور الدبلوماسية فى العلاقات الدولية .

٣- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لمحمد بن اياس، الجزء الخامس، تحقيق محمد مصطفى.

ولد محمد بن اياس بالقاهرة فى علم ١٤٤٨م وكان قريب الصلة بدولة المماليك خاصة فى عهد السلطان الغورى. ويشتمل هذا الجزء على الفترة من ١٥١٦- ١٥٢٢ وهى فترة حاسمة فى تاريخ العرب الحديث حيث تشمل الفتح العثمانى للشام ومصر . ويعد هذا الكتاب من المصادر الرئيسية لحوادث الفتح العثمانى لمصر.

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجّة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل ببركة الحاج ، فاضطربت أحوال عسكر مصر وغُلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغير ذلك من أبواب المدينة ٩ قاطبة ، وغلقت أسواق القاهرة وتعطّلت الطواحين وتشحّط الدقيق والخبز من الأسواق . ثم إن السلطان لما تحقّق وصول عسكر ابن عثمان إلى بركة الحاج ، زعق النفير بالوطاق وركب العسكر قاطبة ، وركب سائر الأمراء المقدّمين والأمراء الطبلخانات ١٢ والعشرات ، وركب قاسم بك بن عثمان ، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا ، واجتمع من العساكر من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ، ودقّت الطبول والزمور حربيّا، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه ١٥ وهو يرتّب الأمراء على قدر منازلهم ، وصفّ العسكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية ، فاجتمع هناك الجمّ الغفير من العسكر . وكان السلطان طومان باى له همّة عالية فى هذه الحركة ، ولو كان السلطان الغورى حيّا ما كان يثور ببعض ما ثار به ١٨ السلطان طومان باى، لكن لم يُعْطِهِ الله تعالى النصر على (٢٧٦آ) ابن عثمان ، فلم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ولم يبرز كل منهما إلى غريمه فى ذلك اليوم ، فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رءوس من العثمانية ، ويرسلون يعلّقونها على أبواب المدينة . ٢١

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة ، فيه وقعت كاينة عظيمة ، تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضلّ لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك إلا أن

---

(١٩) لم يعطه : لم يعطيه . (٢١) ويرسلون : ويرسلوا .

السلطان طومان باى لما توجه إلى الريدانية ونصب بها الوطاق ، فحصّن الوطاق
بالمكاحل والدافع ، وصفّ هناك الطوارق ، وصنع عليها تساتير من الخشب ، وحفر
٣ خندقا من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك . ثم إن السلطان
جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها زكايب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق
كبار بيض وحمر يخفقون فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جرّ العجل ، وظن أن
٦ القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، وأن الحصار يقيم مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف
ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام بها يومين ، فلم يجسر السلطان طومان
باى أن يتوجّه إليهم ، ولو توجّه إليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان
٩ عين الصواب .

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل
الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان
١٢ للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان ، فركبت الأمراء المقدمون ودقّوا الطبول
حربيا ، وركب العسكر قاطبة حتى سدّ الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر
وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة
١٥ مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التى كانت فى مرج دابق ، فقتل من العثمانية
ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشاه لالاء ابن عثمان وكان أكبر وزرائه ، وقتل
من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرميّة على الأرض من سبيل
١٨ علان (٧٦ب) إلى تربة الأمير يشبك الدوادار . وقتل فى هذه المعركة ابن بن سوار ،
قتل فى الريدانية ودفن على جدّه سوار فى تربته التى تجاه تربة يشبك الدوادار ،
وكذلك قتل هناك سنان باشاه وزير ابن عثمان الأكبر .

٢١ ثم إن العثمانية تحايوا وجاءوا أفواجا أفواجا ، ثم انقسموا فرقتين ، فرقة جاءت من

---

(٢) تساتير ، يقصد بها جمع « ستارة » . (٥) يخفقون : يخفقوا . || الهواء : الهوى .
(٢١) تحايوا ، أى دبت فيهم الحياة .

تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاص ، فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الأمراء المقدّمين جماعة ، منهم أزبك المكحل وآخرون منهم . وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا وقيل انكسر فخذه فاختنق فى غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار. فلم تكن إلا ساعة يسيرة مقدار خمس درجات حتى انكسر عسكر مصر وولّى مدبرا وتمّت عليهم الكسرة ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، فلما تكاثرت عليه العثمانية ، ورأى العسكر قد قلّ من حوله ، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطانى وولّى واختفى ؛ قيل إنه توجّه إلى نحو طرا ، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر . وأما الفرقة العثمانية التى توجهت من تحت الجبل الأحمر ، فإنها نزلت على الوطاق السلطانى وعلى وطاق الأمراء والعسكر ، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخام وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك . ثم نهبوا المكاحل التى نصبهم السلطان هناك ، ونهبوا تلك الطوارق والستائر الخشب والعربات التى تعب عليهم السلطان وأصرف عليهم جملة مال ولم يُفِدْه من ذلك شىء ، ونهبوا البارود الذى كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، فكان ذلك مما جرت به الأقدار والحكم لله الواحد القهار .

ثم إن جماعة من العثمانية (٧٧ آ) لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا إلى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة ، فتوجّهوا جماعة من العثمانية إلى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس ، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة أجمعين . ثم توجّهوا إلى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدّمين فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس ، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية ، فانطلق

---

(١) الجبل : الأجبل . (٥) خمس درجات : خمسه درج . (١١) التى : الذى .

فى أهل مصر جمرة نار . ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش ، وأخذوا عدّة جمال من جمال السقايين . وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك ، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود ، واستمرّ النهب عمّالا فى ذلك اليوم إلى بعد المغرب ، ثم توجّهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال. وهذه الحادثة التى قد وقعت لم تمرّ لأحد من النـاس على بال ، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار فى الأزل ، وقال الشيخ بدر الدين الزيتونى فى هذه الواقعة :

نبكى على مصر وسكانها ... قد خربت أركانها العامره
وأصبحت بالذلّ مقهورة ... من بعد ما كانت هى القاهره

وفى يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فيه دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة ، فدخل وصحبته وزراء ابن عثمان ومن عساكره الجمّ الغفير ، ودخل (٧٧ ب) ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، ودخل قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى، وهؤلاء كانوا فى أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى. ودخل يونس العادلى ، وخشقدم الذى كان شاد الشون بمصر وهرب من الغورى إلى بلاد ابن عثمان وكان سببا لهذه الفتنة العظيمة .

فلما دخل الخليفة دخل من باب النصر وشقّ من القاهرة وقدّامه الشاعلية تنادى للناس بالأمان والاطمان والبيع والشرى والأخذ والعطا ، وأن لا أحدا يشوّش على أحد من الرعيّة ، وقد غُلق باب الظلم وفُتح باب العدل، وأن كل من كان عنده مملوك جركسى من مماليك السلطان ولا يغمز عليه شُنق على باب داره ، والدعاء للسلطان الملك المظفر سليم شاه بالنصر ، فضجّ له الناس بالدعاء من العوام . فلم تسمع العثمانية من هذه المناداة ، وصاروا ينهبون بيوت الناس حتى بيوت الأرباع فى حجة أنهم يفتّشون

(٣) يخطفون : يخطفوا . (٥) التى : الذى . (٢٢) ينهبون : ينهبوا . ‖ يفتشون : يفتشوا .

على المماليك الجراكسة ، فاستمرّ النهب والهجم عمّالا فى البيوت ثلاثة أيام متوالية ، وهم ينهبون القماش والخيول والبغال من بيوت الأمراء والعسكر ، فما أبقوا فى ذلك ٣ ممكن .

وفى ذلك اليوم خُطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء ، فقال : وانصر اللهم السلطان بن السلطان ، مالك البرّين ٦ والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ، اللهم انصره نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا مبينا ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين . ــ انتهى ما أوردناه من حوادث سنة اثنتين وعشرين ٩ وتسعمائة ، وقد قلت فى ذلك :

خُتم العام بحربٍ وكدر   وحصل للناس غايات الضرر
وأتاهم حادثٌ من ربّهم   كان هــذا بقضاء وقدر

١٢ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة

فكان مستهلّ العام يوم السبت . ــ ثم إن السلطان سليم (٧٨ آ) شاه أرسل جماعة من الأنكشارية وأوقفهم على أبواب المدينة يمنعون النهّابة من نهب البيوت ، ١٥ ولما انكسر عسكر مصر حوّل السلطان سليم شاه وطاقه من بركة الحاج ونصبه بالريدانية ، وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب من فساقى الموتى ومن غيطان المطرية ، فلما يحضرونهم بين يدى ابن عثمان يأمر بضرب أعناقهم . ١٨ ثم إن بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكى سودون الدواداري وأحضره بين يدى ابن عثمان ، فلما حضر بين يديه وبّخه بالكلام فوجده قد جُرح وقد كُسر فخذه وهو فى حالة الأموات ، فأركبه على حمار وألبسه عمامة زرقاء وجرّسه فى وطاقه وقصد ٢١ يشهره فى القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار ، وقيل حزّوا رأسه بعد الموت وعلّقوها فى الوطاق . ثم غُمز على الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدّمين الذى كان والى القاهرة ، فوجدوه مختفيا فى مكان فحزّوا رأسه وعلّقوها فى الوطاق . وصاروا

(١٧) يحضرونهم : يحضروهم .

العثمانية يكبسون الترب ويقبضون على المماليك الجراكسة منها ، وكل تربة وُجد فيها
مملوك جركسى حزّوا رأسه ورأس من بالتربة من الحجازيّين وغيرها ويعلّقون رءوسهم
٣ فى الوطاق ، فضرب فى يوم واحــد ثلاثمائة وعشرين رأسا من سكان الصحراء ،
وقيل كان فيهم جماعة من الينابعة وهم أشراف ، فراحوا ظلما لا ذنب لهم . وصاروا
يكبسون الحارات ويقبضون المماليك الجراكسة من اسطبلاتهم ويقبضونهم باليـد
٦ ويتوجّهون بهم إلى الوطاق بالريدانية فيضربون أعناقهم هناك ، فلما كثرت رءوس
القتلى هناك نصبوا صوارى وعليها حبال وعلّقوا عليها رءوس من قُتـل من المماليك
الجراكسة وغيرها ، حتى قيل قُتل فى هذه الوقعة بالريدانية فوق أربعة آلاف إنسان،
٩ ما بين مماليك جراكسة وغلمان ، ومن عربان الشرقية والغربية ، وصارت الجثث
مرميّة من سبيل (٧٨ ب) علان إلى تربة الأشرف قايتباى ، فجافت منهم الأرض
وصار لا تعرف جثة الأمير المقدّم ألف من جثـة المملوك وهم أبدان بلا رءوس . —
١٢ وأما من قُتل من عسكر ابن عثمان فى هذة الوقعة فلا يحصى عددهم .

ثم إن ابن عثمان أرسل خلف المقرّ الناصرى محمد بن السلطان الغورى ، فلما حضر
ألبسه قفطان مخمل مذهبا ، وألبسه عمامة عثمانية ، وأعطاه ورقة بالأمان له على نفسه،
١٥ ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى فى الشرابشيين ، وأسكن الدفتردار أحد وزراء
ابن عثمان فى بيته الذى فى البندقانيين . — ثم توجّه إليه يوسف البدرى الوزير فأعطاه
أمانا وألبسه قفطانا مخملا ، وأقرّه متحدّثا على جهات الغربيـة ، وكذلك أخلع على
١٨ فارس السيفى تمراز الشمسى وأقرّه كاشف المنية وغير ذلك من الجهات القبلية ، وأخلع
على الزينى بركات بن موسى وجعله متحدّثا فى الحسبة إلى أن يقرّر بهـا من يختاره ،
وأخلع على يحيى بن نُكار وجعله متحدّثا فى ولاية القاهرة إلى أن يقرّر بها من يختاره .
٢١ وفى يوم الأحد ثانى شهر الله المحرم أشيع أن السلطان سليم شاه نقل وطاقه من
الريدانية ونصبه فى بولاق من تحت الرصيف إلى آخر الجزيرة الوسطى ، وقد أحضروا

---

(٢) ويعلقون : ويعلقوا . (٥) يكبسون ... ويقبضون ... ويقبضونهم : يكبسوا ...
ويقبضوا... ويقبضوهم. (٦) ويتوجهون: ويتوجهوا. (٧) القتلى: القتلا. (١٧) الجهات: جهات.

إليه مفاتيح قلعة الجبل على أنه يطلع إليها فلم يلتفت إلى ذلك واختار الإقامة على شاطئ بحر النيل . — فلما كثرت العثمانية بالقاهرة صاروا كل من رأوه من أولاد الناس لابسا زمط أحمر أو تخفيفة يقولون له : أنت جركسى ، فيقطعون رأسه ، ٣ فلبست أولاد الناس كلها عمائم حتى أولاد الأمراء والسلاطين قاطبة ، وأبطلوا لبس التخافيف والزموط من مصر .

وفى يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ودخل إلى القاهرة من ٦ باب النصر ، وشق المدينة (٧٩ آ) فى موكب حفل ، وقدامه جنايب كثيرة وعساكر عظيمة مابين مشاة وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع ، واستمر شاقا من المدينة حتى دخل من باب زويلة ، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك إلى ٩ بولاق ونزل بالوطاق الذى نصبه تحت الرصيف ، فلما شق من المدينة ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . وقيل إن صفته ذرى اللون ، حليق الذقن ، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، فى ظهره حنية ، وعلى رأسه عمامة ١٢ صغيرة ، ويلبس قفطانا مخملا ، وعنده خفة ورهج ، كثير التلفت إذا ركب الفرس . وقيل إن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك ، وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوك السالفة ؛ غير أنه سيىء الخلق سفاك للدماء ، شديد الغضب ، ١٥ لا يراجع فى القول . ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر . فكان ينادى كل يوم فى القاهرة بالأمان والاطمان ، والنهب والقتل عمال من جماعته ولا يسمعون له ، وحصل منه للناس ١٨ الضرر الشامل . ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام : إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب فى أهلها بالسيف . فقيل تلطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك ، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه من ذلك ، ٢١ والله غالب على أمره .

فلما طفشت العثمانية فى القاهرة صارت أعيان المباشرين يجعلون على أبوابهم

(٣) فيقطعون : فيقطعوا . (١٧) الذين : التى . (٢٠) تلطف : تلتطف .

جماعة من العثمانية يحفظونها من النهب ، وصارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من
الطرقات ويقولون لهم : أنتم جراكسة ، فيشهدون عندهم الناس أنهم ماهم مماليك
٣ جراكسة ، فيقولون لهم : اشتروا أنفسكم منا من القتل ، فيأخذون منهم بحسبما
يختارونه من المبلغ ، وصارت أهل مصر تحت أسرهم . ثم صاروا الناس من عيّاق
مصر (٧٩ ب) يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستّات فينهبون ما فيها
٦ من القماش الفاخر ، فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح
وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ، واحتووا على أموال
وقماش ما فرحوا بها قط فى بلادهم ، ولا أستاذهم الكبير . — ومن هنا نشرع فى
٩ ترجمة سليم شاه بن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من أخباره ، بحسبما تيسّر لى من
ذلك على ما مشى عليه طريقة التاريخ من مبتداه إلى هذه الواقعة .

ذكر سلطنة الملك المظفر سليم خان

١٢ ابن السلطان أبى يزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد خان بن أبى يزيد
المعروف بيلدرم بن أورخان بن أَرْدَنْ على بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير الشهيد
بالغزاة بعد أن عاش تسع وستين سنة ، الشهير بابن عثمان ، من خلاصة ملوك الروم ،
١٥ وهو الثامن والأربعون من ملوك مصر وأولادهم ، وهو الثالث من ملوك الروم
بمصر ، فإن أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم ، والثانى الظاهر تمربغا ، والثالث
سليم خان بن عثمان ، ملكَ القاهرة عنوة بقائم سيفه ، وقد حصل له سعد عظيم
١٨ ما لا حصل لآبائه ولا أجداده من قبله . وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ،
فتصدّى إلى قتال شاه إسمعيل الصوفى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ، فانكسر منه
الصوفى وقتل غالب عسكره ، واحتوى على أمواله وسلاحه وبركه وخيوله من غير
٢١ مانع ، وملك غالب بلاده التى بالعراقين . ثم تصدّى إلى قتال الملك الأشرف قانصوه

---

(٥) فينهبون : فينهبوا .

(١٣) أورخان : أورجان . || بن أردن على : كذا فى الأصل، ولعله يقصد « أرطغرل ».
راجع الحاشية فى ص ٢٧٠ ج ٤ السابق . ||| سليمان : سلمان . (٢١) التى : الذى .

الغورى وتلاق معه على مرج دابق فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فلم يحمل معه غير خمس درج وانكسر ، ومات قهرا فى وسط الحرب .

وملك مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة ، فلما ملك قلعة حلب أرسل إليها ٣ شخصا من جماعته ، أعرج أعور وفى يده دبوس خشب وهو ماشى على أقدامه ، فتسلم الأموال والسلاح الذى كان بها ، حتى (٨٠ آ) قيل كان بها من الأموال للسلطان الغورى مائة ألف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار ، خارجا عن السلاح والكنابيش ٦ الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق ، والخلع التى بالطرز الذهب اليلبغاوى ، وغير ذلك من التحف الفاخرة ، فاحتوى على ذلك جميعه ، خارجا عن برك السلطان والأمراء وأموالهم وخيولهم وبغالهم وجمالهم وخامهم ، فاحتوى على ذلك جميعه . ٩

ثم توجه إلى الشام، فملكها بالأمان ، ثم نزل إليه نائب قلعة الشام بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام ، وملك قلعة الشام واحتوى على ما فيها من الأموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها . وملك حماة وحمص ١٢ وبعلبك الكل ملكهم بالأمان ، ثم خرج من الشام وقصد التوجّه إلى نحو الديار المصرية ، فتسلم طرابلس وصفد وغزّة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدّة بلاد مما حولها ، فتسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع ، ولم يتّفق هذا لأحد من الملوك ١٥ قبله .

ثم توجّه إلى القاهرة فتلاق مع الأشرف طومان باى على الريدانية فوقع بينهما قتال هيّن ، فلم يكن إلا مقدار خمس درج وانكسر الأشرف طومان باى وولّى ١٨ مهزوما ، وقُتل من الأمراء والعسكر ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائم سفيه . أقول : ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه لما فتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية ، ففتحها عنوة بقائم سفيه ، وإلى هلم ، ٢١ لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ، ولم يقع مثل ذلك سوى للبخت نصّر البابلى من قديم الزمان .

---

(١٠) فملكها : ملكها . (١٤) طرابلس : ترابلس .

ومن هنا نرجع إلى أخبار ابن عثمان ، فإنه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق
عند الرصيف أقام به إلى يوم الثلاثاء رابع المحرم ، فلما كان ليلة الأربعاء خامس الشهر
٣ بعد صلاة العشاء ، لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى (٨٠ ب)
بالوطاق واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان إلى الغاية ، وظنّ أنه مأخوذ لا
محالة ، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهى محمّلة ساسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بعض
٦ خيام من وطاق ابن عثمان ، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر بن عثمان
ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجمّ الغفير من الزعر وعيّاق بولاق من النواتية
وغيرها وصاروا يرجمون بالقاليق وفيها الحجارة ، واستمرّوا على ذلك إلى أن طلع
٩ النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فكان
بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصى ، فملكوا
منهم من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قُدَيدار ، واستمرّ
١٢ الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب . وأشيع أن العربان لما وقعت
هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية . ثم إن المماليك الجراكسة
صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت
١٥ والحارات على المماليك الجراكسة .

ومثلما تعمل شاة الجى ۝ فى قرض يعمل فى جلدها

فصاروا الأتراك كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها
١٨ بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوب . — فلما كان يوم الخميس سادس
المحرم اشتدّ القتال بين العثمانية وبين الأتراك ، ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر
السباع للزعر والعيّاق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها
٢١ بين يدى السلطان . ثم إن العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة الفيل
وملكوها منهم ، ثم طردوا الأتراك من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها
منهم . ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة قُدَيدار (٨١ آ) خوفا من العثمانية أن يهجموا

---

(٨) بالقاليق : كذا فى الأصل ، ولعلها « بالمقاليع » .
(١٧) يظفرون : يظفروا . || يقطعون : يقطعوا . ||| ويحضرون : ويحضروا .

عليهم . ثم إن العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى فى الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة ، فأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ . ثم إن ٣ العثمانية طردوا الأتراك عن الناصرية إلى قناطر السباع .

ثم إن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى بالصليبة ، وصار يركب بنفسه ويكرّ من الصليبة إلى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر . ثم رسم بحفر خندق ٦ فى رأس الصليبة ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند رأس الرملة ، وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر . ثم إن السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك . وأشيع أن السلطان قسم العسكر أربع فرق : فرقة إلى جهة ٩ قناطر السباع ، وفرقة الى جهة الرملة ، وفرقة إلى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة إلى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من المماليك السلطانية إلا القليل ، وصاروا يختفون فى الاسطبلات خوفا من القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج ١٢ منها .

ثم إن طائفة من العثمانية توجّهوا من على مصر العتيقة ، وطلعوا من على القرافة الكبيرة ، وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا ١٥ إلى ضريحها وداسوا على قبرها ، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كان عندها ، وبُسط الزاوية ، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها . ثم إن السلطان قصد يهدم قناطر السباع ، فأخرق من عقدها ١٨ بعض شىء . ثم إن الأتراك شحتوا جماعة من العثمانية فهربوا وطلعوا إلى مواذن الجامع المؤيدى ، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول إلى باب (٨١ ب) زويلة ، واستمرّوا على ذلك حتى طلعوا لهم الأتراك وقتلوهم فى المئذنة ٢١ أشرّ قتلة .

(٢و٣) التى: الذى. (١١) يختفون: يختفوا . (١٦) قناديلها: قنادلها. (١٨) الذين: الذى.
(١٩) مواذن=مآذن. (٢٠) يرمون: يرموا. || ويمنعونهم: ويمنعوهم.(٢١) المئذنة: المادنة .

ثم صارت القتلاء من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع وإلى الرملة وإلى تحت القلعة ، وفى الحارات والأزقة من الأتراك والعثمانية ،
٣ وهم أبدان بلا رءوس . هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب وهم يشلحون الناس ويعرونهم [من] أثوابهم ، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها . ثم إن السلطان طومان باى نادى
٦ فى القاهرة أن كل من مسك أحدا من عسكر ابن عثمان وطلب منه الأمان فلا يقتله . — ومن العجائب أن السلطان طومان باى لما ظهر خُطب باسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة ، وكان فى الجمعة الماضية خُطب باسم سليم شاه بن عثمان ، فكان كما يقال :

٩ لا تيأسنّ من فرج ولطف   وقوّة تظهر بعد ضعف

فاستمرّ السلطان طومان باى يتقع مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى عددهم ، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرّم ،
١٢ فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم ، وتفرّقت الأمراء كل واحد فى ناحية ، واستمرّ السلطان يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده بمفرده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء ، منهم
١٥ شاد بك الأعور وآخرون من الأمراء العشرات ، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجّه إلى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظّ غير مسعود الحركات فى أفعاله ، فكان كما يقال:

قليل الحظّ ليس له دواء   ولو كان المسيح له طبيب

١٨ وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان ، وقد غُلّت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا . ولما هرب السلطان طومان باى وقع فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدّم (٨٢ آ)
٢١ من الزمان ، فلما انهزم السلطان صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، فاحترق سقف الإيوان الكبير والقبّة التى كانت به كون أن السلطان طومان باى كان به وقت الحرب ، وأحرقوا البيوت التى حوله

(٣) يشلحون : يشلحوا . (٤) ويقتلون : ويقتلوا . (٢٣) التى: الذى.

فى درب ابن عزيز . ثم قبضوا على الشرفى يحيى بن العدّاس خطيب الجامع وأحضروه
إلى بين يدى سليم شاه بن عثمان فهمّ بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب وأتى
إلى ابن عثمان وشفع فى ابن عدّاس وخلّصه من القتل ، ولولا كان فى أجله فسحة ٣
لضربوا عنقه فى الحال ، وقاسى شدّة عظيمة من الطربة.

ثم إن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك ، ولعبوا فيهم
بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وربما عوقب من لاجنى ، فصارت جثثهم مرميّة على ٦
الطرقات من باب زويلة إلى الرملة ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى
الناصرية إلى مصر العتيقة ، فكان مقدار من قُتل فى هــذه الوقعة من بولاق إلى
الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه ٩
الأربعة أيام ، ولولا لطف الله تعالى [لكان] لعب السيف فى أهل مصر قاطبة .

ثم إن العثمانيه صارت تكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات ، فمن
وجدوه منهم ضربوا عنقه . ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها المماليك ١٢
الجراكسة ، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك
من الجوامع والمدارس والمزارات ، ويقتلون من فيها من المماليك الجراكسة ، فقيل
قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك مابين أمراء عشرات وخاصكية ومماليك سلطانيــة ، ١٥
فضربوا أرقابهم أجمعين بين يدى ابن عثمان . وقيل إن المشاعلى الذى كان هناك كان
إفرنجيّا ، وقيل كان يهوديا من الأروام ، فكان إذا ضرب عنق أحد من المماليك الجراكسة
يعزل رءوسهم وحــدها ورءوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الحبال ١٨
على الصوارى ويعلّق عليها تلك الرءوس فى الوطاق الذى فى (٨٢ ب) الجزيرة
الوسطى . وكان المشاعلى إذا حزّ رأس المماليك يرمى جثثهم فى البحر . وأخبرنى من
أثق به أنه شاهد جثة الأمير قانصوه روح لو ، أحد الأمراء المقدّمين الذى كان نائب ٢١
قطيا ، وهى مرميّة قدّام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ،
فإنه كان رجلا جسيما . وقتل فى هذه الوقعة الأمير يخشباى من قائم الذى قرّر أمير

(٤) لضربوا : ضربوا. (١٤) ويقتلون : ويقتلوا . (١٨) رءوسهم : رءوسها .
(٢٠) من : ممن . (٢٢) مصارينه : مصارنه .

مجلس كما تقدم ، وقُتل آخرون من الأمراء الطبلخانات والعشرات والخاصكية وغير ذلك . وصارت الجثث مرميّة فى الرملة إلى سوق الخيل إلى الخيميّين ، وقد تناهشت ٣ الكلاب أجسادهم . وصارت الخيول مرميّة فى الرملة وفى الأسواق والأزقّة ، وقد قتلوا بالبندق الرصاص فى الوقعة.

ولم تقاس أهل مصر شدّة مثل هذه قط ، إلا أن كان فى زمن البخت نصّر ٦ البابلى لما أتى من بابل وزخف على البلاد بعساكره وأخربها وهدم بيت المقدس ، ثم دخل إلى مصر وأخربها عن آخرها وقتل من أهلها مائة ألف ألف ألف إنسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ليس بها ديّار ولا نافخ نار ، فكان النيل يطلع ٩ وينفرش على الأرض ويهبط فلا يجد من يزرع الأراضى عليه ولا ينتفع به ، لكن هذه الواقعة لها فوق الألفى سنة قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام . ثم وقع مثل ذلك فى بغداد فى فتنة هلاكو ملك التتار لما زحف على بغداد وأخربها وأحرق بيوتها، ١٢ وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل أهلها ، واستمرت من بعد ذلك خرابا إلى الآن . فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك : وما زالت الأيام تبدى العجائب .

فلما هرب السلطان طومان باى وقُتل من قتل من الأمراء والعسكر ، رجع ١٥ السلطان سليم شاه إلى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ونصب فى وطاقه صنجقين ، أحدها أبيض والآخر أحمر ، وذلك إشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدينة ، هكذا عادتهم فى بلادهم إذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف . — وفى هذا الشهر توفى ١٨ الشيخ شهاب الدين القسطلانى ، وكان علامة فى الحديث وله شهرة طائلة (٨٣ آ) بين الناس ، وكان لا بأس به ، وكان من أعيان المحدّثين .

وفى هذه الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحلّ والعقد والأمر ٢١ والنهى فى الديار المصرية ، وصارت أولاد السلاطين جالسة فى دهاليز بيته ، مثل المقر العلاى على بن المؤيد أحمد وابن الظاهر خشقدم وأولاد الملك المنصور عثمان ، وغير

(٣ـ٤) وصارت الخيول ... الوقعة: كتبها المؤلف فى الأصل على الهامش. (٥) ولم تقاس : ولم تقاسى . (٧) مائة ألف ألف ألف : كذا فى الأصل. (٨) يطلع : طلع . (١٠) الألفى سنة : الألفين سنة .

ذلك من أولاد الأمراء وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين ، وجماعة من الأمراء
مثل قنبك رأس نوبة ثانى وسنبل مقدم المماليك ، وغير ذلك آخرون من الأمراء بايتة
في دهاليز بيته لم يلتفت إليهم . وكانت رسالته ماشية في القاهرة لا تُرَدّ عند وزراء ٣
ابن عثمان ، وشفاعته في الناس لا تُرَدّ ، وصار رنكه مضروبا على غالب البيوت التي
في القاهرة ، وصار هو مقام سلطان مصر في نفاذ الكلمة وإظهار العظمة في تلك
الأيام ، ودخل عليه من الناس أموال وتقادم عظيمة ما لا فرح به آباؤه ولا أجداده . ٦
وصارت جماعة من الستّات والخوندات مرميّة في دهاليز حرمه ، وصارت خوند ابنة
الأمير أقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة في بيته ، وقد قرّر عليها
السلطان سليم شاه مالا جزيلا ترده ، فلازال الخليفة يتلطّف بالسلطان سليم شاه حتى ٩
حطّ عنها جانبا من المال الذى قرّره عليها ، وحصل له من الستّات والخوندات خدما
جزيلة، فطاش الخليفة في تلك الأيام إلى الغاية ، وظنّ أن هذا الحال يتم له ، فكان
القبان بآخره ، كما يقال في المعنى : ١٢

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث أن أولاد الزنكلونى الذى جرى لهم مع السلطان الغورى ما جرى
ومات أبوهما تحت الضرب ، وابن نور الدين الشالى الذى شنقه الغورى كما تقدم ، فلما ١٥
تغيّرت الدول ودخل ابن عثمان إلى القاهرة ونادى: من كانت له ظلامة يرفع أمره إلى
السلطان سليم شاه ، فثارت أولاد الزنكلونى وابن نور الدين الشالى على القاضى شمس
الدين بن وُحيش ، وقالوا له: أنت كنت سببا لشنق نور الدين الشالى وضرب الزنكلونى. ١٨
وقصدوا يمضون به إلى ابن عثمان يقطع رأسه ، فترامى على الخليفة في عمل المصلحة
(٨٣ب) بينه وبين أولاد الزنكلونى وابن الشالى، فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وُحيش
يدفع إلى أولاد الزنكلونى ثلاثمائة دينار ، وابن الشالى مائتى دينار فأبوا من ذلك ، ٢١
واستمرّت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وُحيش إلى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان.

(١) الرؤساء : الرويسا . (٤) التى : الذى .
(٩) مالا جزيلا : مال جزيله . (١٩) يمضون : يمضوا .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى السلطان سليم شاه بعد العصر فى القاهرة بأن الأمراء المقدّمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات ، الذين اختفوا بعد الوقعة ٣ يظهرون وعليهم أمان الله تعالى . وقيل إن السلطان سليم شاه كتب للأمراء بأمان فى ورقة طويلة وعلّقها المشاعلى على جريدة . ونادى أيضا بأن الأمراء المختفيين إذا ظهروا يتوجّهون إلى مدرسة السلطان الغورى . فظهر الأمير أركماس أمير سلاح ٦ والأمير أنصباى أمير آخور كبير والأمير تمر الحسنى رأس نوبة النوب والأمير طُقطباى حاجب الحجّاب والأمير تانى بك الخازندار أحد المقدّمين والأمير تانى بك النجمى أحد المقدّمين والأمير قانصوه أبو سنّة أحد المقدّمين . ومن الأمراء ٩ الطبلخانات الأمير مصر باى الأفرع والأمير قنبك رأس نوبة ثانى والأمير يشبك الفقيه دوادار السلطان طومان باى لما كان دوادارا كبيرا وكان مختفيا فى جامع الأزهر فطلع بالأمان . وظهر من الأمراء العشرات نحو أربعين أميرا أو أكثر من ذلك ١٢ وآخرون من الخاصكية . فلما ظهروا اجتمعوا فى المدرسة الغورية ، واحتاط بهم جماعة من العثمانية وقد تجوّنوا وصاروا فى الترسيم معهم . ثم أشيع أن الأمراء المذكورين قابلوا السلطان ابن عثمان فى الوطاق ، فلما قابلوه وبّخهم بالكلام وبصق على ١٥ وجوههم وذكر لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ، ثم رسم لهم بأن يطلعوا إلى القلعة ويقيموا بها محتفظا بهم ، فطلعوا بهم إلى القلعة .

وفيه أشيع أن جان بردى الغزالى أرسل يطلب الأمان من السلطان سليم شاه ، ١٨ وقد وصل (٨٤ آ) إلى الخانكاه وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل له السلطان سليم شاه أمانا . ـ وفيه أشيع أن السلطان طومان باى لما وقعت له تلك الكسرة التى كانت بالصليبية وهرب ، ظهر بعد ذلك أنه توجّه ٢١ إلى البهنسا وأقام بها ، فلما ضجر مما قاساه من الحروب والشرور أرسل القاضى عبد السلام قاضى البهنسا إلى الخليفة ليطلب له الأمان من السلطان سليم شاه . ـ وفيه

(٢و١٨) الذين : الذى : (٣) يظهرون : يظهروا . (٥) يتوجهون . يتوجهوا .
(١٦) ويقيموا : ويقيمون .

أشيع أن العثمانية هجموا على مقام الإمام الشافعى رضى الله عنـــه ونهبوا ما فيه من البُسُط ومن القناديل فى حُجّة المماليك الجراكسة ، وكذلك مقام الإمام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم دخل جان بردى الغزالى إلى القاهرة وعلى رأسه ورقة فيها أمان من السلطان سليم شاه ، فلما دخل القاهرة توجّه إلى وطاق ابن عثمان وقابله هناك . وكان الغزالى لما انكسر السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أن الغزالى توجّه إلى غزّة ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ، وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى البـاطن من أيام السلطان الغورى ، وكان سببا لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب حلب ، وانهزموا قبل العسكر وأشاعوا الكسرة على عسكر مصر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة ، وكانوا نحو أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان ، فلما ظهروا قبض عليهم وغدرهم فى أمانه ، وكان من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر فى أمانه فى الحال ، فكان لا يثق أحد منه بأمان إذا أعطاه لأحد من الناس . — وفيه قرّر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه منهم نائب غزّة ومنهم كاشف للمحلّة وللشرقية والغربية ، وولّى عدّة جماعة كُشّاف فى أماكن مختلفة من البلاد .

وفى يوم الخميس عشرين المحرم نادى السلطان سليم شاه فى الصليبية وقناطر السباع ، بأن أصحاب الأملاك التى فى الصليبية وجامع ابن طولون يخلون من بيوتهم ، فإن (٨٤ب) السلطان سليم شاه طالع إلى القلعة ليقيم بها ، وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك المعنى ، فخرجت الناس من بيوتهم على وجههم ، وانطلق فيهم جمرة نار ، وهجمت عليهم العثمانية فى بيوتهم وسكنوا فيها فى عدّة أماكن من بيوت القاهرة ، حتى صارت الحارات والأزقّة ما تنشقّ منهم ، وصاروا كالجراد المنتشر من

---

(٨) متواطئا : متواطى . (١٩) التى : الذى . || يخلون : يخلوا . (٢٢) عدة : عددة .

كثرتهم ، من الصليبة إلى جامع قوصون إلى قناطر السباع إلى داخل باب زويلة ، وما خلا منهم موضع فى المدينة ، وصارت الناس تسدّ أبوابها وتضيّقها مثل الخوَخ ٣ حتى لا تدخل فيها الخيول ، ولم يفد من ذلك شيئا وهدموا ما بنوه وسكنوا بها . ثم إن السلطان سليم شاه طلع إلى القلعة فى موكب حفل من عسكره ، وهذا أول طلوعه إلى قلعة الجبل ، ولما أن طلع إلى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمان . — ٦ وفيه أشيع أن المماليك الذين طلعوا بالأمان قيّدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى .

وفى أوائل هذه السنة كانت وفاة الإمام العالم العلّامة برهان الدين إبراهيم بن أبى شريف ٩ المقدسى الشافعى ، وكان عالما فاضلا فى مذهبه بارعا فى العلوم ، ولى قضاء الشافعية فى أيام السلطان الغورى فأقام بها مدة وعزل عنها ، ثم قرّره الغورى فى مشيخة مدرسته ، وقاسى فى أواخر عمره شدائد ومحنا من السلطان الغورى ، وأقام مدة ١٢ طويلة وهو عليل حتى مات ، وعاش من العمر فوق الثمانين سنة ، ولما مات كانت الحرب والفتن قائمة فلم يشعر بموته أحد من الناس رحمة الله عليه . — وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان ، وكان ريّسا حشما من أعيان أولاد الناس ، ١٥ وكان كُفّ بصره قبل موته بمدة طويلة ، وكان أنشأ له تاريخا فى ضبط الوقائع ، وكان علّامة فى كل فن رحمة الله عليه .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرين المحرم أخلع الدفتردار على الشرفى يونس الأستادار ١٨ قفطان مخمل مذهبا وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية ، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من إقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف ، فأخذ قوائم من أولاد الجيمان بمعنى ذلك ونزل إلى الشرقية ، فما أبقى من (٨٥ آ) أبواب المظالم شيئا ٢١ حتى فعله بالشرقية . وقرّر فخر الدين بن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير

(٢) وتضيقها : وتضيقهم . (٦) الذين : الذى . || قيدوهم : قيدهم . (١١) شدائد ومحنا : شدايدا ومحن . (١٢) كانت : كان . (١٣) والفتن : والفتين . (٢٣) أخا : أخوا .

متحدثين فى جهات الغربية ، وقرّر الزينى بركات بن موسى متحدثا [فى] جهات
المحلة، وقرّر شرف الدين الصُغير وأبا البقا ناظر الاسطبل متحدثين فى الجهات القبلية،
فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الإقطاعات والرزق . وأشيع ٣
أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير التى بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم ،
فحصل لهم غاية النكد بسبب ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر تشحّطت الغلال من القاهرة وارتفع الخبز من الأسواق، ٦
وسبب هـذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا إلى القاهرة نهبوا الغل الذى كان فى الشون
وأطعموه لخيولهم ، حتى لم يبق بالشون شيئا من الغلال ، ونهبوا القمح الذى كان
بالطواحين واضطربت أحوال الناس قاطبة ، ثم إن الأخبار ترادفت بأن السلطان ٩
طومان باى ظهر أنه بالصعيد عنـد أولاد ابن عمر ، ومنع المراكب من الوصول إلى
مصر بالغلال ، فبموجب ذلك وقعت هذه التشحيطة بمصر .

ولما طلع ابن عثمان إلى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ، ولا جلس على ١٢
التكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما وحكم بين الناس وينصف الظالم من المظلوم ، بل
كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة ، من قَتْل وأخْـذ أموال الناس
بغير حق ، وكان هذا على غير القياس ، فإنه كان يشاع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان ١٥
وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر ، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا
مشى سليم شاه فى مصر على قواعد السلاطين السالفة بمصر ، ولم يكن له نظام يُعرف
لاهو ولاوزراؤه ولا أمراؤه ولاعسكره ، بل كانوا همجا لايُعرف الغلام من الأستاذ. ١٨
ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول من الحوش إلى باب القلة إلى عند الإيوان
الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة ، وصار زبل الخيل هناك بالكيمان على الأرض ،
وأخرب غالب الأماكن التى بالقلعة وفكّ رخامها ونزل به فى مراكب يتوجّهون به ٢١
إلى (٨٥ ب) إسطنبول . ــ ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرملة

---

(٤) التى : اتدى . (٨) لم يبق : لم يبق . (١٤) مظلمة : مظله .
(١٥) فإنه : فإن . (٢١) التى : الذى . || يتوجهون : يتوجهوا .

من باب القرافة إلى سوق الخيل . – ثم إن العثمانيــة نصبوا خيمة فى وسط الرملة وجعلوا فيها أدنان بوزة ، وخيمة أخرى فيها جفن حشيش ، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد يحارفون كعادتهم فى بلادهم .

وفى يوم الجمعــة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته والتف عليه جماعة كثيرة من العربان ، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الغفــير ، وأشيع أن وصل إليــه من ثغر الإسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الأشرف طومان باى ، وصار على رءوس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى تلك الوقعة التى كانت فى الصليبية ، فخشوا من مثل ذلك .

وفى صفر كان مستهل الشهر يوم الأحد . – ففى يوم الثلاثاء ثالث الشهر حضر العلاى على ناظر الخاص وكان قد توجه إلى ثغر الإسكندرية ، فلما حضر أحضر صحبته جماعة من المماليك الجراكسة كانوا هناك ، فأحضرهم فى زناجير . – ثم أشيع بعد ذلك أن ناظر الخاص كان توجه إلى الإسكندرية بسبب خنق الظاهر قانصوه خال الناصر الذى كان بثغر الإسكندرية ، فقيــل خُنق فى البرج الذى كان به ، وكان السلطان طومان باى أفرج عنه وأخرجه من البرج وسكن فى قاعة الملك المؤيد أحمد وأذن له أن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس فى الجامع ، فلما توجه ناظر الخاص إلى ثغر الإسكندرية أظهر أنه يعيد الظاهر قانصوه إلى البرج كما كان ، فلما أعيد إلى البرج خنقوه تحت الليل ودفن هناك ، وكان ملكا هينا لينا ، ولما ولى السلطنة بمصر انصلحت أحوال الديار المصرية فى أيامه انصلاحا جيدا وتمنى كل أحد من الناس بقاءه ، ثم قاسى شدائد ومحنا وآخر الأمر قتل مخنوقا ، وكان له (٨٦ آ) من العمر نحو من أربعين سنة ، وكان سبب خنقه أن كان قد أشيع أن الأتراك تقصد عوده إلى السلطنة ، فبادر السلطان سليم شاه وخنقه وكفى أمره .

وفى هذه الأيام تزايد الأذى من عسكر ابن عثمان ، فكانوا يخرجون وقت صلاة

---

(٣) يحارفون : يحارفوا. (٢٠) شدائد ومحنا: شدايداومحن. (٢٣) يخرجون: يخرجوا.

الصبح ويتوجّهون [إلى] الضياع التى حول الخانكاه ، فيحشّون ما فيها من الزروع
من البرسيم والفول ، فيطعمونه إلى خيولهم فى كل يوم ، ثم صاروا يأخذون دجاج
الفلاحين وأغنامهم وأوزّهم ، حتى أبوابهم وخشب السقوف الذى هناك ، حتى أخربوا ٣
غالب ضياع الشرقية وسواحل البحر ، فلما يرجعون أواخر النهار يباتون فى الوطاق
الذى فى الرملة ، ثم صاروا يخطفون العمايم ويعرّون الناس فى الأماكن المفردة من بعد
العشاء ، فرسم السلطان سليم شاه بعمل دروب فى كل حارة ، وسدّوا عدّة طرق من ٦
الحارات ، وكذلك عدة أبواب جعلوها خوخ ، وكان المتولّى عمل ذلك يحيى بن نكار
دوادار الوالى ، فبلص الناس فى هذه الحركة وأخذ منهم جملة مال ، ولم يُفد من عمل
هذه الدروب شىء ، وحصل للناس الضرر الشامل وجبوا الأموال من الحارات بسبب ٩
تلك الدروب . — ولما أقام ابن عثمان بالقلعة نزل منها ودخل حمام خشقدم الزمام التى
بالرملة ، فأقام بها إلى بعد العصر ، ثم عاد إلى القلعة .

وفى يوم الأربعاء رابع صفر وردت الأخبار بأن الأمير ألماس كاشف الغربية طرق ١٢
أطراف جهات الجيزة على حين غفلة ، وأخذ منها عدة خيول كانت هناك ، وبعض جمال
كانت هناك لخير بك نائب حلب ، ثم أشيع أن ألماس قتل جماعة من العثمانية ، فلما
بلغ السلطان سليم شاه ذلك أرسل تجريدة إلى جهة الجيزة وعيّن بها ألفى عثمانى ورماة ١٥
بالبندق الرصاص ، فلما عدّوا إلى برّ الجيزة لم يجسروا أن يتبعوا ألماس وقانصوه
العادلى . ثم إن ابن عثمان نادى فى القاهرة بأن أبواب المدينة وأبواب الدروب تغلق
وقت صلاة الجمعة ، خوفا من المماليك الجراكسة أن لا يطرقوا المدينة على حين غفلة من ١٨
أهلها .

ثم إن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من (٨٦ ب) المماليك الجراكسة الذين
كانوا ظهروا بالأمان ، وكانوا فى الترسيم فى الوكالة التى خلف مدرسة الغورى ، وكان ٢١

---

(١) ويتوجهون : ويتوجهوا . ‖ فيحشون : فيحشوا . (٢) فيطعمونه : فيطعموه . ‖ يأخذون : يأخذوا . (٤) يرجعون : يرجعوا . ‖ يباتون : يباتوا . (٥) يخطفون ... ويعرون : يخطفوا ... ويعروا . (١٠) تلك : ذلك . (٢٠) الذين : الذى .

منهم جماعة فى سجن الديلم ، وكان فيهم أمراء عشرات ، فرسم بأن يُنفوا إلى
إسطنبول ، فأخرجوهم وهم فى قيود وأركبوهم على حمير ، والأعيان منهم على جمال ،
٣ ومنهم من هو ماش على أقدامه وهو فى زنجير ، وكانوا نحو سبعمائة مملوك ، وقيل
أكثر من ذلك ، فشقّوا بهم القاهرة ثم توجّهوا بهم إلى بولاق وأنزلوهم فى المراكب
فلما استقرّوا فى المراكب خشبوا منهم جماعة بقرامى خشب فى أيديهم ، ثم سافروا
٦ بهم فى البحر إلى ثغر الإسكندرية ، ثم يتوجهون بهم من هناك إلى إسطنبول ،
فصار لنسائهم وأولادهم ضجيج وبكاء فى ساحل بولاق عند ما ودّعوهم .

وفى يوم الأربعاء حادى عشر صفر أخلع السلطان سليم شاه على القضاة الأربعة
٩ الذين كانوا فى أسره بحلب ، وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى
القضاة محمود بن الشحنة الحنفى وقاضى القضاة محي الدين بن الدميرى المالكى وقاضى
القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وأعادهم إلى وظائفهم كما كانوا فى الأول بمصر .

١٢ وكانت الأحوال قد فسدت جدا فإن السلطان سليم شاه لما دخل إلى القاهرة جعل فى
المدرسة الصالحية قاضيا من قبله سمّاه قاضى العرب ، فصار لا يحكم إلا فى المدرسة
الصالحية ، فمنع نوّاب قضاة مصر والشهود الذين بها قاطبة أن لا يعقدوا عقدا لأحد
١٥ من الناس ولا يكتبوا إجازة ولا وكالة ولا وصيّة ولا شيئا من الأشغال قاطبة ،
فكانت الناس إذا راموا أن يعقدوا عقدا لتزوّج من أبكار أو ثيبات فيمضون إلى
المدرسة الصالحية ويحصل لهم كلفة زائدة ومشقّة ، وكذلك فى الوصيّة أو فى جميع
١٨ أشغال الناس ، فضاعت على الناس حقوقها واضطربت أحوال الأحكام الشرعية فى
هذه الأيام . وكان القاضى الذى قرّره ابن عثمان يحكم فى الصالحية أجهل من حمار ،
وليس يدرى شيئا فى الأحكام الشرعية ، ويضيّع على الناس حقوقها ، وكان إذا دخل
٢١ عليه مبلغ فى كل يوم يعطى الموقّعين والشهود الذين عنده من (١٨٧ آ) ذلك المبلغ
بعض شىء ويقول الباقى حصّة بيت المال ، فيشيل بقية المبلغ فى صندوق ويقفل عليه،
واستمرّت القضاة والشهود مع قاضى العرب الذى قرّره ابن عثمان فى غاية النكد ،

---

(٦) يتوجهون : يتوجهوا .   (٩و١٤و٢١) الذين : الذى .

ومنع القضاة والشهود من الحكم والشهادة ، وأقاموا على ذلك نحو شهر وقد منعوا
من ذلك ، وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين بن الزيتونى فى معنى ذلك :

مُنعنا الحكم والإشهاد أيضاً ... فيا سنة الكرى عينى فزورى ٣
مُنعنا كأنا من غير ذنب ... كأنا قد أتيناهم بزور

وفى هذا الشهر أشيع أن السلطان طومان باى أرسل عدة مطالعات إلى المباشرين
وأعيان الناس وإلى كاتب السر حتى إلى الخليفة ، فأرسل يعتب عليهم ويقول لهم : ٦
يا سبحان الله إن كنتم نسيتونا فنحن ما نسيناكم . وأرسل يعتب عليهم ويتحرّش
بهم ، ثم بعد أيام أشيع أن طومان باى أرسل يقول إلى ابن عثمان : إن كنت تروم أن
أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون أنا نائباً عنك بمصر وأحمل لك خراج مصر ٩
حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله إليك فى كل سنة ، فارحل عن مصر
أنت وعسكرك إلى الصالحية وصون دماء المسلمين بيننا ولا تدخل فى خطية أهل مصر
من كبار وصغار وشيوخ وصبيان ونساء ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقينى ١٢
فى بر الجيزة ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء منا . فلما وقف السلطان سليم شاه على
مطالعة السلطان طومان باى أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة ، وأحضر
جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى السلطان طومان باى ، وكتب ١٥
ابن عثمان خطّه عليه ، ووقع فى ذلك اليوم الاتفاق بالقلعة أن الخليفة والقضاة الأربعة
يتوجّهون إلى السلطان طومان باى بذلك الحلف على أيديهم ، ثم إن ابن عثمان أخلع
على القضاة الأربعة قفطانات مخمل مذهب وقال لهم : انزلوا اعملوا يرقكم حتى تتوجّهوا ١٨
إلى طومان باى نحو الصعيد . فنزلوا من القلعة على ذلك ، ثم إن الخليفة امتنع من
التوجّه إلى السلطان طومان باى ، وقال : أنا أرسل دواداری بردبك صحبة القضاة
الأربعة . (٨٧ ب) وأشيع أن المطالعة التى أرسلها السلطان طومان باى إلى ابن ٢١
عثمان ذكر فى ذيل المطالعة : ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز ،
فإن معى ثلاثين أميرا ما بين مقدّمين ألوف وأربعينات وعشرات ، ومعى من المماليك

---

(٢١) التى : الذى .

السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا ، وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح
إلى صون دماء المسلمين . ثم فى عقيب ذلك توجهت القضاة الأربعة وبرد بك دوادار
٣ الخليفة إلى عند السلطان طومان باى نحو الصعيد .

وفى هذه الأيام قويت الإشاعات بأن السلطان طومان باى جمع من العساكر
والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان ببر الجيزة ، فكثر القيل والقال
٦ فى ذلك ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك . — وفى أثناء هذا الشهر أشيع أن
الأمير علان من قراجا الدوادار الكبير قد توفى بالصعيد ، ودفن فى بعض الضياع هناك ،
وصلّى عليه السلطان طومان باى والأمراء الذين كانوا هناك ، وكان الأمير علان جُرح
٩ فى الوقعة التى كانت فى الريدانية ، واستمرّ عليلا من ذلك حتى مات هناك ، وكان
من فحول الأمراء وأشجعهم ، والله غالب على أمره .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية ، وصاروا
١٢ يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم . ونهبوا
بلاد عبد الدايم بن أبى الشوارب وأحرقوها ، ونهبوا عدة بلاد من الشرقية ، منهم
قليوب وقلقشندة وغير ذلك من البلاد ، ووصلوا إلى شبرا المنية ، وصاروا يمدّون من
١٥ شبرا إلى قنطرة الحاجب . فلما تزايد الأمر أرسل إليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها
من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى ، وجعل باشهم جان بردى الغزالى ، فخرجوا من
القاهرة على حميّة وتوجّهوا إلى الشرقية فأقاموا بها أياما ، فأخلت العربان من وجههم
١٨ وصعدوا إلى الجبال فرجع ذلك العسكر من غير طائل من العربان .

وفى أثناء هذا (٨٨ آ) الشهر وردت الأخبار من بلاد الصعيد بأن القضاة
الأربعة وبُرد بك دوادار الخليفة وقاصد ابن عثمان مُصلح الدين الذى كان أرسله معهم
٢١ وجماعة من العثمانية ، فلما وصلوا إلى قريب البهنسا خرج عليهم جماعة من العربان
ومعهم جماعة من الأتراك فقتلوا العثمانية ، وهرب برد بك دوادار الخليفة وعرّوه
وأخذوا أثوابه وهرب حتى نجا من القتل ، ونُهب جميع ما معه من القماش وغيره ،

---

(٨) الذين : الذى . (١٢) ويقتلونهم ويأخذون : ويقتلوهم ويأخذوا . (١٤) يمدون : يمدوا .

وأشيع قتل قاضى البهنسا عبد السلام ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل إلا بعد جهد كبير . فلما بلغ ابن عثمان ذلك اضطربت أحواله وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى من الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان . ثم إن ابن ٣ عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش .

وفى يوم السبت حادى عشرين صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه جمّ الغفير من العساكر وتوجّه إلى الوطاق ببركة الحبش ، وتوجّهت المباشرون صحبته حتى ٦ القاضى كاتب السرّ . — وفى هذه الأيام اختفت السقايين بجمالهم وضجّ الناس من العطش ، وزعموا أن ابن عثمان طلب جميع السقايين بجمالهم وروایاتهم حتى يسافروا معه إلى الصعيد بسبب السلطان طومان باى إن كان يهرب منه إلى بلاد الزنج ، فوصل ثمن ٩ الراوية الماء أربعة أنصاف ، وقيل خمسة أنصاف .

وفى يوم السبت ثامن عشرين صفر أشيع أن أوائل عساكر السلطان طومان باى قد وصل إلى ترسة بالقرب من الجيزة ، فرسم ابن عثمان بعمل وحدات على شاطىء ١٢ البحر بطرا لأجل تعدية عسكره ، وكذلك فى برّ مصر العتيقة . — وفى هذه الأيام امتنع الجالب من البضائع التى كانت تدخل إلى القاهرة من الأجبان والسمن والقشطة وغير ذلك من البضائع ، التى كانت تجلب من الجيزة وقليوب والمنية وشبرا ، ١٥ واضطربت أحوال القاهرة جدّا بسبب إقامة هذه الفتنة .

وفى ربيع الأول كان مستهلّ الشهر يوم الثلاثاء ، فأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج إلى بلاد الشرقية كبس على عدة بلاد من الشرقية حتى وصل إلى التل ١٨ والزّمَرُونين وإلى زنكلون ، فنهب ما فيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج ، (٨٨ ب) وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات ، وصار يبيعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان ، كما فعل أقبردى الدوادار بالعرب الأحامدة وأولادهم ، فاشترى بعض ٢١ الناس منهم بنتا بأربعة أشرفية وأعتقها وأوهبها إلى أمها وقد رقّ لها من الأسف على ابنتها ، وفعل فى الشرقية ما لا فعله البخت نصّر لما دخل إلى مصر . ثم إن يونس باشاه

(٣) أبى : أبا . (٦) المباشرون : المباشرين . (١٩) والزمرونين : كذا فى الأصل .

نادى فى القاهرة بأن كل من اشترى من نهب بلاد الشرقية شيئا من الأبقار والأغنام
يردّه على أصحابه، وكذلك أولاد الفلاحين، ولام جان بردى الغزالى فيما فعله فى الشرقية.

٣ وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين
كانوا فى القلعة فى الترسيم، بأن يحضروا إلى بين يديه بالوطاق الذى ببركة الحبش ،
فنزلوا بهم من القلعة وهم على بغال وشىء على حمير وشىء مشاة ، وهم فى جنازير
٦ وعليهم كبورة عتق وعلى رءوسهم كوافى بنير شاشات ، وقيل كان فيهم من الأمراء
المقدّمين سبعة وهم: أركماس أمير سلاح وأنصباى أمير آخور كبير وتمر رأس نوبة النوب
وطقطباى حاجب الحجّاب وتانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدّمين وتانى بك النجمى
٩ أحد الأمراء المقدّمين وقانصوه أبو سنّة أحد الأمراء المقدّمين ؛ وأما الأمراء الطبلخانات
فنهم : قنبك رأس نوبة ثانى ومصر باى الأقرع وألماس والى القاهرة وماماى الصُغير
المحتسب ويوسف الأشرفى الزردكاش الثانى والأمير يشبك الفقيه وآخرون من الأمراء
١٢ الطبلخانات ما يحضرنى أسماؤهم الان ؛ وأما الأمراء العشرات فجماعة كثيرة
ما يحضرنى أسماؤهم ، فكان مجموع هؤلاء الأمراء المقدّم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا
ما بين مقدّمى ألوف وغير ذلك ، فلما مثلوا بين يدى السلطان سليم شاه وبّخهم بالكلام
١٥ ثم أمر بضرب أعناقهم أجمعين ، وقد قال القائل فى المعنى :

يا دهر بِع رتب المعالى مسرعا ‌‌ ‌ بيع الهوان ربحت أم لم تربح
قدّم وأخّر من أردت من الورى ‌ ‌ مات الذى قد كنت منهم تستحى

١٨ فضربت أعناقهم بالوطاق الذى ببركة الحبش ، وذلك فى يوم السبت سادس
ربيع الأول ، وصارت أجسادهم مرمية على الأرض تنهشهم الكلاب بالنهار والضباع
والذئاب بالليل، وصارت نساء الأمراء المقدّمين تبرطل المشاعلية بمال له صورة (٩٠آ)

---

٢١ (٢٠) ٩٠ آ : كتب المؤلف ما يأتى على الورقة رقم ٨٩ وألصقها فى الأصل بين الورقتين رقم ٨٨ و ٩٠ :
(٨٩ آ) ومن العجائب أن السلطان طومان باى لما اتقع مع ابن عثمان المرة الثانية وأقام =

---

(٣) الذين : الذى . ‌ ‌ (١٦) تربح : تربحى .

حتى يمكنوها من نقل جثـة زوجها ، فتحضر له تابوتا وحمالين فيحملوه من بركة الحبش إلى المدينة ، فتغسله وتكفنه وتدفنه فى تربته إن كان له تربة ، وصارت جثث البقية مرمية هناك تنهشها الكلاب . وكانت هذه الكاينة من أعظم الكواين فى ٣
حق الأمراء ، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان ثم غدرهم وقتلهم ، فكان لا يثق أحد له بأمان وليس له قول ولا فعل . وقيل كان سبب قتل هذه الأمراء أن السلطان طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان وجماعة من عسكره الذين توجهوا صحبة القضاة الأربعة ٦
لما طلب طومان باى الأمان من ابن عثمان ، فلما فعل ذلك علم ابن عثمان أنه قد أبى من الصلح فقتل هؤلاء الأمراء ضما بعد أن أعطاهم الأمان منه ، وقد قلت فى هذه الواقعة:

جَلّ الذى أفنى عساكر مصرنا ‏ ‏ ‏ من دولة أتراكها من جركسى ٩
وأتت إلينا دولة الأروام من ‏ ‏ ‏ أولاد عثمان ذوى الفعل المُسى
قتلوا أكابرنا بأيسر حيلة ‏ ‏ ‏ عملت عليهم لا بأسهام القسى
ياليت شعرى دولة الأتراك هل ‏ ‏ ‏ تأتى كما كانت ونذكر ما نُسى ١٢

= بجامع شيخوا ، أراد الأمير أركماس أمير سلاح والأمير تانى بك الخازندار والأمير تمر الحسنى الزردكاش وجماعة من الأمراء المتقدمين أن يهجموا على السلطان طومان باى وهو بجامع شيخوا ويقبضوا عليه ويضعوه فى الحديد ويسلموه باليد إلى السلطان سليم خان بن عثمان ويجعلوا لهم وجها ١٥
عند ابن عثمان ، فرد الله تعالى بغيهم على أنفسهم ، فنادى لهم ابن عثمان بأن يظهروا ولهم الأمان وكتب لهم أوراقا بالأمان إذا ظهروا ، فظنوا أن هذا الأمان يفيدهم وقد حسن لهم الأمير تانى بك الخازندار المقابلة إلى ابن عثمان وقال لهم : ضمانكم على إذا قابلتوه ما يحصل لكم إلا كل خير ، فوضعوا تلك ١٨
الأوراق على رءوسهم ووضعوا فى أرقابهم مناديل وقابلوا ابن عثمان ، فلما قابلوه [فى] (٨٩ ب) بركة الحبش وبخهم بالكلام فأغلظ عليه فى القول الأمير أركماس أمير سلاح وقال له : أمن عادة الملوك أن يعطوا الأمان ويغدروا . فحنق منـه ابن عثمان وأمر بضرب أعناق الأمراء أجمعين ، وقد رد ٢١
الله تعالى بغى الأمراء على أنفسهم ، والذى راموه للسلطان طوماى باى انقلب عليهم ، والمجازاة من جنس العمل ، والذى قصدوه لطومان باى وقعوا فيه ، فعد ذلك من العبر الغريبة ، انتهى ذلك ، وقد قيل : ٢٤

يا ملوك الترك امضوا ‏ ‏ ‏ جاء للملك سليم
ملككم كان عوارى ‏ ‏ ‏ والعوارى لا تدوم

---

(٧) أبى : أبا .

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل الأمراء قبض على نسائهم ورسم
عليهم وأرسلهم إلى بيت ناظر الخاص، وقد أشيع أنه يقصد أن يصادرهم وقرّر عليهم
٣ مالا ، فأقاموا فى بيت ناظر الخاص أياما ولم يردّوا من المال شيئا ، فنقلوهم إلى بيت
الدفتردار ، فقصد أن يعاقبهم وقيل سجن منهن جماعة فى الحجرة حتى يردّوا ما قُرّر
عليهم من المال ، ورسم على مباشرى الأمراء الذين قتلوا أيضا حتى يقيموا حساب
٦ إقطاعاتهم ، فأقاموا فى الترسيم مدّة .

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدّى السلطان سليم شاه إلى برّ الجيزة بسبب
قتال الأشرف طومان باى ، وقد بلغه أنه قد وصل إلى المناوات ومعه من العربان
٩ والعسكر من المماليك الجراكسة الجمّ الغفير ، فلما عدّى إلى الجيزة أقام بها إلى يوم
الخميس عاشر شهر ربيع الأول ، فتلاقى عسكر بن عثمان وعسكر السلطان طومان باى
على وَردان ، وقيل على المناوات ، فكان بين الفريقين وقعة لم يسمع بمثلها ، أعظم
١٢ (٩٠ب) من الوقعة التى كانت على الريدانية ، وقيل كانت هذه الوقعة عند كوم الحمام،
فكان بين الفريقين وقعة مهولة وانكسرت العثمانية غير ما مرّة ، وطردتهم الأتراك
حتى ألقوا أنفسهم فى البحر ، وكانت الكسرة عليهم أولا ، وقتل منهم جماعة كثيرة.
١٥ ثم بعد ذاك تكاثرت العثمانية على الأتراك وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص ، فهزموهم
ووقعت الكسرة على الأتراك ، وولّى السلطان طومان باى مهزوما ، فتوجّه إلى بلدة
تسمى البوطة فى أعلا تروجة . وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر ، وكان
١٨ السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته ، كل ما رام أن ينتصر على ابن عثمان
ينعكس ، فكان كما يقال فى المعنى :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

٢١ فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر قطع رءوس المماليك من الجراكسة ، وقطع
رءوس جماعة كثيرة من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى ، فلما تكاملت

---

(٥) مباشرى : مباشرين . (١٠) فتلاقى : تلاقا . (١٥) تكاثرت : تكارت .
(٢٢) الذين : الذى .

قطع الرءوس رسم ابن عثمان بإحضار مراكب ، فلما حضرت وضعوا فيها الرءوس
الذى قتلوا ، فلما عدّوا إلى برّ بولاق صنعوا مدارى خشب وعلّقوا عليها تلك الرءوس
وحملتها النواتية على أكتافها ولاقتهم الطبول والزمور ، ونادوا فى القاهرة بالزينة ٣
فزيّنت زينة حافلة ، وشقّوا بتلك الرءوس من باب البحر إلى باب القنطرة ، وطلعوا
بهم من على سوق مرجوش وشقّوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود . وقيل
كان عدّة الرءوس الذى قتلوا فى هذه الوقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين ٦
أتراك وعربان وغير ذلك ، والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد
من الناس ، وبطل ما كان يُعمل فى ليـلة المولد من اجتماع القضاة الأربعة والأمراء ٩
بالحوش السلطانى ، والأسمطة التى كانت تعمل فى ذلك اليوم ، وما كان يحصل
للمقرئين من الشقق والإنعام فى تلك الليلة ، فبطل ذلك جميعه ، وأشيع أن ابن عثمان
لما طلع إلى القلعة (٩١ آ) وعرض الحواصل التى بها فرأى خيمة المولد فأباعها ١٢
للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها قطعا وأباعوها للناس ستائر وسفر . وكانت هذه
الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، لم يعمل مثلها فى الدنيا قط ، قيل إن مصروفها على
الأشرف قايتباى ثلاثين ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وكان بها تجمّل لما ١٥
تنصب يوم المولد الشريف ، وكانت كهيئة القاعة ولها أربعة لواوين وفوقهم قبّة
بقمريات والكل من قماش ، وكان فيها تقاصيص غريبة ، وصنايع عجيبة ، لم يعمل
الآن مثلها أبدا ، فكانت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو من ١٨
خمسمائة إنسان حتى ينصبونها فى الحوش السلطانى . وكانت من جملة شمائر المملكة
فانباعت بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها ، وفقدتها الملوك من بعده ،
فحصل منه الضرر الشامل ، وهذا من جملة مساوئه التى فعلها بمصر . ٢١

---

(١) بإحضار : إحضار . (١–٢) الرءوس الذى قتلوا : كذا فى الأصل ، وتلاحظ عامية الأسلوب فى العبارات التالية . (٧) والذين : والذى . (١٠و١٢) التى : الذى .
(١٨) يحضرن : يحضروا . (٢٠) فانباعت : كذا فى الأصل .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن الدفتردار رسم على نساء الأمراء
الذين قتلوا ، فأنكر على الدفتردار ذلك وأمر بإطلاقهن من التراسيم ؛ وأن لا أحدا
٣ يأخذ منهن شيئا ويترك لهم ما تأخر عليهم من المال ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ،
فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة فيما بعد ، واستمرت المصادرات عمالة كما كانت ،
وازدادت أضعافا فوق ما كانت .

٦ وفيه جاءت الأخبار من البهنسا بأن قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود
ابن قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة قد قُتل ، هو وأخوه أبو بكر ، وكان السلطان
سليم شاه أرسله مع قضاة القضاة الثلاثة إلى السلطان طومان باى إلى البهنسا لما
٩ أرسل يطلب من ابن عثمان الأمان ، فكتب له أمانا وصورة حلف ، وأرسله على يدى
قضاة القضاة وأرسل صحبتهم أميرا من أمرائه وجماعة من العثمانية ، فلما وصلوا إلى
هناك فلم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ولا مكّنوه الأمراء من ذلك ، وثاروا
١٢ على جماعة ابن عثمان وقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا عبد السلام قاضى البهنسا ، وقتلوا
قاضى القضاة محمود ابن الشحنة ، ويقال كان سبب قتله أن أخاه أبا بكر كان عنده خفة
ورهج ، وكان عنده عترسة ومولحة رقبة ، فسمّوه الناس الوتر ، فزعموا أنه غمز على
١٥ شخص من المماليك الجراكسة كان مختفيا فى مكان فدلّ العثمانية عليه ، فهجموا على
ذلك المملوك وقطعوا رأسه ، (٩١ ب) فلما سافر قاضى القضاة محمود بن شحنة إلى
السلطان طومان باى بسبب الأمان الذى أرسله إليه ابن عثمان ، فسافر أبو بكر صحبة
١٨ أخيه محمود إلى البهنسا ، فثارت الأتراك على جماعة ابن عثمان وقتلوهم هناك ، فكان
للمملوك الذى قُتل أخ هناك ، فغمز بعض الناس على أبى بكر وقالوا له : هذا الذى
غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه . فوثب ذلك المملوك على أبى بكر وقطع رأسه هناك ،
٢١ فتعصّب له أخوه محمود ، فقُطع رأس الآخر ودُفنا هناك ، وهذا ما أشيع واستفاض
بين الناس عن أمرهما .

ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر ، أقام فى برّ الجيزة أياما ، وسيّر هناك

---

(٢) الذين : الذى .   (١٩) أخ : أخا .

وتفرّج على الأهرام وتعجّب من بنائها . — ولما كثر الاضطراب بالقاهرة ضيّقت
الناس أبوابها الكبار وجعلوها خوخا صغارا ، لايدخل منها فرس ولاراكب . — وفى
يوم الأربعاء سابع عشرة نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتق ، وضربوا للناس ٣
فلوسا جددا كل اثنين بدرهم ونصف ، وعليهم اسم سليم شاه ، فكانوا فى غاية الخفة،
فتضرّروا الناس منها إلى الغاية .

وفى أثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد بن الأشقر شيخ الشيوخ بخانقة ٦
سرياقوس ، وكان أصيلا عريقا من ذوى البيوت ، وكان والده القاضى محب الدين
ابن الأشقر ، ولى نظارة الجيش وكتابة السر بالديار المصرية ، وكان من أعيان
الرؤساء رحمة الله عليه ، فمات وله من العمر فوق الثمانين سنة ، وكان عنده لين جانب مع ٩
تواضع زائد ، وكان أسمر اللون جدا لأن أمه كانت جارية حبشية مستولدة ابن الأشقر .

ومن هنا نرجع إلى أخبار السلطان طومان باى ، فإنه لما تلاق مع عسكر ابن
عثمان على الناوات ، وقيل بوردان ، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم ١٢
القول على ذلك ، فلما انكسر توجه إلى نحو تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعى
وابن أخيه شُكر مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوطة ، فعزم حسن بن مرعى
وشُكر على السلطان طومان باى هناك ، وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان ١٥
طومان باى صداقة قديمة فأركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة ، ثم إن
السلطان طومان باى أحضر إلى (٢٩٢ آ) حسن بن مرعى وابن أخيه شُكر مصحفا
شريفا وحلّفهما عليه أنهما لا يخونانه ويغدرانه ولا يدلّسان عليه بشىء من أسباب ١٨
المسك ، فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك ، فطاب حينئذ قلب السلطان
طومان باى عند ذلك ونزل عنده ، فلما استقرّ عنده احتاطت به العربان من كل

(١–٢) ولما كثر ... ولا راكب : كتبها المؤلف فى الأصل على الهامش .
(٢) خوخا صغارا : خوخ صغار . (٩) الرؤساء : الرويسا . (١١) تلاق : تلاقا .
(١٨) لا يخونانه ويغدرانه ولا يدلسان : لا يخوناه ويغدراه ولا يدلسا .
(١٩) حينئذ : حين إذن .

جانب ، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك ، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجّهوا به إلى ابن عثمان . فلما رأى من كان مع الساطان ٣ طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرّقوا من حوله وتشتّتوا فى البلاد ، وتمّت الحيلة على السلطان طومان باى ، وخانه حسن بن مرعى بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن إليه ، وكان حسن بن مرعى من أعزّ أصحاب طومان ٦ باى ، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغورى ، وأقام عنه بما عليه من المال ، فلم يذكر له شيئا من ذلك ولا أثمر فيه الخير ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا تركنن إلى الخريف فماؤه مستوخم وهواؤه خطاف

٩ يمشى مع الأجسام مشى صديقها ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان كان عليه مثل لبس العرب الهوّارة زمط وعليه شاش وملوطة بأكمام كبار ، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه ١٢ قام له ثم عتبه ببعض كلمات ، فلما خرج من قدّامه توجّهوا به إلى خيمة فأقام بها وأحاطوا به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به ، فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببرّ إنبابة ، فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس ١٥ تكذّب بمسكه وطائفة تصدّق بذلك . فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد إلى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة ، وكان ذلك اليوم يوم الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر ، فعدّوا ١٨ بالسلطان طومان باى من برّ إنبابة إلى بولاق ، فطلعوا به من هناك وهو راكب على إكديش وهو فى الحديد ، وعليه لبس العرب الهوّارة كما تقدم . (٩٢ ب) وكان السلطان طومان باى لما قبضوا عليه أقام فى الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما ، ٢١ وكان أشيع أن ابن عثمان يرسل طومان باى إلى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره . وفى مدة إقامة ابن عثمان فى الوطاق فكانت العثمانية يطوفون فى المدينة نهارهم كله ، ومن بعد العصر يرجعون إلى الوطاق يباتون به .

(٢٢–٢٣) وفى مدة ... يباتون به : كتبها المؤلف فى الأصل على الهامش .

فلما بلغ ابن عثمان أن الناس لا تصدّق بمسك طومان باى لحقق من ذلك وعدّى به ، فلما طلع من بولاق شقّ من القس وقدّامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من على سوق مرجوش وشقّ من القاهرة ، فجعل يسلّم على الناس ٣ بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى ما يُصنع به . فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف ، فلما تحقّق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : ٦ اقروا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك . فلما وضعوا الخيّة فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين ٩ وهو يقع إلى الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس، وعلى جسده شاياه جوخ أحمر، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس جوخ أزرق .

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن ١٢ والأسف ، فإنه كان شابا حسن الشكل سنّه نحو أربع وأربعين سنة ، وكان شجاعا بطلا تصدّى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره ، ١٥ ووقع منه فى الحرب أمور ما لاتقع من الأبطال . وكان لما سافر عمّه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب ، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية فى مدة غيبة السلطان ، وكانت القاهرة فى ١٨ تلك الأيام فى غاية الأمن من الناسر والحريق وغير ذلك . فلما مات السلطان الغورى عمّه وتسلطن عوضه أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يُعمل فى أيام الغورى ، ولم يشوّش على أحد من الناس فى مدّة سلطنته (٩٣ آ) ولا يقبل فى أحد من الناس ٢١ مرافعة ولا صادر أحدا من المباشرين فى مدة سلطنته ، ولما وصل ابن عثمان إلى الشام وقصد أن يخرج إليه فشكى أن الخزائن خالية من الأموال، فقالوا له الأمراء وجماعة من

(٦) الذين : الذى .

الباشرين : افعل كما فعل السلطان الغورى وخُـذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر ، وخُذ على الرزق والإقطاعات خراج سنة . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ، وقال :
٣ ما أجمل هذا أن يكون فى صحيفتى .

وكان ملـكا حليما قليل الأذى كثير الخير ، وكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، فإنه تسلطن رابع عشر شهر رمضان ، وانـكسر
٦ وهرب تاسع عشرين ذى الحجة . وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنـكد وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا فى البـلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة ، وأقام ثلاثة أيام وهو معلّق على الباب حتى جافت رائحته ، وفى اليوم الثالث
٩ أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه ، وتوجّهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمّه ، فغسّلوه وكفّنوه وصلّوا عليه هناك ، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت أخباره كأنه لم يكن ، وقد قلت من أبيات :

١٢ لهفى على سلطان مصر كيف قد ... ولّى وزال كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة ... ولقـد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب فاعفُ عن عظائم جرمه ... واجعـل بجنّات النعيم له قرا

١٥ وكان شنْق السلطان طومان باى من نهـايات سعد سليم شاه بن عثمان ، ولم ينتجح أمره من بعد ذلك ، ولم يُسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولا عُلّقت رأس سلطان على باب زويلة قط ، ولم
١٨ يُعهد بمثل هذه الواقعة فى الزمن القديم ، ومن عهد شاه سوار لما كلبوه على باب زويلة لم يعلّق عليه من له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى .

ثم إن ابن عثمان لما شنق السلطان صفا له الوقت وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام
٢١ عليها . ثم أخذ فى أسباب التوجّه (٩٣ ب) إلى نحو بلاده إسطنبول ، فأشيع أنه

---

(٧) شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا : شدايدا ومحن وحروب وشرور وهجاج .
(١٤) فاعف : فاعفوا .

٧-الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها للدكتور عبد العزيز الشناوى. وهذا الكتاب عبارة عن موسوعة فى أربعة أجزاء أصدرتها مكتبة الانجلو المصرية وفيها تغنى الدكتور الشناوى بأمجاد الدولة العثمانية التى اجتاحت جيوشها الاسلامية أقاليم شاسعة فى جنوب شرق أوربا ووسطها وأحرزت باسم الاسلام انتصارات خاطفة وباهرة. وعلى الرغم من أن المؤلف ذكر فى مقدمة كتابه أن دراسته عبارة عن دراسة علمية موضوعية محايدة، فالحقيقة ان دراسته كانت بعيدة عن الحياد خاصة وأن عنوان الكتاب نفسه يؤكد ذلك وعلى أى حال فقد شملت هذه الدراسة جوانب عديدة تطرقت إلى التاريخ الحديث والمعاصر فى الشرق والغرب وإلى التاريخ الاسلامى فى العصور الوسطى، وإلى النظريات والنظم السياسية، وإلى القانون الدولى العام والعلاقات الدولية فضلا عن قواعد الشريعة الاسلامية من حيث تعدد الزوجات واقتناء الجوارى وعمليات الخصاء وغيرها.

الفصل السابع والاربعون

عيوب الدولة العثمانية (٥)

قضية الأرمن ومذابحهم (ب)

منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر

الصراع بين العثمانيين والروس على أرمينية العثمانية ١٩١٤ — ١٩١٥ :

وضع وزير الحربية أنور باشا فى اعتباره قيام مواجهة عسكرية بين القوات العثمانية والروسية فى شرقى الأناضول حيث توجد الولايات الست التى يسكنها الأرمن ، وذلك قبل نشوب الحرب العالمية الأولى التى دخلتها الدولة العثمانية فى ٥ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩١٤ منضمة إلى جانب دولتى الوسط ، ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية ضد دول الوفاق الثلاثى بريطانيا وفرنسا والروسيا . ولذلك أبدى أنور باشا اهتماماً ملحوظاً بالجبهة الشرقية فى الأناضول . ومن ثم انصرف إلى دعم الجيش الثالث المتمركز فى ولاية أرضروم نظراً لمركزها الاستراتيجى الهام الذى يسيطر على الجزء الشرقى من الأناضول . وكانت تغطى اختصاصات هذا الجيش مناطق شاسعة تمتد من شمال شرقى الأناضول عند بحيرة ڤان حتى البحر الأسود . ووضع أنور باشا فى اعتباره أيضاً احتمالا قوياً جداً فى أن ينضم فريق من الأرمن العثمانيين إلى القوات الروسية ، بينما يقوم فريق آخر منهم بثورة داخلية على الحكم العثمانى.

ولكن رأى أنور باشا قبل أن يلتحم الجيشان العثمانى والروسى فى الصدام المسلح الوشيك أن يبذل محاولة أخيرة ليكسب تأييد الرعايا الأرمن للدولة العثمانية ، فعقد اجتماعاً فى أرضروم شهده زعماء أرمن الروسيا وزعماء أرمن الولايات الست فى شرقى الأناضول . ولكن لم يحقق هذا الاجتماع الآمال التى

كان يرتجيها أنور باشا ، فإن الروسيا كانت قد وعدت الأرمن فى حالة انضمامهم إليها بإنشاء دولة أرمنية ذات حكم ذاتى لا تشمل فقط مناطق القوقاز الواقعة تحت حكم الروس ولكن تشمل أيضاً أجزاء غنية فى شرق الأناضول ، كما وعدتهم بمساعدات عسكرية روسية تستهدف استكمال أغراض الحرب الروسية العثمانية التى اشتعلت فى سنتى ١٨٧٦ و ١٨٧٧ ، وهى التى كانت ترمى إلى طرد المسلمين من رعايا الدولة العثمانية والذين لا يزالون يشكلون الغالبية من سكان هذه الأقاليم . وقد حاول الزعماء الأرمن فى الاجتماع تضليل أنور باشا فأبلغوه أن رغبتهم هى التزام الحيدة فى أثناء الحرب المرتقبة. ولكن كان واضحاً لأنور باشا أن عواطف زعماء الأرمن كانت متجهة نحو الروسيا.

تعلق آمال الأرمن بالروسيا :

والواقع أن عدداً كبيراً من زعماء الأرمن البارزين من رعايا الدولة العثمانية ، وفيهم عضو سابق فى مجلس المبعوثان العثمانى ، قد تسللوا إلى القوقاز لتنسيق تعاون الأرمن مع السلطات العسكرية الروسية ، وأبلغوها أنهم سيبذلون قصارى جهدهم لإحباط كل مخطط عدوانى عثمانى . وظل أنور باشا مقتنعاً برأيه أن فى مكنة القوات العثمانية التصدى لهذا المخطط الروسى الأرمنى التخريبى . ومضى فى إجراءاته للقيام بهجوم عام فى شتاء سنة ١٩١٤—١٩١٥. وفى ذات الوقت ذهب قيصر الروسيا نقولا الثانى إلى القوقاز ليضع بمشاورة الأرمن الخطط الحربية لضرب العثمانيين . وكان فى صحبة القيصر رئيس المكتب القومى الأرمنى فى تفليس . وتدفق الأرمن من ولايات شرق الأناضول لينخرطوا فى صفوف الجيش الروسى « وليسهموا بجهودهم وليبذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل نصرة القوات الروسية حتى يرفرف العلم الروسى خفاقاً عالياً فوق البوسفور والدردنيل » ، وجاء فى أقوال زعماء الأرمن « دع ، يا صاحب الجلالة القيصر ، الشعوب المتبقية تحت نير الحكم العثمانى تسترد حريتها ، ودع الشعب الأرمنى الخاضع للدولة العثمانية والذى عاش متمسكاً بالعقيدة المسيحية يبعث من جديد ويعيش حياة جديدة حرة تحت حماية الروسيا » (١) .

(١) Hovannisian Richard ; Armenia on the Road to Independence. Berkeley and Los Angeles, 1967, p. 45.

وعاد القيصر إلى سان بطرسبرج مزهواً معتقداً أنه قد آن الأوان لكى يدخل على رأس قواته المظفرة إلى إستانبول ويقضى على الدولة العثمانية القضاء المبرم.

انتقام العثمانيين من الأرمن :

بدأ الروس عدوانهم باجتياز الحدود العثمانية فى شرقى الأناضول فى مستهل شهر نوفمبر – تشرين ثان – سنة ١٩١٤ ؛ وكان الجيش الروسى يضم فى صفوفه قوة من المتطوعين الأرمن من إقليم القوقاز وقوة أخرى من الأرمن العثمانيين الذين كانوا قد نجحوا فى التسلل عبر الحدود إلى الأراضى الروسية وبذلك تحقق الشطر الأول من تنبؤات أنور باشا ، واستطاع العثمانيون بعد بضعة أيام وقف الهجوم الروسى ورد القوات الروسية إلى الخلف . وفى ٢١ من ديسمبر – كانون أول – تولى أنور باشا قيادة الجيش الثالث فى هجوم مضاد مستهدفاً قطع خطوط مواصلات العدو بين القوقاز وقاعدة الروس الرئيسية فى قارص واحتلالها مع أردهان وباطوم كخطوة أولى لغزو عثمانى يستهدف منطقة القوقاز . ولكنه منى بهزيمة فادحة عند ساريكامس(١) Sasrikams وهى مدينة تقع على مفرق الطريق الرئيسى بين قارص والقوقاز فى يناير – كانون ثان – سنة ١٩١٥ ، وفقد أكثر من ثلاثة أرباع قواته سواء فى المعركة أو فى تقهقر هذه القوات ، وهبطت الروح المعنوية للعثمانيين فى الجبهة الروسية ونالت الهزيمة من سمعتهم العسكرية ، وكانت نتيجة هذه الكارثة العسكرية أن ترك أنور باشا فى منتصف شهر يناير – كانون أول – سنة ١٩١٥ قيادة القوات المتبقية من الجيش الثالث إلى قائد آخر وعاد إلى القيادة العامة للقوات المسلحة فى إستانبول ، وكف بعد هذه الكارثة عن قيادة تشكيلات مقاتلة فى ميادين الحرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى . وبعد الهزيمة العثمانية الساحقة فى ساريكامس انفتح الطريق أمام الروس للقيام بهجوم آخر على شرقى الأناضول . وزاد من حرج مركز العثمانيين أن هذا الهجوم الروسى الجديد المضاد قد صحبته ثورة داخلية عارمة قام بها الأرمن فى ولايات الأناضول ضد السلطات العثمانية . وبذلك تحقق الشطر الثانى من تنبؤات أنور باشا . ولكن اشتراك الأرمن فى الجيش الروسى

(١) يطلق على هذا الإسم اللفظ التركى قصارى قمش ، ه هو إقليم فى جبال أرمينية .

الزاحف على شرق الأناضول واندلاع الثورة الأرمنية فى الولايات الست قد عادا بعواقب وخيمة على الأرمن ، إذ ألهب هذان الحادثان شعور العثمانيين المسلمين .

من أسباب انتصار الروس على العثمانيين فى شرق الأناضول سنة ١٩١٥ :

وكان من أسباب انتصار الروس فى حرب سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ البراعة التى أظهرها قيصر الروسيا نقولا الثانى فى تنظيم صفوف قواته ، فقد أصدر أوامره بإخلاء مناطق الحدود الروسية العثمانية من الأرمن . وبذلك توفرت للقادة الروس حرية الحركة والالتفاف حول العثمانيين فى أثناء سير المعارك . وغادر الأرمن عن طيب خاطر أماكن تجمعاتهم يحدوهم الأمل فى أن انتصار الروس لا يساعدهم فقط على العودة سريعاً إلى ديارهم والاستقرار فيها باطمئنان ، ولكن ليحتلوا أيضاً المناطق العثمانية التى يستقرون فيها والواقعة على الحدود وداخلها .

الترحيل الإجبارى للأرمن فى شرق الأناضول إلى العراق :

استعد أنور باشا للهجوم الروسى الجديد . وأعلن الزعماء الأرمن صراحة أنهم يقفون إلى جانب الروس ، وأنهم لن يتخلوا قيد أنملة عن هذا المبدأ . ولم يكن فى استطاعة أنور التمييز بين الأرمن الذين سوف ينضمون إلى القوات الروسية استجابة لرغبة زعمائهم والأرمن الذين يظلون على ولائهم للدولة العثمانية . ولذلك اتخذ أنور إجراءاً وقائياً تطلبته الضرورة الحربية لتأمين سلامة القوات العثمانية وهى تخوض حرباً شرسة ضد قوات الغزو الروسى لمناطق شرقى الأناضول خشية أن يعمد الأرمن ، وقد أعلنت جهاراً جموع غفيرة منهم تعاطفهم مع الروسيا ، إلى ضرب القوات العثمانية من الخلف ، فتتعرض لحرب إبادة من القوات الروسية من الأمام وإلى مذابح أرمنية من الخلف . ولذلك صدرت الأوامر فى منتصف شهر مايو – آيار – سنة ١٩١٥ بإخلاء ولايات فان ، وبتليس ، وأرضروم من سكانها الأرمن تجنباً لأى عمليات تخريبية قد يقومون بها فى مؤخرة القوات العثمانية بهدف تدمير عتادها وذخائرها ومؤنها ، على أن يتم ترحيل هؤلاء الأرمن إلى منطقة الموصل فى شمالى العراق

حيث أعدت لهم معسكرات يقيمون فيها بصفة موقتة حتى تضع الحرب أوزارها. وبالإضافة إلى ذلك تقرر ترحيل الأرمن المقيمين فى المناطق الريفية، وليس فى المدن، فى منطقة كيليكيا فى جنوب شرق الأناضول وكذلك أرمن شمالى سورية إلى المناطق الوسطى فى سورية لنفس السبب. وصدرت أوامر للقوات العثمانية فى جميع هذه المناطق بيسط حمايتها على الأرمن من هجمات البدو والأكراد وغيرهم من المسلمين حتى لا يعمدوا إلى الانتقام من الأرمن لأعمالهم الإرهابية التى سبق أن ارتكبوها ضد المسلمين. وتضمنت هذه التعليمات أيضاً تزويد الأرمن بكميات كافية من الأطعمة والسلع الأخرى لمواجهة متطلباتهم سواء فى أثناء ترحيلهم أو بعد استقرارهم فى مهاجرهم الجديدة. وصدر قانون بتشكيل لجنة خاصة تقوم بتسجيل أمتعة وممتلكات الأرمن المرحلين وبيعها فى مزاد علنى بأسعار معتدلة ورصد حصيلة هذه المبيعات فى حساب خاص. وعلى المسلمين الذين يريدون شغل المساكن والمحلات التجارية التى هجرها أصحابها الأرمن أن يستخدموها كمستأجرين فقط، وأن يخلوا هذه الأماكن بمجرد عودة أصحابها الأصليين، وأن يقوم الجيش بحراسة وحماية الأرمن المرحلين(١).

مناقشة مسألة ذبح الأرمن سنة ١٩١٥ :

وجد المؤرخون والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية فى حركة ترحيل الأرمن من شرق الأناضول إلى العراق فرصة ذهبية لطمس الحقائق وتشويه سمعة العثمانيين، فوصفوها بأنها كانت مقتلة جماعية أو مذبحة للأرمن قام بها العثمانيون، وقرروا أن أكثر من مليون أرمنى قد أزهقت أرواحهم بغير ذنب إلا أنهم مسيحيون. ذكر ميلر أن السلطات العثمانية قد أعادت فى سنة ١٩١٥ تنظيم مذابح للأرمن على غرار المذابح التى حدثت من قبل بعشرين عاماً (فى سنة ١٨٩٥) والتى هزت الضمير الأوروبى هزاً عنيفاً. ومضى هذا المؤرخ المتحامل على الدولة العثمانية يقول إن السفير الأمريكى فى إستانبول قد

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw ; op. cit., vol, 2, p. 315. (١)

وصف مقتلة الأرمن سنة ١٩١٥ بأنها مذبحة شعب(١) . ونشرت الحكومة البريطانية سجلا ضخماً لهذه المذابح(٢)، وجاء فيه أنه فى أثناء عمليات الترحيل سنة ١٩١٥ لقى ثلث الأرمن العثمانيين مصرعهم ، أى حوالى ٦٠٠,٠٠٠ أرمنى ، والثلث الثانى عاش بعد الترحيل ، والثلث الأخير استطاع الهرب سواء فى أثناء عمليات الترحيل أو من المعسكرات التى أقيمت لهم فى منطقة الموصل(٣) . وهذه الأقوال من قبيل المبالغة والتحامل على الدولة العثمانية ، لأن حوادث الموت ، ولا نقول حوادث القتل أو الذبح ، إنما وقعت فى أثناء عمليات ترحيل الأرمن وهم يجتازون سلسلة الجبال الجنوبية فى هضبة الأناضول الوعرة وهم فى طريقهم إلى منطقة الموصل(٤). وتناسى هؤلاء المغرضون أن ترحيل الأرمن كان ضرورة حربية لتأمين سلامة القوات العثمانية وهى تخوض معركة ضارية ضد الروسيا على مقربة من مناطق تجمعات الأرمن بل وفى هذه المناطق . وتغافلوا عن الأوامر التى أصدرها العثمانيون بتوفير الرعاية الكاملة للأرمن المرحلين . وتناسوا أن الروس كانوا أسبق من العثمانيين فى إخلاء ساحات الحرب والمناطق القريبة منها فى الروسيا من الأرمن . فلم يكن أنور باشا هو أول من استن هذا الأسلوب الأمنى . وقد أصبحت هذه المقتلة المزعومة حقيقة لا تقبل نقاشاً فى أذهان الكثيرين عن وحشية العثمانيين وتخلف الإسلام عن المسيحية . وغدا هذا الزعم بحدوث المذابح فى سنة ١٩١٥ يروى للأجيال الصاعدة من الأرمن، جيلا بعد جيل ، حتى غدا الإرهابيون الأرمن ينظمون المظاهرات الصاخبة ويرتكبون جرائم الاغتيالات السياسية كل عام فى تاريخ وقوع المذابح المزعومة كى تظل ذكراها حية فى وجدان شبابهم وحتى يزرعوا الحقد والموجدة فى قلوبهم ضد أتراك الجمهورية التركية باعتبارهم ورثة وسلالة العثمانيين .

---

(١) Miller W. ; op. cit., p. 538.

(٢) His Majesty's Britannic Government, Parliamentary Papers ; The Treatment of Armenians in the Ottoman Empire 1915—1916. London. 1916.

(٣) Loc. cit.

(٤) Kruger K., op. cit., p. 129.

وقد تصدى أحد المؤرخين الأمريكيين وزوجته Stanford J. Shaw and Ezel kural Shaw لتفنيد ادعاءات الأرمن ومن اقتفى نهجهم من مؤرخين وباحثين ، واستقيا مادتهما العلمية من الوثائق المحفوظه فى دار المحفوظات التاريخية فى إستانبول . وكنت حريصاً فى أثناء زياراتى المكرورة لهذه الدار على الاطلاع على الوثائق التى أشارا إليها ، فتبين لى أن كلا منهما كان أميناً فى عرض المادة العلمية ، وكان كل منهما يمثل المؤرخ الموضوعى المحايد . قالا إن الزعم بأن أكثر من مليون أرمنى قد قتلوا فى حركة الترحيل سنة ١٩١٥ قد بنى على أساس أن عدد السكان الأرمن قبل الحرب العالمية الأولى كان يصل إلى مليونين ونصف مليون . ولكن أثبتت الاحصائيات العثمانية الرسمية أن تعداد الأرمن فى الدولة العثمانية بلغ قبل الحرب مليوناً وثلاثمائة ألفاً ، وأن نصف هذا العدد كان يقيم فى المناطق التى تأثرت بالحرب . ولكن إذا وضع فى الاعتبار أن عدد الأرمن من سكان المدن والذين سمح لهم بالبقاء فيها ، لم يزد عدد الأرمن المرحلين عن ٤٠٠,٠٠٠ نسمة كان من بينهم عدد من الإرهابيين والثوار جئ بهم من المدن التى فرض عليها الحصار عند بداية الحرب . وبالإضافة إلى ذلك كان قد هرب تباعاً ما يقرب من نصف مليون أرمنى إلى القوقاز وإلى دول أخرى فى أثناء المدة المتبقية من الحرب ، وأثبتت الاحصائيات أيضاً أن حوالى ١٠٠ر٠٠٠ أرمنى ظلوا وعاشوا فى الدولة العثمانية بعد الحرب ؛ وأن جموعاً من الأرمن يتراوح عددهم بين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ قد هاجروا إلى دول أوروبا الغربية وإلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فتكون المحصلة النهائية هى أن مائتى ألف أرمنى قد ماتوا نتيجة عدة عوامل منها انتشار الأوبئة والمجاعات والعمليات الحربية التى دارت رحاها بين القوات العثمانية والروسية فى أثناء بدء ترحيل الأرمن إلى العراق ، وهى نفس الظروف والعوامل التى مات بسببها وخلالها مليونان من المسلمين فى نفس الوقت . وقد أثبت الفحص الدقيق للسجلات السرية الخاصة بالوزارة العثمانية فى ذلك الوقت أنه لم يصدر أحد من رجال الاتحاد والترقى أو أى مسئول آخر فى الحكومة المركزية فى إستانبول أوامر بقتل الأرمن ، بل على النقيض كانت تصدر الأوامر إلى القوات الإقليمية بمنع الغارات ومنع الاضطرابات إلى التى تؤدى إزهاق الأرواح(١).

---

(١) Stanford J. Shaw and Ezel Koral Shaw; op. cit, vol. 2 p. 316.

وفى شهر أبريل – نيسان – سنة ١٩١٥ . قبل صدور الأوامر العثمانية بترحيل الأرمن إلى العراق ، قام فريق من جماعة داشناكس Dashnaks الإرهابية ، من بين أرمن الروسيا ، بإشعال ثورة فى مدينة فان . وكان عدد سكانها الأرمن يبلغ ٣٣,٧٨٩ نسمة ويشكلون نسبة مئوية قدرها ٤٢,٣ من مجموع سكانها ، وهذه النسبة كانت تشكل أكبر كثافة سكانية أرمنية فى أى مدينة فى الدولة العثمانية .

وقد حاول الزعماء الأرمن المحليون أن يكبحوا جماح مواطنيهم فى شرقى الأناضول ويفرضوا عليهم قيوداً لأنهم كانوا يعلمون مغبة اشتباكهم مع الأغلبية الإسلامية ، وأنهم قد يتعرضون لصراع حربى مدمر وطويل المدى إذا اشتبكوا مع المسلمين . ولكنهم غلبوا على أمرهم نتيجة تسلل الثوار الأرمن من الشمال وعملاء الروسيا من القوقاز ؛ وقد وعدوهم بالمساعدات العسكرية الروسية إذا أظهروا ولاءهم لقيصر الروسيا بإسهامهم فى طرد المسلمين من شرقى الأناضول .

تعليق أحد خبراء الشرق الأوسط على مذابح الأرمن سنة ١٩١٥ :

يعلق كروجر أحد خبراء شئون الشرق الأوسط تعليقاً سياسياً على مذابح الأرمن فى أعقاب الصدام المسلح بين القوات الروسية الأرمنية وبين القوات العثمانية فى سنتى ١٩١٤ ، ١٩١٥ بقوله إنه لم يكن فى مقدور أحد من الأصدقاء المخلصين للدولة العثمانية تبرير تطرفها فى مسألة الأرمن . ولكن يجب الاعتراف بأن الدولة العثمانية فى صراعها من أجل الإبقاء على وجودها القومى على كل جبهة من جبهات القتال فى الحرب العالمية الأولى كان العثمانيون يشعرون بالقلق والسخط ، ومن ثم كانت تضحيتهم بأرواح الأرمن إحدى النتائج المحزنة وغير المباشرة للاستعمار الروسى . وكان يجب أن تكون مأساة الأرمن فى المرحلة الأولى للحرب العالمية تحذيراً كافياً للقادة الأرمن فى الروسيا وأوروبا الغربية وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن تكون هذه المأساة مدعاة لكبح جماحهم فى اعتناق الفكرة المبالغ فيها والخاصة باسترداد الحقوق التاريخية للشعب الأرمنى . ولكن لسوء حظ هذا الجنس التعس أن قادته لم يستوعبوا

هذه الحقيقة . ومن الدروس المستقاة من مذابح الأرمن أنه وقت التوقيع على معاهدة سيفر فى ١٠ من أغسطس – آب – سنة ١٩٢٠ لم تكن الروسيا قد منيت بالهزيمة فحسب ، بل انسحبت انسحاباً كلياً من الولايات العثمانية التى كانت تحتلها ومن إقليم القوقاز . وليس هناك من عذر للأرمن فى أن الروسيا هى التى أوعزت إليهم باعتناق ادعاءاتهم القومية(١) .

ذبح المسلمين فى ڤان وإنشاء دولة أرمنية فيها :

بدأ الجيش الروسى فى القوقاز شن هجوم على ولاية ڤان – إحدى الولايات الست فى شرق الأناضول – وكانت بين صفوف الجيش قوات كبيرة من الأرمن المتطوعين وقد جمعوا من اللاجئين فى الأناضول ومن المقيمين المحليين فى القوقاز . وقد تحركت القوات الروسية الأرمنية المهاجمة من ولاية إريڤان فى ٢٨ من أبريل – نيسان – سنة ١٩١٥ متجهة إلى ڤان . ولدى وصولها إليها فى ١٤ من مايو – آيار – سنة ١٩١٥ نظمت ونفذت عمليات مذابح قام بها الأرمن للمسلمين خلال اليومين المتتاليين قبل أن ترتد الحامية العثمانية إلى الجانب الجنوبى من بحيرة ڤان . وأقام الروس دولة أرمنية فى ولاية ڤان تحت حماية الروسيا . وبات واضحاً أنه ، بعد إعلان قيام الدولة الأرمنية الجديدة ، وبعد اختفاء الأهالى المسلمين فى المنطقة والذين ذبحوا أو نجوا من المذابح بهروبهم من المنطقة ، من الممكن أن تقيم الدولة الأرمنية الجديدة دعائمها وأجهزتها الحكومية فى أحد مراكز الحضارة الأرمنية القديمة ، ونظمت قوة عسكرية أرمنية «لطرد العثمانيين من كل الساحل الجنوبى لبحيرة ڤان تمهيداً لغزو روسى لولاية بتليس متفق عليه من قبل»(٢) . وتدفق على الدولة الأرمنية الجديدة الآلاف من الأرمن جاءوا من موش ومن مراكز الشرق توجد فيها تجمعات أرمنية ، كما تسلل إلى هذه الدولة عدد كبير من الأرمن المرحلين وهم فى طريقهم إلى العراق استطاعوا التخلف عن طوابير الترحيل وهى فى مسيرتها . وفى منتصف شهر يوليو – تموز –

(١) Kruger K., op. cit., pp. 129—130.

(٢) Hovannisian Richard ; op. cit., p. 56.

سنة ١٩١٥ كان هناك ما يقرب من ٢٥٠,٠٠٠ أرمنى ازدحمت بهم منطقة ڤان التى لم تكن تأوى وتطعم أكثر من ٥٠,٠٠٠ نسمة من المسلمين وغير المسلمين .

ومع ذلك استطاعت التعزيزات العسكرية العثمانية التى أرسلت فى ذات الشهر رد الجيش الروسى الأرمنى على أعقابه . وكانت القوات العثمانية تضم فى صفوفها أعداداً وفيرة من الأرمن الذين خشوا أن يوقع بهم العثمانيون أقصى العقوبات عن حوادث القتل التى ارتكبوها . وهى المذابح التى جعلت من الممكن قيام دولة أرمنية جديدة ولكنها لم تعش أمداً طويلا ، إذ سرعان ما تبخرت آمال الأرمن والروس وذهبت أدراج الرياح بعد الهجوم الذى قامت به القوات العثمانية بقيادة جودت بك الذى استطاع تحرير ڤان من الروس والأرمن وانهارت الدولة الأرمنية الجديدة ، وولت القوات الروسية الأدبار وهرب فى أثرها مائتا ألف لاجىء . وقد تعقب هؤلاء وأولئك فى ارتدادهم الأكراد الذين كانوا يخرجون من مخابئهم ويباغتون المرتدين بغارات عنيفة فتركوا متاعهم وهم يهربون طلباً للنجاة من الأكراد ، واتجهوا نحو القوقاز حيث احتشدوا فيها(١) ، وكان معهم نحو أربعين ألف أرمنى مات معظمهم فى أثناء هروبهم . وكان اللاجئون الذين ذكر عددهم يشمل بطبيعة الحال جميع الأرمن من سكان الولايات الأرمنية فى شرقى الأناضول الذين لم يتعرضوا لعمليات الترحيل التى قامت بها السلطات العثمانية . وقد ماتوا فى أثناء مرافقتهم للجيش الروسى الذى لقى الهزيمة وتراجع إلى القوقاز . ولم يكن موتهم نتيجة جهود قام بها العثمانيون لتتبعهم (٢) .

الروس يعاودون غزو شرقى الأناضول :

قامت السياسة الروسية على إنهاك القوات العثمانية حتى لا تتيح لها فرصة للاسترخاء العسكرى فى جبهة الأناضول . والعثمانيون من ناحية أخرى خصوم محاربون أشداء يدركون تماماً المطامع الروسية فى بلادهم ولا يترددون فى

---

(١) Loc. cit.,

(٢) Loc. cit.. pp.53-58

انتهاز فرصة لإلحاق هزائم بالروسيا كلما وجدوا إليها سبيلا . وفى أقصى حدود الدولة العثمانية فى الأناضول توجد ولايات ست أصبحت بحكم موقعها الجغرافى المسرح الأول للعمليات الحربية بين الدولتين المتصارعتين ، ويستوطن الأرمن هذه الولايات ، وهم وإن كانوا لا يشكلون أغلبية سكانية فيها ؛ كانوا يرومون إنشاء دولة مستقلة لهم فيها أو دولة ذات حكم ذاتى . واستحال عليهم تحقيق أمانيهم القومية بسبب تمسك الدولة العثمانية بمبدأ تماسك أقاليمها . واستمال الروس إليهم الأرمن المقيمين فى الروسيا ، بذلوا لهم الوعود بمساعدتهم على تحقيق مطلبهم إذا انضموا إلى القوات الروسية فى زحفها على الأناضول . واتسم موقف الأرمن بالتذبذب فى الولاء للدولة العثمانية حيناً وللروسيا أحياناً . وقد تبادلت هاتان الدولتان الهزيمة والانتصار فى حرب الأناضول فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ على النحو الذى مر بنا . ولما أخفق الروس فى تحقيق انتصار حاسم فى سنة ١٩١٥ أصروا على معاودة غزو شرق الأناضول تعويضاً لهم عن خسائرهم الفادحة فى الجبهة الأوروبية (١) وقضوا بقية عام ١٩١٥ يستكملون استعداداتهم ويستدرجون الأرمن للوقوف حربياً إلى جانبهم مصورين أنفسهم بأنهم دعاة الحرية ومحققو آمال الأرمن فى الاستقلال . وقد بدأ الغزو الروسى لشرق الأناضول فى فبراير — شباط — سنة ١٩١٦ .

احتلال الروس شرق الأناضول فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧ :

على الرغم من انتصار العثمانيين على البريطانيين فى رفع الحصار عن كوت أو كوت الأمارة كما كانت تسمى وقتذاك(٢) ، وهى تقع على نهر دجلة جنوبى بغداد ، فى ٢٩ من أبريل — نيسان — سنة ١٩١٦ . لم يكن فى مقدورهم فى ذلك الوقت ضرب الثورة العربية التى قادها شريف مكة المكرمة وأميرها الحسين بن على فى ٥ من يونيو — حزيران — عام ١٩١٦ ، لأن القوات الروسية قامت بحملة مزدوجة صوب الولايات الست فى شرق الأناضول منذ مطلع

---

(١) انظر فى هذه الدراسة ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢) يرد ذكرها فى بعض المراجع كوت العمارة .

سنة ١٩١٦ . اتجهت القوة الأولى جنوباً حول بحيرة ثان وفى اتجاه موش ، بينما اتجهت القوة الثانية شمالا وتقدمت مباشرة من قارص نحو أرضروم التى استولت عليها فى ١٦ من فبراير – شباط – سنة ١٩١٦ . وقد تبع هذا الهجوم المزدوج أسوأ فاجعة ومذبحة كبرى فى الحرب . إذ اضطر أكثر من مليون مسلم من الفلاحين ورجال القبائل إلى الهرب مما قطع الطريق أمام آلاف آخرين فى محاولتهم اللحاق بالجيش العثمانى فى تقهقره نحو إرزنكان Erzincan وقد عهد أنور باشا وزير الحربية إلى أحمد عزت باشا ، وهو وزير حربية سابق ، بتنظيم قوة تقوم بهجوم مضاد على القوات الروسية . فاستعان الأخير بالجنود العثمانيين الذين تصادفت عودتهم فى ذلك الوقت بعد انتصارهم فى معركة غاليبولى (١) . ولكن أعاق جهوده لاسترداد أرضروم نقص الذخائر والمواد التموينية . وكان كثير من الفلاحين الأتراك قد تعرضوا لعمليات الذبح من جانب القوات الروسية أو الأرمن المنضمين إليها أو من الأرمن المحليين ، بينما هرب بعضهم الآخر من وجه القوات الروسية المهاجمة . واستمر الروس فى تقدمهم واكتسحوا طرابزون فى ١٨ من أبريل – نيسان – سنة ١٩١٦ واستولوا على إرزنكان فى أواخر يوليو – تموز – ، وقطعوا الطريق بين سيڤاس (سيواس) وأرضروم قبل أن يحل عليهم فصل الشتاء حيث تتكاثر الثلوج وتعرقل العمليات الحربية الخاطفة .

أما فى الجنوب فقد كان العثمانيون أوفر حظاً ، إذ استطاعوا أن ينالوا من القوات الروسية منالا عظيماً حول بحيرة ڤان على الرغم من أنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد . وأمضى الروس شتاء ١٩١٦ – ١٩١٧ يستعدون لهجوم عام مضاد فى اتجاه خاربوت وسيواس وعلى الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، واستأنفوا هجومهم على القوات العثمانية بحلول فصل الربيع سنة ١٩١٧ ، واستمرت الحرب سجالا بين القوات المتحاربة . ولكن لم يستطع العثمانيون طرد الروس من شرقى الأناضول ، واستقرت دعائم الاحتلال الروسى

(١) أنظر فى هذه الدراسة ج ١ ، ص ص ٢٣٥ – ٢٤١ .

(٢) Stanford J. Shaw ad Ezel Kural Shaw vol. 2, pp. 3X2—323

لهذه المنطقة . ولم يستمر هذا الاحتلال إلا شهوراً ذات عدد ، فسرعان ما انسحبت القوات الروسية من هذه المناطق بسبب قيام الثورة البولشفيكية فى عام ١٩١٧ كما سنوضح بعد حين .

موقف الأرمن من الغزو الروسى لشرق الأناضول ١٩١٦ – ١٩١٧ :

ابتهج الأرمن سواء من كانوا فى الأناضول أو الروسيا أو فى مهاجرهم بالغزو الروسى لشرق الأناضول ، ونظموا جمعيات تتولى تدريب كتائب أرمنية وإرسالها إلى الجبهة حيث انضمت إلى القوات الروسية الزاحفة ابتغاء الإسهام فى طرد العثمانيين من شرق الأناضول وإنشاء دولة أرمنية مستقلة أو على أقل تقدير يتقرر لها نظام الحكم الذاتى . ويلاحظ أنه كانت فى القوات الروسية أيضاً كتائب أرمنية تضم أرمن الروسيا وكان أفرادها ضباطاً وجنوداً وإداريين خدموا بكل إخلاص وتحمس بل وشراسة معاً القضية المشتركة أملا فى أن يكون الغزو الروسى للولايات الست فى شرق الأناضول سبباً فى تحريرها من الحكم العثمانى . ولئن كانت الحكومة الروسية قد شعرت بارتياح لانضمام الكتائب الأرمنية على اختلاف جنسياتها إلى القوات الروسية إلا أنها كانت تشعر بقلق لاحتمال تكوين الدولة الأرمنية المبتغاة فى شرق الأناضول . وكان يعترى الحكومة العثمانية نفس القلق وهى تواجه احتمالين كلاهما شر : الغزو الروسى أو قيام الدولة الأرمنية .

وتمشياً مع الاحتمالات الجديدة الناجمة عن موقف الأرمن الإيجابى فى الحرب الروسية العثمانية سنتى ١٩١٦ - ١٩١٧ ، لم يذكر شئ ما عن أى التزام من جانب الحكومة الروسية بمنح الأرمن حكماً ذاتياً أو استقلالا تاماً فى المحادثات السرية التى جرت بين الروسيا وكل من بريطانيا وفرنسا بشأن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية فى آسيا ، وهو التقسيم الذى كان مقرراً تنفيذه عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . وتبادلت الحكومات البريطانية والفرنسية والروسية مذكرات سياسية مؤرخة فى ١٣ و ٢٦ من أبريل – نيسان – سنة ١٩١٦ و ١٠ و ٢٣ من مايو – آيار – عام ١٩١٦ و ٢٣ من أكتوبر

– تشرين أول – سنة ١٩١٦ وعرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاق سايكس بيكو Sykes Picot Agreement وقد ظفرت الروسيا بمقتضاها بوعد بالحصول على إستانبول مع بضعة أميال فى الداخل على جانبى البوسفور وشريحة ضخمة تضم أربع ولايات كاملة تجاور الحدود بين الدولة العثمانية والروسيا ، وهى أرضروم ، وطرابيزون ، وفان ، وبتليس ، فضلا عن بعض الأقاليم الواقعة بين البحر الأسود وإقليم الموصل – أرامبا – وسنتكلم عن هذا الاتفاق بشئ من التفصيل عند تعرضنا لحكم الطغاة الثلاثة فى موطن قادم فى هذه الدراسة .

قلق الرأى العام العثمانى الإسلامى وزيارة إمبراطور ألمانيا لإستانبول لرفع الروح المعنوية :

وفى أثناء الغزو الروسى للولايات العثمانية فى شرقى الأناضول ، والتى تشكل أرمينية العثمانية ، حدثت مضاعفات داخلية كانت لها آثارها السيئة فى الدوائر الرسمية فى الباب العالى وفى الرأى العام العثمانى المسلم . اقترن الغزو الروسى بالتجاء السلطات العثمانية إلى تجنيد المزارعين فى هذه المناطق . ثم انتشر وباء التيفوس بين القوات المتحاربة ، وجاء موسم هطول الأمطار فى الأناضول شحيحاً فشرقت الأراضى الزراعية . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى نقص خطير فى الإنتاج الزراعى وبالتالى فى المواد التموينية شعر به سكان إستانبول والمدن الكبرى والصغرى على السواء . ثم جاءت الهزائم العثمانية فى شرقى الأناضول، ومن قبلها إخفاق الهجومين العثمانيين بقيادة جمال باشا قائد الجيش الرابع على حدود مصر الشرقية فى سنتى ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، وتطور سير الحرب البريطانية فى العراق لغير مصلحة العثمانيين إذ استرجعت القوات البريطانية كوت الإمارة واستولت على بغداد فى ١١ من مارس – آذار – سنة ١٩١٧ ، وانتشرت بعد سقوط بغداد فى أيديها شرقاً وغرباً وشمالا (١) ، وهزائم الألمان فى الجبهة الغربية ، ودخول

(١) محمد طاهر العمرى : تاريخ مقدرات العراق السياسية ، مطبعة عيسى محفوظ ، الموصل ، ١٩٢٤ ، ص ٨٩ وما بعدها فى الفصل الثالث .
وانظر أيضاً السيد طه الهاشمى : حروب الترك ، بغداد ، سنة ١٩٣٦

الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب بريطانيا وحليفاتها فى أبريل – نيسان – سنة ١٩١٧ . كل أولئك أدى إلى مزيد من سخط الجماهير العثمانية المسلمة لم تخفف منه شيئاً زيارة الإمبراطور الألمانى ولهلم الثانى لإستانبول فى سبتمبر – أيلول – سنة ١٩١٧ وقيام ولى العهد الأمير يوسف عز الدين أفندى برد الزيارة له فى ألمانيا . وعلى الرغم من صرامة الرقابة العثمانية والنشاط المكثف لأجهزة المباحث أخذت الجماهير تتساءل عن الأسباب التى دفعت حكومة الطغاة إلى الزج بالدولة فى حرب مدمرة طويلة المدى واسعة النطاق . ولم يستطع أحد من المسئولين العثمانيين الإجابة على تساؤلات الجماهير وتهدئة روعها . وفى وسط هذا الظلام ظهر بصيص من الأمل بقيام الثورة البولشيفيكية فى الروسيا وما أعقبها من انسحابها من الحرب وعقد معاهدة مع الدولة العثمانية .

الثورة الروسية وأثرها على قضية الأرمن :

قامت فى الروسيا ثورة بدأت فى ٨ من مارس – آذار – سنة ١٩١٧ تنادى إليها الشعب الروسى ضد المعاناة من الجوع والشقاء وسوء توزيع موارد البلاد ومنتجاتها وطرق القمع الوحشية والكوارث الحربية الرهيبة ممثلة فى أربعة ملايين من القتلى والجرحى . وأرغم القيصر نقولا الثانى (١٨٨٦ – ١٩١٨) (١) على النزول عن العرش فى ١٥ من ذات الشهر . وانتخبت حكومة مؤقتة برياسة ليڤوف Levov وكان أبرز أعضائها إسكندر كرنسكى exander Alexander Kerensky وهو خطيب مجلس عمال بتروجراد ووكيل لجنة السوفيت المركزية التنفيذية . وحاولت هذه الحكومة أن تدير دفة الحرب بعد سقوط القيصر . وصمدت الجبهة الروسية بعض الوقت ولكن الثورة أوهنت عزائم الجنود . وتنبأ كرنسكى بأن الروسيا قد تمزقت ، وأنها لن تستطيع المضى فى الحرب بعد نهاية عام ١٩١٧ ، ولكن جاءت النهاية أسبق مما توقعه . وتعرض الجيش الروسى

(١) تولى عرش الروسيا من سنة ١٨٩٤ خلفاً لإسكندر الثالث حتى إندلاع الثورة فى سنة ١٩١٧

لهزيمة أتمة فى أغسطس — آب — من ذات السنة . وكانت قد تألفت فى جميع أرجاء البلاد مجالس الجنود والعمال Soviets ، ثم تمثلت هذه المجالس جميعاً فى أوائل أبريل — نيسان — فى مؤتمر مركزى واتخذ بتروجراد مقراً له. وتمكن البولشيفيك (١) Bolshevick فى مؤتمر السوفيت من استمالة الجماهير إلى جانبهم . وكان برنامج الحزب الذى وضعه البولشيفيك شديد الغواية ، تضمن المبادئ الآتية : توفير الطعام للجميع ، إبرام صلح عاجل ، توزيع الأراضى على الفلاحين ، إقامة ديكتاتورية عمالية ، سحق الطبقتين الغنية والوسطى . وكان شعار الحزب البولشيفيكى « لافتوح جديدة ، ولاغرامات حربية » ومضى هذا الحزب يضم الجماهير إليه ، وساعده على ذلك تعاسة الجماهير وسذاجتها ، وانتصارات الألمان ، وضعف الحكومة المؤقتة التى لم يكن فى جعبتها برنامج براق يستهوى الجماهير الكادحة . وضرب الحزب البولشيفيكى فى ٢ من نوفمبر — تشرين ثان — ضربته التى ظل ردحاً طويلا يعد عدتها وسقطت الحكومة المؤقتة بهجوم الثوار الحمر على قصر الشتاء فى بتروجراد . وتزعم الثورة اثنان من البولشيفيك كانا قد عادا سراً . كان الأول هو نقولا لينين (٢) Lenin . وكان الثانى يهودياً هو تروتسكى(٣) Trotsky . ويقول فيشر إنه « لم يحدث قط أن استولى على السلطة فى دولة حديثة مغامرون أعظم جسارة وعزماً وثباتاً من هذين المغامرين الجبارين . فلم تمض ثلاثة أشهر على توليهما زمام الحكم حتى كانا قد أخرجاها من الحرب ، وسحقا الطبقتين الغنية والوسطى ، وفضا هيئة نيابية كانت قد دعيت لوضع دستور برلمانى لجمهورية روسية » (٤) . وكان من أعمال البولشيفيك الأولى أنهم نشروا فى جريدة برافدا فى نوفمبر وديسمبر — تشرين ثان وكانون أول — سنة ١٩١٧ نصوص المعاهدات السرية التى كانت الروسيا طرفاً فيها . وكان من بينها اتفاقية سايكس بيكو الثلاثية

(١) بولشيفيك كلمة روسية معناها حزب الأغلبية .
(٢) كان نقولا لينين يسمى أليانوف Ulianoff
(٣) كان تروتسكى يسمى براونشتين Braunstein
(٤) Fisher H.A.L., op. cit., p. 1144.

المعقودة فى ٢٦ من أبريل Tripartite Sykes-Picot Agreement
– نيسان – و ٢٣ من أكتوبر – تشرين أول – سنة ١٩١٦ بين بريطانيا
وفرنسا والروسيا لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية . وكان من المقرر تنفيذها
عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد سبب نشر وثائق هذه الاتفاقية حرجاً
شديداً لبريطانيا وحليفاتها . وأعلن لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية
فى محاولة لتخفيف وقعها فى العالم أن بريطانيا لم ترغب قط فى حرمان الدولة
العثمانية من عاصمتها إستانبول أو من أراضيها الغنية المشهورة فى آسيا الصغرى
وتراقيا ، وهما الموطن الأصلى للعنصر التركى . وهكذا لم يستطع هذا السياسى
أن يتنصل من اتفاقية سايكس – بيكو ؛ أو أن يتستر على حقيقة هامة هى
تآمر بريطانيا وفرنسا والروسيا فى أثناء الحرب العالمية الأولى على تقسيم
ممتلكات الدولة العثمانية فيما بينها . ويزيد فى فداحة هذا التآمر أن بريطانيا كانت
قد تعهدت فى سنتى ١٩١٥ ، ١٩١٦ لشريف مكة وأميرها الحسين بن على
بمنح البلاد العربية الآسيوية استقلالها فى مقابل تحريك ثورة عربية على الدولة
العثمانية ؛ كما أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وودرو ويلسن
Woodrow Wilson أنه يجب أن يتقرر للعثمانيين السيادة على الجزء التركى
من الدولة العثمانية ؛ وأعلن أيضاً فى البند الثانى عشر من برنامجه الذى اشتهر
باسم النقاط الأربع عشرة (٨ من يناير – كانون ثان عام ١٩١٨) أنه يجب
أن يكفل لجميع القوميات غير التركية فى الإمبراطورية العثمانية المجال لاستكمال
استقلالها الذاتى . وكان الروس وحدهم هم الذين أعلنوا بصراحة إلغاء
حقوق الروسيا التى جاءت بها اتفاقية سايكس – بيكو السرية وقرروا فى
٥ من ديسمبر – كانون أول – سنة ١٩١٧ إلغاء هذه الاتفاقية التى تنص
على حرمان الدولة العثمانية من أرمينية ؛ ولو أنهم قالوا : « إنه بعد وقف
العمليات الحربية سيضمن للأرمن حق تقرير المصير فيما يختص بمستقبلهم
السياسى » والتصريح الروسى يقوم على التناقض : فهو فى شقه الأول
يقرر إبقاء أرمينية فى حوزة الدولة العثمانية ، وهو فى شقه الثانى يعلن إعطاء
الأرمن الحق فى تقرير مصيرهم ؛ ومعناه التمهيد لسلخ أرمينية عن الدولة
العثمانية مما يبعث فى نفوس الأرمن مزيداً من الأمل فى استغلال ظروف

الحرب العالمية الأولى لحل قضيتهم على النحو الذى يبتغوه . وإذا كانت السياسة البريطانية قد اتسمت بالنفاق والخديعة والتضليل فإن سياسة الروسيا ، سواء فى العهد القيصرى أو العهد البولشفيكى أو السوفيتى ، كانت هى الأخرى على شاكلة السياسة البريطانية : متقلبة ، ماكرة ، مخادعة .

معاهدة برست ليتوفسك تقضى على آمال الأرمن :

عقدت الحكومة البولشيفيكية فى الروسيا فى ٥ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩١٧ عقب خروجها من الحرب هدنة منفصلة خاصة بها مع الدولة العثمانية ودولتى الوسط (ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية) . ولم تشترك فى هذه الهدنة بطبيعة الحال دول الوفاق وهى حليفاتها السابقات فى الحرب العالمية الأولى والتى واصلت الحرب ضد ألمانيا والنمسا والمجر والدولة العثمانية . وكانت دول الوفاق قد بذلت جهوداً مكثفة بالاشتراك مع عناصر بولشيفيكية للإبقاء على الروسيا فى الحرب كى تكبح جماح الأطماع الألمانية(١) . وبعد عقد الهدنة بدأت مفاوضات الصلح التى استطالت ثلاثة أشهر . وقد طالب المندوبون العثمانيون بإنهاء الاحتلال الروسى للولايات الواقعة فى شرقى الأناضول وإعادتها إلى حوزة الدولة العثمانية . وعارضت ألمانيا هذا المطلب أكثر مما عارضته الروسيا (٢) . ولذلك نص مشروع المعاهدة على أن تسترد الروسيا كلا من قارص وأردهان (٣) اللتين انتزعتهما مع باطوم من الدولة العثمانية عقب الحرب التى قامت بينها فى سنتى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ (٤) ، ولما فرغ المتفاوضون من بحث المشكلات بين الدولة العثمانية والروسيا اتفقوا على إبقاء المعاهدة معلقة بدون توقيع حتى تنتهى مناقشة المسائل بين ألمانيا والروسيا فيتم التوقيع فى يوم واحد . ولذلك أخذ الجزء

---

(١) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol 2 p. 325.

(٢) Loc. cit.,

(٣) Hurewitz J.C.; Diplomacy in the Near and Middle East; op.cit., vol.2 pp. 31.

(٤) انظر فى هذه الدراسة ج ٢ ، ص ١١٠٤

الخاص بالدولة العثمانية شكل مشروع معاهدة Draft Treaty ، وكان هذا الإجراء الشكلي في مصلحة الدولة العثمانية ، إذ لما رضخت الروسيا البلشفيكية لمطالب ألمانيا (١) تدخل أنور باشا في اللحظة الأخيرة وقدم مذكرة نجم عنها إدخال مادة جديدة تنص على الانسحاب الفوري للقوات الروسية من ولايات أردهان وقارص وباطوم في شرقي الأناضول وإعادتها إلى الدولة العثمانية ، وعودة الروسيا إلى خط الحدود الذي كان قائماً قبل الحرب وذلك في خلال مدة تتراوح بين أربعة أسابيع وستة أسابيع من تاريخ التوقيع على المعاهدة، وتسريح العصابات الأرمنية سواء الموجودة في الروسيا أو في الولايات العثمانية المحتلة في شرقي الأناضول : كما وافقت الروسيا على الانسحاب من منطقة القوقاز والمناطق التي كانت تحتلها من فارس (إيران) . وتم التوقيع على المعاهدة في ٣ من مارس — آذار — سنة ١٩١٨ (٢) وسميت معاهدة برست ليتوفسك القانونية والسياسية Legal and Political Brest-Litovsk Treaty وفي ذات الوقت اتفق أنور باشا مع الألمان على إطلاق يده في القوقاز وشمال غربي فارس ليتابع سياسته المحببة إلى نفسه ، وهي سياسة التتريك — Pan-Turkism في معظم هذه المناطق .

وقد جلبت معاهدة برست ليتوفسك على الروسيا المذلة والامتهان ، ولم يشعر لينين بأي خجل أو يحس بأي أسف أو ندم (٣) . كما أن المعاهدة قضت على آمال الأرمن الذين كانوا يعلقون أعذب الآمال على العون

---

(١) تنازلت الروسيا لألمانيا عن بولندة الروسية ، وأوكرانيا ، وفنلندة ، واستونيا ، ولتوانيا ، وليفونيا Livonia وكورلند Courland

انظر كلا من :

Taylor A.J. P.; The Struggle for Mastery in Europe, op. cit., p. 566.
Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., p. 1144.

وعن فنلنده ، وإستونيا ، ولاتفيا ، ولتوانيا انظر

Grant A.J. and Temperley Harold; op. cit., 442—444.
Hurewitz J.C.; Diplomacy etc., op. cit., vol. 2, pp. 31—33.

(٢) وتم تبادل وثائق التصديق عليها في برلين في ١٢ من يوليو — تموز — سنة ١٩١٨

(٣) Fisher H.A.L., op. cit., p. 1144.

العسكرى والتأييد السياسى من الروسيا . ولذلك لم تلق هذه المعاهدة أى ترحيب فى الروسيا أو فى دوائر الأرمن . وأصبحت الدولة العثمانية تسيطر على شرقى الأناضول وفى مقدورها أن تقف فى وجه تطلعات الأرمن لإنشاء دولتهم المرتجاة . أما ألمانيا فأصبحت صاحبة النفوذ فى شرقى أوروبا وفى دول بحر البلطيق .

العلاقة بين الدولة العثمانية وأرمن جمهورية عبر القوقاز :

كان من بين خطط أنور باشا وزير الحربية إنشاء إمبراطورية تركية تمتد عبر منطقة القوقاز إلى القرم وآسيا الوسطى . وكان أنور من أنصار سياسة تتريك الدولة العثمانية ، ومن ثم تحمس لهذا المشروع ولسبب آخر هو أن يكون هذا المشروع تعويضاً جزئياً عن الولايات العربية فى حالة ضياعها من الدولة . ولكن الجماعات القومية من أهالى القوقاز وجورجيا وآذربيجان ، وهى مناطق يسكنها أتراك مسلمون وأرمن ، قد نجحت فى شهر ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩١٧ فى إنشاء جمهورية مستقلة سميت « جمهورية عبر القوقاز المستقلة » The Independent Transcaucasian Republic. واتخذت من تفليس عاصمة لها ، وشكلت حكومة وجيشاً خاصين بهذه الجمهورية (١) . وكانت لبريطانيا وألمانيا مطامعهما فى السيطرة على الثروة البترولية الموجودة فى باكو ، وعلى المنجنيز وغيره من المعادن المتوفرة فى إقليم جورجيا . واستبان لرجال السياسة فى ذلك الوقت أن الجمهورية الوليدة ستكون فى دائرة النفوذ الروسى بحكم الجوار .

الأرمن يقتلون الأتراك فى جنوبى القوقاز وشرقى الأناضول :

وتمشياً مع السياسة العليا للحكومة الروسية برياسة لينين بعد الثورة البولشيفية ، عقدت هذه الجمهورية هدنة مع الدولة العثمانية وتم التوقيع عليها فى إرزنكان فى ١٨ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩١٧ ، ولكن لم تلق هذه الهدنة ترحيباً من الأرمن الذين قاموا بمذابح عامة بين من تبقى من

(١) Sanftord J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 325.

المزارعين الأتراك المسلمين فى جنوبى القوقاز وشرقى الأناضول، وأصبح فيهما أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ لاجئ من بين مجموع سكانها السابقين قبل الغزو الروسى بشرقى الأناضول فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧ وكان تعدادهم يبلغ وقتذاك ٢,٢٩٥,٧٠٥ من الأتراك فى ولايات أرضروم : إرزنكان ، طرابيزون ، ڤان ، بتليس . وبهذه المذابح الجماعية نقض الأرمن اتفاقية الهدنة (٢) .

العثمانيون يكتسحون قارص وأردهان وباطوم وأرضروم وفان :

أجاب أنور باشا على انتهاك الأرمن لأحكام الهدنة بهجوم عام اشتركت فية قوات عثمانية من الجيش الثالث المرابط فى ديار بكر وموش، ويقودها على احسان صائب ، وقوات عثمانية من إرزنكان يرأسها كاظم قرة بكير . واستطاع الأخير فى ١٤ من فبراير — شباط — سنة ١٩١٨ أن يطرد جميع السكان الأرمن من إرزنكان وأن يجبرهم على اللحاق بجيشهم فى ارتداده إلى القوقاز . ولما جاءت الأنباء بعقد معاهدة برست ليتوفسك فى ٣ من مارس — آذار — سنة ١٩١٨ عهد أنور باشا إلى كاظم قرة بكير باشا بمهمة القيام بتحرير المسلمين الأتراك ، فاتجه لاحتلال قارص ، وأردهان ، وباطوم بعد أن انسحب الروس منها . ولما رفض الأرمن الانسحاب من أرضروم ، أوقع بهم كاظم قرة بكير هزيمة أليمة واستولى على منطقة أرضروم فى ١٢ من مارس — آذار — سنة ١٩١٨ وبذلك قطع الاتصال مع الأرمن المرابطين فى الشمال، وأجبر الأرمن المحتشدين فى ڤان فى الجنوب على الارتداد دون مقاومة .

الأرمن يرفضون مطالب العثمانيين فى مؤتمر طرابيزون :

وبدأت مفاوضات الصلح بين الدولة العثمانية وجمهورية عبر القوقاز فى طرابيزون ، وعرض أنور باشا أن يتنازل عن كل مطالبه أو مطامعه فى القوقاز فى مقابل الاعتراف بحق الدولة العثمانية فى استرجاع الولايات الست

---

(١) Loc. cit.

الواقعة فى شرق الأناضول تنفيذاً لمعاهدة برست ليتوفسك . واعتقد الأرمن أن تنازل أنور باشا عن مطالبه دليل على الضعف . وضغط زعماؤهم على الدوائر العليا فى جمهورية عبرالقوقاز لرفض مطلب أنور باشا ، واستؤنفت العمليات القتالية : واضطر الأرمن إلى الارتداد خلف خطوط القتال يحدوهم الأمل فى أن يظفروا : بعد أن أرهقت القوات العثمانية فى ظنهم ؛ بانتصار لاحق قريب يساعدهم على الاستيطان والاستقرار فى الولايات الست فى شرق الأناضول . ولكنهم لم يجدوا لهم ملاذاً سوى الهروب إلى أرمينية الأصلية وازدحمت بهم إريفان التى انتشرت فيها المجاعة والأوبئة والفوضى .

الأرمن يرفضون مطالب العثمانيين فى مؤتمر باطوم :

وعقد مؤتمر آخر للسلام فى باطوم فى ١١ من مايو – آيار – سنة ١٩١٨ وتقدم العثمانيون بمطالب جديدة تجاوزت أحكام معاهدة برست ليتوفسك لتشمل عدداً من المناطق حول تفليس ، والكسندروبول (١) Alexandropol وإشميادزين (٢) Echmiadzin وطالب أنور باشا أيضاً بأن يمنح التجار العثمانيون الحق فى المرور عبر منطقة القوقاز . وأن تخفض الجمهورية قواتها المسلحة ليحول هذا التخفيض دون تجدد التهديدات الأرمنية للأناضول . ورفض أعضاء الوفد الأرمنى ووفد آذربيجان فى المؤتمر مطالب العثمانيين مما أدى إلى زحف الجيش العثمانى على مناطق فى أرمينية الروسية لم تكن تحت حكم الدولة العثمانية منذ القرن السابع عشر . وكان السكان الأتراك المسلمون قد أرسلوا استغاثات متعاقبة إلى الحكومة العثمانية يطلبون إنقاذهم من المذابح وشتى صور الاضطهادات الأرمنية . وقد أعطت هذه الاستغاثات لأنور باشا تبريراً كافياً للعمليات الحربية التى قام بها الجيش العثمانى .

---

(١) تسمى بالتركية جومرو Gumru أو كومرو ، وتسمى الآن لينيناكان Leninakan ويجدر التمييز بين لفظة إسكندروبول وكلمة إسكندروبوليس Alexandropolis فالأخيرة تطلق على ميناء فى إقليم تراقيا الغربية فى البلقان ويسمى/بالتركية ديديجاشى Dedeagac أو ديديغاشى .

(٢) كان هدف أنور باشا من هذا المطلب هو إنشاء خط حديدى فى المستقبل يربط قارص وجولفا Julva. مع باكو ، وهى مفتاح آسيا الوسطى.

الأرمن يستغيثون بألمــانيا :

لجأ الأرمن إلى وسيلة جديدة ومبتكرة لعلها تفيدهم فى ساعة العسرة ، فوجهوا استغاثات متتالية إلى الحكومة الألمانية يلتمسون إنقاذهم من أخطار الهجوم العثمانى ، على أساس أن الدولة العثمانية وألمانيا حليفتان فى الحرب الأولى وبعثوا بهذه الاستغاثات عن طريق أعضاء البعثات التنصيرية الألمانية مما يعد خروجاً من هؤلاء الأعضاء عن رسالتهم الدينية وزجاً بأنفسهم فى غمار السياسة الدولية ، وكان هؤلاء المنصرون الألمان يعلمون جيداً أن حكومتهم ترنو بأبصارها نحو مناطق جورجيا وباكو . واستجابت ألمانيا لاستغاثات الأرمن وضغطت على أنور باشا كى يستبقى قواته فى شرقى الأناضول لمواجهة أى هجوم بريطانى محتمل على شمال العراق بعد سقوط بغداد ، وعلى بلاد الشام من مصر . وقد حاول الألمان أكثر من ذلك ، وضغطوا على أنور باشا كى يسحب القوات العثمانية من باطوم بصفتها نهاية خط أنابيب البترول من باكو فتصبح باطوم مركزاً لشحن المواد الخام من آسيا الوسطى وإرسالها إلى المصانع الألمانية(١) .

---

(١) وفى النهاية ، وبتشجيع من ألمــانيا ، انفصل إقليم جورجيا عن جمهورية عبر القوقاز فى ٢٦ من مايو – آيار – سنة ١٩١٨ وكون سكان هذا الإقليم دولة مستقلة خاصة بهم بضمانة ألمــانيا . واقتفى أثرهم كل من الأرمن وأتراك آذربيجان بمدة قصيرة . ثم حدث أن اتفقت ألمــانيا مع الروسيا البولشفيكية فى ٢٧ من أغسطس – آب – سنة ١٩١٨ على أن يخرج العثمانيون من إقليم جورجيا وباكو فى مقابل إرسال البترول لإمداد السفن الحربية الألمــانية بهذه السلعة الهامة . وفى ذلك الوقت جاءت قوة بريطانية بقيادة دنسترفيل Dunsterville من فارس (إيران) لإخراج الألمــان والعثمانيين من إقليم القوقاز ، ووصلت هذه القوة إلى باكو فى منتصف أغسطس – آب – وأصبح الموقف يموج بشتى الاحتمالات . وفى هذا الوقت خضع طلعت باشا للضغط الألمــانى ووقع فى ٢٣ من سبتمبر – أيلول – سنة ١٩١٨ اتفاقاً ينص على انسحاب القوات العثمانية من القوقاز ، وأن تكون جمهورية آذربيجان الوليدة منطقة نفوذ ألمــانى وبخاصة فى المجالات الاقتصادية والسياسية . واضطر الألمــان ، إزاء وجود دنسترفل فى باكو أن يتخلوا عن معارضتهم لزحف عثمانى . وأرسل أنور باشا قوة جديدة زحفت على القوقاز ، واستولت على ديربند Derbend فى ١٠ من سبتمبر – أيلول – سنة ١٩١٨ وقطعت اتصال باكو مع المناطق الشمالية ، واضطر القائد البريطانى دنسترفيل لى العودة من حيث أتى . وهذا ما ضايق الروس المحليون والأرمن الذين اضطروا إلى الهرب إلى إريفان ، =

استسلام الدولة العثمانية للحلفاء :

وإذا كان أنور باشا قد أحرز انتصارات محدودة فى جبهة شرقى الأناضول إلا أن هذه الانتصارات كانت على حساب الجبهات الأخرى للحرب ، وبخاصة فى العراق وبلاد الشام حيث تساقطت المدن تباعاً فى أيدى القوات البريطانية . واحتل الأسطول الفرنسى مدينة بيروت فى ٦ من أكتوبر – تشرين أول – سنة ١٩١٨ ؛ وسقطت فى يد الجنرال اللنبى Allenby حلب وحمص وطرابلس الشام وحلب وإسكندرونة فى ١٤ من أكتوبر . وتراجعت القوات العثمانية إلى الأناضول لتستقر فى أضنة وبات الموقف الحربى بالنسبة للدولة العثمانية ميئوساً منه . وكانت قوات بلغاريا قد استسلمت لبريطانيا وحليفاتها فى ٢ من أكتوبر وقطعت طرق المواصلات المباشرة بين الدولة العثمانية وألمانيا . واستطاعت بريطانيا أن تظفر بموافقة حليفاتها على أن ترسل قواتها من سالونيك عبر تراقيا إلى الجزء الأوروبى من إستانبول مع قوات صغيرة رمزية لحليفاتها . وقد خولت هذه الموافقة لبريطانيا الحق فى السيطرة على المضايق التركية وإستانبول براً وبحراً بمجرد عقد الهدنة التى بدت لجميع المراقبين السياسيين والعسكريين فى ذلك الوقت أنها لامناص منها ، وأن وفاة رجل أوروبا المريض قد أصبحت وشيكة .

وفى وسط هذه الهزائم المتلاحقة جاز إلى ربه السلطان محمد الخامس (رشاد) فى ٢٨ من يونيو – حزيران – سنة ١٩١٨ وخلفه على عرش آل عثمان السلطان محمد السادس (وحيد الدين) أحد إخوة السلطان عبدالحميد الثانى والسلطان محمد الخامس . وسرعان ماغدا السلطان الجديد ألعوبة فى يد الطغاة الثلاثة كما كان أخوه محمد الخامس من قبل . وكانت الأخطار الخارجية والداخلية تعصر الدولة عصراً . وامتلأت إستانبول باللاجئين الجياع ،

= إذ احتل العثمانيون المدينة وجعلوها عاصمة لجمهورية آذربيجان . وكمظهر للاحتجاج ألغى الروس البولشيفيك معاهدة برست ليتوفسك فى بنودها الخاصة بالعثمانيين . ولم يكن لهذا الإلغاء نتيجة تذكر بعد أن أصبح البولشيفيك وليست لديهم قوة عسكرية لتنفيذ مطالبهم .

انظر :

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 328.

وعانت العاصمة نقصاً خطيراً فى المراد الغذائية ؛ وانتشر التيفوس بين سكانها . وزاد من خطورة الموقف أن الأسطول البريطانى شدد حصاره على الدردنيل .

اتفق رئيس الوزارة العثمانية ، طلعت باشا ، مع الألمان على التماس وساطة الرئيس الأمريكى ولسن لعقد هدنة مع بريطانيا وحليفاتها فى ٥ من أكتوبر – تشرين أول – فى ضوء النقاط الأربع عشرة التى أعلنها هذا الرئيس حتى لاتتعرض الدولة العثمانية وألمانيا لشروط قاسية تفرضها بريطانيا ، كما التمس طلعت باشا من جهات عسكرية وسياسية أخرى التوسط فى عقد الهدنة . وحولت هذه الطلبات إلى قائد الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط أدميرال كالثورپ Admiral Calthorpe فذهب إلى ميناء مدروس فى جزيرة لمنوس Lemnos فى بحر إيجة فى ١١ من أكتوبر ليضع الشروط العسكرية للهدنة . وكانت حكومة الطغاة الثلاثة قد استقالت فى ٨ من أكتوبر وبقيت البلاد بدون وزارة لمدة أسبوع إذ لم يجرؤ أحد على تشكيل وزارة فى مثل هذه الملابسات المتناهية فى ظلامها وقسوتها حتى قبل أحمد عزت باشا تشكيل وزارة جديدة فى ١٤ من أكتوبر تكون مهمتها الأولى عقد الهدنة المبتغاة . وتسلل الطغاة الثلاثة لواذاً خارج البلاد هرباً وفزعاً وجبناً . وطلب الأدميرال البريطانى حضور وفد عثمانى لتوقيع شروط الهدنة . وكان هذا الوفد برياسة وزير البحرية حسين رءوف بك أورباى Orbay [1] وتم التوقيع على الهدنة فى ٣٠ من أكتوبر ، وعرفت باسم هدنة مدروس Armistice of Mudros . وكانت فى شروطها القاسية تسليماً كاملا غير مشروط لمطالب بريطانيا ، وتفوق فى قسوتها المعاهدات التى فرضت على الدول

---

(١) كان حسين رءوف بك أورباى من مواليد سنة ١٨٨١ ، وعمل ضابطاً بحرياً فى الأسطول العثمانى واشتهر كبطل قوى بشجاعته ومآثره الفذة فى أثناء قيادته لطرادة «حميدية» . وقام بدور اتسم ببعض الأهمية فى الصراع الحربى الذى قاده بعد ذلك مصطفى كمال باشا فى الأناضول .

انظر : Lewis B.; op. cit., p. 239. f.n.2.

المسيحية الأعضاء فى دول الوسط (١) . وهى الدول التى كانت حليفة للدولة العثمانية فى الحرب ، وهى ألمانيا ، والإمبراطورية النمساوية المجرية ، وبلغاريا . مما يدل على أن الروح الصليبية كانت لاتزال مشتعلة متأججة فى الدول الأوروبية الكبرى ، وفى مقدمتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، على الإسلام والدول الإسلامية . هذا وقد نجم عن عقد هدنة مدروس أن سقطت سقوطاً تلقائياً معاهدة برست ليتوفسك المبرمة فى ٣ من مارس — آذار — سنة ١٩١٨ بين الروسيا البولشيفيكية والدولة العثمانية وألمانيا .

قضية الأرمن فى هدنة مدروس :

نصت هدنة مدروس على الإطلاق الفورى لسراح جميع أسرى دول الحلفاء . وكذلك المسجونين والأسرى الأرمن مهما كانت نوعية الجرائم التى ارتكبوها (٢) كما ورد فيها نص يختص بأرمينية جاء فيه « إنه فى حالة وقوع اضطراب فى الولايات الأرمنية الست (٣) يحتفظ الحلفاء لأنفسهم بحق احتلال أى جزء منها ، مع سيس Sis ، وهاشين Hasin ، وزيتين Zeytin ، وعنتاب Ayintap فتصبح تحت الاحتلال الفورى » .

شماتة الأرمن بالأتراك العثمانيين :

دخلت قوات الحلفاء أراضى الدولة العثمانية طبقاً لأحكام هدنة مدروس ، وكان يسيطر عليها اعتقاد لايتزعزع فى صدق الدعاية المعادية للدولة العثمانية فى أنها دولة متعصبة تعصباً دينياً صارخاً ، أوقعت مذابح جماعية بملايين المسيحيين بدون أدنى سبب سوى اختلاف الدين ، وأن المسيحية تفوق الإسلام فى تمسكها بالرحمة وحرصها على عدم سفك دماء الأبرياء . وصرح

---

(١) "The (Mudros) Armistice provided for a total and unconditioned surrender, a considerably harsher arrangement than that imposed on the Christian members of the Central Powers".
See :
Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 328.

(٢) Loc. cit.

(٣) عرفت أرمينية العثمانية بإسم « الولايات الست فى شرق الأناضول » .

المندوب السامى للحلفاء فى إستانبول أدميرال كالثورب (١) Admiral Calthorpe بقوله « إن خطتنا الثابتة هى ألا نظهر أى مجاملة مهما كانت ضئيلة لأى تركى . وقد منعنا منعاً باتاً جميع أفراد قوات الاحتلال من أن يتبادلوا التحية مع الأتراك أو قيام أى صداقة أو غير ذلك من أنواع السلوك الاجتماعى معهم » .

كان عقد الهدنة وتجميد معاهدة برست ليتوفسك قد بعثا الآمال فى نفوس الأرمن ؛ وباتوا يعلقون آمالهم على بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. واتخذ الأرمن من هذه الدول الثلاث القبلة السياسية التى يولون وجوههم شطرها . وعولوا على بذل جهود مستميتة فى مؤتمر الصلح فى باريس لتحقيق آمالهم الوطنية .

وفى هذا الجو المعادى للأتراك أظهر الأرمن شماتة سافرة بهم وترحيباً حاراً بقوات الاحتلال الدولى المشترك . صنع الأرمن فى المدن الكبرى والصغرى على السواء كميات وافرة من الأعلام البريطانية والفرنسية والإيطالية ورفعوها فوق مساكنهم وأمام محلاتهم التجارية وغيرها . وكانوا يلوحون بأعلام صغيرة منها كلما مرت أمامهم كتيبة أو سرية أو فصيلة من قوات الاحتلال ، وكانوا يتدافعون على أفراد هذه القوات يقبلونهم ويحيونهم ويطلقون عليهم اسم المنقذين . وكان اليونانيون يشاطرون الأرمن فى إظهار شعورهم العدائى نحو الأتراك . وقام الأرمن واليونانيون تحت سمع قوات الاحتلال وبصرها بذبح الجنود الأتراك المسرحين منذ عقد الهدنة ، كما ذبحوا آلافاً من المدنيين المسلمين دون أن تبذل سلطات الاحتلال أى جهود للتدخل من أجل وقف هذه المذابح . ولم يشذ عن موقف قوات الاحتلال سوى القوات الإيطالية التى استطاعت أن تسيطر فى مناطقها على الأقليات غير الإسلامية وحماية السكان المسلمين (٢) . وظهر بجلاء التمييز الدينى بين

---

(١) كانت تساعد المندوب السامى للحلفاء لجنة ثلاثية من ثلاثة أعضاء ، أولها بريطانى ، وثانيهما فرنسى ، وثالثهما إيطالى .

(٢) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, pp. 329—330.

المسيحيين والمسلمين عندما فتحت المدارس التى تعطلت فى الشهور التى تلت عقد الهدنة ؛ فلم يسمح إلا للتلاميذ والطلبة المسيحيين باستئناف دراستهم . أما زملاؤهم المسلمون فقد تركوا فى الشوارع (١) . وقام أعضاء البعثات التنصيرية فى أقاليم الدولة بدور بارز ،ولكنه مزر ومشين ،حين عهد إليهم بالإشراف على ملاجئ الأيتام المسلمين الذين فقدوا آباءهم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد طردوا منها آلافاً من هؤلاء الأيتام ووضعوا فى أماكنهم أيتاماً مسيحيين من الأرمن واليونانيين (٢) .

تحيز الحلفاء الصارخ للأرمن :

وما أن بدأ الاحتلال المختلط للأناضول وتراقيا الشرقية وغيرهما من الأقاليم العثمانية حتى وضح بجلاء تام أن نية بريطانيا وحليفاتها متجهة إلى منح الأرمن حكم الولايات الست فى شرقى الأناضول . ولم تقف هذه الدول عند هذا الحد ،بل منحتهم أيضاً الأقسام الثلاثة وهى قارص ، وأردهان ، وباطوم وكانت تعيش فى هذه المناطق الثلاث أقليات أرمنية بالنسبة لتعداد سكانها . وكانت الدولة العثمانية قد نجحت فى استردادها من الروسيا طبقاً لمعاهدة برست ليتوفسك . ووضح هذا الاتجاه فى السياسة البريطانية نحو الأرمن منذ شهر فبراير — شباط — سنة ١٩١٩ حين عزلت سلطات الاحتلال البريطانى الموظفين العثمانيين فى الولايات الست والمناطق الثلاثة وعينت مكانهم موظفين أرمن ، كما صبغت الشرطة المحلية — ضباطاً وجنوداً — بالصبغة الأرمنية تمهيداً لإقامة الدولة الأرمنية وحتى تعقد معاهدة مع الدولة العثمانية تقر اقتطاع هذه الأقاليم من الدولة العثمانية وإنشاء دولة أرمنية مستقلة . واعتقد الأرمن أنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمانيهم الوطنية.

الوفد الأرمنى أمام مؤتمر الصلح فى باريس سنة ١٩١٩ :

لم يترك الأرمن فرصة لعرض قضيتهم على الصعيد الدولى إلا انتهزوها . وكان اجتماع ممثلى دول العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى مؤتمر الصلح

(١) Loc. cit.

فى باريس والذى افتتح جلساته فى ١٨ من يناير – كانون ثان – سنة ١٩١٩ فرصة ذهبية للأرمن . وعلى الرغم من أن جمهورية أرمنية قد تأسست فى سنة ١٩١٨ وعرفت بإسم جمهورية إريڤان ، لم يقنع الوفد الأرمنى بها، وتقدم إلى المؤتمر مطالباً بالاستقلال التام لدولة تمتد من البحر الأسود إلى البحر المتوسط تمشياً مع المبدأ القائل « ما لا يدرك كله لا يترك كله » . وقد أسس الوفد طلبه على أنه تعويض عن التضحيات والمظالم التى تحملها الأرمن قروناً متعاقبة ، ومكافأة لهم على مساعدتهم لقضية الحلفاء بالوقوف إلى جانب القوات الروسية فى الحرب ضد الدولة العثمانية(١) . ويقرر أحد المؤرخين المحايدين أن مطالب الأرمن كانت تتسم بقسط كبير من المغالاة(٢) .

كان الجو السياسى فى المؤتمر فى مصلحة الأرمن بصفة عامة . كان رئيس الوفد البريطانى فى هذا المؤتمر هو لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية . وكان يمقت الدولة العثمانية مقتاً شديداً لأنها دولة إسلامية(٣) انضمت إلى جانب ألمانيا فى الحرب العالمية ، وسببت لبريطانيا قبل الحرب مشكلات عديدة ، ولو أن الأخيرة خرجت من هذه الأزمات بمكاسب سياسية وعسكرية وإقليمية كبيرة(٤) . وفضلا عن ذلك ، رأى لويد جورج أن تحقيق المطالب الأرمنية يخدم المصالح البريطانية، فإن إنشاء دولة أرمنية فى الأناضول ، أو على الأقل فى شرق الأناضول، وتكون هذه الدولة صديقة لبريطانيا وتدور فى فلك السياسة البريطانية يجعلها سداً منيعاً فى وجه أى زحف قد تقوم به القوات الروسية السوڤيتية نحو البحر المتوسط . ولذلك ظفر الوفد الأرمنى بتأييد بريطانيا فى مؤتمر الصلح . ووقفت فرنسا فى المراحل الأولى للمؤتمر

---

(١)
Hovannissian Richard; The Republic of Armenia vol.1. pp. 276—283.
M. Cilbert, Winston S. Churchill, vol. 4, 1916—1922. London, 1975, pp. 472—489.

(٢) Standford. J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p. 330.

(٣) Loc. cit.

(٤) ظفرت بريطانيا بعدن سنة ١٨٣٩ ثم جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ ، ثم مصر سنة ١٨٨٢ ، ثم أقامت حكماً ثنائياً مع مصر فى السودان سنة ١٨٩٩

تؤيد الأرمن في تحقيق مطالبهم . ولكن سرعان ما انقلبت عليهم عند ما طالب الوفد الأرمني بأن تمتد الدولة الأرمنية المرتجاة لتشمل منطقة كيليكيا في الجنوب الشرقي من الأناضول والتي تحتلها فرنسا . ومما زاد الموقف تعقيداً أمام المؤتمر أن الأكراد وسكان جورجيا وآذربيجان طالبوا بمناطق تدخل في الدولة التي يبتغي الأرمن إنشاءها . وطالبت فارس أيضاً بأقاليم القوقاز التي كانت قد استولت عليها الروسيا في القرن التاسع عشر . وكانت تشمل معظم أرمينية الفارسية والمناطق التي يسكنها الأكراد في الجنوب الشرقي . أما جمهورية آذربيجان فطالبت بالقسم الجنوبي والأجزاء الجنوبية من باتبليس ، وإريفان ، وباكو Baku ، وباطوم ، وقارص(١) . وبينما كان هذا التزاحم بين شتى الدول والطوائف قائماً على قدم وساق لاقتسام الأسلاب ، طالب الأرمن بمنع عودة أي شخص تركي أو كردي إلى شرق الأناضول ، وأن يحل محل المطرودين الفلاحون الأرمن حتى تتحقق للسكان الأرمن في هذه المنطقة الأغلبية العددية . وعمدت بريطانيا وحليفاتها إلى التظاهر بإبداء العطف على مطالب الأرمن ، ولكنها رأت إرجاء بحث قضية الأرمن حتى يتم الفراغ من وضع ميثاق عصبة الأمم ، وفرض شروط الصلح في معاهدات تعقد مع ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، ثم تتفرغ بريطانيا وحليفاتها إلى وضع شروط معاهدة عامة تفرض على الدولة العثمانية ويتقرر فيها مصير قضية الأرمن لتحقيق آمالهم القومية .

إخفاق مشروع تعيين الولايات المتحدة دولة منتدبة على أرمينية :

ولما كانت المطالب التي تقدم بها الأرمن لمؤتمر الصلح في باريس تتعارض مع مبدأ تقرير المصير الذي كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وودرو ولسن Woodrow Wilson قد أعلنه وأخذ به المؤتمر في بعض الحالات(٢) فقد قام الأرمن في الولايات المتحدة الأمريكية بحملة واسعة لتأييد قضيتهم

---

(١) Hovannisian Richard; Republic of Armenia. vol. 1, pp. 283—291.

(٢) طبق مؤتمر الصلح مبدأ تقرير المصير عندما قرر إنشاء دولة بولندية حرة ذات اتصال بالبحر وعند إنشاء جمهورية تشيكوسلوفاكيا :

Fisher H. A.L.; op. cit., p. 1160.

وحمل الرئيس الأمريكى على ترك الأربع عشرة نقطة التى أعلنها وسيلة للتسويات السياسية التى يضعها المؤتمر . وحاول لويد جورج رئيس الوفد البريطانى حلا وسطاً لإرضاء الأرمن بتطبيق نظام الانتداب على الولايات الأرمنية المتنازع عليها أو كل الأناضول إذا كان ذلك فى الاستطاعة ، وأن يكون تقرير نظام الانتداب على الأرمن فى شرقى الأناضول فى ذات الوقت الذى يضع فيه تحت الانتداب البلاد العربية التى كانت خاضعة للدولة العثمانية مثل العراق وسورية ولبنان . وأن تكون الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة المنتدبة على الولايات الأرمنية . وكان الرئيس الأمريكى ولسن غير معترض على هذه الفكرة . وأرسل لجنتين إحداهما إلى بعض البلاد العربية(١) والأخرى إلى الأناضول . وكان يرأس اللجنة الثانية چيمس هاربورد Major General James G. Harbord وطافت بالأناضول فى صيف سنة ١٩١٩ ووضعت تقريرها فى أكتوبر – تشرين أول – سنة ١٩١٩ . وجاء فيه أن الغالبية العظمى من السكان فى الأناضول هم من الأتراك . ورأت اللجنة فى تقريرها أنه بالنسبة لمطالب الأقليات أن تنشأ منطقة انتداب واحدة وتشمل أيضاً القوقاز لتحقيق وحدة سياسية واقتصادية ، وتمهد الطريق بعد ذلك لوضع تسوية نهائية بعد فترة زمنية . ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية قررت عدم الانضمام إلى عصبة الأمم على الرغم من اهتمام ولسن بانشائها(٢) ، ولما كان نظام الانتداب منبثقاً عن العصبة فقد سقط بالتالى مشروع الانتداب

---

(١) عرفت اللجنة الأولى باسم لجنة كنج – كرين King–Crane عن نشاطها وتقريرها انظر :

دكتور حسن صبرى الخولى : موقف الاستعمار والصهيونية ... ألخ ، مرجع سبق ذكره ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، ج ١ ، ص ص ٣٤٢ – ٣٦٥ .

(٢) كانت نقطة الضعف الوحيدة فى مركز الرئيس الأمريكى ولسن أنه لم يكن يمثل جميع مواطنيه فى الولايات المتحدة . فقد كان رئيس الحزب الديمقراطى بينما كانت للحزب الجمهورى أغلبية فى مجلس الشيوخ الذى يهيمن فى النهاية على السياسة الخارجية للولايات المتحدة . ولما قرر الرئيس ولسن الذهاب إلى باريس كان من سداد الرأى لو أنه دعا إلى مرافقته بعضاً من الأعضاء البارزين فى الحزب الجمهورى . ولكن كان الرئيس ولسن بطبعه أوتوقراطياً . وكان فى الشئون الداخلية شديد التحزب ، فذهب إلى باريس من غير أن يصحب أحداً من أعضاء=

الأمريكى على أرمينية تلقائياً(١) . وفكر لويد جورج فى مشروع بديل أفضل من الانتداب ، وهو إنشاء دولة مستقلة للأرمن وأن يدرج قرار إنشائها فى صلب معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية .

بداية المقاومة العثمانية للأرمن عقب عقد الهدنة :

تطورت حركة المقاومة التى قادها مصطفى كمال فى الأناضول بعد إعلان هدنة مدروس إلى حرب حقيقية أطلق عليها حرب التحرير تارة ، وحرب الاستقلال تارة أخرى . وبدأت مقدمات حركة المقاومة على يد بعض قادة الجيش العثمانى فى الأناضول قبيل وصول مصطفى كمال إليها من إستانبول، ثم تعاونوا معه قلباً وقالباً فى صراعه الحربى المرير ضد قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية والإيطالية واليونانية والأرمنية . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام قائدين ، أحدهما على فؤاد باشا سيبيسوى Cebesoy أحد قادة الجيش العشرين فى أنقرة ، قام فى شهر مارس – آذار – سنة ١٩١٩ بإرسال مندوبين عنه ليتعاونوا مع قوات الدفاع الوطنية فى المنطقة على تنسيق حركة المقاومة العسكرية والشعبية . وكان القائد الآخر هو كاظم قرة بكير باشا ، وهو أحد الأبطال فى المعارك التى دارت رحاها فى منطقة القوقاز ضد الأرمن على عهد حكومة الطغاة الثلاثة (أنور وطلعت وجمال) ، وكان أحد قادة الجيش الخامس عشر فى ولاية أرضروم،وعهد إليه أيضاً فى ١٣من أبريل–

=الحزب الجمهورى . فثار هؤلاء منه بأن أحبطوا جميع خططه ، ونجحوا فى حمل مجلس الشيوخ على عدم التصديق على معاهدات الصلح .

وبلغ من تحمس الرئيس الأمريكى ولسن لقيام عصبة الأمم أنه ترأس بنفسه اللجنة التى وضعت الصياغة اللفظية لميثاق عصبة الأمم بعد أن أصر على أن يدرج موضوع العصبة على رأس المسائل التى تعرض على المؤتمر . وبفضل نفوذه العظيم أنجز هذا العمل وأقر ميثاق العصبة فى وقت قصير . وجعل موضوع العصبة جزءاً لا يتجزأ من معاهدة فرساى . وبذلك أضاع على مؤتمر الصلح شهرين ثمينين قبل أن ينظر المؤتمر فى عمله الأساسى وهو وضع معاهدات الصلح .

انظر :

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1160—1161.

(١) Howard Harry N.; Turkey, the Straits and the U.S. Policy. Baltimore and London. 1974, pp. 51—129.

ـ نيسان ـ سنة ١٩١٩ بولايتى ڤان وطرابيزون ، أى أنه كان يشرف على ولايات ثلاث من الولايات الست فى شرقى الأناضول والتى يدعيها الأرمن لأنفسهم . وقد صحت عزيمة هذا القائد على أن يجعل همه الأول تحرير الأناضول واسترداد قارص وأردهان وباطوم والأجزاء التركية فى منطقة القوقاز . وسيصبح هذان القائدان فى معظم الأوقات من أقرب المقربين إلى مصفى كمال.

تعيين مصطفى كمال مفتشاً عاماً للجيش فى شرقى الأناضول :

وجاء الحادث الثالث والأكثر أهمية : وهو قرار أصدرته حكومة إستانبول فى ٥ من مايو ـ آيار ـ سنة ١٩١٩ بتعيين مصطفى كمال مفتشاً عاماً للجيش التاسع . وكانت اختصاصاته واسعة تشمل شرقى الأناضول . وكان مقر وظيفته سامسون Samsun على الساحل الجنوبى للبحر الأسود فى الأناضول . وكان مصطفى كمال مقيماً فى إستانبول بدون عمل منذ ١٣ من نوفمبر ـ تشرين ثان ـ سنة ١٩١٨ بعد عقد الهدنة وتسريح جيش الصاعقة الذى كان قد تولى قيادته خلفاً للقائد الألمانى ليمان فان ساندرس Linan van Sanders ، وفى أثناء إقامته فى إستانبول شاهد عن كثب التصرفات الشائنة للسلطان محمد السادس وحيد الدين وأعضاء الوزارة الذين كانوا يعترضون على أى حركة للمقاومة ضد قوات الاحتلال قد تعرض مراكزهم للخطر وتسىء إلى مشاعر بريطانيا وحليفاتها ، وعملوا بإخلاص على تجريد القوات العثمانية المرابطة فى إستانبول من أسلحتها . وذهبوا فى استسلامهم إلى حد أنهم أصدروا الأوامر إلى القوات العثمانية فى إزمير بعدم التعرض لليونانيين فى تلك المنطقة . وخلص مصطفى كمال رأياً إلى أنه لا فائدة ترجى من بقائه فى إستانبول ، وأن الواجب الوطنى يفرض عليه الانتقال إلى الأناضول حيث ظهرت فيها مبادرات طيبة لمقاومة قوات الاحتلال(١) . ولذلك جاء تعيينه فى منصب مفتش عام الجيش فى الأناضول فى الوقت المناسب وفرصة ذهبية لمغادرة إستانبول والتوجه إلى الأناضول للإقامة فيها ومباشرة نشاطه الثورى فى أرجائها . ولذلك

---

(١) Lewis B., op. cit., pp. 245—255.

حرص مصطفى كمال على سرعة مغادرته إستانبول قبل أن يصل نبأ تعيينه إلى سلطات الاحتلال .

وكانت التعليمات التي زودته بها حكومة إستانبول هي إعادة النظام والأمن إلى المناطق التي تدخل في اختصاصاته في الأناضول ، وتسوية الخلافات وفض الاضطرابات بين المسلمين والمسيحيين فيها ، وتجريد العصابات شبه العسكرية من سلاحها وتشتيت شملها ، والإشراف على تجريد القوات العثمانية في هذه المناطق من أسلحتها وتسريح أفرادها طبقاً لبنود هدنة مدروس . وعلى النقيض من معظم هذه التعليمات ، شرع مصطفى كمال منذ اليوم الأول لوصوله إلى سامسون في إنشاء وحدات اتصال عسكرية بين مجموعات المقاومة التي كانت قائمة وقتذاك والتي كانت لا تزال في مراحلها الأولى ، كما عمل على إنشاء مجموعات مقاومة جديدة ، وإعداد وسائل الدفاع المسلح عن الوطن التركي الأصيل وهو الأناضول وتطهيره من الغزاة المحتلين أو الذين يتهددونه بالاحتلال (١).

وتذكر أسباب متضاربة لتعيين مصطفى كمال في هذا المنصب الخطير فيقول البعض إن تعيينه جاء عفو الخاطر ووليد المصادفة ، فقد كان هذا المنصب شاغراً في ذلك الوقت . ويقول البعض الآخر إن السلطان ووزراءه كانوا يهدفون إلى إبعاده عن إستانبول لأنه كان يجاهر بمعارضته لهدنة مدروس وشروطها القاسية . ويرى البعض الثالث أن تعيين مصطفى كمال في هذا المنصب صدر بعد تدبير محكم ابتغاء تدمير شهرته كقائد فذ اكتسبها منذ أن انتصر على بريطانيا وفرنسا في معركة غاليبولي في حملة الدردنيل ، وأنهم كانوا يتوقعون فشله في مهمته المتعددة الجوانب في الأناضول . وهناك رأي رابع يقول إنه قد وقع عليه اختيار رؤسائه في وزارة الحربية والصدر الأعظم والسلطان لأنهم توقعوا أنه هو القائد الوحيد الذي يستطيع تنظيم مقاومة عسكرية وشعبية في الأناضول ضد قوات الاحتلال الدولي(٢) . وهذا الرأي الرابع رأي ضعيف

(١) Loc. cit.

(٢) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol.2, p. 342.

لأن ماضى وتصرفات السلطان والصدر الأعظم وسائر الوزراء دل على أنهم لم يكونوا جادين فى مقاومة الاحتلال أو إغضاب المنتصرين . ويبدو أن الرأى الثانى هو الذى يصور الملابسات التى أحاطت بتعيينه .

قضية الأرمن فى مؤتمر أرضروم أغسطس — آب — ١٩١٩ :

وإزاء تزايد أطماع الأرمن فى إنشاء دولة خاصة بهم فى الولايات الست فى شرقى الأناضول كون الأتراك القاطنون فى هذه المنطقة تنظيماً سرياً عسكرياً وسياسياً فى الثالث من مارس — آذار — سنة ١٩١٩ : وجعلوا مقره فى أرضروم ، وأطلقوا على هذا التنظيم اسم «شرقى أناضولو مدافعى حقوق جمعيتى» أى جمعية المدافعين عن حقوق شرقى الأناضول» وقد دعت هذه الجمعية إلى اجتماع عقد فى أرضروم فى ٢٣ من يوليو — تموز — سنة ١٩١٩ . لبحث موضوع تهديدات الأرمن لشرقى الأناضول . وحضر الاجتماع مصطفى كمال باشا الذى انتخب رئيساً للمؤتمر منذ اليوم الأول . وكان وزير الحربية قد قام بزيارة مصطفى كمال باشا فى الأناضول بعد أن بلغت مسامع الدوائر الرسمية فى فى إستانبول أنباء نشاطه فى الأناضول وطلب إليه الوزير العودة معه إلى إلى العاصمة . فلما رفض مصطفى كمال صدرت « إرادة » سلطانية بعزله من منصبه كمفتش عام للجيش التاسع فى سامسون على الساحل الجنوبى للبحر الأسود فى الأناضول (١) . ونفذ مصطفى كمال الأمر السلطانى وخلع زيه العسكرى وارتدى ملابس مدنية رغبة منه فى تحاشى أى صدام ثورى سافر مع حكومة إستانبول التى كانت لاتزال هى الحكومة الشرعية فى البلاد . وفى أثناء انعقاد المؤتمر الذى استمرت جلساته حتى ٧ من أغسطس — آب — ١٩١٩ صدر الأمر من إستانبول إلى كاظم قرة بكير باشا قائد الجيش الخامس عشر فى أرضروم بالقبض على مصطفى كمال وزميله حسين رءوف أورباى Orbay ولكن رفض كاظم باشا تنفيذ الأمر . وعلى الرغم من أن المحافظة على وحدة الولايات الست فى شرقى الأناضول وإبقاءها فى حظيرة الوطن التركى كانا على رأس الموضوعات المدرجة فى جدول أعمال المؤتمر ،

(١) أطلق على هذا الجيش فيما بعد اسم الجيش الثالث .

تطرقت البحوث إلى موضوعات ذات صبغة سياسية عامة تتصل بالأوضاع التي آلت إليها الدولة العثمانية بعد استسلامها ومقاومة أطماع الدول المنتصرة في توزيع الأقاليم العثمانية فيما بينها ، واتخذ فيها قرارات أصبحت فيما بعد جزءاً من الميثاق الوطني ، « ميلي ميثاق » .

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات كانت الأساس الذي قامت عليه حرب التحرير أو حرب الاستقلال . ونذكر هنا مايتصل منها بموضوع الأرمن :

أولا : « إن ولاية طرابيزون ، وقسم سامسون . وولايات أرضروم ، وسيواس ، وديار بكر ، والإلازيج Elazig ، وڤان ، وبتليس ، وهي الولايات التي يطلق عليها أحياناً الولايات الست ، هي في مجموعها جزء لاينفصل بعضها عن بعض ، كما أنها لا تنفصل عن الأقاليم التركية لأي سبب من الأسباب » .

ثانياً : « من الضروري ، من أجل المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية واستقلالنا الوطني وحماية السلطنة والخلافة ، أن يعهد إلى القوات الوطنية القيام بهذه الواجبات . ولابد أن يعترف بإرادة الشعب على أنها مصدر السيادة في الإمبراطورية » .

ثالثاً : « كل احتلال أجنبي وكل تدخل أجنبي يحدثان من أجل إنشاء دولة أرمنية أو دولة يونانية في الأناضول يجب التصدي لهما بالدفاع الموحد والمقاومة الموحدة . ولن يسمح بمنح امتيازات جديدة للمسيحيين بطريقة تغير الرقابة السياسية والتوازن الاجتماعي » .

رابعاً : « في حالة إكراه الحكومة المركزية في إستانبول ، تحت الضغط الأجنبي ، على التنازل عن أي جزء من الإمبراطورية العثمانية ، تتخذ بمعرفتنا الإجراءات والقرارات للدفاع عن حقوقنا القومية وعن حقوق السلطنة والخلافة » .

خامساً : « تكون جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول هى أداة الاتصال بين الجمعيات التى انبثقت عن المعاناة والكوارث التى حاقت بالإمبراطورية العثمانية » .

سادساً : « تقوم لجنة تمثيلية يختار المؤتمر أعضاءها بالعمل باسمه لإرساء قواعد الوحدة الوطنية بين المسلمين وغير المسلمين فى الدولة على جميع المستويات من القرية إلى الولاية »(١) .

وكان اجتماع المؤتمر فى أرضروم ، وهى إحدى الولايات الست فى شرق الأناضول تحدياً صريحاً وسافراً للأرمن الذين كانوا يرمون إلى إنشاء دولة أرمنية تكون هذه الولاية جزءاً منها . كما تعد القرارات التى أشرنا إليها تحديداً واضحاً لموقف الحكومة التركية الجديدة بقيادة مصطفى كمال باشا الذى أخذ ينظمها فى الأناضول بأنها لن تتنازل عن شبر واحد من الأراضى الواقعة فى شرق الأناضول والتى يريد الأرمن إقامة دولتهم عليها . كما يعد مؤتمر أرضروم دليلا عملياً على اهتمام الثورة الكمالية وهى لاتزال فى مهدها بإبعاد الخطر الأرمنى .

قضية الأرمن فى مؤتمر سيواس سبتمبر – أيلول – ١٩١٩ :

اجتمع مؤتمر وطنى آخر فى سيواس – إحدى الولايات الست فى شرق الأناضول – فى ٤ من سبتمبر – أيلول – سنة ١٩١٩ ، وكان اجتماعه فى هذه الولاية تحدياً آخر للأرمن . وافتتح مصطفى كمال المؤتمر وانتخب رئيساً له ، وهو الذى أدار مناقشاته . واختلف هذا المؤتمر عن سابقه مؤتمر أرضروم ، إذ شهده مندوبون عن كل بقاع الأناضول وإقليم تراقيا Thrace فى أوروبا بينما كانت عضوية المؤتمر الأول مقصورة على مندوبى شرق الأناضول . وتمشياً مع تنوع الجهات التى جاء منها أعضاء مؤتمر سيواس تقرر تغيير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول إلى

---

(١) انظر جميع قرارات مؤتمر أرضروم فى :
Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol.; 2., pp. 344—345.

اسم جديد أعم وأشمل هو « أناضولو روملل مدافعى حقوق جروبو » أى جماعة المدافعين عن حقوق الأناضول والروملى (١) . مع قيام لجنة تمثيلية دائمة يرأسها مصطفى كمال . وقد أصبح هذا التنظيم الجديد هو أداة النضال السياسى بعد ذلك من أجل تحرير الأناضول وتراقيا فى أوروبا . وكان من أهم قرارات المؤتمر أن تمتد إلى جميع أنحاء البلاد تنفيذ قرارات المؤتمر السابق فى أرضروم ،وقد أدخلت عليها بعض تعديلات تجعلها أكثر إيجابية . وأثار بعض الأعضاء موضوع تعيين الولايات المتحدة الأمريكية دولة منتدبة على الأناضول . وكان هذا الاقتراح يلقى تأييداً من بعض الدوائر فى إستانبول. وقد رفضته أغلبية المؤتمر جملة وتفصيلا . وأعلن المؤتمر ضرورة العمل على تماسك أجزاء الإمبراطورية العثمانية والمحافظة على الاستقلال الوطنى واستخدام القوات المسلحة الوطنية عند الضرورة فى وجه قوات الاحتلال الأجنبى (٢) ولم يرد ذكر للولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية . واقتصرت القرارات على تحرير الأناضول وإقليم تراقيا .

وحدث فى أثناء انعقاد المؤتمر وجود اللجنة الأمريكية لتقصى الحقائق والتى أوفدها الرئيس الأمريكى ولسن إلى الأناضول وكانت برياسة جيمس ج . هاربورد كما سبق أن ذكرنا . وتمت مقابلتان فى سيواس فى يومى ٢٢ و ٢٣ من سبتمبر — أيلول — سنة ١٩١٩ بين رئيسها ومصطفى كمال الذى أكد لرئيسها تأكيداً قاطعاً أن الأناضول إقليم تركى ، وأنه — أى مصطفى كمال — لن يقبل أو يسمح بأى انتداب يتقرر بالنسبة للنظام السياسى فى الأناضول (٣) .

---

(١) Anadolu ve Rumeli Mudafaa -i Hukuk Grebu

ويرد ذكر اسم هذه الجماعة فى المراجع الإنجليزية :

Group for the Defense of the Rights of Anatolia and Rumelia

والروملى مصطلح تاريخى معناه تركية أوروبا .

(٢) Lewis B.; op. cit., pp. 248—249.

(٣) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, p 346.

أدرك الأرمن أن الكماليين هم العدو اللدود لهم ، وأنهم يقفون فى وجه تحقيق أمانيهم الوطنية بإنشاء دولة مستقلة فى الأناضول ، وأنهم يتهددون الأرمن بشن حرب عليهم لحيلولة بينهم وما يشتهون . ولكن كان الأرمن يعلقون آمالا كباراً على بريطانيا وعلى الحكومة المركزية فى إستانبول فى تحقيق أهدافهم . ولم يكن السبب راجعاً إلى أن حكومة إستانبول كانت تتسم بالخيانة ؛ ولكن لأنها كانت حكومة متناهية فى ضعفها وتدهورت أوضاعها إلى حد أنها أصبحت ألعوبة فى يد المندوب السامى للحلفاء وبخاصة سلطات الاحتلال البريطانى التى كثيراً ماخرقت أحكام هدنة مدروس لمصلحة بريطانيا دون أن تحرك حكومة إستانبول ساكناً . ولم يستطع الأرمن اصطناع الصبر حتى تفرغ بريطانيا وحليفاتها من وضع معاهدة صلح مع الدولة العثمانية وتفرضها عليها مقررة فيها إنشاء دولة للأرمن فى شرقى الأناضول . فشنوا حرباً على الكماليين فى شهر مايو – آيار – سنة ١٩٢٠ قبل أن يوقع مندوبو الحكومة المركزية فى إستانبول مكرهين على معاهدة سيفر Sévres فى ١٠ من أغسطس – آب – سنة ١٩٢٠ . وقد حاول الأرمن استغلال حرج مركز القوات الكمالية فى صراعها الحربى ضد الغزاة اليونانيين ،وعملوا على تصعيد قضيتهم وإقناع بريطانيا بأنها قضية عاجلة وملحة لاتتحمل تأخيراً. واستمرت الحرب الكمالية الأرمنية سنتى ١٩٢٠ و ١٩٢١ وانتهت بهزيمة ساحقة للأرمن سنشير إليها بعد عرض معاهدة سيفر .

الحلفاء يقررون فى معاهدة سيفر إنشاء دولة حرة مستقلة للأرمن :

لم تقنع بريطانيا وحليفاتها بعد انتصارها فى الحرب العالمية الأولى بانتزاع البلاد العربية وفصلها فصلا تاماً عن الدولة العثمانية ، وذلك فى معاهدة سيفر Sévres ، ولكن أمعنت الدول المتحالفة المنتصرة فى سياسة تفتيت هذه الدولة ، فقررت فى ذات المعاهدة إنشاء دولة حرة مستقلة للأرمن A Free and Independent State (المادة ٨٨ من المعاهدة) وسجلت المعاهدة؛ أيضاً موافقة الدولة العثمانية وأرمينية والأطراف المتعاقدين على أن يعهدوا إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بمهمة تعيين الحدود

بين الدولة العثمانية وأرمينية فى ولايات أرضروم ، وطرابيزون ، وفان ، وبتليس ، وأن يقبلوا القرار الذى يتخذه فى هذه المسألة وأى قرارات أخرى يرى الرئيس الأمريكى إضافتها لضمان إيجاد طريق يصل أرمينية بالبحر وتجريد أى جزء من الأراضى العثمانية المتاخمة لهذه الحدود من السلاح (المادة ٨٩) . وإذا كان تعين الحدود يتطلب نقل جميع أجزاء الأراضى من ولاية من الولايات المذكورة فى المادة السابقة أو نقل جزء منها ، فإن الدولة العثمانية تتنازل ، من تاريخ صدور هذا القرار عن جميع حقوقها على الأراضى التى تنتقل إلى الدولة الأرمنية . ثم تعرضت ذات المادة فى فقرتها الثانية لطبيعة الإلتزامات المالية التى تتعهد بها الدولة العثمانية للدولة الأرمنية ، ونصت الفقرة الثالثة على أن تعقد عند الضرورة اتفاقات لاحقة تتناول كافة المسائل التى لم تشملها معاهدة سيفر والتى يمكن أن تنشأ عن نقل الأقاليم المذكورة إلى السيادة الأرمنية (المادة ٩٠) .

وإذا حدث ضم أى جزء من الأقاليم العثمانية لدولة الأرمن فإن لجنة حدود تقرر تعين الحدود على الطبيعة بين الدولة العثمانية وأرمينية ويصدر قرار بتشكيل هذه اللجنة فى خلال ثلاثة شهور من إبلاغ قرار رئيس الولايات المتحدة للأطراف المتعاقدين وأرمينية . ويكون تعين هذه الحدود فى ضوء قرار الرئيس الأمريكى (المادة ٩١) .

أما مسألة الحدود بين أرمينية ، وآذربيجان ، وجورجيا فتقرر فى اتفاق مباشر بين الأطراف المعنيين . وقررت الفقرة الثانية من هذه المادة أنه فى أى حالة تفشل الدول المختصة فى تعين الحدود عن طريق اتفاق فى تاريخ القرار المشار إليه فى المادة (٨٩) فإن خط الحدود مثار النزاع تقرره الدول الكبرى الرئيسية المتحالفة ، وتقوم أيضاً بتحديده على الطبيعة (المادة ٩٢).

---

(١) انظر القسم السادس من معاهدة سيفر والخاص بأرمينية ، فى :
Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Treaty Series No. 11, Cmd. 964, pp. 16—32.

وقررت المعاهدة أن توافق أرمينية على عقد معاهدة مع الدول الكبرى الرئيسية المتحالفة ترى هذه الدول أنها ضرورية لحماية مصالح سكان أرمينية الذين يختلفون فى الدين واللغة والجنس عن الأرمن . وجاء فى الفقرة الثانية أن أرمينية توافق على وضع معاهدة مع الدول الكبرى الرئيسية المتحالفة ترى هذه الدول أنها ضرورية لضمان حرية المرور والمساواة فى المعاملة فيما يختص بتجارة الشعوب الأخرى (1).

الأرمن يشنون الحرب على الكماليين سنتى ١٩٢٠ — ١٩٢١ :

أظهر الأرمن شماتة بالدولة العثمانية عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مدروس Mudros الجائرة فى ٣٠ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩١٨ كما سبق أن ذكرنا ، ومن ثم أرادوا أن يكشفوا عن حقدهم الدفين بحدوهم الأمل فى إثارة اهتمام بريطانيا وحليفاتها المنتصرات بقضيتهم فى المعاهدة المتوقع إبرامها لتصفية الدولة العثمانية . ولم يكن فى مقدور الجالية الأرمنية أو فروع العصابات الأرمنية الثورية أن تباشر نشاطها الإرهابى فى إستانبول بذبح المسلمين ومهاجمة المنشآت العامة بها بإلقاء القنابل عليها كما كانت تفعل من قبل ، لأن قوات مشتركة من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا كانت تحتل إستانبول وتتحمل مسئولية المحافظة على الأمن العام ، وتشرف على قوات الشرطة والجندرمة ووسائل المواصلات العامة بها . وأدرك الأرمن أن الطريق أمامهم مسدودة فى العاصمة ، ولذلك نقلوا نشاطهم المعادى إلى الأناضول للاستيلاء على شرقى هذا الإقليم . واعتقدوا أن الفرصة متاحة لهم ، إذ كان الكماليون منصرفين قلباً وقالباً إلى محاربة اليونانيين وإجلائهم عن الأناضول بعد أن نزلوا فى ثغر إزمير تحت حماية الأساطيل الأمريكية والبريطانية والفرنسية فى ١٥ من مايو — آيار — سنة ١٩١٩ .

تحالف الأرمن مع فرنسا التى كانت تحتل منطقة كيليكيا فى الجنوب الشرقى من الأناضول . وشن الأرمن حرب عصابات على القرى التركية بقتل سكانها ونهب محصولاتها ، وكانت حرب استنزاف . أما الحرب النظامية

(1) Lewis B. ; op. cit., p. 241.

فقد شنتها جمهورية إريفان Erivan الأرمنية التى أنشئت حديثاً فى القوقاز . لم تقنع هذه الجمهورية بأراضيها التى حصلت عليها سنة ١٩١٩ وتطلعت إلى توسعات إقليمية على حساب الكماليين .

بدأ هجوم الأرمن فى مايو – آيار – سنة ١٩٢٠ وسارعت حكومة الكماليين إلى تعيين قائد قدير يسمى كاظم قره بكر فى ١٥ من يونيو – حزيران – سنة ١٩٢٠ قائداً للجبهة الشرقية فى الأناضول ، وأعد جيشاً لطرد الأرمن من الأراضى التى استولوا عليها . وطلب مراراً من المجلس الوطنى الكبير فى أنقرة أن يأذن له فى التحرك بقواته ناحية الشرق وإنقاذ الفلاحين الأتراك من الكوارث التى ينزلها الأرمن بهم . ولكن تردد المجلس الوطنى فى اتخاذ قرار فى هذا الصدد نظراً لحرج مركز الكماليين أمام تقدم القوات اليونانية الشرسة ، ورأى أنه من الحكمة تأجيل الهجوم المضاد على القوات الأرمنية فى ذلك الوقت الحرج الذى استأنف فيه اليونانيون هجومهم المدمر فى يونيو – حزيران – سنة ١٩٢٠ من غربى الأناضول فى إتجاه الشرق إلى وسطه . وكانت وجهة نظر الكماليين فى هذا التأجيل أن القوات الكمالية فى حاجة إلى تعزيز أمام الزحف اليونانى الكاسح بدلا من تشتيتها بين الجبهتين اليونانية والأرمنية . ولهذا اكتفى المجلس الوطنى الكبير فى أنقرة بتقديم احتجاجات دبلوماسية إلى حكومة جمهورية إريفان .

وتحسن الموقف العسكرى بالنسبة للكماليين فى صراعهم ضد اليونانيين الغزاة ، إذ استطاع عصمت باشا أن يحرز انتصاراً رائعاً عليهم فى معركة دارت فى ١٠ من يناير – كانون ثان – سنة ١٩٢١ فى وادى إينونو شمالى كوتاهية ، ثم أباد قوات يونانية أخرى فى مدينة إينونو فى ٣١ من مارس – آذار – وهى لاتقل فى أهميتها عن المعركة السابقة . وتوج هذا النجاح العسكرى المزدوج بانتصار حربى ثالث قاده مصطفى كمال بشخصه فى معركة نهر سقارية فى ٢٤ من أغسطس – آب – فى ذات السنة . واضطر اليونانيون إلى الإنسحاب إلى خط دفاع جديد فى غربى الأناضول (١) .

---

(١) Lewis B. errd; op. cit., p. 253.
Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw; op. cit., vol. 2, pp. 356—357.

انصرف المجلس الوطنى الكبير فى أنقرة إلى مسألة الأرمن بعد أن اطمأن مؤقتاً إلى الموقف الحربى ضد اليونانيين، فأذن للقائد التركى قرة بكير فى التحرك بقواته ضد الأرمن فى ٧ من أكتوبر – تشرين أول – سنة ١٩٢١ ولكن بشرط ألا يتوغل فى زحفه أكثر من مدينة قارص Kars لأنه كان من المتوقع أن يستأنف اليونانيون هجوماً جديداً . ولكن كان قرة بكير يضمر أمراً آخر هو التوغل فى أراضى الأرمن مااستطاع إلى ذلك سبيلا . وقد سقطت قارص فى يده فى ٣٠ من أكتوبر – تشرين أول – ومضى يتوغل فى المناطق الأرمنية فيما وراء الحدود التى رسمت سنة ١٨٧٧ . وأمام الزحف السريع للقوات الكمالية طلبت حكومة جمهورية إريڤان عقد هدنة أعقبتها معاهدة صلح فى ليلة ٢ - ٣ من ديسمبر – كانون أول – سنة ١٩٢١ وقد وقعت المعاهدة فى إسكندروبول (٢) Alexandropol

وبمقتضى هذه المعاهدة تنازل الأرمن عن كل ادعاء لهم فى الأراضى التركية ، ووافقوا على إنقاص حجم قواتهم المسلحة ، وعلى السماح لتركيا باستخدام الطرق الحديدية التى تمر فى أراضيهم فى اتجاه الشمال، وعلى أن تستولى تركيا على إسكندروبول . وبذلك كسب الكماليون مركزاً حربياً فى كل المعاهدات التى عقدوها مع الروسيا السوفيتية . ومن ناحية أخرى قام الكماليون بنقل الأسلحة التى استولوا عليها من الأرمن إلى الجبهة الغربية لاستخدامها فى الهجوم المرتقب لليونانيين فى الأناضول . ولكن من الأهمية بمكان أن هذه المعاهدة قد أرست الحدود الشرقية لتركيا الحديثة فى جميع المعاهدات اللاحقة بدون تغيير تقريباً إلى الوقت الحاضر . ولكن لم يتم التصديق على هذه المعاهدة سواء من جانب حكومة أنقرة أو جمهورية إريڤان، لأن هذه الجمهورية سرعان ما ابتلعها البلاشفة .

وجدير بالذكر أن الهجوم الذى قام به الكماليون ضد الجمهورية الأرمنية لم يتم بالاشتراك مع الجيش الأحمر كما تزعم بعض المراجع التاريخية . وكل ماحدث أن البلاشفة قد غزوا آذربيجان بينما كان الكماليون يحاربون الأرمن .

---

(٢) تسمى أيضاً لينيناخان Leninakan وفى اللغة التركية جومرو Gumru .

وبعد أن عقدت معاهدة إسكندروبول زحف البلاشفة على جمهورية إريڤان الأرمنية وصبغوها بالصبغة الشيوعية .

وقد مهدت الحرب التركية الأرمنية وما أعقبها من إبرام معاهدة إسكندروبول الطريق لعقد معاهدة تركية سوڤيتية فى ١٦ من مارس — آذار — سنة ١٩٢١(١) وقد اعترفت هذه المعاهدة بالحدود الشرقية لتركيا طبقاً لما ورد فى معاهدة إسكندروبول وأدخلت استثناءين :

الأول : تنازلت تركيا عن سيادتها على مدينة وثغر باطوم Batum لجمهورية چورچيا على أن يكون لتركيا الحق فى استخدام هذا الميناء استخداماً حراً فى نقل جميع صادراتها ووارداتها بدون دفع ضرائب أو رسوم جمركية، وأن تتمتع الطوائف المقيمة هناك بقدر كبير من الحكم الذاتى بحيث يضمن لكل طائفة الاحتفاظ بحقوقها الدينية والثقافية (المادة الثانية بفقرتيها الأولى والثانية) .

الثانى : يكون إقليم ناكيشڤان Nakhichevan (٢) جمهورية سوڤيتية ذات حكم ذاتى تحت حماية آذربيجان بشرط ألا تنقل آذربيجان الحماية لدولة أخرى . وأن تحدد حدود هذا الإقليم بمعرفة لجنة يشترك فيها مندوبون عن تركيا وآذربيجان وأرمينية (١) .

---

(١) بالإضافة إلى الحرب التركية الأرمنية، كانت هناك أسباب أخرى قربت بين الكاليين واتحاد الجمهوريات السوڤيتية وأدت إلى عقد المعاهدة . وكان من بينها رغبة الكاليين فى كسر العزلة التى فرضتها بريطانيا وحليفاتها على حكومة الكاليين ، واستغلال الاتحاد السوڤيتى للكراهية الشديدة التى كان يشعر بها الكاليون نحو بريطانيا وحليفاتها بسبب احتلالهم لأجزاء هامة وعديدة من بلادهم ،ولتأييدهم السافر للعدوان اليونانى تمكين اليونانيين من إنشاء دولة يونانية كبرى تضم الأناضول أو على الأقل الجزء الغربى من الأناضول . وكان الاتحاد السوفيتى يرجو أن يتسلل من خلال هذا التقارب لنشر الشيوعية فى أوساط الكاليين . ويؤيد هذه الحقيقة الأخيرة أن السوفيت فى أثناء مفاوضات لعقد معاهدة لاحقة أعربوا لمصطفى كمال عن رغبتهم فى إدخال الشيوعية إلى تركيا فأجاب بأنه يفضل تأجيل بحث هذا الموضوع إلى ما بعد الفراغ من إنهاء الاحتلال الأجنبى لجميع أنحاء تركيا .

(٢) يقع إقليم ناكيشفان بين وادى آراكس Araxes وجبل داجنا Daghna فى شرق الأناضول .

(٣) النص الرسمى للمعاهدة التركية السوفيتية فى : =

بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تقترح فى مؤتمر لندن ١٩٢٢ إنشاء دولة أرمنية مستقلة تقتطع من الدولة العثمانية :

وعلى الرغم من انتصار الكماليين فى المرحلة الثانية من حرب التحرير ضد اليونانيين ، وهى المرحلة التى توجت بانتصار الأولين فى معركة سقارية (٢٤ من أغسطس – آب – سنة ١٩٢١) : اجتمع وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فى لندن فى مارس – آذار – سنة ١٩٢٢ وعقدوا عدة اجتماعات اقترحوا فى نهايتها عقد هدنة بين الكماليين واليونانيين تعقبها معاهدة سلام شامل تقوم على المبادىء الآتية :

١ – إنشاء دولة أرمنية مستقلة فى الولايات الست فى شرقى الأناضول .

٢ – تنازل الدولة العثمانية لليونان عن أزمير وتراقية الشرقية بما فيها أدرنة العاصمة السابقة للدولة العثمانية قبل أن يتخذ السلطان محمد أبو الفتوح من إستانبول عاصمة لها :

٣ – إبقاء الرقابة الدولية على المضايق التركية – البوسفور ، والدردنيل ، وبحر مرمرة – وإبعاد العثمانيين عنها .

٤ – الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية ولجنة الدين العام .

٥ – إلغاء الرقابة المالية الأوروبية على الحكومة العثمانية .

٦ – رفع الحد الأقصى للجيش العثمانى إلى ٨٥,٠٠٠ مقاتل .

والمعنى المستفاد من هذه الاقتراحات أن الدول الأوروبية الكبرى ، وهى تخطط مشروع خريطة سياسية جديدة لأجزاء من منطقتى الشرق الأدنى والشرق الأوسط ، كانت تضع مسألة إنشاء دولة مستقلة جديدة للأرمن تقتطع من الأقاليم العثمانية فى شرقى الأناضول فى عداد المسائل الكبرى التى كانت تعلق عليها آمالا كبرى مثل تدويل المضايق وتجريد منطقتها من السلاح ،

= British and Foreign State Papers, vol., 118, pp. 990—996.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى مدينة قارص فى ١٣ من سبتمبر – أيلول – سنة ١٩٢١ .

ودعم الأطماع اليونانية فى إنشاء إمبراطورية هيلينية يتوسطها بحر إيجه من ساحليه الشرقى والغربى وتشمل — فيما تشمل — إزمير والنصف الغربى من الأناضول فضلا عن تراقية الشرقية ، والإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية فى الدولة العثمانية ولجنة الدين العام . وكانت كل هذه التنازلات فى مقابل إنهاء حالة الحرب فى الأناضول وإلغاء الرقابة المدنية الأوروبية ، ورفع الحد الأقصى للجيش العثمانى إلى ٨٥,٠٠٠ مقاتل بدلا من ٥٠,٠٠٠ الذى قررته معاهدة سيفر . وبذلك تحقق بريطانيا وحليفاتها أهدافها وهى الهبوط بالدولة العثمانية إلى ظل دولة ؛ أو كما يسمى a shadow-State .

وقد رفض المجلس الوطنى الكبير فى أنقرة قبول الهدنة وما اقترنت به من اقتراحات ، لأنها تتعارض تعارضاً صارخاً مع الميثاق الوطنى . وقرر الموافقة على طلب مصطفى كمال بإتمام الجلاء الكامل قبل البدء فى مفاوضات الصلح . وبذلك تساقط تساقطاً تلقائياً مشروع الهدنة والمبادىء التى قام عليها . وانصرف مصطفى كمال وقواته للمضى فى الصراع الحربى لطرد اليونانيين على بكرة أبيهم من الأناضول وتراقية الشرقية فى حرب التحرير والاستقلال.

الإتجاه إلى وضع معاهدة جديدة بدلا من سيفر

كان فى حكم الاستحالة تنفيذ معاهدة سيفر على الرغم من أن عدة دول أوروبية اشتركت فى التوقيع عليها وظلت المعاهدة مجمدة . وكان من المظاهر الأولى لعدم تنفيذها أن رفض التوقيع عليها رئيس الولايات المتحدة ، ويوغوسلافيا ، والشريف الحسين بن على ملك الحجاز . ولكن كان السبب الأهم فى تجميد المعاهدة هو موقف مصطفى كمال ورفاقه ، فقد رفضوا المعاهدة رفضاً باتاً ووصموا بالخيانة العظمى كل مواطن يقبلها ، وجعلوا ذكرى التوقيع عليها يوم حداد عام فى أنحاء البلاد . وخاض الكماليون بقيادة مصطفى كمال صراعاً حربياً مريراً ضد الغزاة اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين والأرمن لطرد هؤلاء المغيرين من الأناضول . وكانت قوات بريطانية مع قوات رمزية من حليفاتها تحتل إستانبول . وكانت أساطيل الحلفاء تلقى مراسيها فى المضايق التركية وفى موانىء تركيا على البحر الأسود . واستطاع مصطفى

كمال بعد جهاد شاق استطال سنين عددا تحرير الأناضول وإقليم تراقيـــا الشرقية فى أوروبا .

ورأى الحلفاء أن مصالحهم السياسية والاقتصادية والعسكرية تقتضى إنهاء حالة الحرب فى منطقة الشرق الأدنى ، لأن كثيراً من الدوائر السياسية فى العالم الإسلامى والقطاعات الشعبية كانت ساخطة على سياسة الحلفاء تجاه الدولة العثمانية وتفتيتها على هذا النحو المزرى . وكان الحلفاء يخشون قيام حرب عامة جديدة ينضم فيها الاتحاد السوفيتى إلى تركيا بمقتضى المعاهدة المعقودة بينهما بتاريخ ١٦ من مارس — آذار — سنة ١٩٢١ . وكانت هذه المعاهدة هى الورقة الرابحة فى يد مصطفى كمال ، وقد قررت فى مادتها الأولى عدم الاعتراف بأى معاهدة فرضت على تركيا لم تعترف بها الحكومة الوطنية فى تركيا . وانتهى الحلفاء رأياً إلى عقد مؤتمر دولى يجتمع فى فيينا لوضع معاهدة جديدة مع تركيا بدلا من معاهدة سيفر ، ثم اتجه رأيهم إلى عقده فى لوزان بسويسرا تأسيساً على أنها دولة محايدة .

لم يكن من مصلحة الأرمن على الإطلاق القرار الذى اتخذه الحلفاء بعقد مؤتمر لوزان ليعيد النظر فى كافة المسائل التى اشتملت عليها معاهدة سيفر ، لأنه على الرغم من أن المعاهدة الأخيرة لم تنفذ ، كان الأرمن يعلقون آمالهم على أن إنشاء دولة حرة مستقلة لهم كما قررتها معاهدة سيفر إنما هو قرار سيتخذ طريقه إلى التنفيذ العاجل أو الآجل وسواء طالت مدة الانتظار أو قصرت . ولذلك انتابتهم الهواجس خوفاً من المؤتمر الجديد الذى سيعيد بحث المسائل التى سبق تقريرها ؛ وأن هذا البحث سيؤدى حتماً إلى إحدى نتائج ثلاث ، إما الإبقاء عليها أو تعديلها أو إلغائها . وكان الأرمن يخشون إحدى النتيجتين الأخيرتين .

إرهابيان أرمنيان يغتالان أحد قادة الجيوش العثمانية :

بينما كانت الدول الأوروبية قد صحت عزمتها على عقد مؤتمر دولى يضع معاهدة جديدة بدلا من معاهدة سيفر مع الدولة العثمانية وتتضمن المعاهدة الجديدة تسوية مشكلات هذه الدولة والمشكلات المتفرعة عنها مثل قضية

الأرمن ، وقع حادث اغتيال جمال باشا حين تربص أرمنيان إرهابيان هما : كركين لاليان، وسرجو فارتيان، فى مدينة بتليس بأرمينية ، وأطلقا عليه عدة أعيرة نارية أردته قتيلا فى ٢١ من يوليو – تموز – عام ١٩٢٢[1] . وكان جمال باشا قائداً للجيش العثمانى الرابع إبان الحرب العالمية الأولى، تولى قيادته من شهر نوفمبر – تشرين ثان – سنة ١٩١٤ إلى ديسمبر – كانون أول – سنة ١٩١٧، واتخذ دمشق مقراً لقيادته. وكانت اختصاصاته العسكرية والإدارية تمتد عبر منطقة واسعة تبدأ من جنوبى طوروس فى آسيا الصغرى حتى اليمن ، وشملت ولايات أضنه ، وحلب ، ودمشق ، وبيروت ، ومتصرفية جبل لبنان، ومتصرفية القدس (فلسطين) ، وولاية الحجاز . ويلاحظ أن المناطق الخمس الأولى كانت تقيم فيها جموع كثيفة العدد من الأرمن . ولعل تصرفاته معهم فى أثناء قيادته للجيش الرابع قد أوغرت صدر الأرمن عليه . ولما انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية هرب منها وطاف ببعض دول إلى أن انتهى به الأمر بتعيينه مفتشاً عاماً للجيش الأفغانى . وقد تم هذا التعيين بناء على تدخل قوميسير الشئون الخارجية السوفيتى شتيرين . وفى عودة جمال باشا من أفغانستان تعرض للاغتيال ويبدو أن قتله كان جزءاً من حملة الاغتيالات نفسها التى دبرت لطلعت باشا وسعيد حليم باشا اللذين سقطا صريعين من قبله. وقد دفن جمال باشا فى بتليس ثم أعيد دفنه فى أرضروم . وقد وقع حادث اغتياله قبل عقد مؤتمر لوزان بأربعة أشهر . وبصرف النظر عن أن القتيل كان وزيراً للبحرية العثمانية وقائداً للجيش العثمانى الرابع وعضواً فى حكومة الطغاة وعضواً بارزاً فى حزب الاتحاد والترقى ، فإن حادث الاغتيال فى حد ذاته أساء إلى قضية الأرمن، لأنه أعطى للعالم صورة كريهة عن الأرمن، وأكد أنهم لا يزالون إرهابيين، كما أفاد منه مصطفى كمال ورفاقه، إذ زادهم إصراراً فى مؤتمر لوزان على عدم إنشاء دولة لهم فى شرق الأناضول .

مؤتمر لوزان يناقش قضية الأرمن مع قضايا الأقليات :

افتتح المؤتمر فى ٢٠ من نوفمبر – تشرين ثان – سنة ١٩٢٢ وقسمت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية، مادة جمال باشا بقلم D.A. Rustow .

أعماله بين ثلاث لجان. كان يرأس اللجنة الأولى لورد كيرزون وزير خارجية بريطانيا ورئيس الوفد البريطاني في المؤتمر ، واختصت هذه اللجنة ببحث موضوع نظام الملاحة فى البوسفور وبحر مرمورة والدردنيل والبحر الأسود والمسائل العسكرية ومسائل الأقليات والمسائل الإقليمية . وكانت هذه اللجنة هى أهم لجان المؤتمر[1] .

بدأ المؤتمر منذ جلسة أول ديسمبر – كانون أول – يناقش قضية الأرمن مع قضايا الأقليات الدينية والقومية فى دولة تركيا الحديثة مثل اليونانيين والأكراد والأشوريين واليهود . وألقى لورد كيرزون خطاباً ضافياً تناول فيه موضوع الأقليات بشكل عام وأشار إلى اهتمام حكومات العالم بهذا الموضوع . وقال إن الرأى العام العالمى يعلق أعذب الآمال على المؤتمر لإيجاد حل عادل يضمن للأقليات فى تركيا المحافظة على حياتها وحريتها وممتلكاتها . واقترح لورد كيرزون وضع ضمانات معينة للأقليات على غرار الضمانات الممنوحة للأقليات فى الدول التى أنشئت فى وسط أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى ، كما طالب بإنشاء لجنة من قبل عصبة الأمم للإشراف على تنفيذ هذه الضمانات .

وقد رد عليه عصمت باشا وزير الخارجية التركية ورئيس الوفد التركى فى المؤتمر قائلا إن وجود أقليات دينية وقومية فى الدولة العثمانية كان أمراً

---

(١) كانت اللجنة الثانية يرأسها الماركيز جيرونى Marquis Geroni وزير خارجية إيطاليا ورئيس الوفد الإيطالى فى المؤتمر وتختص بنظر مسألة الأجانب المقيمين فى تركيا . أما اللجنة الثالثة فكان يرأسها باريز Barrère رئيس الوفد الفرنسى فى المؤتمر . وكان اختصاصها النظر فى المسائل الاقتصادية والمالية .

أنظر :

Ministère des Affaires Etrangères. Documents Diplomatiques. Confèrence de Lausanne sur les affaires du Proche–Orient 1922—1923. Recueil des Actes de la Conférence. Première Sèrie, tomes 1—17 Deuxième Sèrie, tomes 1-II.

وهذان المجلدان يشملان مضابط جلسات المؤتمر والتقارير التى وضعت فى أثناء انعقاده أو التى قدمها وفود الدول المشتركة فيه كما يتضمن معاهدة الصلح والاتفاقات والبروتوكولات والتصريحات المرفقة بها .

طبيعياً ، لأن الدولة كانت مترامية الأطراف وتمتد أقاليمها فى ثلاث قارات . ولكن تدخل الدول الأوروبية فى موضوع الأقليات هو الذى أعطى المسألة أبعاداً كبيرة وخطرة . فالدول الأوروبية كانت تشجع الأقليات على إثارة الاضطرابات فى وجه الحكومة العثمانية ، فإذا تفاقمت الاضطرابات أرسلت هذه الدول قوات عسكرية بحجة حماية الأقليات ، وخرجت الدول من هذا التدخل بمكاسب سياسية وإقليمية كانت تزيد الدولة العثمانية وهناً على وهن . وأصبح تدخل الدول الأوروبية فى شئون الدولة العثمانية سمة بارزة فى تاريخها فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وخرج عصمت باشا من مقدمته إلى أن زوال الدولة العثمانية لا بد أن يؤدى إلى تغيير وجه موضوع الأقليات تغيراً جذرياً ، لأن دولة تركيا الحديثة لا تقبل على أى نحو من الأنحاء أن يكون وجود الأقليات فى بلادها سبباً فى المساس بالسيادة التركية على أراضيها أو تمزيق هذه السيادة . وخلص من خطابه المستفيض إلى رفض فكرة إشراف عصبة الأمم ، لأن هذا الإشراف نوع من التدخل الدولى فى الشئون الداخلية . وقال إن أحسن ضمان للمستقبل هو القوانين التى تضعها الحكومة التركية والسياسة الحرة التى تنتهجها الحكومة التركية . وإن الحل الأمثل لمسألة اليونانيين هو تبادل إجبارى للسكان الأتراك المسلمين والسكان اليونانيين ، بمعنى أن يعود جميع الأتراك المسلمين المستوطنين فى بلاد اليونان إلى تركيا ويغادر تركيا إلى بلاد اليونان جميع اليونانيين المستوطنين فى الأناضول وتراقيا الشرقية . وذكر أن حكومة أنقرة مصممة على إبعاد اليونانيين من الوطن التركى لأنهم عنصر مشاغب ويتمتعون بامتيازات سياسية وإدارية مستندين إلى وجود البطريركية اليونانية فى إستانبول حيث يمارس البطريرك اليونانى سلطات واسعة ، ويتدخل فى المسائل السياسية والإدارية إلى جانب المسائل الدينية ، وطالب عصمت باشا أيضاً بنقل مقر البطريركية اليونانية من إستانبول (١) .

Harry N. Howard; The Partition of Turkey. A Diplomatic History 1913—1923. New York, 1966., p. 301.

ولم يوافق لورد كيرزون على طلبات عصمت باشا . وقال ريتشارد تشايلد Richard Washburn Child المراقب الأمريكى[1] إنه يجب اتخاذ إجراءات حازمة لتأمين سلامة الأقليات الدينية والقومية فى تركيا . وأيد مندوبو فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا واليونان اقتراحات رئيس الوفد البريطانى.

وفى جلسة ١٣ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩٢٢ استأنف المؤتمر مناقشة موضوع الأقليات . أعطيت الكلمة لعصمت باشا ،فشرح الفظائع التى ارتكبها اليونانيون ضد الأتراك فى الأناضول من إحراق القرى وذبح سكانها وتدمير مساكنهم . وأصر على تبادل السكان ونقل مقر البطريركية اليونانية من إستانبول ، ووصف هذه الإجراءات بأنها «ضرورة مؤلمة ولكنها منطقية»[1] a painful neecessity, but logical وبعد مناقشات طويلة وساخنة اشترك فيها أعضاء المؤتمر ، انتهى الرأى إلى حل قبله اليونانيون على مضض، وهو التبادل الإجبارى للسكان المسلمين الأتراك من جانب واليونانيين من جانب آخر على أن يستثنى من هذا التهجير الإجبارى اليونانيون الذين استوطنوا إستانبول قبل ٣٠ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩١٨ . ولم يستطع عصمت باشا أن يفوز بموافقة المؤتمر على نقل مقر البطريركية اليونانية من إستانبول بعد أن تعهد لورد كيرزون أمام المؤتمر بأن البطريرك اليونانى فى إستانبول لن يمارس أى نشاط سياسى أو إدارى وأن عمله سيكون مقصوراً على المسائل الدينية . وتم التوقيع فى ٣٠ من يناير —كانون ثان — سنة ١٩٢٣ على مشروع الاتفاق بين الوفدين التركى واليونانى على أن يكون تنفيذه

---

(١) لم تشترك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى مؤتمر لوزان ، واكتفت بإرسال ثلاث مذكرات إلى الدول الداعية وهى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أوضحت فيها وجهات نظرها فى المسائل التى يبحثها المؤتمر ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه المذكرات الثلاث فى موطن سابق فى هذه الدراسة (ج ١ ، ص‌ص ٢٨٠ — ٢٩١) ، كما اكتفت بإرسال «مراقبين» يحضرون جلسات المؤتمر ويشتركون فى مناقشاته ويوضحون موقف حكومتهم فى المسائل المعروضة ويخطرون حكومتهم بموقف الدول الأعضاء . واستندت الحكومة الأمريكية فى امتناعها عن الاشتراك فى المؤتمر إلى أنها لم تكن فى حالة حرب مع تركيا ، ولم تكن أحد الأطراف فى هدنة مدروس ، ولا ترغب فى التوقيع على المعاهدة الجديدة المقترحة .

(٢) Harry N. Howard; op. cit., p. 303

إعتباراً من أول مايو – آيار – سنة ١٩٢٣ ، وتم التوقيع على الاتفاق النهائى فى ٢٤ من يوليو – تموز – سنة ١٩٢٣ وأرفق بمعاهدة لوزان على أن يكون مرفقاً بها وجزءاً لا ينفصل عنها(١) .

ويلاحظ أن مسألة اليونانيين قد استغرقت من المؤتمر وقتاً طويلا ، وكانت لها الصدارة على مسألة الأرمن . أما مسالة اليهود فلم تاخذ من المؤتمر وقتاً ولا جهداً ، لأن عصمت باشا حسمها بقبوله الإبقاء على اليهود فى تركيا الحديثة لأسباب سبق أن ذكرناها فى الفصل السابق .

وانتقل المؤتمر فى ذات الجلسة إلى مناقشة قضية الأرمن واقترح الحلفاء إنشاء وطن قومى للأرمن داخل تركيا بدلاً من دولة حرة مستقلة . واعترض عصمت باشا على هذا الاقتراح وقال إنه لايستطيع أن يوافق على هذا الاقتراح الجديد لتمزيق وحدة تركيا الحديثة من أجل الأرمن ، فلهم جمهورية إريفان ، كما أن حكومة أنقرة لايمكن أن توافق على إنشاء لجنة دولية ، لأن من شان هذه اللجنة بكل تأكيد التدخل فى الشئون الداخلية لتركيا . ومع ذلك فإن الحكومة التركية تستطيع أن توافق على منح ضمانات على غرار الضمانات التى أدرجت فى معاهدات الدول التى أنشئت حديثاً فى أوروبا

---

(١) كانت معاهدة لوزان تضم إلى جانب معاهدة الصلح عدة اتفاقات وبروتوكولات مثل اتفاق المضايق التركية ، واتفاق تهجير السكان المسلمين الأتراك والسكان اليونانيين فى اليونان وتركيا ، واتفاق حدود تراقيا ، واتفاق عن شروط الإقامة والتجارة والقضاء ، وتصريح بالعفو العام عن المتهمين السياسيين ، وتصريح عن الأمور الصحية فى تركيا ، وتصريح عن إدارة العدالة فى تركيا ، وبروتوكول عن انضمام بلجيكا والبرتغال إلى بعض مواد المعاهدة ، وبروتوكول عن انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية عن الأراضى التركية المحتلة ، وبروتوكول عن أراضى قره غانش وجزيرتى إمبروس Imbros وتنيدوس Tenedos وبروتوكول عن توقيع يوغوسلافيا لمعاهدة الصلح .

انظر كلا من :

La Confèrence de Lausanne sur les Affaires du Proche-Orient 1922—1923, op. cit.,

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No. 16, Cmd. 1929. Treaty of Peace with Turkey and other Instruments. signed at Lavsanne on July 24, 1923.

عقب الحرب العالمية الأولى . ووصف عصمت اقتراحه بانه آخر مدى عكن أن تصل إليه تركيا . واقترح أيضاً منحهم حرية الانتقال والحركة فى أقاليم الدولة ، ولكنه رفض إعفاءهم من الواجبات العسكرية (١) .

وعمد لورد كيرزون فى رده على أقوال عصمت باشا إلى تذكيره بأن أنظار العالم متجهة إلى الأتراك وما سيفعلون مع الأرمن . وحبذ إحالة قضية الأرمن إلى عصبة الأمم لعلها تجد حلا يتناول المسألة الأرمنية من جميع جوانبها . وقد أجاب عصمت باشا بجلسة ١٤ من ديسمبر — كانون أول — بأن حكومته ترفض رفضاً باتاً منح الأرمن وطناً قومياً فى تركيا ، كما ترفض تماماً تشكيل لجنة دولية تشرف على الأقليات ، وستمنح الحكومة التركية عفواً عاماً عن الجناة الذين ارتكبوا جرائم فى السنوات القليلة السابقة ، وسوف تضع قوانين لحماية الأقليات الدينية والقومية فى تركيا . وهنا تساءل لورد كيرزون عن جدوى القوانين أو المعاهدات التى تضمن حقوق الأقليات ، واقترح إجراء دراسة أخرى عن قضية الأرمن بإحالتها إلى لجنة الأقليات بأمل التوفيق بين الآراء المتضاربة حولها .

إخفاق قضية الأرمن فى مؤتمر لوزان :

قدم تقرير اللجنة الفرعية عن الأرمن إلى المؤتمر بجلسة ٩ من مايو — آيار — سنة ١٩٢٣ متضمناً إدراج نصوص فى معاهدة الصلح مع تركيا تختص بضمانات للأقليات فى الدولة التركية الحديثة . ورفض التقرير فكرة إنشاء لجنة دولية تشرف على تنفيذ هذه الضمانات . وكان هذا الرفض انتصاراً للوفد التركى (٢) . وعلق عليه لورد كيرزون بإبداء أسفه على رفض وفد تركيا وجود مندوب عن عصبة الأمم يقيم فى إستانبول . وقال إنه متألم لتشدد الوفد التركى فى قضية الأرمن . ونفى الاتهام الموجه إلى الحلفاء والخاص بإنشاء وطن قومى للأرمن فى تركيا . ولم يبدد هذا النفى مخاوف الوفد التركى فلم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة . والحق أن عصمت باشا وزملاءه أعضاء الوفد التركى فى المؤتمر كانوا على حق فى معارضة إنشاء وطن قومى للأرمن

(١) Harry N. Howard; op. cit., pp. 303—304.

(٢) Loc. cit.

فى الجزء الشرقى من تركيا الحديثة، لأن هذا مثل الوطن القومى national home وهو تعبير استعارته بريطانيا من تصريح بالفور وزير الخارجية البريطانية فى ٢ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩١٧ بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين — كان سيؤدى إن عاجلا وإن آجلا إلى قيام جمهورية أرمنية تقتطع من جسم الوطن التركى فى الأناضول .

على هذا النحو أسقطت مسألة الأرمن من مناقشات مؤتمر لوزان ، وأدرجت فى صلب معاهدة الصلح مع تركيا المواد من ٣٨ إلى ٤٤ وهى مواد ضافية تنص فى مجموعها على أن تضمن الحكومة التركية حماية أرواح وممتلكات وحرية سكان تركيا بدون تمييز فى جنسية السكان ، أو دينهم ، أو لغتهم ، أو مكان مولدهم . وقررت لأعضاء الأقليات الدينية غير الإسلامية الحق فى ممارسة شعائرهم الدينية فى السر والعلن بشرط أن تكون هذه الممارسة متمشية مع النظام العام والأخلاق العامة ، ولهم الحق فى الهجرة وحرية الحركة فى تركيا . ويكون لهم الحق فى جميع الحقوق المدنية والسياسية المقررة للرعايا المسلمين فى الدولة ، والمساواة التامة مع المسلمين أمام القانون . كما يكون لهم الحق فى إقامة المنشآت الخيرية والدينية والاجتماعية والتعليمية، وأن تكون لغة التعليم فى مدارسهم بلغاتهم ، وأن يمارسوا داخل هذه المؤسسات أيضاً شعائرهم الدينية دون قيد ، وتضمن الحكومة التركية حماية هذه المنشآت بكافة أنواعها . وفيما يختص بالتعليم العام تعهدت الحكومة التركية بأن تمنح فى المدن وأقسام المدن التى تقيم فيها نسبة كبيرة من رعايا الدولة غير المسلمين تسهيلات مناسبة تضمن أن يكون التعليم فى المدارس الابتدائية لأطفال هؤلاء الرعايا غير المسلمين بلغتهم القومية ، ولاتمنع هذه التسهيلات الحكومة التركية من جعل تعليم اللغة التركية إجبارياً فى مثل هذه المدارس . وإلى جانب ذلك كله تتعهد الحكومة التركية عند النظر فى قضايا الأحوال الشخصية المتعلقة بأفراد الأقليات الدينية غير الإسلامية باتخاذ إجراءات تنص على أن يكون الفصل فى هذه القضايا طبقاً لعاداتهم وتقاليدهم ، وأن يعهد إلى لجنة خاصة تشكل من عدد متساو من ممثلى الحكومة التركية وممثلين عن الأقليات الدينية بوضع هذه الإجراءات . وإذا تعذر الاتفاق بين أعضاء

اللجنة ، فإن الحكومة التركية وباتفاق مجلس عصبة الأمم يعهدان إلى أحد المحامين الأوروبيين كحكم للفصل فى هذا الاختلاف فى وجهات النظر . كما تضمنت المعاهدات ضمانات أخرى .

وهكذا انفض مؤتمر لوزان دون أن يحصل الأرمن على كيان سياسى خاص بهم . وتحققت مخاوفهم من عقد هذا المؤتمر ليعيد النظر فى معاهدة سيفر . فقد استبعد مؤتمر لوزان ماجاء فى هذه المعاهدة من انشاء دولة حرة مستقلة لهم فى شرق الأناضول . ولما عرضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا على المؤتمر إنشاء وطن قومى للأرمن داخل الأراضى التركية اعترض الوفد التركى بشدة على هذا الاقتراح ونجح فى استبعاد المشروع البديل . ويلاحظ أيضاً أن عصمت باشا لم يطالب بإخراج الأرمن من تركيا كما فعل مع اليونانيين الذين استوطنوا تركيا . وسمح لهم بالبقاء فى أراضى الجمهورية التركية كأقلية دينية غير إسلامية تمارس نشاطها الاقتصادى والمالى والتعليمى والاجتماعى فى ظل القوانين التركية ، ووافق على الضمانات التى وضعتها لهم لجنة الأقليات فى المؤتمر وأدرجتها فى معاهدة الصلح

ويقول الدكتور نانسن ، تعليقاً على النتيجة التى انتهت إليها قضية الأرمن ، إن مؤتمر لوزان قد ضحى بالأرمن ، وهم شعب موهوب ذو نشاط خارق للعادة ، وهم لايملكون آبار بترول ولامناجم ذهب . وكان من الأفضل لو التزم أعضاء مؤتمر لوزان الصمت التام إزاء قضية الأرمن ولم يرد على ألسنتهم ذكر لكلمة الأرمن (١) . وكان نانسن قد أوفدته عصبة الأمم قبل عقد مؤتمر لوزان إلى منطقة الشرق الأدنى لدراسة مشاكل الأقليات فى أرجائه . وأسهم فى مناقشات المؤتمر بعد عودته .

موقف الأرمن من ثورة الأكراد سنة ١٩٢٥ :

وقف الأرمن بصفتهم مواطنين أتراك موقفاً اتسم بالولاء والإخلاص للجمهورية التركية سنة ١٩٢٥ حين قام الأكراد بثورة عارمة فى الجنوب

(١) Fridtjof Nansen; Armenia and the Near East. London. 1928, p. 324.

الشرق من الأناضول متأثرين بالدعاية الشيوعية التى روج لها الشيوعيون فى الاتحاد السوفيتى ومتأثرين أيضاً بالمحافظين الأتراك وجماعات الدراويش الذين كانوا يعارضون السياسة العلمانية التى انتهجها كمال أتاتورك ، وكانوا ينظرون إليها على أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام . ويرى البعض أن ثورة الأكراد هى حركة قومية انفصالية تزعمها كبراؤهم الذين حلوا محل طبقة أعيان الوادى Derabeys فى الأناضول . وكانت هذه الطبقة قد اختفت قبل عهد الجمهورية (١) .

قام الأكراد بعمليات تخريبية فى ديار بكر بزعامة الشيخ سعيد ، ونهبوا ثم أحرقوا عدداً من المدن الكبيرة والصغيرة والقرى . ولقيت الثورة عطفاً عليها من المواطنين الأتراك المحافظين المتمسكين بالإسلام فى إستانبول وغيرها ، وكذلك من أصحاب الطرق الصوفية والدراويش ومن إليهم . وعلق الشيوعيون والأكراد آمالا كباراً على انضمام الأرمن فى تركيا إليهم . فقد كان الروس (السوفيت) حلفاء للأرمن فى الحرب العالمية الأولى . وكان الأكراد يغرون الأرمن بالعمل على تحسين أوضاعهم السياسية فى الأناضول . ولكن لم يجد الشيوعيون والأكراد استجابة من الأرمن : إما خوفاً من بطش قوات الجمهورية التركية بهم ، وإما رضاء بوضعهم بعد أن فقدوا الأمل بعد كفاحهم المرير من أجل الاستقلال أو الحكم الذاتى . وكانت ثورة الأكراد عارمة واجهها كمال أتاتورك بعنف متزايد ، فعين عصمت إينونو رئيساً للوزارة بدلا من على فتحى فى ٣ مارس — آذار — سنة ١٩٢٥ ، واستصدر من المجلس النيابى فى أنقرة فى اليوم التالى قانون « إعادة النظام » ؛ وتقرر بموجبه منح الحكومة سلطات استثنائية واسعة ، وإنشاء محاكم الاستقلال (استقلال محكمة سى) فى أنقرة والولايات الشرقية فى الأناضول لمحاكمة وسجن أو إعدام الثوار تبعاً لجسامة الجريمة التى يرتكبها كل منهم . وقبضت السلطات التركية على الشيخ سعيد وكبار مساعديه فى ١٥ من أبريل — نيسان — عام ١٩٢٥ وقدمتهم

---

(١) Lewis B.; op. cit., pp. 38, 409—410.

لمحكمة الاستقلال فى ديار يكر فى ٢٥ من مايو – آيار – ونفذ فيهم حكم حكم الاعدام فى ٢٩ من يونيو – حزيران – فى ذات السنة .

الأرمن بعد مؤتمر لوزان (١٩٢٢ – ١٩٢٣) :

ونأتى إلى الفصل الأخير من قضية الأرمن استكمالا لها فى هذه الدراسة . احتوى الأرمن شعور من الأسى العميق للنتيجة السلبية التى انتهت إليها قضيتهم فى مؤتمر لوزان لسنة ١٩٢٣ وارتضوا على مضض الوضع السياسى الذى تقرر لهم : أقلية دينية غير إسلامية تعيش جنباً إلى جنب وعلى قدم المساواة مع أغلبية إسلامية ساحقة هى الشعب التركى (١) . وأخلدوا إلى السكينة والهدوء . وأوفت الحكومة التركية بعهودها وانتهجت معهم سياسة التسامح ومنحتهم حريات سياسية واقتصادية وثقافية ودينية وغيرها . وأخذت تجند شبابهم فى القوات المسلحة التركية أسوة بالمسلمين . ونجح بعض منهم فى الانتخابات العامة وغدوا أعضاء فى البرلمان التركى . وتقلد بعض آخر مناصب قيادية فى الحكومة . وانصرف الأرمن فى مجموعهم إلى مزاولة نشاطهم التجارى والصناعى والمصرفى المكثف فى الجمهورية التركية بحيث أمسى الأرمن من أبرز الأقليات الدينية غير الإسلامية فى المجتمع التركى . أما فى المجالات الدينية والثقافية فكانت لهم ثلاثون كنيسة وأكثر من ثلاثين مدرسة

---

(١) كان حزب الشعب الجمهورى والذى كان يرأسه بصفة دائمة كمال أتاتورك قد وافق فى ٥ من أبريل – نيسان – سنة ١٩٢٨ من حيث المبدأ على علمانية الدستور التركى أى تجريده من أحكام الشريعة الإسلامية . وأحال المشروع فى ذات اليوم إلى المجلس الوطنى الكبير الذى أحاله بدوره إلى لجنة الشئون الدستورية بالمجلس لدراسته . وفى اليوم التاسع من ذات الشهر وافق جميع الأعضاء الحاضرين – وكان عددهم ٢٦٩ عضواً – على مشروع القانون بإدخال التعديلات المقترحة، وكان من بينها إلغاء المادة الثانية من الدستور والتى تنص على أن « الدين الإسلامى هو دين الحكومة التركية » وكان هذا النص موجودا فى الدستور العثمانى الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى سنة ٨٧٦ مع تعديل طفيف تطلبه تغيير الوضع القانونى لتركيا بعد إعلان النظام الجمهورى بها . واستبدل المجلس بتلك العبارة عبارة جديدة هى أن الجمهورية التركية دولة علمانية . وفى ذات الجلسة أدخل المجلس ثلاثة تعديلات على الدستور نصت على استبعاد النصوص الدينية الإسلامية الواردة به .

انظر :

Ataturk. Biography; published by the Turkish National Commission for UNESCO, Istanbul, 1981, p. 151.

فى مختلف درجات التعليم . ووقف الأرمن موقفاً وطنياً تركياً رائعاً حين أدخلت الحكومة التركية فى ١٧ من فبراير – شباط – سنة ١٩٢٦ القانون المدنى على غرار القانون المدنى السويسرى لتنظيم حياة الأسرة ومنع تعدد الزوجات وتنظيم مسائل الطلاق وغير ذلك من مسائل . فطلب الأرمن فى تركيا التنازل عن الحق الذى قررته لهم معاهدة لوزان (المادة ٤٢) فى أن يكون الفصل فى قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم طبقاً لتقاليدهم وعاداتهم ، وطالبوا بتطبيق القانون المدنى التركى الجديد عليهم . ووافقت الحكومة التركية على طلب الأرمن دعماً للوحدة الوطنية وتعميقاً للشعور الوطنى بين رعايا الجمهورية (١) .

وإحقاقاً للحق آثرت مجموعة من الأرمن مغادرة الأراضى التركية ، إما خوفاً من أن تنكث الحكومة التركية بعهودها مما يعرضهم للاضطهاد ، وإما طمعاً فى تحقيق ثروات ضخمة فى دول أخرى . فهاجرت جموع منهم إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وبلغاريا ومصر وسورية ولبنان والعراق. ولكن اتجه معظمهم إلى كندا والولايات المتحدة الأمريكية وبخاصة الأجزاء الشمالية منها . ويبلغ عدد الأرمن فى تركيا فى الوقت الحاضر (١٩٨٠) أكثر من سبعين ألف نسمة .

عودة إلى النشاط الإرهابى الأرمنى :

عادت جماعات من الإرهابيين الأرمن منذ سنة ١٩٦٥ ينظمون صفوفهم وكونوا جمعيات إرهابية لعلها كانت بعثاً لجمعية الناقوس Hunchak وجمعية داشناكس Dashnaks أو الاتحاد الثورى الأرمنى A.R.F. وزاولوا نشاطهم الإرهابى خارج أراضى الجمهورية التركية ضد أعضاء السلكين الدبلوماسى والقنصلى التركيين . وبدأ نشاطهم الثورى فى صورة متواضعة نسبياً حين أعلن أسقف الأرمن فى بيروت اعتبار يوم ٢٤ من أبريل – نيسان – سنة ١٩٦٥ يوم حداد عام للأرمن فى لبنان

(١) ATATURK. Biography, op. cit., p. 150.

بمناسبة مرور خمسين عاماً على مذابح الأرمن فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩١٥، والذى قامت فيه السلطات العسكرية العثمانية بترحيل الأرمن من شرق الأناضول إلى معسكرات الترحيل فى الموصل لتأمين سلامة القوات العثمانية التى كانت تخوض معارك ضارية ضد الروس . واتجه تفكير الأرمن فى لبنان إلى تنظيم مظاهرة ضخمة وصاخبة تطوف بأحياء العاصمة اللبنانية تمجيداً لذكرى شهداء الأرمن . وقد استنكر كبير أساقفة الأرمن فى إستانبول بوغوص كيرشيان Bogos Kirechyan هذا التصرف وأدان المحرضين عليه والمنضمين إليه . وذلك فى بيان رسمى نشرته جريدة Hurriyet أى « الحرية » التى تصدر فى إستانبول فى عددها الصادر فى ٦ من أبريل — نيسان — ١٩٦٥ . وكان هدف الأرمن المتطرفين من هذا التصرف بشقيه — إعلان الحداد العام وتنظيم المظاهرة — هو جعل هذه المذابح حية فى أفئدة الأجيال الصاعدة من شباب الأرمن ، فضلا عن إثارة الأحقاد على الأتراك عن مذابح قديمة تعرض لها الأرمن فى القرنين التاسع عشر والعشرين وطواها التاريخ . ولم يذكر هؤلاء المحرضون شيئاً عن المذابح التى أوقعها الأرمن بالمسلمين العثمانيين .

ولم يلبث أن عمد المتطرفون الأرمن بعد حادث بيروت إلى توسيع نطاقهم الإجرامى بعد أن تحولوا إلى إرهابيين ضد الأتراك منذ سنة ١٩٧٥ فى العواصم الأوروبية : باريس ، لندن ، فينا ، مدريد ، الفاتيكان . فكانوا يتصيدون أعضاء السلكين الدبلوماسى والقنصلى الأتراك . ويمسكون بالضحية وينهالون عليها فى لحظات معدودة بوابل من الطلقات النارية ثم يولون الأدبار . ولقى فريق من الدبلوماسيين الأتراك مصرعهم وأصيب آخرون بجراح خطيرة . واتخذت الحكومة التركية بالتعاون مع حكومات الدول الأجنبية إجراءات أمن مشددة للحفاظ على أرواح مبعوثيها السياسيين وعلى سلامة دور السفارات والقنصليات التركية .

الأرمن الأتراك يتددون بالإرهابيين الأرمن :

وقد صدر فى سنة ١٩٨٠ كتاب باللغة الفرنسية عنوانه : « حقائق يعبر عنها الأرمن الأتراك » وقد سبق أن أشرنا إليه . وقد نشرته جريدة يومية أرمنية تسمى جاماناك تصدر فى إستانبول . وترجم إلى اللغتين الإنجليزية والتركية .

وقد كشف هذا الكتاب بصراحة عن أسرار خطيرة وراء العمليات الإرهابية التى قام بها أرمن أتراك مخدوعون بدعاية بعض الدول الأجنبية وبخاصة من الحكومة اليونانية ومن الشيوعيين . فالعلاقات السياسية بين الحكومتين التركية واليونانية تمر بأزمات سياسية متعاقبة بسبب جزيرة قبرص حيث تحتل القوات التركية الجزء الشمالى من الجزيرة وبسبب الأقلية الإسلامية التركية فى تراقيا الغربية حيث يعيش أكثر من مائة ألف تركى مسلم يتعرضون من الحكومة اليونانية لسياسة التمييز العنصرى وما يتبعها من وسائل الاضطهاد والضغط والكبت (١) . ومن المعروف أن تراقيا كانت تابعة لبلغاريا . فلما دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب دولتى الوسط والدولة العثمانية وتعرضت هذه الدول للهزيمة فرضت بريطانيا وحليفاتها على بلغاريا معاهدة نويللى Neuilly فى ٢٧ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩١٩ وبمقتضاها تنازلت بلغاريا عن تراقيا الغربية لليونان (٢) . وفى معاهدة سيفر Sèvres (١٠ من

---

(١) نشرت منظمة تضامن أتراك تراقيا الغربية كتاباً سنة ١٩٧٩ عنوانه :

How the West Thrace Moslem Turks are annihilated .

أى كيف يباد المسلمون الأتراك فى تراقيا الغربية ؟ وقد سجل وصفاً رهيباً للاضطهاد العنصرى والسياسى والدينى والثقافى والاجتماعى الذى يواجهه الأتراك المسلمون فى تراقيا الغربية . والكتاب مطبوع فى شركة مطابع آلتينوك Altinok .

(٢) أنظر بنود معاهدة نويللى فى :

Miller W., op. cit., pp. 540—541.

٧-**أسباب خلع السلطان عبد الحميد الثانى ١٨٧٦-١٩٠٩** للباحث الفلسطينى يوسف حسين عمر أجازتها جامعة اليرموك.

وهذه الدراسة محاولة جادة لدراسة فترة حكم السلطان عبد الحميد ومعرفة الظروف السياسية المحيطة به داخليا وخارجيا خاصة منذ ظهور جمعية الاتحاد والترقى ونشاطها الداخلى والخارجى وعلاقتها بالقوى الأوربية واليهودية العالمية بجميع مؤسساتها، والأشكال التى عبروا فيها عن أنفسهم من ماسونية وصهيونية وغيرها، والظروف التى أدت إلى خلع السلطان عبد الحميد، ومساهمة القوى الأجنبية المختلفة مع جمعية الاتحاد والترقى فى خلعه عام ١٩٠٩.

ب- أحوال الدولة العثمانية الخارجية .

تعرضت الدولة العثمانية للعديد من المؤثرات الخارجية أثرت على سياسة الدولة، والتي على أساسها كانت الدولة في كثير من الأحيان ترسم سياستها وفق متطلباتها ومن ذلك .

١- الامتيازات الأجنبية:

تعرف كلمة الامتيازات اصطلاحا : بأنها مجموعة الحقوق التي تمنح للدول الأجنبية من قبل دول أخرى بناء على اتفاق أو معاهدة مبرمة بينهما[١].

وتاريخ الامتيازات قديم جدا ، وكانت أحد الشروط الرئيسية لتبادل التجارة الدولية ، وكانت إحدى الوسائل الضرورية للإمبراطوريات القوية لتحقيق مصالحها في شتى المجالات ، وقد تنوعت الامتيازات، فمنها الامتيازات التجارية والدينية والسياسية وغيرهما[٢] .

ولقد مرت الامتيازات في أربعة مراحل كان أهمها المرحلة الرابعة التي امتدت من سنة ١٨٣٩-١٩١٤م. وتميزت هذه المرحلة من الامتيازات عن سابقاتها باتخاذ معاهداتها سمة الدولية المشتركة، ويقصد بها تحالف عدة دول واشتراكها معا في طرف واحد في معاهدة ما مقابل الطرف الثاني الذي تمثله الدولة العثمانية، بعد أن كانت هذه المعاهدات ثنائية الأطراف في السابق، كما تميزت هذه المرحلة بالشمولية في تحقيق الأهداف الاقتصادية والسياسية والدينية والعسكرية وحقوق الملكيات الخاصة والحريات العامة والنواحي الاقتصادية والعدلية وأخذت الامتيازات تناسب العصر الجديد والمصالح الأوروبية[٣].

اثر الامتيازات على اقتصاد الدولة العثمانية .

أثرت الامتيازات تأثيرا سلبيا على الاقتصاد العثماني بشكل خاص، وعلى الدولة العثمانية بشكل عام ، حيث شهدت الدولة ضعفا واضحا على المستوى السياسي والعسكري والاقتصادي، في الوقت الذي قررت فيه الامتيازات للدول الأوروبية الكثير من الحقوق، منها الإعفاء الكامل من الضرائب الجمركية الداخلية ، الأمر الذي أدى الى خفض أسعار البضائع واستهلاكها بسرعة، كما أدى إلى أضعاف التجارة الداخلية والخارجية، في الوقت الذي وجدت فيه أسواق أوروبية داخل الدولة ، الأمر الذي جعل الصناعات العثمانية غير قادرة على منافسة نظيرتها الأوروبية، وفي الوقت نفسه الذي قامت فيه أوروبا باستغلال

---

(١) وليد العريض . *" تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها "* ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ،الجامعة الأردنية ، عدد ١، م٢٤ ، ١٩٩٧ ، ص ١٤٥ .

(٢) المرجع والصفحة نفسهما.

(٣) المرجع نفسه ، ص١٥١. - أنظر عن مراحل الامتيازات بتوسع في: العريض. *تاريخ*، ص ١٤٨-١٥١.

المواد الخام واستخراجها بأسعار زهيدة ، وهذا أدى في كثير من الاحيان إلى صعوبة إيجـاد العثمـانيين لهذه المواد لصناعاتها الوطنية ، مما أدى إلى اختفاء الصناعات الصغيرة من الأسواق[١]، ولقد تركـزت الأسواق الأوروبية في قلب الدولة العثمانية، دون مناطق أخرى في شرق الدولة والمناطق العربية [٢].

ويوضح 'جب – بوون' مدى ما كانت تمنحه الامتيازات للأجانب ومدى استغلالها من قبلهم بقوله: "ولما كان تحت تصرف كل سفير خمسون براءة ولما كانت المنحة تتجدد عند كل تعيين جديـد، لا يدعـو للعجب ان تزداد بسرعة أعداد أولئك الذين كانوا ينعمـون بالرعايـة الفرنسـية والنمسـاوية والسـويدية والبريطانية، وغيرها من الجنسيات الأوروبية ممن كانوا يندمجون في هذه الجنسيات و يشـاركون فـي نفس القضاء القنصلي، ويمكن أن نتبين مدى سوء استعمال هذا الحق ما وصل إلينا من أن باشـا 'حلـب' شكا إلى الباب العالي في عام ١٧٩٣ من أن عدد تراجمة القناصل في 'حلب' زاد حتى بلغ حوالـي ألـف وخمسمائة وكلهم معفون من الضرائب ويعملون في التجارة" [٣].

الحقيقة أن الامتيازات وجدت في ظل خلل واضح في النشاط التجاري للدولـة العثمانيـة، حيـث اعتبر هذا النشاط محطا لقدر حضارتهم التي تقوم على الفروسية والشهامة، إلا أن الأمور بدأت تخرج من كونها مجرد امتيازات تجارية إلى اكتساب مميزات قانونية أصبحت حقوقا في أيدي الدول العظمى تؤثـر إما في تعزيز أهدافها القومية، وإما لإجبار الدولة على إدخال الإصلاحيات التي وعدت بـها فـي عـدة مؤتمرات وفرمانات إصلاحية[٤].

ومن وجهة النظر العثمانية كان من الاعتراضات على نظام الامتيازات الأجنبية هو الطريقة التـي أدت إلى ظهور نظام الحماية التي أعطت نوعا من التنظيم الذي يخول الرعايا العثمانيين إمـا الحصـول على الجنسية الأجنبية، وإما طلب الحماية من أية دولة أجنبية دون ان يتطلب هذا الإقامة في هـذه الـدول التي تعطيه الحماية، بالتالي يصبح له حق التمتع بالامتيازات الأجنبية سواء كانت سياسـة أو تجاريـة أو دينية، كما يتمتع بها رعايا الدول الأخرى الذين يعيشون في الدولة العثمانية[٥].

هذا الأمر أدى بالكثير من هؤلاء الرعايا للتهرب من عبء الضرائب والتمتع بالامتيـازات، بـل وصل الأمر إلى أن الصناديق البريدية للدول الأوروبية كانت وفق الامتيازات معفاة تماما مـن التفتيـش والمراقبة من وإلى الدولة العثمانية[٦].

---

[١] العريض. *تاريخ* ، ص ١٥٨.

[٢] سيار الجميل. *تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦* (الموصل : جامعة الموصل ، ١٩٩١) ص٣٣٩..

[٣] هاملتون جب – هارولد بوون. *المجتمع الإسلامي والغرب* ، ترجمة ، احمد عبد الرحيم مصطفى، (مصر: دار المعارف، ١٩٧١)، ج٢، ص ١٦٢.

[٤] ميم كمال أوكه. *السلطان عبد الحميد الثاني، بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية* ، ترجمة، إسماعيل صادق. (ط١، القاهرة : الزهراء للأعلام العربي، ١٩٩٢)، ص٥٤-٥٥.

[٥] المرجع نفسه ، ص ٥٥.

[٦] باتريك. *سلاطين* ، ص٩٦.

تعدى أمر الامتيازات إلى قيام الدول الأوروبية بأعمال المراقبة داخل ولايات الدولة العثمانية ففي مكدونية[١] (Macedonia) - التي تتألف من ولايات 'مناستير'[٢](Monastir) و'كوسوفو' و 'سلانيك'- تأسست أواخر القرن التاسع عشر إدارة خاصة تحت مراقبة خمس دول أوربية هي 'إنجلترا' و'فرنسا' و'روسيا' و'النمسا' و'إيطاليا'، وكانت المراقبة تشمل بوجه خاص الشؤون المالية وأمور الأمن، وكانت كل منهما تحت مراقبة دولة من هذه الدول الخمس، على ان يكون مركز كل ولاية هيئة مراقبة تشرف على أعمال مراقبي الاقضية، على ان تكون في 'سلانيك' هيئة للمراقبة الدولية مع مفتش عام عثماني يعين لمدة خمس سنوات، فلا يتم عزله طوال هذه المدة ويتمتع بسلطات تنفيذية هامة[٣] الأمر الذي كان ينتقص من سيادة الدولة العثمانية على أراضيها.

"ومع أن المقصود أصلا من هذه المعاهدات أنها امتيازات منحها حاكم ذو سلطان، لا أنها حقوق انتزعت من سيد ضعيف، فقد منح الأجانب امتيازات إقليمية كانت شيئًا مذلا للترك حتى انحلال الإمبراطورية "[٤].

كانت حصيلة الامتيازات أنها وفرت للأوروبيين تشكيل حكومة داخل الحكومة العثمانية مما حال دون قيام الدولة حقاً بتنفيذ مشروعاتها، لذلك فقد اعتبرت الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة

---

[١] مكدونية : هي اقليم جنوب شرق اوروبا ، تمتد شمالا من بحر ايجة بين ابيروس وتراقيا ، وينقسم الاقليم من الناحية السياسية الى مكدونية اليونانية وعاصمتها سلانيك ، وجمهورية مكدونية اليوغسلافية المتمتعة بالحكم الذاتي وعاصمتها سكوبلي ، ومكدونية البلغارية . ولقد صارت مكدونية رقعة خليطة من الاديان والقوميات من المسيحيين والمسلمين واليهود والبلغار واليونان . وحينما اخذت الدولة العثمانية تتفكك في القرن التاسع عشر ، ادّعت كل من اليونان وصربيا وبلغاريا حقّها في تملكها ، وأعطت معاهدة سان استيفانو الجانب الاكبر منها الى بلغاريا ، لكن مؤتمر برلين أعاد الحكم العثماني المباشر عليها من جديد . انظر – عبد الغني العريسي . *مختارات المفيد* ، (ط ٤ ، بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩١)، ص ٢٩٧.

[٢] مناستير . أو بيتولا Bitola في السلافية ، وهناك من يرى ان هذا الاسم من Butelion اليونانية او Obitel السلافية ، او بيت الله بالعربية ، ومن هنا تبدو الصلة بين تسمية بيت الله والتسمية العثمانية مناستير أي الدير ، وذلك عندما سقطت في يد العثمانيين خلال ١٣٨٣ – ١٣٨٧، حيث تطورت بسرعة لتصبح من اعظم المراكز الاقتصادية والثقافية في البلقان ، وفي القرن الخامس عشر ، استوطنت فيها ٢٠٠ عائلة يهودية ، مما جعل لليهود حضور مميز فيها منذ ذلك الحين . انظر حسن كلشي . الوجه الاخر للاتحاد والترقي، تقديم وترجمة محمد الارناؤوط ، (اربد : قدسية للطباعة والنشر ١٩٩٠) ، ص ٣٨.

[٣] ساطع الحصري . *البلاد العربية والدولة العثمانية*، (ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠)، ص ١٠٧ .

[٤] فيليب حتي. *تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين* ، ترجمة، كمال اليازجي، (بيروت : دار الثقافة، ١٩٥٩) ،ج٢ ، ص٣١٣ ؛ الشناوي . *الدولة* ، ج٢، ص٧٥٠.

للعثمانيين[1] خصوصا وأن مبدأ التبادبه والتعامل بالمثل على سبيل التكافؤ امر لم يعد قائما مثلما كان عليه الأمر في السابق[2].

ويوضح السلطان 'عبد الحميد' انه لما أراد إلغاء الامتيازات قامت الصحف الأوروبيـــة بالصياح والعويل، حيث اظهروا الدولة العثمانية بمظهر المعتدي على حقوق الآخرين في حين يدرك المحـــايد أن هذه الامتيازات هي التي هضمت حقوق الدولة العثمانية وألحقت بها الحيف[3].

٢- التنافس الدولي وظهور المسألة الشرقية.

ظهرت العديد من الدراسات الأوروبية التي تحدثت حول تقسيم الدولة العثمانية فـــي الثلـث الأول من القرن التاسع عشر[4]. ومن هنا ظهر مصطلح 'المسألة الشرقية' الذي أرادوا به حال الدولة العثمانيـــة بالنظر الى مصالحهم وأطماعهم ، حيث اعتقدت أوروبا أن الدولة العثمانية تجـــاوزت الشـيخوخة ، وآن انحلالها، وكل دولة تطلب حقها من تلك الغنيمة ، ويتذرعون الى ذلك غالبا بأسباب دينية، فيزعمون أنـــهم يريدون حماية المسيحية في الشرق ، أو القصاص من بعض الحكام العثمـــانيين ، لأنـــهم تعـدوا علــى مصالحهم التجارية ، وكان الغرض الأساسي من هذا التحرش هو القضاء على الدولة العثمانية كليا [5].

ومن الصعب حصر المسألة الشرقية في إطار واحد من التعريف، ولكن يمكن القول بوجـــه عـام بأن المسألة الشرقية تتناول المصالح المتضاربة ، والتنافس العنيف الذي وقع بين الـدول الأوروبيـــة فـــي مجالات السياسة والاقتصاد والدين ، وعلى وجه التحديد ، فهي المسألة التي تتناول في الدرجـــة الأولـــى الدولة العثمانية، منذ ان ظهر العثمانيون في آسيا الصغرى ، وفي جنوب أوروبا ، ومنطقة الشرق الأدنـى، وبذلك شاع القول السائد :"منذ أن ظهر الأتراك في أوروبا نشأت مسألة شرقية"[6] .

كما اصطلح على تسمية الدولة العثمانية باسم ' رجل أوروبا المريض' (The Sick Man of Europe) ، وقد صدرت هذه التسمية عن القيصر الروسي 'نيقولا الأول' (Nekolas I) في حديث جرى سنة ١٨٤٤ بينه وبين 'ابردين' (Aberdeen) رئيس وزراء بريطانيا وذلك في 'وندســـور' (Windsor)؛ في إنجلترا، حيث كانت تجمع الاثنان صداقة وثيقة ، لكن هذا المصطلح أو التصريح لم يكـــن الأول مـــن

---

(١) الحصري . *البلاد* ، ص٧٥١.

(٢) قيس العزاوي. *الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط* (ط١، فلوريدا: مركز دراسات الإسلام والعـــالم، ١٩٨٤)، ص٢٠.

(٣) عبد الحميد الثاني. مذكراتي، ص٧٠

(٤) رفيق شاكر النتشة. *السلطان عبد الحميد وفلسطين، السلطان الذي خسر عرشه من اجل فلسطين*، (ط١ ، الرياض: شركة مطابع نجد التجارية، ١٩٨٤) ص ٦٢ .

(٥) حسين لبيب. *تاريخ المسألة الشرقية*، (مصر: مطبعة الهلال، ١٩٢١)، ص ٤ .

(٦) زين نور الدين زين. *الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ولادة دولتي سوريا ولبنان*، (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٠)، ص ٢٢ - انظر، وديع تلحوق. *الصليبية الجديدة في فلسطين*، (دمشق: مطبعة النضال، ١٩٨٤)، ص ١٩.

نوعه لقيصر روسيا ، بل سبقه تصريح يتفق في مضمونه على ذلك ، حيـــن صـــرح فـــي عـــام ١٨٣٣ بالقـــول: "I have no power to give life to the dead, and the Turkish Empire, is: dead, I have no confidence in this old body, preserving life, it is dissolution from all sides" "ليس في استطاعتي ان ابعث الحياة في الموتى، ان الإمبراطورية العثمانية دولـــة ميتـــة ، وليس لدي ثقة في ان يستمر هذا الجسم العجوز محافظا على الحياة ، انه في حالة انحـــلال فـــي جميـــع النواحي"[١].

ولهذا فقد سعت الدول الأوروبية لحل هذه المشكلة، وقد وضعوا لذلك الخرائط ، وكانت 'إنجلـــترا' اقل الدول رغبة في إنهاء المسألة الشرقية ، باقتسام أملاك الدولة العثمانية[٢]، في حين كانت 'روسيا' اشـــد رغبة من غيرها في إنهاء هذه المسألة ، حيث كانت 'روسيا' في سياستها تجاه الدولة العثمانية تقوم علـــى للتطبيق العملي للتعليمات التي وضعها القيصر 'بطرس الأكبر'-مؤسس روسيا الحديثة- بالإضافـــة إلـــى تطبيق وصايا القيصر 'اسكندر الأول'(Alexander I) الذي طلب في ١٩ نيســـان ١٨١٢م مـــن رجـــال السياسة وموظفي الدولة ان يغرسوا في قلوب الأمم البلقانية حب الروس، وتحريض الناس علـــى تأســـيس ممالك داخل الدولة العثمانية، وظلت 'روسيا' ورجال سياستها الى وقت بعيـــد يطبقـــون هـــذه التعليمـــات والوصايا بحذافيرها[٣] .

ولم تترك الدول الأوروبية حركات التحرر الذاتي تسير بنفسها داخل القوميات التي تخضع للدولـــة العثمانية، بل أسرعت وقامت بصبغها بالصبغة الدينية العامة لدمجها مع أهدافها الخاصة ، ذلك لأن مبـــدأ التوسع الاستعماري الحديث كان قد انتشر بينها ، وكانت هذه الدول تتنافس فيما بينها في هـــذا الميـــدان ، وكل منها تسعى للظفر بحصة الأسد ، وتسعى للسبق في السيطرة ، وانتزاع أجزاء مما تطمح إليـــه قبـــل سواها من الدول ، ولما كانت الدولة العثمانية تسيطر فعليا على منافذ بعض المضائق ، وعلى كثـــير مـــن البلاد التي تتنازعها مطامع الدول الاستعمارية، لذا اصبح لا بد من إزالتها عن الطريق بأية وسيلة كـــانت واقتسام تركتها، وتوزيع ممتلكاتها غنائم وأسلابا على تلك الدول الطامحة[٤] .

لذلك فقد قال قيصر روسيا 'نقولا الأول' حين كان يبذل جهده لاقناع 'بريطانيا' على اقتسام الدولـــة العثمانية : "يوجد بين وزرائي رأيان بشأن تركيا ، فبعضهم يصرح بأنها في حالة الاحتضـــار، وبعضـــهم يعلن انها لقيت حتفها ، وعلى كل حال فلا شيء يحول دون مماتها العاجل"[٥].وكانت 'إنجلترا' تسعى فـــي

---

[١] الشناوي. *الدولة* ، ج ٢ ، ص ٨٣١ .

[٢] لبيب. *تاريخ* ، ص ٥ ,

[٣] عبد الحميد الثاني . *مذكراتي* ، ص١٤٥

[٤] تلحوق. *الصليبية*، ص ٢٠ .

[٥] النمر *نظرات*، ص ١٦٩ .

هذه المرحلة إلى إدامة الصداقة بينها وبين الدولة العثمانية بسبب ما تمثله الأخيرة من نفوذ لدى مسلمي 'الهند'[١] .

مما يذكر في هذا المجال أن اللورد 'سالزبوري' رئيس الوزراء البريطاني في حديث له عام ١٨٩٥ مع 'دي كورسيل' (de Courcel) السفير الفرنسي في 'لندن' صرح بأنه آسف اشد الآسف لان الحكومة البريطانية رفضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية الذي عرضه عليها 'نقولا الأول' عام ١٨٥٣ ، وقال بأن الحكومة البريطانية قد راهنت على ما اسماه 'بالحصان الخاسر' ،وبهذا بدأ التوجه البريطاني يتجه الى ما كانت تتجه إليه العديد من الدول الأوروبية ، خصوصاً 'روسيا' و'النمسا' لإنهاء وجود الدولة العثمانية[٢].وكانت 'إنجلترا' رغم ذلك أكثر الدول حذرا في تعاملها مع السلطان 'عبد الحميد'؛ فإلى جانب كونه غير محبوب ،إلا أنه رجل دولة لديه الملايين من المسيحيين ، وبصفة خلافته له نفوذ على رعايا الدول الأوروبية المسلمين، في الوقت الذي كانت فيه ممتلكات 'إنجلترا' تشتمل على أكبر عدد من المسلمين في العالم ،أما الدولة العثمانية فكانت الثانية[٣].

يمكن القول أن السلطان 'عبد الحميد' لم يكن يتهرب من المشاكل التي تواجهه داخلياً وخارجياً بسبب معرفته بأنه أستاذ في تدبير المكائد[٤]، ولما كان يعلم تفاصيل السياسة الأوروبية، فقد كان يأخذ رأي مستشاريه قبل إصدار أي قرار، ويوزن أفكاره بعد أن يوزن أفكارهم[٥].

كل تلك الأخطار حذت بالدولة العثمانية وعلي رأسها السلطان 'عبد الحميد' للوصول إلى توازن القوى، وكانت الجهة المؤهلة لإحداث ذلك التوازن هي 'ألمانيا' ، التي وصلت علاقاتها الذروة مع الدول العثمانية في العقد التاسع من القرن التاسع عشر، الأمر الذي كان يتمشى مع سياسة 'ألمانيا' العليا، التي بدأت بالظهور على مسرح الأحداث، بعد ان شهدت بحريتها نموا كبيراً، وتقدمت صناعتها، وازداد عدد سكانها زيادة دعتها الى إيجاد أسواق لصناعتها ، وكان هذا الأمر يفرض عليها القيام بسياسة نشطة في كل بقعة من بقاع العالم ، وبذلك بدأت 'ألمانيا' تتجه إلى الطريق الخارجي متذرعة بأن للضرورة أحكامها[٦]، وأصبحت 'ألمانيا' بذلك إحدى الدول المنافسة لإنجلترا الدولة الأكثر تطوراً من الناحية الصناعية، وبدأت بسياستها العالمية (Welt Politik) لسد فجوة التنافس الاستعماري بينها وبين 'إنجلترا'، وبدأت بذلك تهدد 'إنجلترا' المتفوقة منذ زمن يوماً بعد يوم[٧]، ورغم ذلك كانت سياسة السلطان

---

[١] مصطفى كامل . *المسألة الشرقية*، (مصر : د.نا، ١٨٩٨)، ج١، ص ٢١ .

[٢] الشناوي . *الدولة* ، ج٢ ، ص ٨٣٢-٨٣٣ .

[٣] أوزتونا. *تاريخ* ، ج٢ ، ص ١٤٩ .

[٤] أوكه . *جاسوس* ، ص٣٥.

[٥] المرجع نفسه، ص٣٦.

[٦] الشناوي . *الدولة* ، ج ٣، ص ١٣٤٤.

[٧] أوكه . *جاسوس* ، ص ١٨١.

'عبد الحميد' تقوم على مبدأ 'الحياد المطلق' ويقصد بذلك الابتعاد كليا عن السياسية الأوروبية والتأكيد على انه من الأهمية الابتعاد عن الدول الأوروبية في أي مجابهة عسكرية[١]. لقد "كان السلطان 'عبد الحميد' يخط سياسته بأداء يتميز بالثقة والسيطرة على الأوضاع المتناقضة سواء ما انتهى منها أو لم ينته"[٢].

بذلك دخلت 'ألمانيا' السياسة الخارجية من أوسع أبوابها ، وأصبحت السياسة الخارجية لها تتجه نحو عدم تحكم 'روسيا' في مضائق 'البسفور' و 'الدردنيل' ، يشاركها في ذلك إمبراطورية 'النمسا – المجر'، بعد أن كانت لا تهتم بذلك مطلقا، وكان هذا الاهتمام واضحا بعد النزاع السياسي الذي وقع بين 'روسيا' و'بروسيا' ، وبعد ان أصبحت لألمانيا مصالح في مد خط حديد 'الأناضول' و'بغداد'، إذ أن مضيق 'استانبول' هو نقطة البداية لكثير من هذه الخطوط ، لا سيما خط حديد 'الأناضول'[٣] .

من اجل هذه العلاقة الجديدة بين 'ألمانيا' والدولة العثمانية ، قام القيصر الألماني 'وليام الثاني' (Kaiser William II) ، بثاني زيارة للسلطان 'عبد الحميد' في ٣٠ أيلول ١٨٩٨، ليؤكد موقف 'ألمانيا' من الحرب ضد اليونان عام ١٨٩٧[٤] حيث أبدى القيصر اهتماما بهذه الحرب، لذلك فقد أرسل القيصر الألماني ضابطا عسكريا كبيرا ليساعد صديقه السلطان[٥]. وكان القيصر الى جانب ذلك يسعى لتنمية العلاقات الثنائية بين الدولتين في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والعمرانية والعلمية، بما فيها تنشيط البعثات الألمانية للكشف عن الآثار في المناطق العثمانية، وقد عرفت سياسة التقارب نحو الدولة العثمانية باسم 'الاتجاه نحو الشرق' (Drang Nach Osten)[٦].

بعد زيارة القيصر الألماني الى العاصمة العثمانية، قام بزيارة الى الأراضي المقدسة- فلسطين- و'سوريا' و'لبنان'، كما زار قبر 'صلاح الدين الأيوبي'، فخطب مشيدا بالخليفة 'عبد الحميد' وبـ ٣٠٠ مليون مسلم الذين يقودهم مؤكدا على صداقة إمبراطور ألمانيا للمسلمين[٧].

وقد شجعت 'ألمانيا' تدفق رؤوس الأموال الألمانية على الدولة العثمانية ، وزيادة حجم التبادل التجاري بين الدولتين، حيث أوفدت مندوبين للشركات التجارية الألمانية الى 'استانبول' ، وأسست بنوكا كبرى، كما انشأ جماعة من أصحاب رؤوس الاموال الألمانية خطا للملاحة البحرية بين 'هامبورج' و'استانبول' سنة ١٨٨٩، عقب الزيارة الأولى للقيصر الألماني 'وليام الثاني' للدولة العثمانية ، وقد أطلق على هذا الخط اسم 'خط الليفانت[٨] الألماني' (Deutsche levante linie) وذلك لدعم تجارة 'ألمانيا' في الدولة، واحتل بذلك رأس المال

---

[١] أوكه . *جاسوس*، ص ٣٤.

[٢] المرجع نفسه، ص ٥٤ .

[٣] عبد الحميد الثاني . *مذكراتي* ، ص١١٨

[٤] Alan Palmer. *The Decline and fall of the Ottoman Empire*, (London: John Murray, 1992), p. 189.

[٥] باتريك. *سلاطين* ، ص ١٠٢-١٠٣ .

[٦] الشناوي. *الدولة* ، ج ٣ ، ص ١٣٤٦ .

[٧] Ibid..p.191-192.

[٨] ليفانت . تاريخيا: هي الأقطار الشرقية على طول ساحل البحر المتوسط. وقد ارتبط هذا المصطلح عموما بإقامة علاقات تجارية بين الدول، ولقد استعمل هذا المصطلح خلال التعامل التجاري مع سوريا، وأحيانا بين اليونان ومصر ،كما=

الألماني المكانة الأولى ،وأقصيت عن مركز الصدارة رؤوس أموال كل من 'إنجلترا' و'فرنسا'[1].

رغم ذلك كان السلطان 'عبد الحميد' أدهى من أن ينحصر بصره ببطولات حاميه الجديد، لكنه كـان يدرك جيداً أهمية هذا الحليف القوي في المحافل الأوروبية ، لذلك فقد رحب السلطان أشد الترحيب بما أعلنه القيصر من صداقته له ولجميع المسلمين ، ومباهاته بذلك، ويمكن القول ان السلطان 'عبد الحميد' لـم يكـن ليرحب بمثل هذه الصداقة من أجل الصداقة نفسها، بل من أجل المنافع التي تعود عليه وعلى دولته منها، وأما من حيث مطامع 'ألمانيا' في الدولة العثمانية ، فقد كان 'عبد الحميد' يميل إلى أن يساوم فيها ما دامـت هـذه المطامع لا تنطوي على سيطرة سياسية ، بل وكان شديد الحرص على الظهور بمظهر الكريم في مساومته[2] .ولم يكن بد من ذلك ،إذ لا يمكن للدولة العثمانية أن تبقى وحيدة.

ويوضح السلطان 'عبد الحميد' سبب توجهه نحو 'ألمانيا' فيقول: "أنى كنت أرى بوضوح أن ظـهور 'ألمانيا' كفيل بإخلال التوازن الأوروبي ، وان هذا سيوقع الدول الأوروبية بعضها في بعض . كـانت قـوة الألمان تزداد عاماً بعد عام، وكنت ألاحظ اضطراب كل من الفرنسيين والإنجليز والروس لهذا النمو الألماني ، ونهاية هذا الأمر سيكون صدامهم"[3]. في نفس الوقت الذي خفت 'فرنسا' من حدة تنافسها مع 'إنجلترا' ولم تتركه ، وبدأت تسلك طريقاً للبحث عن تفاهم مع الروس لضمان أمنها، لذلك فقد تراجعت سياستها تجـاه الدولة العثمانية، وأخذت في التأييد المتصل للروس في خلافاتهم مع الدولة العثمانية، في الوقت نفسه الذي بدأ فيه الروس يعملون حسابا للألمان، جيرانهم الأقوياء في الغرب، أما النمسا فقد أقامت سياستها من جديـد دون الفصل بين العدو والصديق[4] .

إلى جانب هذا التوازن الذي قام به السلطان 'عبد الحميد' بصداقته لألمانيا كان يقوم علـى المسـتوى الداخلي بسياسة لا تقل في أهميتها عن إحداث التوازن الخارجي ، وهذا الأمر كان في مسايرة سفراء الـدول الأوروبية، واكتساب ثقتهم ، وفي كثير من الأحيان شراء ذممهم، حيث كان هؤلاء السفراء يقومون بإرسـال تقاريرهم بما يصغر أمر الدولة العثمانية[5]، وكانت مهمة السفراء الأوروبيين سهلة ينفذون كافـة أعمالـهم بسهولة ويسر في عهد السلطانيين 'عبد المجيد' و'عبد العزيز' لأن مهمتهما كانت مقتصرة على تسيير السلطنة فقط وليس الحكم حسب مقدرات الدولة،أما في عهد السلطان 'عبد الحميد' فقد اختلف الأمر كلياً ،حيث ربط كل شيء في الدولة بـه شـخصياً، وكـان يتدخـل فـيّ كـل صغـيرة وكبـيرة[6]، لذلـك فـهو لـم يكـن

=استعمل بين الأناضول والشرقين الأوسط والأدنى، ثم أصبح إلى حد بعيد يعني الولايات التي وضعت تحت الانتداب الفرنسـي فـي سوريا ولبنان، ثم أصبحت تعني هاتين المنطقتين فقط حتى استقلالهما.
The New Encyclopaedia Britannica (U.S.A: International Copyright Union, 1992) . Vol. 7.p.304.

(1) الشناوي. الدولة، ج٣، ص١٣٤٦.

(2) جورج انطونيوس . *يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية* ، ترجمة ، ناصر الدين أسد – إحسان عباس، (ط ٦، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠)، ص ١٤٧ .

(3) Bozdag. *Abdulhamid*. p. 71.

(4) Ibid. p.140-141 .

(5) النمر. *نظرات* ، ص ١٧٥ .

(6) أوكه . *جاسوس* ، ص٣٨.

يقبل بسهولة استقبال سفراء الدول الأجنبية، وفي حالة موافقته على مقابلتهم كانوا لا يحصلون إلا على أجوبة محددة وواضحة، إضافة إلى السرية التي كانت تتسم بها هذه المقابلات في كثير من الاحيان[١].
وإلى جانب ذلك كان لجهل سفراء هذه الدول باللغة العثمانية أثره ايضاً، مما جعلهم عاجزين على فهم الشرقيين، ولهذا ظل السلطان 'عبد الحميد' بالنسبة لهم لغزاً صعب الحل، بل وعاجزين عن اكتشاف أسرار سياسته رغم متابعتهم الحثيثة لأعماله[٢]، وفي حالة اكتساب أحد هؤلاء الدبلوماسيين حب السلطان اكثر من غيره نجد الأمور تختلط عليه ما بين الاحترام والخوف، ذلك ان السلطان كان يوزن ابتساماته ونظراته وحتى مكرماته عليهم، كما اتبع أسلوب المساواة بين الجميع في المعاملات، وذلك حتى يستطيع ان يفهم بوضوح ما يفعله كل دبلوماسي، ثم تقدير أعمالهم. ونادراً ما كان هؤلاء يذكرون تأثيرهم على السلطان 'عبد الحميد' أو عن منزلتهم عنده[٣].

هذه الصفات التي تمتع بها السلطان جعلت هؤلاء الدبلوماسيين الذين كانوا دائماً يحاولون خداعه يحتارون كثيراً، كما أن اللطف والمحبة والصداقة تجاه كل واحد منهم كانت تجعلهم يحتارون في فهم أسس سياسته ونواياه، التي كانوا يبحثونها من كل جانب. ومن الطبيعي جداً ان يشعر هؤلاء الدبلوماسيون بأنهم فقدوا أعصابهم وانهارت آمالهم بعد عجزهم على الوقوف على أسراره[٤].

ويقول في ذلك السلطان 'عبد الحميد': "يتصدر السفراء كراسيهم في قصورهم وكأنهم حكام البلاد. لا تتعدى صلاتهم بعض كبار الموظفين. انهم يصدرون حكمهم من علٍ. لا يعرفون من البلاد سوى 'استانبول' والجزر. ليست لديهم أية فكرة عن التركيب الداخلي لمجتمعنا، لا يعرفون ديننا ولا يفهمونه، ومع ذلك فهم دائبون على جعلنا نقبل بنصائحهم. ومن حسن الحظ انهم لا يتفقون فيما بينهم"[٥].

ولقد اشتهر عن السلطان 'عبد الحميد' دهائه السياسي، حيث تحدثت صحيفة 'الكون'(Al-Kawn) –التي كثيرا ما كانت تتحدث عن طغيان السلطان عبد الحميد واستبداده– عن هذه الخصلة فقالت :" ليس 'بسمارك' [٦](Bismarck) في زمانه بأعظم سياسة من 'عبد الحميد' في هذه الأوان، وليس 'عمرو بن العاص' بأعظم منه في دهائه، فقد حير العالم بأسره من توغله في الدهاء

---

[١] أوكه. *جاسوس* ، ص ٢٢.

[٢] المرجع نفسه ، ص ٨٠.

[٣] المرجع نفسه، ص ٣٦.

[٤] المرجع نفسه، ص ٥٦.

[٥] عبد الحميد الثاني . *مذكراتي*، ص ٨٩.

[٦] بسمارك: ولد عام ١٨١٥ ، وهو أول مستشار للإمبراطورية الألمانية بعد إعلانها سنة ١٨٧١ ، وقد عرف الثلث الأخير من القرن التاسع عشر في أوروبا بأنه عصر بسمارك ، للدور القيادي الذي قام به ، حيث عمل على بسط سلطات بروسيا على الإمارات الألمانية ، وترأس مؤتمر برلين ١٨٧٨ عقب الحرب الروسية العثمانية ،و أعاد تنظيم حدود البلقان ، غير ان وليام الثاني الذي كان يقود النشاط الاشتراكي ضده أدت به إلى الإقالة في ١٨٩٠ وتوفي في ١٨٩٩ – العريسي . *مختارات*، ص ٢٧٥ .

والمكر، حتى أنه يلعب بدولة برمتها على إصبعه و يداعبها كما يداعب الهر الفأرة ، ويروغ عنها تخيلا واستنباطا لبلوغه غاياته منها كما يروغ الثعلب »[1].

إن بقاء الدولة العثمانية لا يعود فقط الى ما تمتع به السلطان 'عبد الحميد' من دهاء، وساعده في ذلك التنافس بين الدول الأوروبية، وعدم اتفاق مصالحهم ، حيث يقول البارون 'فون مارشال' (Von Marshall)، السفير الألماني في استانبول في ٣٠ أيار ١٩١٠ "ان الإمبراطورية العثمانية استطاعت في القرن الماضي ان تحافظ على بقائها ، ليس بفضل قوتها ، بل بفضل تضارب مصالح الدول العظمى ، لقد كان الوارثون المتنافسون على ارث الرجل المريض من القوة والعدد ، بحيث لم يجرؤ وارث واحد بمفرده ، ان يلجأ الى القوة كي يعجل في موت الموروث لينال نصيبه من الإرث»[2] .

ولما كان السلطان 'عبد الحميد' لا يثق باستمرارية اللاوفاق الأوروبي حول الدولة العثمانية ، والذي طالما عمل على إذكائه فيهم فقد سعى الى إدخال إصلاحات والعمل على تجميع كلمة المسلمين ، لذلك نجد ان معظم إصلاحاته قد انبثقت بموجب قرارات سلطانية تم توجيهها نحو برنامج طوره بنفسه ، وأوصله إلى وزرائه عام ١٨٧٩ مباشرة بعد أن قام بإلغاء الدستور وحل البرلمان ، وبذلك انشطر الاصلاحيون العثمانيون منذ البداية الى قسمين: قسم معه وآخر ضده ، فسبب ذلك الانشقاق مشاكل عديدة أثرت مباشرة على تنفيذ برنامجه[3]. لذلك كله فقد اتجهت أوروبا نحو إثارة الأقليات العرقية والمذهبية، كما عملت على دعم الجمعيات العثمانية السرية ماديا ومعنويا من أجل خلع السلطان 'عبد الحميد'.

الجامعة الإسلامية .

برز في المجال الإصلاحي داخل الدولة العثمانية ثلاثة اتجاهات فكرية هامة:

الاتجاه الأول: نادى بضرورة الإصلاح عن طريق الاقتباس المباشر من النظم والأساليب الأوروبية في مجالات الحياة المختلفة كالإدارة والاجتماع والثقافة والاقتصاد دون قيد أو شرط، ودون أي اعتبارات خاصة بماضي الدولة العثمانية الإسلامي. وكان من اشهر المنادين بهذا الاتجاه 'فؤاد باشا' (١٨١٥-١٨٦٩) و 'مدحت باشا' (١٨٢٢-١٨٨٥).

الاتجاه الثاني: كان يمثل الاتجاه الإسلامي الصرف، مؤكدين ان العثمانيين مدينون اكثر من غيرهم للإسلام لاعتباره البوابة التي دخلوا منها التاريخ، فالإسلام عندهم اساس دولتهم وحضارتهم واليه يرجع كل ما يفخرون به، وقد تزعم هذا الاتجاه المؤرخ 'احمد جودت' (١٨٢٢-١٨٩٥)، و 'محمد عاكف ارسوي' و 'بديع الزمان سعيد النورسي' ، وكان السلطان 'عبد الحميد' يميل الى هذا الاتجاه، لذلك فقد قام بتفعيله.

---

[1] الكون. نيويورك، العدد ١١٩ ، السنة الثالثة ، الخميس ، ٢٩ نيسان ١٩٠٩ ، ص ١ .

[2] زين . *الصراع* ، ص ٥٥ .

[3] Shaw-Shaw. *History*, p 221.

الاتجاه الثالث: وهو الاتجاه التوفيقي في الاصلاح ، الذي نادى بضرورة العودة الى الجذور الإسلامية وتطبيق ما يتعلق بالإسلام من مبادئ وأفكار في الحياة العملية داخل الدولة العثمانية، وفي نفس الوقت الأخذ بأسباب الحضارة الغربية، ومن أعلام هذا الاتجاه 'نامق كمال'[1] (١٨٤٠-١٨٨٨)[2].

كان من ضمن سياسة السلطان 'عبد الحميد' لدرء المخاطر التي تجابه الدولة العثمانية من قبل الدول الأوروبية سياسة 'الجامعة الإسلامية' .

كانت سياسة الجامعة الإسلامية عند السلطان 'عبد الحميد' فكانت تهدف الى تجميع كلمة المسلمين ورص صفوفهم من اجل مواجهة التحدي الذي تفرضه عليهم الدول الأوروبية، والتي اخذ ضغطها يشتد يوما بعد يوم، وبدأ يتحول بعد ذلك الى نفوذ فعلي واحتلال عسكري ، حيث قامت القوات الإنجليزية باحتلال 'قبرص' سنة ١٨٧٨ ، واستولت 'فرنسا' على 'تونس' سنة ١٨٨١ كما احتلت القوات الإنجليزية 'مصر' سنة ١٨٨٢ ، وأضحت أوروبا تهدد قلب العالم الإسلامي، في الوقت الذي رأت فيه شعوبها هذا الخطر الذي يهدد كيانها ، ورأت كل منها مصيرها المحتوم ، وكان من الطبيعي ان تتجه هذه الشعوب جميعا نحو الدعوة الى التضامن ضد هذا الخطر المشترك[3] .

لذلك فقد أعتبرت الجامعة الإسلامية من أهم الحركات السياسية والدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر ، إذ أحدثت فيه نتائج بعيدة المدى ، وكان لها اكبر الأثر في نمو الوعي السياسي وازدياد اليقظة الدينية في مختلف أرجائه[4] .

ومن مقاصد الجامعة الإسلامية :

١- العمل على التصدي للأطماع الأوروبية المتزايدة في العالم الإسلامي .
٢- إيجاد حسن التفاهم بين جميع مسلمي العالم في المسائل الاجتماعية .
٣- ترقية العالم الإسلامي في شؤونه الدينية والاجتماعية والأدبية .
٤- تنمية شعور الإخاء بين المسلمين وتبادل مصالحهم .
٥- إزالة سوء التفاهم الحاصل بين المسلمين وغير المسلمين .

---

[1] انظر عن نامق كمال في الفصل الثاني.

[2] احمد فهد بركات الشوابكة . *حركة الجامعة الإسلامية*، (ط١، الأردن: مكتبة المنار، ١٩٨٤)، ص ٣٣.

[3] عبد الباسط محمد حسن . *جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث* ، (ط١، القاهرة: مكتبة وهبة ، ١٩٨٢)، ص ٢٣٩-٢٤٠ .

[4] المرجع نفسه ، ص ٦٥ .

٦- مساعدة المسلمين بقدر المستطاع في سائر أنحاء العالم .

٧- ايجاد معاهد علمية إسلامية في غير الأقطار الإسلامية .

٨- تعضيد الخلافة في آل عثمان[١] .

ولقد ارتبط اسم الجامعة الإسلامية بشخص المصلح الإسلامي ، 'جمال الدين الأفغاني'[٢] المتهم في نسبه ومذهبه وربما يكون 'الأفغاني' قد انتسب للأفغان لأمر هام يتعلق برسالته الإصلاحية الكبرى ، فليس أمرا سهلا ان تنتشر أفكاره في أقطار سنية المذهب إذا علم انه شيعي ، ولان درجة تقبله ستكون اقل[٣].

وكانت دعوة 'جمال الدين الأفغاني' تهدف الى بلوغ غايتين هما:

١- إصلاح أحوال المسلمين ، ولا يتأتى ذلك إلا بمسايرة المدنية الحديثة، والأخذ بأسباب التقدم .

٢- السعي الى تحرير الشرق من سيطرة الغرب ، ولا يكون ذلك إلا باتحاد المسلمين وجمع كلمتهم حتى يستطيعوا تحقيق استقلالهم وحريتهم[٤].

وقد قام 'جمال الدين' بزيارة العديد من المناطق ، حتى أصبح السفر والتنقل صفتين متلازمتين له واثناء تواجده في 'فرنسا' قام بإصدار صحيفة 'العروة الوثقى' مع العديد من المصلحين في الفترة ما بين

---

[١] المنار. مصر ، *'الخلافة الإسلامية والجامعة العثمانية'* ، ج ١١ ، م ١٣ ، ص ٦٨٢ .

[٢] جمال الدين الأفغاني: هو ابن السيد صفتر، ولد في قرية أسد أباد قرب همذان سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨ م ، ولقد اختلف المؤرخون في أمر نسبه ومذهبه حتى ان عبد القادر المغربي وهو على علاقة بجمال الدين الأفغاني ، تساءل كيف يكون الاختلاف في أمر جمال الدين وهو قريب العهد بهم ، ويذكر محمد حسن خان الملقب باعتماد الدين وأحد المقربين إلى ملك ايران ناصر الدين شاه في كتابه المعروف باسم " المآثر والآثار" أن جمال الدين نشأ في قرية أسد أباد من أعمال إيران، وان أهل إيران يفتخرون به كثيرا ، في حين ان كثير من أهل السنة يعتبرونه أفغاني النسب والأصل سني المذهب، كما يؤكد ذلك كبير تلامذته محمد عبده، لكن اغلب الظن ان جمال الدين الأفغاني ينحدر من اصل ايراني وانه شيعي المذهب ، انظر:

- محمد أبو رية. *جمال الدين الأفغاني*، (القاهرة: دار المعارف للطباعة ، ١٩٦١)، ص ١٥-١٦ .
- محمود قاسم. *جمال الدين الأفغاني، حياته وفلسفته*، (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية)، ص ٩-١٠ .
- ميرزا لطف الله خان الأسد ابادي. *حقيقة جمال الدين الأفغاني*، ترجمة ، عبد المنعم حسين، (المنصورة: دار الوفاء للطباعة، ١٩٨٦)، ص ٣٨ .
- محمد سلام مدكور. *جمال الدين الأفغاني، باعث النهضة الفكرية في الشرق*، (ط١، القاهرة: مطبعة الهواري، ١٩٣٧)، ص ٢٥ .
- انظر – أوكه. *جاسوس*، ص٩٦.

[٣] قدري قلعجي. *جمال الدين الأفغاني*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٤٧)، ص١٠؛ انظر – محمد محمد حسين. *الإسلام والحضارة الغربية*، (ط٤، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١)، ص ٦١ .

[٤] حلمي محروس إسماعيل. *تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني الى نهاية الحرب العالمية الأولى*، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٧)، ص ٣٢٨-٣٢٩ .

١٣ آذار ١٨٨٤ وهو اليوم الذي صدر فيه العدد الأول حتى آخر عدد منها في ٦ تشـــرين أول ١٨٨٤ ، وكانت هذه الصحيفة تدعو الى إعادة الأمل والنجاح في النفوس، والعودة للتمسك بـــالأصول التـــي كـــان عليها الآباء الأوائل ، والدفاع عن الإسلام ، وتقوية الصلات بين المسلمين[١].

ولما ذهب 'جمال الدين الأفغاني' الى استانبول سنة ١٨٩٢، أستقبل إستقبالا حـــافلا حيـــث قربـــه السلطان 'عبد الحميد' ، واخذ يتباحث معه في شؤون الدولة وحال الإسلام ، وكان لذلك أثره فـــي 'جمـــال الدين' الذي عزم على البقاء[٢]. وفي إحدى اجتماعاتهما الخاصة ، خاطب السلطان 'عبد الحميـــد' 'جمـــال الدين' بقوله: "أني ملتمس من حضرتك ان تبذل غاية الجهد ، حتى تســـتطيع توحيـــد آرائنـــا وبمســـاعدة حضرتكم أن ننشئ ونؤسس اتحادا واتفاقا قويا ثابت الأركان ، لا يقبل الخلل بين الشـــعوب الإســـلامية ، حتى يمكن بفضل تلك الوحدة التي تمد أمم الجامعة الإسلامية يد المودة والإخاء ، بعضها الـــى بعـــض ، وتنهض بالصناعة والعلوم في ظل الاستقلال والاتحاد الاسلامي، ولكي يحصل لـــها التوفيـــق بعـــون الله تعالى، لاسترجاع القوة العظيمة السابقة ، ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقي"[٣] .

من هنا يتضح ان السلطان 'عبد الحميد' كان هو صاحب الفكرة بالدعوة الى الجامعة الإســـلامية ، وليس 'جمال الدين' كما يتناقل ذلك العديد من المؤرخين. ورغم الشبهات التي حـــامت حـــول شـــخصية 'جمال الدين' – بخصوص انتسابه للمحافل الماسونية وتدرجه فيها، حتى وصل الى درجـــة غايـــة فـــي الأهمية، وحول موقفه المعادي من الاستعمار، ومن ثم لجوئه إليهم ضد خصومه المســـلمين،[٤]–إلا انـــه كان يؤيد قيام حكومة إسلامية واحدة تأتم بالإسلام وتعاليمه وتعمل على مقاومة الدول الاستعمارية، حيـــث قام بالتحريض ضد الإنجليز في 'الهند' وفي مناطق وسط آسيا[٥].

ومن اجل الجامعة الإسلامية قام السلطان 'عبد الحميد' بإرسال أعداد كبيرة من خريجـــي مـــدارس استانبول الدينية للدعاية للجامعة الإسلامية في 'الهند' و'تركستان' و'إيران' و'الصين' و'سنغافورة' و'ماليزيا' و'الحبشة' ، واقطار المغرب العربي[٦] لينشروا الأنباء الحسنة عن الخليفة والدولة العثمانيـــة ، ويشـــيدوا بورعه، ويبشروا بحركة الجامعة الإسلامية ، واعادة أمجاد الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، كما كـــانوا يسعون الى توثيق الروابط بينها وبين الدولة تحت زعامته كخليفة للمسلمين ، وقد سخر لذلـــك الصحـــف وانشأ المجلات ، والنشرات الدورية ، كما كان يدعـــو رجـــال الفكـــر الإســـلامي لزيـــارة 'اســـتانبول'

---

[١] قلعجي . *جمال الدين* ، ص ٦٥ ؛ انظر عن العروة الوثقى واسباب إيقافها في

– محمد عمارة . *جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام* ، (ط١، بيروت: دار الوحدة ، ١٩٨٤)، ص ٦٩ .

[٢] مدكور. *جمال الدين* ، ص ١٨٧–١٨٨؛ قاسم . جمال الدين ، ص ٨٠ .

[٣] الاسد ابادي . *حقيقة*، ص ١٧٩ .

[٤] انظر – نجدة فتحي صفوة . *الماسونية في الوطن العربي* ، (لندن: مركز الدراسات العربية، ١٩٨٠)، ص ٢٢–٢٤ .

[٥] أوكه . *جاسوس*، ص٩٦.

[٦] أوزتونا. *تاريخ* ج٢ ، ص١٥٦ ؛ ابراهيم خليل احمد . *تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦–١٩١٦* (الموصل: جامعة الموصل، د.تا)، ص ٣٦٨ .

واستضافتهم رغبة منه في إيجاد صلات معهم ، لدعم نفوذه في الأوساط الإسلامية ، وكان يحرص على ان يقترن لقب الخليفة مع كلمة السلطان[1] .

قام السلطان 'عبد الحميد' بتخصيص مبالغ وفيرة جدا لاصلاح المساجد ، وأقيمت معاهد ومدارس إسلامية جديدة ، لتقوم بعملها على تثقيف الجيل العثماني الشاب ، كما اصدر أوامره بضرورة الاهتمام بالأعياد والمناسبات الإسلامية على مدار السنة ، وادخل العلوم الدينية واللغة العربية في المجلات الثقافية والإدارية ، كما منع الحكومة من إطلاق الترجمات الأوروبية للأسماء العربية والتركية على أسماء الشوارع والمباني العامة ، في الوقت الذي استعاد فيه السلطان 'عبد الحميد' حقه في تعيين الموظفين الدينيين في الولايات العثمانية السابقة التي دخلت تحت استعمار وحكم الدول الأوروبية، في الوقت نفسه الذي كان الباب العالي يحتج ويتدخل بشكل رسمي فيما لو وردت أنباء عن وقوع مظالم على المسلمين في هذه الأقاليم[2].

لقد حظيت سياسة الجامعة الإسلامية بردود فعل طيبة ، حيث وصلت الردود التي تعبر عن قبول حسن وسرور عظيم من قبل مختلف طبقات المجتمع الإسلامي، سواء كانوا علماء أو غير ذلك ، بل ان كثير منهم قد أرسل تحفا وهدايا ورسائل كتعبير عن رضاهم ، ودعمهم لهذه الفكرة [3] .

وربما يقاس مدى نجاح الجامعة الإسلامية في العالم الإسلامي أثناء الحرب العثمانية –اليونانية سنة ١٨٩٧، حيث كاد هذا الحدث ان يمر طبيعيا كغيره من الاحداث قبل الجامعة الإسلامية ، دون أن يثير اهتماما لدى الشعوب الإسلامية، لكن في أعقاب الحرب أقيمت احتفالات واسعة في الأقطار الإسلامية خارج نطاق الدولة العثمانية ، ابتهاجا بالانتصارات التي حققها العثمانيون على 'اليونان' ، وبالتالي شحنت هذه الحرب سكان هذه البلاد بكثير من الثقة والاعتداد بالنفس ، والقدرة على التخلص من السيطرة الأوروبية[4] .

---

(1) Shaw - Shaw , *History*, p. 260 .

(2) Loc. cit.

(3) الأسدابادي، *حقيقة*، ص ٨٣ .

(4) الشناوي، *الدولة* ،ج ٣، ص ١٢١٩ .

٣- حروب الدولة العثمانية.

خاضت الدولة العثمانية العديد من الحروب في بداية عهدها لأنها بالأساس كانت دولة عسكرية من الدرجة الأولى، والتي غالبا ما كانت هي الطرف المنتصر فيها، لكن هذه الأمور اختلفت كليا في النصف الثاني من حياتها، حيث تعرضت الدولة للعديد من الحروب كانت هي في الغالب الجانب الخاسر. وفي عهد السلطان 'عبد الحميد' استمرت هذه الحروب ، وكان أهمها الحرب الروسية العثمانية .

الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨).

كانت روسيا دائما تسعى للوصول الى المياه الدافئة ، حيث ظلت تشعر بإهانة إغلاق المضائق ، ومع ذلك فان موقفها سيكون أسوأ ، فيما لو فتحت المضائق ، وهم بدون أسطول في البحر الأسود ، في الوقت الذي ظلت النمسا تعتمد على الملاحة على نهر الدانوب ، باعتباره أهم حلقة وصل مع العالم الخارجي ، كما ظل الإنجليز بحاجة للدولة العثمانية كحاجز محايد ، لضمان شرق البحر المتوسط ، والشرق الأدنى ، واحتاجوا إليه اكثر من السابق منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، في حين ظل الفرنسيون والألمان ممولين أساسيين للدولة العثمانية[١] .ولقد كانت 'روسيا' في عهد السلطان 'عبد الحميد' تتذرع بالدين والعنصر الأرثوذكسي في الشرق، والصقالبة في البلقان من أجل التدخل في شؤون الدولة العثمانية .

والحرب الروسية العثمانية لم تنشأ بشكل عفوي شأنها في ذلك شأن بقية الحروب الأخرى، ذلك أن 'روسيا' كانت تعمل على إثارة القلاقل ، والفتن داخل الدولة العثمانية ، بتحريض الأقليات العرقية و المذهبية ، واستخدمت لذلك الصحف لإثارة الخواطر[٢]. وفي سنة ١٨٧٥ هاجت الخواطر في 'البوسنة والهرسك' بناء على تحريض جيرانها 'الصرب' و 'الجبل الأسود' اللذين تدعمهما 'روسيا' ، طلبا للاستقلال الإداري ، وربما كانت 'النمسا' لها يدا في ذلك كون أنظارها تتجه لضم إمارتي 'البوسنة والهرسك' المطالبتين بمظاهر استقلالية ، ولما رفض الباب العالي مطالبهم، اظهر هؤلاء العصيان ، واشهروا السلاح ضد عساكر الدولة ، فصدرت الإرادة للقضاء على تمردهم ، الأمر الذي أثار غضب أوروبا المسيحية[٣].

كانت جميع الحركات التي تقوم بها الأقليات، تدعمها 'روسيا' بشكل مباشر، حيث أرادت من خلال ذلك تقويض الدولة العثمانية دون تدخل عسكري مباشر منها، إلا أن هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل. لذلك فان 'روسيا' عزمت على إعلان الحرب مستغلة أي حدث جديد من اجل هذا الهدف، ولقد صادف في

---

[١] A.J.P. Taylor . *The Straggle for Mastery in Europe, 1848-1918* (Oxford: At the Clarendon press, 1957) P.228.

[٢] مدحت باشا . *مذكرات*، ص ٢٢ .

[٣] كارلتون هيز . *التاريخ الأوروبي الحديث ١٧٨٩-١٩١٤* ، ترجمة ، فاضل حسين ، (الموصل: جامعة الموصل . ١٩٨٧) ، ص ٤١٠ ؛ انظر – صائب . *عبد الحميك*، ص ١٧ .

ذلك الوقت خطف فتاة بلغارية أعلنت إسلامها ، الأمر الذي أثار مشاعر المسلمين ، حيث قتل كل من قنصلي 'فرنسا' و'ألمانيا'، لتواتر الإشاعة ان الفتاة تم إخفاؤها في بيت قنصل 'ألمانيا' ، الأمر الذي دعا أوروبا لتبادل المخابرات، حيث اجتمع كل من البرنس 'غورشاكوف' رئيس وزراء 'روسيا' ، والكونت 'اندراسي' (Count Andrassy) [1] رئيس وزراء 'النمسا' مع 'بسمارك' ، لإيجاد سبب للتدخل، وقاموا بتحرير لائحة للسلطان سميت بـ'لائحة برلين' وهي مذكرة لاصلاح أحوال المسيحية في الولايات العثمانية ، خصوصا فيما يتعلق بالعصابات العرقية والمذهبية ، وإلا فان الدول الأوروبية ستتدخل إذا لم تصل الحكومة العثمانية لهدنة معهم خلال شهرين أو ستة أسابيع[2] .

مؤتمر الآستانة .

في ٥ تشرين أول ١٨٧٦ عرض وزير خارجية إنجلترا على باقي الدول التي تدعي حق التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ، عقد مؤتمر في العاصمة استانبول (الآستانة) لتسوية حالة مسيحيي الدولة لمنع حرب محتملة بين الدولة العثمانية وروسيا التي تؤكد على حقها في حماية المسيحيين داخل الدولة العثمانية، حيث كانت روسيا في حالة إعداد وتجهيز لجيوشها استعدادا للحرب .

ولقد تم عقد اجتماعات ابتدائية من ١١-١٧ كانون أول في سفارة 'روسيا' ، ولم يتم قبول الدولة العثمانية في هذه الاجتماعات ، مما يدل على تحيز واضح من قبل دول أوروبا لصالح 'روسيا'[3] مؤكدين على ما جاءت به 'لائحة برلين' ، ومؤكدين على الدولة العثمانية ضرورة القبول لكثير من الالتزامات المخلة بسيادتها .

وفي ٢٣ كانون أول ١٨٧٦ ، اجتمع المؤتمر في 'استانبول' بصفة رسمية في سراي البحرية تحت رئاسة 'صفوت باشا' ناظر خارجية الدولة ، حيث انتخب رئيسا للمؤتمر ، واشتراك العديد من ممثلي الدول الأوروبية [4]،وعقدت ٩ جلسات من ٢٣ كانون أول ١٨٧٦ وحتى ٢٠ كانون ثاني ١٨٧٧ ، بينما كان عصيان 'البوسنة والهرسك والاضطرابات في جزيرة 'كريت' مستمرة[5].

---

[1] الكونت اندراسي: هو سياسي مجري شهير ، ولد سنة ١٨٢٣ ، تربى في مدرسة بودابست ، واشتغل بالسياسة ، وفي سنة ١٨٤٨ كان من أهم دعاة الثورة ، وساعد المسيو 'كسوت' على طلب الحرية ، والمحاربة للحصول عليها ، واثناء الثورة سافر الى استانبول للحصول على المساعدة كذلك فعل في إنجلترا ، وهناك وصله خبر الحكم عليه بالإعدام لكنه عاد فيما بعد ، بعد صدور العفو بحقه ١٨٥٩ ، حيث اشغل عدة مناصب هامة ، وتوفي سنة ١٨٩٠ - المحامي. *تاريخ* ، ص ٦١٠ .

[2] المصدر نفسه، ص ٦٠٤ .

[3] المصدر نفسه ، ص ٦١٥-٦١٦ .

[4] المصدر نفسه، ص ٦١٦-٦١٧ ؛ أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١٠١.

[5] أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١٠١.

واثناء انعقاد المؤتمر أطلقت المدافع من جميع القلاع ، والمراكب إيذانا بإعلان القانون الأساسي (الدستور) الذي ساوى بين جميع الرعايا في الدولة العثمانية ، الأمر الذي أثار ارتباكا لدى مبعوثي الدول، وكانت النتيجة النهائية لهذا المؤتمر هو الفشل ، حيث غادر مندوبي الدول العاصمة ، وبذلك أخذت 'روسيا' تستعد فعليا للحرب[١].في الوقت الذي شكل 'مدحت باشا' في الباب العالي مجلسا فوق العادة يتألف من ٢٤٠ شخصا ،٦٠ منهم مسيحيون ،دعا فيه الى الحرب وهاجم الذين لا يصوتون لها، واتهمهم بأنهم غير محبين لوطنهم ، بل واتهمهم بالخيانة، وقام فيما بعد بتوزيع النقود على طلاب المدارس الدينية، وقاد المظاهرات المطالبة بالحرب حتى قصر السلطان. ولم تكن الصحافة أقل تحريضا ،حيث طالبوا برفض مؤتمر الآستانة، وأي قرارات صدرت عنه[٢].

إعلان الحرب .

في ٢٤ نيسان ١٨٧٧ أرسل الى 'توفيق باشا' المكلف بمصالح الباب العالي لدى 'روسيا' كتابا من 'غورشاكوف' رئيس وزراء روسيا ، يقول فيه: ان الإمبراطور الروسي مضطر للاعتماد على القوة العسكرية لتنفيذ مطالب 'روسيا' والمحافظة على أمنها، ومن وقتها تعتبر 'روسيا' نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية، كما عمدت 'روسيا' إلى منح موظفيها جوازات السفر اللازمة كعلامة على قطع العلاقات الدبلوماسية بسبب الحرب [٣] .

كان الروس يأملون نصرا سريعا نظرا لما كان عليه الجيش العثماني من تجهيز سيئ ، وعدم كفاية التموين ، والخدمات الصحية[٤] ، لكن الحرب شهدت عدة جبهات ، كان اشهرها معركة 'بلفنة' [٥] حيث هزمت القوات الروسية هزيمة ساحقة في بداية المعارك حتى سقوطها ، كذلك جبهات 'الأناضول' ، حيث تمت محاصرة مدينة 'قارص' [٦] لمرتين، ومن ثم فتحها عنوة في ١٨ تشرين ثاني ١٨٧٧ ، وبسقوط مدينة 'قارص' الهامة أيقن 'الصرب' أن النصر حليف القوات الروسية ، لذلك أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية ، في نفس الوقت الذي استطاعت القوات الروسية محاصرة العاصمة 'إستانبول' [٧].

---

[١] المحامي . *تاريخ* ، ص ٦١٧ .

[٢] أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١٠٢-١٠٣.

[٣] المحامي . *تاريخ* ، ص ٦٢٧ ؛ أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١٠٦.

[٤] نور الدين حاطوم . *تاريخ القرن التاسع عشر في اوروبه والعالم* ، (ط ١ ، دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٥) ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ .

[٥] بلفنة . Plevne تقع اليوم في شمال بلاد بلغاريا بالقرب من الحدود الرومانية ، والى الشمال الشرقي من صوفيا .

[٦] قارص. Kars شمال شرق الأناضول .

[٧] أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١١٥ ؛ المحامي . *تاريخ* ، ص ٦٢٩ - ٦٤٠ .

هدنة أدرنة .

تركت الدولة العثمانية وحدها تواجه مصيرها ، ورأى السلطان 'عبد الحميد' أن إطالة أمد الحرب أمر لا طائل منه، لأنه سيجلب على الدولة الكوارث ، لذلك فقد طالبت الدولة العثمانية بعقد هدنة عسكرية في ١٩ كانون ثاني ١٨٧٨ [١] ، واشترطت 'روسيا' لعقد هذه الهدنة ان تشتمل على مبادئ أساسية منها استقلال 'الصرب' و'رومانيا' و'الجبل الأسود' ، وتنازل الدولة لهذه المناطق على بعض الأراضي، وتمنح 'بلغاريا' استقلالا ذاتيا، وجعل الإدارة في 'البوسنة والهرسك' مستقلة، وتقرير غرامة حربية تدفعها الدولة لروسيا ، فوافقت الدولة ،وعقدت الهدنة في ٣٠ كانون ثاني ، وعلى هذا الأساس وضعت الحرب أوزارها بعد قتال استمر تسعة اشهر [٢] .

معاهدة سان استيفانو[٣] آذار ١٨٧٨.

عقدت في ١٢ آذار ١٨٧٨ معاهدة 'سان استيفانو' كامتداد لهدنة 'أدرنة' ، وكانت هذه المعاهدة التي لم تطبق تتكون من ٢٩ بندا ، وذلك بعد عدة اجتماعات ، وأنذرت الدولة العثمانية ضرورة الموافقة على الشروط المعروضة ، قبل اليوم الثالث من شهر آذار ١٨٧٨ لأن هذا اليوم يوافق عيد القيصر الروسي ، والا فإن هدنة ادرنة تعتبر لاغية ، ويحتل الجيش الروسي العاصمة 'استانبول'[٤] .

كانت هذه التهديدات ملزمة للدولة العثمانية ، لذلك فقد وافقت على معاهدة 'سان استيفانو' ، وكان أهم بنودها ان توسع حدود 'بلغاريا' ، ومنحها الاستقلال ، كما منح الاستقلال لامارة 'الصرب' و'الجبل الأسود' مع زيادة مساحتهما ، وحصلت 'رومانيا' على الاستقلال وزيادة مساحتها هي الأخرى . كما وسعت روسيا مساحة أراضيها على حساب الأراضي العثمانية التي تحت يديها[٥] بالإضافة الى غرامة حربية مقدارها "١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠" روبل أي "٢٤٥,٢١٧,٣٩١" ليرة عثمانية[٦]. وتعتبر هذه المعاهدة من اكثر المعاهدات ضررا بالدولة العثمانية، كما تعتبر في القانون الدولي من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أملتها دولة منتصرة على دولة منهزمة. لقد كانت هزيمة الدولة هزيمة عسكرية لها خسائرها السياسية والمالية والمعنوية على الدولة العثمانية في علاقتها بالدول الأوروبية[٧].

---

[١] محمد علي . *السلطان* ، ص ١٣٥ .

[٢] الشناوي . *الدولة* ، ج ٢ ، ص ١٠٨٧ .

[٣] سان استيفانو . هي قرية صغيرة على بحر مرمرة تبعد ١٠ اميال عن استانبول .

[٤] المرجع نفسه، ص ١٠٩٠ .

[٥] أوزتونا. *تاريخ* ، ج٢، ص١٢١-١٢٢ ؛ محمد علي . *السلطان* ، ص ١٣٩ ؛ انظر – بيرى اندرسون . *دولة الشرق الاستبدادية* ، ترجمة، بديع عمر نظمي ، (ط ١ ، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٣)، ص ٦١ .

[٦] انظر بنود اتفاقية سان استيفانو في – المحامي . *تاريخ* ، ص ٦٥٢-٦٦٤ .

[٧] الشناوي . *الدولة* ، ج٢، ص ١٠٩١ .

مؤتمر برلين .

كانت 'إنجلترا' اكثر الدول تخوفا ورفضا لنتائج معاهدة 'سان استيفانو' ، لا حفاظا على سيادة الدولة العثمانية ، ووحدة أراضيها ، بل خوفا من أطماع 'روسيا' ، التي تزداد وتهدد نفوذ المستعمرات البريطانية في 'الهند'، لذلك رأت 'إنجلترا' ضرورة تعديل هذه المعاهدة رغما عن 'روسيا' ، لتظهر أمام الهنود بمظهر القوة والبأس ، ونفوذ الكلمة ، لا سيما وان سلطتها على بلاد 'الهند' مبنية على الوهم اكثر من قوة السلاح[1].

كما كانت الإمبراطورية النمساوية معارضة لمعاهدة 'سان استيفانو' لأنها لم تحقق لها رغبتها في ضم ولايتي 'البوسنة والهرسك'[2] في حين ظلت 'فرنسا' على الحياد[3]. لذلك تم التدخل الأوروبي وعلى رأسهم 'إنجلترا' لتعديل معاهدة 'سان استيفانو' وعدم إبقاء الاحداث محصورة بين القيصر والسلطان ، وقد رحب 'بسمارك' بذلك معلنا بأنه سيكون وسيطا أمينا ، لذلك دعا الدول الأوروبية لعقد المؤتمر المقترح في برلين ، الأمر الذي اغضب القيصر الروسي ،لأنه يعلم علم اليقين ان مؤتمرا كهذا يحتمل ان يجرد 'روسيا' من كثير مما حصلت عليه في معاهدة 'سان استيفانو' ، لكن 'إنجلترا' الغاضبة قامت بالتهديد بشن الحرب ضد 'روسيا' فيما لو رفضت عقد مؤتمر 'برلين' ، وقامت بمظاهرة للأسطول الإنجليزي في المياه العثمانية لاقناع 'روسيا' بالمساهمة في المؤتمر[4] .

أخيرا وافقت 'روسيا' على المشاركة في هذا المؤتمر ، حيث اجتمع في ١٣ حزيران ١٨٧٨ برئاسة 'بسمارك' ،فكان قبول الدول الكبرى للاجتماع في 'برلين' هو اعتراف ضمني بالمركز السياسي الممتاز الذي أصبحت تشغله 'ألمانيا' و على رأسها 'بسمارك' ، المتفوق على رجال السياسة المعاصرين له [5].

واستمر مؤتمر 'برلين' ٣١ يوما، وصيغت قراراته في ٦٤ مادة ، كان أهم بنود هذه القرارات التي وقعت يوم ٣١ تموز ١٨٧٨ ما يلي :-

١- أعيدت 'مكدونية' الى الدولة العثمانية بعد ان ضمت الى 'بلغاريا في معاهدة 'سان استيفانو' .

٢- قسمت 'بلغاريا' الى قسمين ، القسم الشمالي (بلغاريا الأصلية) وجعلها أمارة ذات استقلال ذاتي على ان تدفع ضريبة سنوية للباب العالي . أما القسم الجنوبي ، فقد جعلت إمارة مستقلة تحت اسم 'الروملي الشرقية' على ان يكون حاكمها مسيحيا تحت سيادة الباب العالي .

٣- ضمت 'البوسنة والهرسك' و'ينى بازار' الى 'النمسا' .

---

[1] المحامي . *تاريخ* ، ص ٦٦٥ .

[2] الشناوي . *الدولة* ، ج ٢ ، ص ١٠٩٦-١٠٩٩ .

[3] المحامي . *تاريخ* ، ص ٦٦٠ .

[4] هيز . *التاريخ* ، ص ٤٠٣ .

[5] أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١٢١-١٢٣ ؛ الشناوي . *الدولة* ،ج٢ ،ص١١٠٠.

٤- منحت 'رومانيا' و'الصرب' و'الجبل الأسود' الاستقلال .

٥- نصت المعاهدة على إجراء الإصلاحات في المنطقة الشرقية من 'الأناضول' التي كـــانت تسـكنها الأقلية الأرمنية .

٦- خفضت الغرامات الحربية المفروضة على الدولة العثمانية الى ٨٠٢,٥٠٠,٠٠٠ فرنـــك علـــى ان تدفع على أقساط ، وكل قسط بمقدار ٣٥٠,٠٠٠ ، وفيما بعذ نجح السلطان 'عبد الحميد' في تجميـد العديد من بنود هذه المعاهدة[١]ولقد عقب 'غورشاكوف' بأن 'روسيا' خسرت مائـــة ألـــف جنـــدي، ومليون روبل، دون أي مقابل[٢].

كان لهذه الحرب الآثار الكبيرة على جميع الأصعدة سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اقتصاديـــة أو اجتماعية ، أثرت على كثير من القرارات الداخلية والخارجية للدولة العثمانية فيما بعد. كما كان لـــهذه الحرب آثارها على المستوى الدولي بالنسبة لموقفها من الدولة العثمانية ،حيث انتهجت هذه الدول 'سياســة التعويض' (Compensation Policy) ، و'سياسة المصالحة' (Conciliation Policy) ،على حســاب الدولة العثمانية في مؤتمر 'برلين' عام ١٨٧٨، حيث بسطت 'إنجلترا' سيطرتها على 'قـــبرص' وبســطت 'فرنسا' حمايتها على 'تونس' سنة ١٨٨١، واحتلت 'إنجلترا' 'مصر' عام ١٨٨٢، ومن ثم إقامة حكم ثـــنائي (Condominium) بريطاني مصري في 'السودان' عام ١٨٩٩، وكان هذا الحكم فـــي لحمتـــه يعتـــبر إستئثارا بريطانيا بحكم 'السودان'[٣] .

الحرب اليونانية العثمانية ١٨٩٧ .

كانت هذه الحرب هي الثانية في عهد السلطان 'عبد الحميد' ، وكان من أسباب هـــذه الحـــرب ان جزيرة 'كريت' كانت قد حصلت على بعض الامتيازات الخاصة ، بحيث اصبح نصف عدد المتصرفيـــن و القائمقاميين من المسيحيين ، كما كان للوالي معاونان ، واحد مسلم وآخر مسيحي ، وكان لها مجلـس إدارة يشكل المسيحيون فيه الأكثرية ، لذا فان المشاكل بين الوالي وهذا المجلس لا تكاد تنتهي حتى تبـــدأ مـــن جديد[٤] .

بدأت القلاقل في هذه الجزيرة بعد أن طالب مسيحيوها ان يتولى مسيحي ولاية الجزيـــرة ، ولمـــا استجاب السلطان ثار المسلمون على هذا التعيين ، وبدأت الصدامات ، حيـــث تدخلـــت 'اليونـــان' بـــإمداد مسيحيي الجزيرة بالعدة والعتاد والرجال ، بل تعدى الأمر الى إرسال أســـطولها، وانـــزال جنودهـــا فـــي

---

(١) محمد علي. *السلطان*، ص١٤٢-١٤٤؛ أنظربنود معاهدة برلين في - المحامي. *تاريخ*، ص٦٩٦-٦٩٩.

(٢) باتريك. *سلاطين*، ص٩٠٣

(٣) الشناوي . *الدولة* ،ج٢ ،ص٩٥٨-٩٥٩.

(٤) محمد علي. *السلطان*، ص٢٢٠.

الجزيرة حيث أراقوا دماء المسلمين ، معربة عن تحديها للدولة العثمانية والدول الأوروبية التـــي طـــالبت 'اليونان' بسحب جيوشها خلال ستة أيام مؤكدة لها عدم رغبة أوروبا في ضم الجزيرة الى 'اليونان'[١] .

لم تكتف 'اليونان' بالتدخل في الجزيرة ، بل بدأت بالهجوم على حدود الدولة العثمانية ، وفي يـــوم الجمعة ٩ نيسان ١٨٩٧ بدأ الجيش اليوناني بتدمير بعض المخافر العثمانية ، وتكرر الهجوم واســـتخدمت اليونان مدافعها ، واحتلت جميع المخافر العثمانية على الحدود ، في الوقت نفسه الذي كان السلطان 'عبــد الحميد' يراقب بشدة ما يجري بهدوء وصبر ويترك 'اليونان' للانقياد اكثر الى ابعد قـــدر ممكـــن ، وكـــان يخبر الدول الأوروبية بما يجري ،ويعلمها أولا بأول عن مجريات الاحداث حتى يعزل 'اليونان' ويظـــهرها بمظهر المعتدي على أراضي الغير[٢] .

وعلى الأثر قام السلطان 'عبد الحميد' بجمع وزرائه ، وحضر هو على رأســـهم ، وســـأل نـــاظر الحربية عما تحتاجه الحرب من اموال، وطلب من وزير المالية افتتاح اعتمادا بنصف مليون من خزينتـــه الخاصة ، ثم أعلن الحرب رسميا على 'اليونان'[٣]بعد أن كان واثقا من النصر السريع عليهم ، بناء علـــى التقديرات ، لا سيما تقديرات ناظر الحربية[٤].

لقد استطاعت القوات العسكرية العثمانية إنزال الهزيمة الساحقة بالجيوش اليونانية، المتحصنة فـــي المواقع العسكرية الجبلية، التي كانت 'اليونان' تعتمد عليها[٥]. وبذلك انفتحت الطريق أمام العاصمة أثينـــا، وعلى الأثر طلبت 'اليونان' مساعدة الدول الأوروبية للضغط على الدولة العثمانية لوقـــف الحـــرب، ولقـــد استجابت هذه الدول حيث أنذرت السلطان 'عبد الحميد' ضرورة إيقاف الحرب مؤكدة على المبـــدأ القـــائل "أنه حيث يدخل الصليب لا يدخل الهلال"[٦].

استجابت الدولة العثمانية لهذه الضغوط، وعقدت الاجتماعات ،حتى تم التوصل الى تســـوية أهـــم بنودها:-

١- ان يعطى قسم من منطقة 'تساليا'[٧] للدولة العثمانية حيث كانت الدولة قد سيطرت عليـــها خـــلال الحرب.

٢- ان تدفع 'اليونان' أربعة ملايين ليرة للدولة العثمانية كتعويضات حرب ، الأمـــر الـــذي أدى الـــى إفلاس 'اليونان' ووضع ماليتها تحت إشراف دولي .

٣- ان تقدم 'اليونان' مائة ألف ليرة ذهبية للمتضررين من رعايا الدولة العثمانية أثناء الحرب .

---

[١] محمد علي، *السلطان*، ص٢٢٠-٢٢١.

[٢] المرجع نفسه ، ص٢٢١.

[٣] النمر . *نظرات*، ص١٩١.

[٤] محمد علي، *السلطان*، ص٢٢٢.

[٥] المرجع والصفحة نفسهما.

[٦] النمر . نظرات، ص ١٩٢.

[٧] تساليا : يقع هذا الإقليم في وسط اليونان الى الجنوب الغربي من سلانيك .

٤- ان تنهى 'اليونان' إعمال العصابات على الحدود[1]

وتعتبر هذه الشروط لصالح 'اليونان' المهزومة ، وذلك للتعاطف الذي كانت تبديه أوروبا معها ، والتي بذلك التصرف حرمت الدولة العثمانية من جني ثمار نصرها ، إذ طبقت أوروبا مع الدولة العثمانية المقولة المشهورة: " إذا هزمت الدولة العثمانية أخذ منها الشيء الكثير ، وأما إذا انتصرت فلا تأخذ شيئا "[2]. لكن انتصار القوات العثمانية في هذه الحرب كانت له نتائج منها:

١- قدرة الدولة على الردع العسكري لأي اعتداء أوروبي خارجي على أراضيها بعد هزيمتها في الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧.

٢- تخفيف الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية كون هذه الحرب الأخيرة كانت مفاجئة من حيث النتائج. ومدى قدرة الرجل المريض على الدفاع عن نفسه.

٣- إعادة الثقة والاعتزاز بالنفس بالنسبة لشعوب الدولة العثمانية وقدرتها على مواجهة التحديات.

٤- أدت هذه الحرب إلى إضعاف الأحزاب والجمعيات العثمانية المعارضة، التي كانت تدعي أن السلطان 'عبد الحميد' أوصل الدولة والجيش إلى حالة من الانهيار، بحيث لا تستطيع القيام بواجب الدفاع عن نفسها.

ويمكن إيجاز نتائج حروب الدولة العثمانية بما يلي :

١- إن ضعف الدولة العثمانية أدى بها إلى العديد من الهزائم التي أثرت على سياستها المالية بسبب الديون التي رصدت لسد نفقات الحرب ، وبالتالي إلى إعتماد الدولة على القروض ، مما أدى إلى زيادة وتوسع الإمتيازات الأجنبية داخل الدولة العثمانية.

٢- أدت الحروب إلى لجوء الدولة العثمانية إلى زيادة الضرائب على المواطنين، إلى جانب الضرائب الأخرى التي يؤدونها إلى الدولة، كذلك اقتطاع أجزاء من مرتبات الموظفين، وهذا أدى إلى زيادة الأعباء المالية للمواطنين، مما أدى إلى ظهور معارضة تحمل السلطان مسؤولية تدني مستوى معيشتهم.

٣- انسلاخ العديد من الولايات والمقاطعات الأوروبية عن الدولة العثمانية كنتيجة من نتائج الحروب والمعاهدات، أو بسبب تمردها وإعلان استقلالها استغلالا لدخول الدولة العثمانية في هذا الحروب.

٤- زيادة تفعيل المسألة الشرقية من قبل أوروبا خصوصا بعد الحرب مع روسيا كونها أوضحت مدى الضعف العسكري والاقتصادي للدولة العثمانية .

---

[1] النمر. *نظرات* ،ص١٩٢ ؛ أوزتونا. *تاريخ*، ج٢، ص١٣٨-١٣٩ ؛ محمد علي. *السلطان* ، ص ٢٢٣ .

[2] محمد علي. *السلطان* ، ص ٢٢٣ .

٥- تغير سياسة القصر تجاه العديد من القضايا ، وخصوصا مسائل الامتيازات والأقليات والعلاقات الدولية.

٦- أجبرت هذه الحروب الدولة العثمانية - في كثير من الأحيان - على إدخال إصلاحات هي في الغالب غير مخطط لها وغير مرغوب فيها من قبل الدول الأوروبية. س